

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٦

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

فوقبوي
قصة القيمة
كريات شتاء
مشاعر صيف
التمساح



0098633



Bibliotheca Alexandrina





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد السادس

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. ساي الدروي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ٣٧ ٥٥ / ١٤ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

- في قبوى
- قصّة أئمة
- ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
- التمساح

جميع الحقوق محفوظة

تقديم

يضم هذا المجلد السادس من أعمال دوستوفسكى الادبية الكاملة اربعة أعمال هي «فى قبوى» ، «قصة أليمة» ، «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف» و «التمساح» .

فى قبوى*

١٨٦٤

يقول الكسندر سولوفييف عن هذا العمل من أعمال دوستوفسكى: « ان هذا الكتاب الغريب هو من أعمق آثار دوستوفسكى ، ان لم يكن أكملها على الاطلاق من ناحية الشكل » ، فاما أن الكتاب غريب فان الشعور بالغربة هو ما تمتلئ به نفس القارىء أثناء قراءته ، اذ يحس انه ازاء لون من ألوان الكتابة والتعبير لا عهد له بمثلها من قبل ، لا فى أعمال دوستوفسكى التى سبقته ولا فى أعماله التى ستعقبه ، ولا فيما قرأ من أدب سبق دوستوفسكى . وربما أحس القارىء فى بعض ما يقرأ من أدب حديث ببعض ما يحسه عند قراءة هذا الكتاب من الشعور بالغربة ، ولا عجب والحالة هذه أن نرى مدارس أدبية معاصرة كثيرة تدعى أبوة دوستوفسكى لها أو بنوتها لدوستوفسكى ، كما نرى مدارس فكرية تنمى نفسها اليه وكما نرى مذاهب علمية ونظريات سيكولوجية تصل أسبابها بأسبابه ، وذلك كله ما حمل كثيرا من الكتاب والمفكرين والنقاد الذين تعاقبوا بعد دوستوفسكى على أن يعدوه « معاصرا » فى كل وقت .

وأما عن العمق الذى يشير اليه سولوفييف فليس ينفرد به هذا المؤلف من مؤلفات دوستوفسكى . ان العمق ، العمق النفسى والعمق الفكرى ، هو ما تتميز به أعمال دوستوفسكى جملة ، وان كانت هذه الاعمال متفاوتة فى قيمتها سواء من ناحية العمق أو من ناحية كمال البناء الفنى .

وأما ان هذا الكتاب ربما كان أكمل أعمال دوستوفسكى على

الاطلاق من ناحية الشكل ، أى من ناحية الصياغة والبناء والأداء ، فهذا رأى للاستاذ سولوفييف قد يؤيده بعضهم وقد يرفضه بعضهم ، ولكن مما لا شك فيه أن كل من قرا أعمال دوستويفسكى الادبية الكبرى ، مثل «الاخوة كارامازوف» و «الجريمة والعقاب» ، و «الأهبل» و «الجن» وغيرها قد تبلى نفسه من الامتلاء بالشعور بالكمال الشكلى فى تلك الاعمال الى الحد الذى يتساهل معه : فما الذى يعوز «الاخوة كارامازوف» مثلا من كمال البناء ؟

ومهما يكن من أمر فقد كتب دوستويفسكى هذا الكتاب (فى قبوى) متعجلا كل التعجل ، فى فترة قاتمة مظلمة من فترات حياته قضى أكثرها بمدينة «تفير» ساهرا على زوجته المحترمة .

وقد ظهر القسم الاول من هذا الكتاب فى مجلة «العصر» ، عدد كانون الثانى (يناير) ١٨٦٤ ؛ وفى ٢٠ آذار (مارس) كتب دوستويفسكى الى أخيه ميشيل قائلا ان صياغة هذا النص أصعب مما كان يتخيل . ولكنه أضاف الى ذلك قائلا ان القصة جيدة حتما ، وان العنصر الشعرى فيها لابد أن يطف سائرهما وأن ينقذه . وفى ١٢ نيسان (أبريل) كتب الى أخيه من مدينة تفير يقول ان القصة تكتسب أبعادا لم يكن يتوقعها . وماتت زوجته فى ١٥ نيسان (أبريل) فانقطع عن الكتابة ، ثم استأنف العمل فى أواخر ذلك الشهر نفسه بسان بطرسبرج ، فكان من الممكن أن يظهر القسم الثانى من النص فى عدد نيسان (أبريل) من المجلة ، ولكن ذلك العدد نفسه صدر متأخرا جدا ، فلم يظهر القسم الثانى من هذا العمل الا فى آخر شهر ايار (مايو) .

يعرض علينا دوستويفسكى فى هذه القصة ، ان صح أن يوصف هذا الكتاب بأنه قصة ، يعرض علينا شخصية سلبية ، انسانا يزخر قلبه مرارة ، ويفيض احتقارا للناس ولنفسه . ويصفه دوستويفسكى بأنه واحد من مثلى جيل يمضى وينقضى . والحق أن بطل القصة أشبه بحالم رومانسى تبسدت أوهامه وزالت عن عينيه الغشاوة وتحرر من الفتنة والسحر : انه صورة كاريكاتورية لبطل الشاعر بايرون . غير أن فى شخصية هذه القصة أكثر من ذلك: ان نزعة البطل الفردية الجامحة تذكرنا بكيركجارد ونييتشه ، فنحن هنا نتصل بتيار بأسره من الفكر الأوروبى التشاؤمى الذى عرفه القرن التاسع عشر . على أن البطل حين ينبرى

بحماسة وحرارة لمهاجمة نظريات المنفعة والنظريات المادية التي راجت في زمانه رواجاً كبيراً ، انما ينطق بلسان دوستوفسكى نفسه .

فاما القسم الاول من الكتاب فليس الا نوعاً من حديث الانسان مع نفسه ، او هو نوع من الاعتراف . هكذا يعرف البطل بنفسه قائلاً : «أنا رجل مريض . أنا انسان خبيث . لست أملك شيئاً مما يجذب أو يفتن» . ان البطل موظف متقاعد يعيش في عزلة كاملة مطلقة . وهو يحس بأنه مصاب بمرض فرط الادراك أو الوعي أو الشعور ، فهو مسرف في تأمل ذاته وتحليل مشاعره والنظر الى باطنه ، وهو لعجزه عن العمل يعادى من يعملون ، وهو يحس ، على وجه العموم ، بأنه أذكى من الناس الذين يلقاهم أو يختلف اليهم ، لكنه لصحو ذهنه يشبه نفسه بقارة مفرطة في الوعي تنسحب في أكثر الاحيان الى جحرها وتعتصم به . وان حقاً شديداً ثابتاً يسكن نفس هذا الانسان . انه يرى أن الانسان القعال يفعل أو يتوقف عن الفعل متى اصطلم بالمستحيل ، أو بما يسميه البطل «جداراً من حجر» . فما هو هذا الجدار ؟ هو قوانين العلم ، القوانين التي تجربنا على أن نسلم بأن « $2 \times 2 = 4$ » ، وأن نستخرج كل النتائج التي تترتب على هذا الواقع . ولكن البطل لا يقبل هذا الواقع بل يرفضه . ان هذا الواقع لا يحلو له ولا يرضيه . انه يؤثر حرية الشعور على هذه القوانين ، بل ويؤثرها على راحته ، ولا يعلم أن يجد شيئاً من لذة في شعوره بسوته وخيبته وكسله .

ويتمرد البطل على مذاهب المنفعة والمذاهب المادية ، ويسفهاها . فهو يرى أن من الغباء والبلاهة أن يظن أن الانسان لا يجترح الشر الا لانه يجهل مصلحته الحقيقية ، وأن الانسان المتنور انما يرى في الخير منفعته ، فلا بد أن يفعل الخير حتماً . ولا يصعب على البطل أن يبين أن البشر ، في كثير من الظروف ، يهملون منفعتهم الحقيقية ، ويسرون في طريق تناقض مصلحتهم ، وهى طريق تكون في كثير من الاحيان شاقة عسيرة ، فضلاً عن أنها باطلة مستحيلة ، حتى لقد يؤثرون الاضرار التي تنشأ عن سيرهم في هذه الطريق ، لان حماقتهم عجيبة شاذة لا حدود لها . وهب العلم استطاع يوماً أن يبدل المجتمع وأن ينظم الاعمال الانسانية على قواعد محسوبة ، وأن ينشئ حكماً عاقلة ، فسيظل يوجد انسان يهتف قائلاً : ألا فلنقلب هذه الحكمة كلها بركلة من أرجلنا أيها السادة ! ألا فلنرسل

الى الشيطان جميع هذه اللوغارتمات لنحيا بعد ذلك على ما يشاء لنا هوانا • وسيجد هذا الانسان بشرا يقلدونه • ذلك أن حرية الانسان في التصرف بنفسه هي ما يحتاج اليه الانسان ، مهما يكن هذا الاستقلال باهظ التكليف ا

هكذا نرى أن دوستوفسكي يعالج هنا مشكلة خطيرة ماتنك تلاحقه وتحاصر فكره : مشكلة ارادة الاستقلال ، مشكلة هذا الظأ الشديد الى الاستقلال ، وهو ظأ يؤدي بالافراد في أكثر الاحيان الى طريق الشر أكثر مما يؤدي بهم الى طريق الخير ، ويوشك أن يكون تمردا على قوانين الخليفة نفسها • ولكن بطل «القبو» يرى في هذه الارادة نفسها ماهية الشخصية الانسانية • فالانسان مخلوق غريب الاطوار عامة الى أقصى حد ، حتى ليكن أن يعرف بأنه الحيوان الذي يتميز بالعقوق خاصة • فهو اذا وصل الى السعادة لا يلبث أن يندفع في شذوذ ما ، فاذا هو يدمر نفسه بنفسه ، واذا هو يهوى الى قاع العذاب لا لهدف الا أن تكون له الكلمة الاخيرة وأن يكون له القول الفصل ، وأن يبرهن لنفسه على أنه انسان ، لا «مسمار في آلة » • ويترتب على ذلك أن المخلوق الانساني لن يتنازل يوما عن الالم ، ولن يعدل يوما عن العذاب ، لان الالم والعذاب أساس وعيه ومصدر شعوره • هذا ما يؤمن به ذلك المفكر المعتزل «في قبوه» ، معبرا عن أعقق التشاؤم ، ساخراً من « قصر الكريستال » الذي يرمز الى « الجمهورية السعيدة » ، مؤثرا أن يعيش في تلك العطالة الواعية الشاعرة ، في ذلك القبو النفسي الذي يتخبط فيه ، والذي يحرص فيه على أن يظل وحيداً ، وان كان يشعر بحاجة الى من يحدثهم ويخاطبهم بخياله عازضاً عليهم ما يعن له من أفكار ، وما يدور في رأسه من خواطر مستسرة خفية •

واذا كان هذا القسم الاول من الكتاب يشبه أن يكون بحثاً سيكولوجياً وفلسفياً ، فإن القسم الثاني يعرض علينا شخصاً حياً كان لها أثر في حياة البطل • ان الجزء الثاني هو اعتراف أيضاً ، ولكن في صورة أخرى • ولعله يفوق في صدقه اعترافات روسو ، كما يقول سولوفيف : ان صاحب هذا الاعتراف لا يراعي نفسه في شيء ، فهو يعرى ذاته ويكشف عن حقايقه • فاذا قرأت ما يقوله عن نفسه تذكرت كلمة باسكال الذي يقول ان القلب الانساني «ملء بالقاذورات» •

ان البطل يستحضر في القسم الثاني ذكريات أحداث وقعت له حين كان

فى الرابعة والعشرين من عمره . لقد كان منذ ذلك الحين كثير الصمت متجهم الطبع يتحاشى الناس ولا يخالط زملاءه فى المكتب الا قليلا ، وكان يكره زملاءه هؤلاء أو يحتقرهم ، رغم أنه ينزلهم فى منزلة فوق منزلته . وكانت حياته تتقلب بين تعاطى المجون تارة والاسترسال فى الاحلام تارة أخرى ، منتقلا من النقيض الى النقيض دفعة واحدة ، فهو اما بطل واما مخلوق شقى، ولا وسط بين هذين الطرفين الأقصيين . وفى ذات صباح يزور رفيقا قديما من رفاقه فى المدرسة اسمه سيمونوف ، فيجد عنده رفيقين قديمين كانا يتحاشيانه . وكان الثلاثة يتناقشون فى مشروع حفلة عشاء يقيمونها وداعا لرفيقهم الرابع الضابط زفركوف . واستطاع البطل أن يحشر نفسه فى هذه الدعوة ، وارضى أن يدفع نصيبه من تكاليفها رغم فقره . ولكن المادبة لم تكن الا اذلالا له يستمر ساعات طويلة : استغرب زفركوف حضوره ، وطقق الجميع يتكلمون فى صخب شديد ناسين وجوده، فهم لا يخاطبونه بكلمة واحدة ، ويفضّب البطل فيحمل الكأس محاولا أن يشرب نخب زفركوف مع شيء من الاساءة اليه فيأبى زفركوف أن يبالى حتى بهذه الوقاحة تصدر عنه . ويذهب المولون بعد المادبة الى بيت من بيوت الدعارة . وصاحبنا لا يملك المال فهو اذن لا يستطيع أن يتبعهم ، ولكنه يحرص على أن يتبعهم فيقترض مالا من سيمونوف ويهرع مقتنيا أثرهم آملا أن يجثوا على ركبتهم امامه التماسا لصادقته ، أو أن يصفع زفركوف . وتتناهبه عواطف متناقضة ومشاعر متضاربة . حتى اذا وصل الى «هناك» ، كان صحبه قد انصرفوا . فاذا هو وحيد . وهذه امرأة تظهر . وهذا هو ينظر الى نفسه فى المرأة ، فى وجهه مشعنا منفرا ، فيقول مخاطبا نفسه : سيان . . . بل ان ذلك ليسعدنى . . . نعم انه ليسعدنى أن أبدو لها منفرا كريها . هذه متعة لى .

وفى الفجر يأخذ يسائلها ، فيحدثها بلذّة سادية عن الدفن الذى ينتظر المومسات ، والامراض التى تتربص بهن ، والحصير الحزين الذى يرقبهن . ويطرى الحياة العائلية والحب الزوجى ، ليبرز بذلك مزيدا من الابرار حقارة الحماة التى سقطت فيها هذه المرأة التى ضاجعها . وهما هو ذا يتحمس وينتشى بأقواله ، والمرأة تلزم الصمت زمنا طويلا ثم اذا هى ازاء هذه البلاغة كلها تجهش باكية على حين فجأة ، وتغرق فى دموعها . وتمد اليه بعد ذلك رسالة حب بعث بها اليها طالب يعجّل وضعها . ان ليزا تريد أن تترك هذا المكان وأن تعود الى حياة شريفة . .

وما ان يرجع بطل تلك الليلة الشقية الى بيته حتى يكون قد ندم على ما استرسل فيه من عاطفية رخوة . فهو يخشى أن تجيء اليه ليزا تنشد عونه بعد أن تسرع فأعطاها عنوانه . انه لم يشأ الا أن يقلد ذلك الشخص الذى تحدث عنه شعر نكراسوف ، ذلك الشخص الراغب فى انقاذ فتاة ضائعة . ولكن صاحبنا يشعر بأنه عاجز عن القيام بدور الاحسان هذا . فلما وصلت الفتاة المسكينة الى منزله ، انتابته نوبة عصبية وأخذ يلقي عليها خطابا فيه اساءة وإهانة ، ويذكر لها أنه لم يشأ فى الليلة السابقة الا أن يذلها لأن كان هو نفسه انسانا مذلا ، وأنه لم تساوره أية رغبة صادقة فى انقاذها ، وانما هو أراد أن يمارس سلطته ويجرب قوته فى لحظة تمسلية ، ثم هو يقر لها أخيرا بدناءته ، ويعترف بأنه ليس الا مخلوقا شقيا . انه يريد أن يكره ليزا ، وأن يطردها . ولكن ليزا تدرك ما لا تستطيع أن تدركه الا امرأة حين تحب فعلا : لقد أدركت ليزا أن أمامها رجلا تيميسا ، فتبقي الى جانبه ، ولكنه هو عاجز عن الندم ، عاجز عن الحب . وهو لا يجد عناء فى الاعتراف بذلك . انه يخاف من الحب خوفا من «الحياة الحية» ، وانه ليؤثر الاعتزال فى قبوه . وتتركه ليزا أخيرا ، ويحاول البطل أن يلحق بها ضارعا اليها أن تغفر له ، ولكنه لا يستطيع أن يدركها . والتلج يهطل فى الخارج . ويعود البطل الى بيته مثقل القلب بالندم ، مثقل الضجر بالعذاب . ولكنه ما يلبث أن يهدأ حين يتصور أن الإهانة التى لحقها بليزا ستتحسن اليها كثيرا ، لان الالم يطهر النفس ويسمو بالروح ، ومن الخير أن تحمل ليزا معها هذه الإهانة الاليمة الى الأبد .

ان دوستويفسكى يستهزئ هنا بأحلام شبابه . هو يسخر من شعر نكراسوف الذى استشهد به بكثير من الحماسة فى روايته « قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها » . وهو يسخر من كل نظرية نفعية فى اقامة الأخلاق ، وهو يدين الفكرة القائلة بالانانية الصائفة أساسا لقيام مجتمع سليم ، بل هو يرى أن بناء مجتمع كامل على أساس مبادئ منطقية أمر مستحيل ، لان الطبيعة الانسانية تعارض ذلك ، ولا شئ يغلب هذه الطبيعة الانسانية الا الايمان .

الايمان : هذه هى النتيجة التى أراد دوستويفسكى أن ينتهى اليها مقيضا فى الكلام عليها . ولكن الرقابة لم تنتج له ذلك . وذلك ما يشتكى

منه في رسالة بعث بها الى أخيه ميشيل: «ربما كان الاستغناء عن نشر الفصل السابق على الاخير برمته (وهو أهم الفصول لأنه يتضمن الفكرة الرئيسية) خيرا من عرضه على هذا النحو جملا مفككة متناقضة ! ان هؤلاء الرقباء الخنازير قد أجازروا نشر الفقرات التي استهزئ فيها بكل شيء حتى لقد يشتمل ظاهرها على زندقة وتجديف ، فلما انتهيت من كل ذلك الى ضرورة الايمان بالمسيح أوقفوني عن الكلام ! » • ان دوستويفسكى يشير هنا الى الفصل الخامس من القسم الثاني ، وهو فصل لا يتألف في الواقع الا من نحو صفحتين ، ومن المؤسف أن الفصل في نصه الاصل قد ضاع ولم يصل الينا منه شيء ، لان دوستويفسكى لم ينشره في الطبقات التالية بعد أن أصبح في امكانه أن يفعل ذلك • لعل دوستويفسكى قد قدر أن عليه أن يشرح ، بمزيد من العمق والافاضة ، الازمة الروحية التي يعانيها انسان القبو هذا ، وأن يجسد فيه فجر توبة وبشارة انبعاث • وذلك ما سيفعله الكاتب في روايته « الجريمة والعقاب » التي نرى بطلها انسانا معترلا كذلك ، يحسب نفسه من زهوه وصلفه أنه مختلف عن سائر الناس ، ويلتقي بموسم يفيض قلبها حبا وتضحية وتقانيا •

ان مؤلفات دوستويفسكى ، رغم تنوعها الظاهر ، يربط بعضها ببعض خيط لا يكاد يرى •

قصة اليمة

١٨٦٢

ظهرت هذه القصة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٦٢ : وهي تهكم لاذع على البيروقراطية الروسية. أثناء الاصلاحات الكبرى في عهد الكسندر الثاني • لقد وجد في ذلك الزمان جيل من رجال جدد ، رجال مثاليين يدعون الى الاصلاحات الليبرالية صادقين • ولكن دوستويفسكى يصف لنا في هذه القصة ، بتهكم لاذع ، التمزق المضحك الذي يعتمل في نفوس أمثال هؤلاء الرجال ، ويكشف عن النقص في عزية البيروقراطيين الذين ينتمون الى هذا النظام الجسديد ، ويتخذ دوستويفسكى من الموظف الكبير ، « الجنرال المدني » ، برالنسكى ،

نموذجاً لهؤلاء . ان برالنسكى رجل طموح يتحمس لتيسار النهضة الاجتماعية الذى كان يهز نفوس الناس فى ذلك العصر ، فهو يعد نفسه لبراليا ، وهو يتكلم بفصاحة وبلاغة عن الآراء الجديدة ، وهو يدعو الى النزعة الانسانية ، وهو ينادى بحسن معاملة المروسين ، قائلاً لزميليه اللذين جرى بينه وبينهما الحديث فى منزل أحدهما : اذا كنت أنا انسانا فسوف يؤمن بى الناس ويصدقوننى ، فاذا آمنوا بى وصدقونى وثقوا بالاصلاحات التى أنادى بها وأدعو اليها ، ومن شأن هذا كله أن يحمل جميع الناس أخيراً على أن يتحابوا ويتعانقوا . ولكن هذه الآراء لا تلقى صدى عند زميليه العجوزين « الرجعيين » . ويترك برالنسكى السهرة مساء بعد أن أسرف فى شرب الشمبانيا . وعندئذ تقع له « القصة الأليمة » : انه لم يجد حوذى عربته على الباب ، فاضطر أن يعود سيرا على قدميه ، وهاهو ذا يسمع موسيقى صادرة من أحد المنازل ، فيسال شرطيا عن هذه الموسيقى ، فيعلم من الشرطى أن موظفا صغيرا اسمه بسلدونيموف يزف الى عروسه . ويتذكر برالنسكى أن هذا الاسم العجيب هو اسم أحد مروسيه ، فاذا هو يقرر ، بتأثير الشمبانيا ، أن يدخل منزل بسلدونيموف ، وأن يشارك فى الاحتفال بزفاف مروسه ، لأن ذلك سيكون بادرة كريمة نبيلة من جانبه تدل على تواضعه وبساطته ، وتجي برهانا على « نزعة الانسانية » ، وتجلب له سمعة طيبة فيقول عنه الناس انه قاس من حيث هو رئيس ، ولكنه ملاك من حيث هو انسان ويتردد برالنسكى قليلا ، ولكنه مايلبت أن يدخل . اثار دخوله ذهولا عاما شاملا فى أول الأمر . ثم اجلس فى مكان الشرف ، حتى لقد قدمت اليه شمبانيا . ولكن العريس لا يبدو عليه الارتياح والسرور . وها هي ذى البادرة النبيلة التى اراد لها برالنسكى أن تكون دليلا على كرم نفسه ، هاهي ذى تنتهى الى عاقبة وخيمة : لقد أسرف فى الشراب ، فأخذ يتلثم لسانه فى الكلام على النزعة الانسانية ، واخذ الشباب من الحضور يتهمون عليه ويستهزئون به ، حتى ليتجرأ عليه « صحفى » فيصرخ فى وجهه واصفا اياه بأنه « رجعى » . فيشعر هذا الرئيس اللبرالى الذى اراد أن يبرهن على تواضعه وأن يشد أزر العريسين وأن يثبت العزيمة فى نفسيهما ، بشعر بأنه أصبح هزاة واضحوكة ، وأنه أذل ، وأن شأنه قد هان فى نظر الحضور . وها هو ذا يسقط مغشيا عليه من فرط السكر لأنه لم يالف أن يسرف هذا الاسراف فى الشراب يوما من الأيام .

ويرقد الموظف الكبير على سرير الزفاف لاستحالة نقله الى منزله ، وتعتنى به أم بسلدونيموف ، المرأة الروسية الطيبة التى يصصفها دوستويفسكى وصفا فيه كثير من التعاطف والمودة • ويقضى برانسكى ليلة من عذاب ، ثم يمضى فى الصباح الى مسكنه وهو أشبه بخرقة بالية ، فيمكث فيه أسبوعا كاملا لا يجرؤ أن يبارحه من شدة شعوره بالخزي والعار ، حتى لقد فكر فى الاستقالة من منصبه والاعتصام بدير من الأديرة راهبا منقطعا عن الحياة •• ومع ذلك يعود الى مكتبه فى نهاية الأسبوع ، فيجد الأمور تجرى فيه مجراها العادى المألوف ، ويسره أن يعرف هنالك أن بسلدونيموف يريد أن ينتقل الى دائرة أخرى • وتنتهى القصة بتحکم لاذع : فحين يعلم برانسكى بقرار مرموسه المسكين ، لا يخطر بباله لا أن يعتذر اليه ولا أن يصلح له ما أفسده من أمره ، بل يقتصر على أن يأمر بأبلاغه « أنه لا يريد به شرا ، وأنه مستعد لنسيان كل شيء » • ويهدأ باله وتسكن نفسه ويطمئن روعه حين يقول لنفسه : لا شيء ينفع الا الشدة ، الا الشدة •

ان لبراليتيه لم تكن الا نزوة عابرة ، وبدوة طارئة ، وهيهات أن تصمد نزوة أو بدوة حين تصطدم بالواقع •

ذكريات شتاء عن مشاعر صيف

١٨٦٣

فى شهر حزيران (يونية) سنة ١٨٦٢ قام دوستويفسكى بأول رحلة له الى الخارج ليستريح من عمله المرهق محررا لمجلة « الزمان » • فمر بالمانيا ووصل الى باريس فلم يمكث فيها الا عشرة أيام ثم سافر الى لندن ، فلبث بها أسبوعين ، وهنالك تعرف بالفوضوى باكونين ، وتعرف بالمهاجر هرتسن محرر جريدة « الناقوس » التى كان يجدها المرء فى روسيا حتى على مكتب الكسندر الثانى • وقد كتب هرتسن يقول بعد مقابلته مع دوستويفسكى : « هو انسان ساذج خجول مضطرب بعض الشيء ، لكنه لطيف جدا ، وهو واثق بالشعب الروسى ثقة زاهرة بالحاسة » •

ومن لندن عاد دوستوفسكى الى باريس فضى فيها أسبوعين آخرين ثم تركها الى جنيف مارا بمدينة بال . وفى جنيف التقى بصديقه نيقولا سترخوف ، فزار الصديقان إيطاليا معا . وقد كتب سترخوف بعد ذلك يقول : « لا الطبيعة ولا المبانى ولا آثار الفن كانت تعنيه ، فانما كان ينصرف انتباهه كله الى الناس » . ان هذا الفاض العظيم الى أعماق النفوس يلتفت انتباهه كله الى الجماهير والى البشر فى الشوارع وفى المسارح وفى المقاهى . انه يحاول أن يفهم سيكولوجية كل شعب أثناء هذه الرحلة الخاطفة التى استغرقت نحو شهرين .

وفى شتاء ١٨٦٢ - ١٨٦٣ نشر دوستوفسكى فى مجلته هذه « الذكريات » التى لا يتحدث فيها عن رحلته الا قليلا ، وانما هو يستخدم هذه الرحلة ليعرض آراءه فى تاريخ روسيا وفى وضعها ، وليتهمك على البلاد التى مر بها ، ليتهاكم على ألمانيا وانجلترا ، وعلى فرنسا خاصة ، ثم لا يذكر إيطاليا أو سويسرا بخير أو شر .

فبعد أن ينقل الينا بعض انطباعاته عن ألمانيا فى الفصل الأول ، وهى انطباعات سيئة ، يستهل الفصل الثانى بجملة قالها فونفيزين سنة ١٧٨٧ ، وهى أن «الفرنسى محروم من العقل ، ولو أوتى عقلا لعد ذلك أكبر شقاء بصيبه» . ولكنه بدلا من أن يحدثنا عن فرنسا يأخذ يتذكر روسيا القرن الثامن عشر ، وساداتها الذين يرتدون الزى الفرنسى والذين يختلفون عن سواد الشعب اختلافا كبيرا ، ثم يقول مع ذلك ان أولئك كانوا أقرب الى الفلاح من مثقفى القرن التاسع عشر رغم كل شيء . وبعد هذين الفصلين « النافلين » الزائدين اللذين ينصرف فيهما الكلام الى روسيا ومشكلاتها الراهنة فى ذلك الزمان ، ينتقل أخيرا الى الكلام عن فرنسا نابليون الثالث فيصفها وصفا فيه سخرية لاذعة . ويرى بعضهم أن حقد الكاتب على الفرنسيين والانجليز هو الذى أمل عليه هذه السخرية اللاذعة ، لأن حرب القرم لم يكن قد انقضى عليها الا سبع سنين .

يظهر دوستوفسكى دهشته من كثرة عدد الجواسيس فى فرنسا ، ومن الافراط فى مراقبة الأجانب نزلاء الفنادق . ويتهمك على البورجوازي ويصفه وصفا زاخرا بالسخرية ، ويهزأ بوطنية الفرنسيين قائلا انك لن تستطيع أن تنتزع من عقل الفرنسى ، أى من عقل الباريسى (لأن جميع الفرنسيين فى الواقع باريسيون) اعتقاده بأنه أول انسان على وجه

الارض ، رغم أن الفرنسي من جهة أخرى لا يعرف من الارض ، باستثناء باريس ، الا قليلا جدا ، ولا يحرص أى حرص على أن يعرفها .

ويسخر دوستوفسكى من فصاحة البيان وبلاغة اللسان لدى الفرنسيين ، ويرى التعبير عن ذلك فى « الهيئة التشريعية » التى لا تضم الا ستة نواب معارضين ، ويؤتى اليها بالامير بوناپارت الذى يسمح لنفسه أحيانا بانتقاد الحكومة . ويسخر من البورجوازي ، من حبه للملك ، من حاجته الى « القلب على العشب » ، الى أن يملك منزلا له ، الى أن يرى البحر مرة فى حياته . ويسخر خاصة من الحياة العائلية التى لم يعرفها دوستوفسكى ، والحق يقال ، الا من خلال مسرحيات سكريب وأوجييه وبونسار ، والتى تصور الثلاثي الأبدى : الزوج والزوجة وعشيق الزوجة .

فاذا تكلم عن انجلترا هاله مايراه فيها من ازدحام الناس وسرعة الحياة فكأنه يرى يوم الحشر . لئن كره دوستوفسكى سان بطرسبرج ، لقد كره لندن مزيدا من الكره : سكك حديدية فوق المنازل (وتحتها قريبا) ، فوضى هى النظام البورجوازي فى ذروته ، نهر التاميز المتسمم ، الهواء المشبع بالفحم ، الميادين والحدائق الرائعة مع الأحياء الكالحة المتجهمة مثل حى هوايتشابل ، المزدهم بسكانه الهج السانغبين الذين يوشكون أن يكونوا عراة ، « المدينة » بملايينها وحركتها وتجاريتها . ان هذا كله يبدو لدوستوفسكى كأنه معبد الاله بعزل . وهناك صورتان تخطفان البصر خاصة : صورة النزعات فى هايماركت حيث يلقي المرء منات من البنايا ، وصورة ليلة الأحد حيث يرى ألوف العمال يسكرون ويعربدون بينما أولادهم يتسكعون فى الشوارع .

والكنهة الانجليز لا يعيشون الا للأغنياء ولا يزورون الفقراء . هذه بلاد لا تؤمن باله ، هذه بلاد يختنق فيها الانسان تحت وطأة المال والحساب . ويتنبأ دوستوفسكى لهذا التقدم البورجوازي بأنه الى أفول وزوال بعد أن بلغ ذروته .

ان الانتقادات اللاذعة التى يوجهها دوستوفسكى الى الرأسمالية الانجليزية تذكر بانتقادات كارل ماركس الذى لم يقرأ دوستوفسكى فى يوم من الأيام . ان دوستوفسكى يشور على الرأسمالية وعلى الروح البورجوازية ثورة ماركس عليهما . وهو يرى أن الاشتراكية الحققة

لا يمكن أن تقوم في الغرب ، لأن الغربي فردى ، فهو لا يقبل أن يضحي بشيء من حريته الشخصية في سبيل الجماعة . ومن المعروف أن لدوستوفسكي مثلاً أعلى في الاشتراكية قائماً على التضحية الارادية والايمان الروحي ، وحب الآخرين ، والاخوة الانسانية ، والتساند والوفاق البشرى . وقد عبر عن هذا مجملًا في هذه « الذكريات » .

وهو يرى أن الشعب الروسى مفطور على هذه المعاني التي يتطلبها قيام الاشتراكية : أكان هذا نبوءة نبي ؟ ولكن نبوءات دوستوفسكي في الشئون السياسية لم تصدق كثيرا على وجه العموم . ان هذا الفنان الذي غاص الى أعماق النفس الانسانية وسبر أغوارها ، لم يكن في أكثر الأحيان مفكرا سياسيا صادق الحدس صادق النبوءة !

التمساح

١٨٦٥

ان هذه الحكاية المضحكة هي آخر عمل يحس فيه القارىء بتأثير جوجول في دوستوفسكي . انها تذكر بقصة جوجول عن مغامرة «الأنف» العجيبة . وهذا مايعترف به دوستوفسكي نفسه على كل حال . فكما تخيل جوجول في سبيل الاضحاك أنفا يتخذ وجه انسان ، كذلك تساءل دوستوفسكي ، حين رأى تمساحا جيء به الى مدينة سان بطرسبرج : ما عسى يفعله انسان يبلعه هذا الحيوان حيا ؟ وهكذا ألف دوستوفسكي حكاية مضحكة هي حكاية « التمساح » هذه التي تشتمل مع ذلك على نقد للأفكار التي كانت رائجة حوالى عام ١٨٦٠ . ان بطل القصة ، وهو موظف ليبرالى ، يحس بارتياح في جوف التمساح . فهو يستطيع أن يضع هنالك نظرية اقتصادية جديدة ، وأن يلقى محاضرات عن التاريخ الطبيعى فى صالون زوجته الذى يؤخذ اليه التمساح . والموظف الكبير تيموتى سيميونتش الذى تلجأ اليه زوجة الرجل مروعة مزعورة ، يجيبها بأن التمساح لا يمكن أن يبقربطنه ، لأن صاحبه اجنبى ، ولأن روسيا محتاجة الى رموس أموال اجنبية . غير أن جريدتين لهما اتجاه لبرالى تشوهان الوقائع تشويها كاملا : فجريدة « الورقة » تذكر أن رجلا شرها ينتمى الى المجتمع الراقى قد بلع تمساحا . وجريدة « الشعرة » تسلم بأن الرجل

مقيم حقا في جوف التمساح ، ولكنها ترثي لحال التمساح ، وتمضى الى حد الكلام عن « معاملة همجية للحيوانات الأهلية » .

ان هذه الحكاية الخفيفة ماكانت لتحظى بكبير اهتمام لولا أنها اتخذت ذريعة للتشهير بدوستوفسكي تشهيرا أثر في نفسه تأثيرا كبيرا . فان الجريدة اليسارية « الصوت » التي سماها دوستوفسكي في قصته « الشعرة » (مستفيدا من التشابه اللفظي بين الكلمتين الروسيتين Volos بمعنى الشعرة و Golos بمعنى الصوت) قد نشرت على سبيل الانتقام مقالة تتهم فيها دوستوفسكي بأنه يستهزئ من الفيلسوف تشرنيشفسكي فان الموظف اللبرالى الذى بلعه التمساح في هذه القصة يبدو كأنه رمز الى ذلك الفيلسوف الثورى الشهير الذى سجن فى العام الماضى ، وسبق أن عرف النفى الى سيبيريا . والحق أن دوستوفسكي لم يكن قد خطر بباله شيء من هذا قط . لذلك نشر فى «يوميات كاتب» (عدد كانون الثانى يناير ١٨٧٣) مقالة عنيفة صاخبة يحتج فيها احتجاجا شديدا على هذا التجنى عليه ، وألح فى تلك المقالة الحاحا خاصا على ما يحمله لحصمه السياسى من اعتبار واحترام ، حتى لقد كتب يقول : « كيف يمكن أن يفترض أحد أننى ، أنا الذى عانيت النفى وعرفت سجن الاشغال الشاقة، أستطيع أن أبتهج بحبس انسان شقى آخر ، واننى فوق ذلك قد كتبت فى هذا الموضوع قصة مضحكة ؟ » .

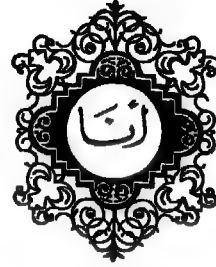
فہم قبوی

۱۸۶۴

« في قبوى » ZAPISKI IZ POOPOLIA
نشرت في مجلة « القصة » ، الأعداد : ١ ، ٢ ، ٤ من
سنة ١٨٦٤ •

هذه « ذكريات » وصاحبها • والذكريات نفسها من صنع الخيال •
 على ن بشرا كخالق هذه الصفحات يمكن أن يوجدوا بيننا ، بل ويجب أن
 يوجدوا بيننا ، بسبب الظروف التي تحكم تكون مجتمعنا • لقد أردت أن
 أظهر الناس ، بقوة تفوق ما ألفنا من قوة ، على طبع من الطباع التي تعيش
 في زماننا هذا • هو واحد من ممثلي الجيل الذي يبقى بعد زواله هو نفسه •
 فأما الجزء الذي عنوانه « القبو » ، فقيه يقدم الشخص نفسه ، ويفصح عن
 اقتناعاته ، ويبدو أنه يوضح أسباب مجيئه ، أسباب ولادته الإيجابية في
 مجتمعنا • وأما الجزء الثاني فهو « الذكريات » الحقيقية لبعض أحداث حياة
 هذا الرجل •

فيدور دوستويفسكى



رجل مريض ••• انا انسان خبيث • لست أملك شيئاً مما يجذب أو يقتن • أحسب أنني اعانى مرضاً فى الكبد • على أنني لا أفهم من مرضى شيئاً على الاطلاق ، ولا أعرف على وجه الدقة أين وجعى • وأنا لا أداوى نفسى ، ولا داويت نفسى فى يوم من الأيام ، رغم أنني احترم الطب والأطباء • وانى من جهة أخرى أؤمن بالخرافات الى أقصى حد ، أو قولوا اننى أؤمن بها الى الحد الذى يكفى لاحترام الطب (اننى أملك من الثقافة ما يكفى لأن لا أكون من المؤمنين بالخرافات ، ولكننى أؤمن بها مع ذلك) • لا ، لا ! لئن كنت لا أداوى نفسى ، ان مرد ذلك الى خيى وشى ! لا شك أنكم لا تتنازلون الى حيث تفهمون هذا ، ولكننى أنا أفهمه •

لن أقدر طبعاً أن أقول لكم من ذا الذى قد أضايقه بما فى نفسى من خبى وشى • ولكننى أعلم علم اليقين أنني لن أزعج الأطباء ، ما دمت لا أستشيرهم • وأنا أدرك أكثر مما يدرك أى انسان آخر أنني اذ أتصرف هذا التصرف لا أؤذى الا نفسى ولا ألحق ضرراً بأحد غيرى • ومع ذلك فمن خبى وشى انما أمتنع عن أن أداوى مرضى • اننى مصاب بداء فى الكبد • ألا فليوجنى هذا العضو مزيداً من الوجع !

وأنا أعيش على هذا النحو منذ زمن طويل ، منذ زهاء عشرين عاماً • انتى الآن فى الأربعين من عمرى • كنت موظفاً • ولكننى لست موظفاً فى هذا الأوان • ولقد كنت موظفاً شريراً • كنت فظاً • وكان يسرنى وبهجنى أنتى كذلك • كنت لا أرتشى • فكان لا بد أن أعوض خسارتى هذه بتلك الفظاظه • (هذه مزحة رديئة ، ولكننى لن أسطبها • لقد كتبها ظناً منى بأنها ستكون لاذعة قارصة • وحين أرى الآن أنتى لم أشأ الا أن أجبر نفسى على شئ بشع ، فأننى أدعها - أدع تلك الكلمة - عامداً) • حين كان المراجعون يقتربون من مكتبى ليسألونى عن أمر من الأمور ، كنت أصرف بأسنانى ، وأشعر بلذة لا حدود لها اذا أنا أفلحت فى أن أذل أحدهم • وكنت أفلح فى ذلك دائماً على وجه التقريب • كانوا فى أكثر الأحيان أناساً خجلين وجلين : هم نوع معروف من الملتسين التوسلين • غير أن بين المتطرسين منهم رجلاً كنت أكرهه أكثر مما أكره سائرهم • انه ضابط فى الجيش • كان هذا الرجل لا يريد أن يرضخ وأن يذعن بحال من الأحوال ، وكان يحدث بسيفه قرعة لا تليق • وقد ظلمت فى حرب معه بسبب هذا السلاح مدة ثمانية عشر شهراً • واتصرت أخيراً : فهذا هو السيف فى مكانه لا يقرع • وهذا كله قد جرى فى أيام شبابى على كل حال • ولكن هل تعرفون أيها السادة ماذا كان المظهر الأساسى من مظاهر خبثى وشرى ؟ أن أبشع وجه من وجوه ذلك الحبث وذلك الشر هو أنتى فى اللحظة التى ينفجر فيها حتى المسعور ، كتب أشعر شعوراً مخزياً بأن نفسى ليس فيها شئ من خبث أو شر ، وأن غضبى ذاته لا وجود له ، وأنتى لا أزيد على التلذذ بترويع عصفير •

يسيل الزبد من فمى غضباً ، ولكن يكفى أن تعطونى لبةً ، أو أن تقدموا الى " فنجاناً من القى بالسكر ، حتى تهدأ نفسى ، بل وحتى ترق

نفسى وتحنو • على أن هذا لا يمننى من أن أقضم أصابعى حقاً بعد ذلك ، وأن أعانى الأرق أشهراً من شعورى بالحزى والعار • ذلك من عادائى وأخلاقي •

لا ! لقد كذبت حين زعمت أننى موظف شرير • وذلك كذب مرده الى غضبى • كل ما هنالك أننى كنت أتسلى مع أولئك المراجعين وذلك الضابط ، ولكننى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أجعل نفسى شريراً حقاً • سرعان ما كنت أحس بوجود عناصر كثيرة فى نفسى تحول بنى وبين أن أكون شريراً • كنت أشعر بهذه العناصر تزدهم غفيرةً فى كيائى • وكنت أعلم أنها تتحرك فى نفسى منذ الأبد محاولة أن تظهر الى الخارج ، ولكننى لا أسمع لها بذلك قط ، وأتعمد أن أمنعها من الافلات • انها تعذبى الى حد الشعور بالحزى ، الى حد التشنيج • آه • • • لشد ما تضجرنى ! ما أكثر ما تورثنى من متاعب وهموم !

ولكن ألا يترامى لكم ، أيها السادة ، أننى نادى على شيء لا أدرى ما هو ، واننى استغفركم لسبب لا أعرفه ؟ لا شك فى أنكم تقدرون ذلك • • • على كل حال ، سياتى عندى أن تظنوا هذا وأن لا تظنوه • • •

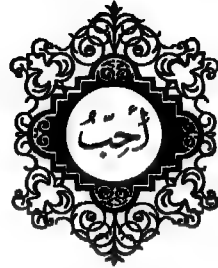
لم أستطع أن أصبح أى شيء ، لم أستطع أن أصبح حتى شريراً • لا خبيثاً ولا طيباً ، لا دينياً ولا شريفاً ، لا بطلاً ولا حشرة • وأنا اليوم ، فى هذا الركن الصغير ، أختتم حياتى ، محاولاً أن أواسى نفسى بزماء لا طائل فيه ، قائلاً ان الرجل الذكى لا يفلح قط فى أن يصبح شيئاً ، وان القلبى وحده يصل الى ذلك • نعم ، وا أسفاه ! ان انسان القرن التاسع عشر يجب أن لا تكون له عزيمة ، ان انسان القرن التاسع عشر مكروه على أن لا يكون له طبع قوى • أما الانسان الذى له شيء من ذلك ، أما الانسان الفعّال ، فهو فى جوهره محدود لا قيمة له • ان الأربعين التى عشتها قد رسخت هذا الاقتناع فى نفسى • ذلك أن عمري

أربعون عاماً ؟ والأربعون أليست الحياة كلها ؟ أليست هي الشيخوخة منذ الآن ؟ انه لما ينافى اللباقة ويتجافى الأخلاق ويهبط بالمرء الى حضيض الصغار أن يعيش أكثر من أربعين عاماً • من ذا الذي يعيش أكثر من أربعين عاماً ؟ هلا أجبتم بصراحة ! سأقول لكم أنا : ان الحقى والأوغاد هم الذين يعيشون أكثر من أربعين عاماً • لأجهرن بذلك لجميع أولئك المعجائز ، لجميع أولئك الشيوخ المحترمين ، لجميع تلك الرسوم التي اشتعلت شيباً ، فصارت كالفضة لوناً وتطيت بالعلور • لأجهرن بذلك صائحاً أمام العالم كله • ان من حقى أن أقول هذا الكلام ، لأننى سأحيا أنا حتى السنة الستين من العمر ! حتى السنة السبعين ! سأصل الى الثمانين ! انتظروا ! لأسترد أنفاسى !...

أتظنون ، أيها السادة ، أننى أريد أن أضحكم ؟ فى هذا تخطئون أيضاً • أنا لست رجلاً مرحاً فكهاً ، كما أبدو لكم ، أو كما يمكن أن تظنوا • ولكن اذا خطر ببالكم ، متى ضقتم ذرعاً بهذه الثروة (وانى لأحس أنكم ضقتم بها ذرعاً) ، اذا خطر ببالكم أن تسألونى : من أنت حقاً ؟ لأجبتكم : اننى معاون فى مدرسة • وقد التمت لى نفسى عملاً لأنه كان على أن أقيم أودى (تلك كانت غايتى الوحيدة) ، فلما ورثت فى العام الماضى عن رجل يمت الى بقرى بعيدة ، ستة آلاف روبل ، أسرعت أستقيل من وظيفتى ، واستقررت فى ركنى • كنت أقيم فى هذا الركن منذ زمن طويل ، وما زلت مقيماً فيه الى الآن • غرفتى دميعة ، قدرة ، تقع فى آخر المدينة • خادمتى امرأة قروية ، عجوز تبلغ من الرداءة حد الحبث والثر ، وهى فوق ذلك كريهة الرائحة دائماً • يقولون لى ان مناخ بطرسبرج مضر بصحتى ، وان الحياة فى العاصمة باهظة النفقات بالقياس الى مواردى التى لا يكاد يكون لها وجود • اننى أعلم ذلك ، أعلمه أكثر من جميع أولئك الناصحين

الذين يملكون خبرة ثرية ، وحكمة عظيمة • ولكننى أبقى فى بطرسبرج ،
ولن أترك بطرسبرج فى يوم من الأيام • ولن أسافر قط ، لأن ...
وما قيمة أن أسافر أو أن لا أسافر ! ...
على كل حال ، ما هو الشيء الذى يجد المرء فى الحديث عنه
أكبر متعة ؟

- الجواب : أن يتحدث عن نفسه •
- حسناً • سأحدث اذن عن نفسى •



الآن أن أعلمكم ، أيها السادة ، سواء أردتم أن
تسمعونى أم لا ، لماذا لم أستطع أن أصبح حتى
حشرة • لأقولنّ لكم جاهراً صريحاً اننى
حاولت مراراً أن أجعل من نفسى حشرة •

ولكننى لم أستطع أن أكون جديراً بهذا • أحلف لكم بمفلق الأيمان
أيها السادة أن الاسراف فى ادراك الأشياء والشعور بها مرض ، مرض
حقيقى ، مرض كامل • ان ادراكاً عادياً هو ، من أجل حاجات الانسان ،
أكسر من كاف • ان نصف الادراك أو ربع الادراك الذى هو نصيب
المخلوق المثقف فى قرننا التاسع عشر هنا الشقى ، أكثر من كاف ،
ولا سيما اذا كان هذا المخلوق قد أوتى سوء الحظ ، فأقام فى مدينة
بطرسبرج • على سبيل المثال : يكفى كفاية تامة ذلك الجزء من الادراك
الذى يعيش به رجال العمل أولئك الذين يعدون أناساً كاملين • أراهم
على أنكم تظنون فى التباهى والتبجح والمفاخرة ، وتخيّلون أننى أعتمد
الى الفكاهة على حساب رجال العمل ، وأنها فكاهة رديئة كريهة ، وآتى
أتصرف تصرف صاحبي الضابط ذاك الذى كان يقرع سيفه • ولكن من
ذا الذى يمكن أن يتباهى أيها السادة بأمراضه ، وأن يتخذها ميلاً الى
التفاخر ؟

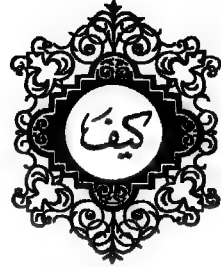
ماذا أقول ؟ ان جميع الناس يفعلون ذلك . ان الناس يزدهون بأمراضهم ؟ وأنا أزدهى بأمراضى أكثر من أى انسان آخر ، أعترف بذلك . على أننى مقتنع اقتناعاً جازماً بأن زيادة الوعى ليست وحدها مرضاً ، بل بأن كل وعى مرض . أؤكد هذا . ولكن فلندع ذلك الآن . قولوا لى : لماذا يتفق لى ، كأنما على عمد ، فى الدقيقة التى أكون فيها أقدر ما أكون على ادراك الفروق المرفقة ، على ادراك « كل ما هو جميل ورائع » - ألم يكن الناس يتكلمون هكذا فى الماضى - لماذا يتفق لى فى تلك الدقيقة نفسها ، فى تلك اللحظة نفسها ، لا أن تخطر ببالى أعمال مخالفة للأدب فحسب ، بل أن أقترف هذه الأعمال أيضاً ؟ جملة القول : ان جميع الناس يجترحون تلك الأعمال ، ولكنها انما توافينى أنا حين أدرك أن على أن لا أقوم بها ...

فلى قدر ادراكى للخير ، على قدر ادراكى « لكل ما هو جميل رائع » * ، يكون غوصى فى الوحل ، وتكون قدرتى على أن أضيق نفسى فيه تضيقاً كاملاً . ولقد كان الطابع الأساسى لهذه الحالة أنها لا تبدو عرضية طارئة . فكأنها حالتى العادية الطبيعية ، وكأنها ليست مرضاً أو آفة ، لذلك فقدت كل رغبة فى محاربة هذه الآفة ، وأوشكت أخيراً أن أعتقد (ولعلنى اعتقدت بذلك حقاً) أن هذه الحالة هى حالتى العادية الطبيعية السوية فعلاً . ولكن ما أكرر الآلام التى عانيتها فى تلك المعركة أول الأمر ! وكنت لا أقدر أن الآخرين لا يمكن أن يعيشوا ما كنت أشعر به ، لذلك أخفيت هذه الحصلة الخاصة من خصالى طوال حياتى ، أخفيت سرّاً من الأسرار . كنت أشعر بالحزى والعار (ولعلنى ما زلت أشعر بذلك حتى اليوم) ، وكنت أغلو فى كل شئ غلوّاً يبلغ من الشدة أننى كنت أحس بنوع من لذة خفية ، شاذة ، دنيئة ، متى عدت الى ركنى الصغير ، فى ذات ليلة قدرة من ليلالى بطرسبرج ، مقتنعاً فى ضميرى بأننى

ارتكبت في ذلك اليوم ، مرةً أخرى ، عملاً حقيراً ... وأنّ تدارك هذا الماضي مستحيل . وكنت في قرارة نفسي ، في دخيلة سريرتي ، أتعذب عذاباً وأتمزق تمزقاً يبلغان من القسوة أن مرارتي مستحيل أخيراً الى عذوبة مخزية لعينة ، ثمّ تستحيل بعد ذلك الى لذة ، نعم الى لذة ، الى متعة ! ألح على هذا . وانما أنا أتكلم عن هذا الأمر لأعرف هل يشعر الآخرون بلذات من هذا النوع ! سأشرح لكم : لقد كانت اللذة ، في هذه الحالة ، تنشأ عن إدراكى الواضح ، المسرف في الوضوح ، ملذّتي ... كانت تنشأ عن احساسى باننى بلغت حداً أقصى ، فأنا أقول لنفسي : ان وضعك كريحه ، ولكن لا يمكن أن يتغير . لم يبق لك من مخرج . لن تصبح رجلاً آخر ؛ فحتى لو أوتيت الزمن اللازم لتغيير نفسك ، ولو أوتيت الايمان الكافي بضرورة التغيير ، فانك أنت نفسك لن تريد هذا ، وهبك أردته ، فلن تفعل شيئاً ، لأن الانسان ربما كان لا يستطيع أن يغير نفسه . ولكن النقطة الأهم - وتلك غاية الغايات حقاً - هي أن ذلك كله انما يتم وفقاً لقوانين طبيعية أساسية من قوانين الادراك الواسع ، ووفقاً للمعطاة المشتقة من تلك القوانين ، والمترتبة عليها . والنتيجة هي أنك لن تعجز عن تبديل نفسك فحسب ، بل ستكون كذلك عاجزاً عاجزاً مطلقاً عن العمل والرد . ان الادراك الواسع يقول لي مثلاً : « طبعاً ، أنت انسان دنيء وغد » ، كما لو كان يواسي انساناً منحطاً أن يعرف أنه منحط ... ولكن كفى ! ... ما أكثر هذه الثمرات التي لا تفسر شيئاً ! ... كيف نفسر تلك اللذة فعلاً ؟ بماذا نعللها ؟ سأوضح لكم الأمر ، سأمضي الى النهاية ... فانما أنا أسكت القلم لهذا الغرض ...

اليكم هذا المثال : أنا امرؤ أتصف بكثير من حب النفس . أنا كثير الشك ، سريع التأذى ، كأحذب ، أو كقزم . ومع هذا تمر بي ساعات لو حدث لي فيها أن أضع فلربما أسعدني ذلك كثيراً . اننى أتكلم

جاءاً لا هازلاً : ان فى وسعى أن أكتشف فى هذا نوعاً من اللذة ، هى
لذة اليأس طبعاً . ان اليأس يشتمل على أقوى اللذات ، ولا سيما حين
تدرك ادراكاً واضحاً أنه لا مخرج منه . وهل هناك ، فى حالة الصفة ،
ما هو أدعى الى الانسحاق من هذا الشعور بأن المرء قد جعل فى مأزق
لا مخرج له منه ؟ وكيف عاجلتُ الأمر ، فأنا المسئول عن كل شيء أخيراً .
وأكرر من ذلك أننى مسئول دون أن أكون قد قارفت أى خطيئة . لأن
الأمر قد جرت وفقاً لقوانين الطبيعة . أنا مسئول أولاً لأننى أذكى من
جميع من حولى (لقد عددت نفسى دائماً أوفر ذكاء من أفراد بيتى ،
وصدقونى اذا قلت لكم اننى كنت أشعر من ذلك بخجل فى بعض
الأحيان ، لذلك ظللت طول حياتى أنظر الى الناس نظرة مواربة ، ولم
أستطع يوماً أن أهدق اليهم وأتفرس فيهم) . وأنا مسئول أخيراً ،
لأننى اذا كان لى شيء من السماح فـلاً ، فان شعورى بأن هذه
السماحة لا جدوى منها ولا نفع فيها لا بد أن يقاوم ألى . اذ فيم تكون
هذه السماح قد أفادتني : انها لم تفدنى لا فى العفو والمغفرة ، لأن
الذى أهانتى انما يكون قد ضربنى وفقاً لقوانين الطبيعة ، والمرء لا يفر
لقوانين الطبيعة ؛ لا ولا أفادتني فى النسيان ، لأن كون الاهانة أمراً
طبيعياً لا يمنعها أن تبقى اهانة . وهبنى أردت أن لا أكون سمحاً كريماً ،
هبنى أردت أن انتقم من الشخص الذى أهانتى ، فأننى لن أستطيع أن
انتقم من أحد ، لأننى لن أعزم أمرى على ذلك حتماً ولو شئت . أما لماذا
لن أعزم أمرى ، فسأقول لكم فى هذا الشأن كلمتين .



تجرى الأمور لدى أولئك الذين يقدرّون أن
 ينتقموا ، وأن يدافعوا عن أنفسهم بوجه عام ؟
 حين تستحوذ روح الانتقام على أنفسهم ،
 فليس يبقى فيهم مجال لغير هذه الرغبة • انهم
 يهجمون الى أمام قُدُماً ، خافضين قرونها كيرانٍ مهتاجة ، ثم لا يقفون
 عن الركض الا حين يعترضهم جدار • يجب أن نقول في هذه المناسبة
 ان هؤلاء السادة ، أعنى هؤلاء الناس البسطاء المنطلقين على السجية ،
 أعنى رجال العمل ، يمتحون أمام الجدار ، ويدعّون صادقين كل الصدق .
 ليس الجدار في نظرهم ما هو في نظرنا نحن الذين تفكر فلا نعمل :
 ليس الجدار في نظرهم حجة وعذراً وتعلة • ليس في نظرهم حجة
 مناسبة لأن ينكسوا على أعقابهم ، وهى حجة لا نصدقها نحن على وجه
 العموم ، ولكننا نستغلها فرحين • لا • • • هم ان أذعنوا فانما يدعّون
 راضين • الجدار في نظرهم تهدئة • هو لهم حل أخلاقي ، نهائي ، وربما
 صح أن أقول انه حل غيبي • على أننا سنعود الى الكلام عن هذا الجدار •

ان ذلك الرجل البسيط المنطلق على السجية هو في نظري الانسان
 السوى الذى فكرت فيه الطبيعة أمنا الحنون ، حين تلطفت فجعلتنا نولد

على الأرض • اتنى أحسد ذلك الانسان • لست أنكر أنه غبي • ولكن ما أدراكم ؟ لعل الانسان السوى يجب أن يكون غيباً • بل لعل هذا جميل جداً • ومما يسوغ هذا الافتراض عندى مزيداً من التسويغ أننا اذا نظرنا الى تقيض الانسان السوى ، أى الى الانسان المرهف الوعى والادراك ، الانسان الذى لم يخرج من حضن الطبيعة ، بل من اميق (قد يكون هذا من الصوفية والنيية أيها السادة ، ولكننى ميال أيضاً الى هذا التصور) ، وجدنا هذا الانسان الخارج من اميق يبلغ من الامحاء أحياناً أمام تقيضه ويبلغ من الرضوخ له أنه رغم كل رهاقة وعيه وادراكه يصل هو نفسه الى أن يعد نفسه فأرة صغيرة لا أكثر • قد يكون فأرة تتم بقدر كبير من حسن البصيرة ، ولكن ذلك لا ينفى أنه فأرة لا انسان ، أما الآخر فهو انسان حقاً • يترتب على ذلك أن ... الخ الخ • ولكن أنكى ما فى الأمر أنه هو نفسه فأرة صغيرة ! ما من أحد يطالبه بهذا الاعتراف • وذلك شئ هام جداً •

فلننظر قليلاً فى هذا الفأر الصغير فاعلاً • لنفرض أنه أهين هو أيضاً (انه يشعر فى جميع الأحيان تقريباً أنه مهان) ، وأنه يطمع فى الانتقام • من الجائز أن يجمع فى نفسه غضباً أشد أيضاً من غضب « رجل الطبيعة والحقيقة » • ومن الجائز أن تكون الرغبة الحفيرة الدنيئة لديه فى أن يرد الشر بالشر لمن أهانه رغبة عنيفة تأكله أكلاً ، وربما كانت هذه الرغبة لديه أعنف منها لدى « رجل الطبيعة والحقيقة » * ، لأن هذا الأخير ، بما يتصف به من غباء طبيعى ، يعد انتقامه عملاً عادلاً كل العدل ، فى حين أن الفأر الصغير لا يمكن أن يسلم بعدالة هذا العمل ، لأنه يملك وعياً أبصر • ولكن ها نحن أولاء وصلنا أخيراً الى الفعل نفسه ، الى الانتقام • ان الفأر الشقى قد استطاع ، الى جانب الدناءة الأولى ، أن يجمع حوله ، على صورة شكوك وترددات ، دناءات أخرى

كثيرة ، وأن يضمّ الى المسألة الأولى مسائل أخرى لا يمكن حلّها بحال من الأحوال ، وتبلغ من الكثرة أنه ، مهما يفعل ، يكون قد أنشأ من حوله ركائماً قدراً عتفاً من الاضطراب ، وأحاط نفسه بمستقع من وحل هو تردداته وشكوكه وبلبلته وجميع البصاق الذي يطره به رجال العمل الذي يعيشون من حوله ويحكمون عليه وينصحون له ويضحكون منه ملء حلوّهم وأشدّاهم •

ولا يبقى له عندئذ ، بطبيعة الحال ، الا أن يترك كل شيء متظاهراً بالاحتقار ، والا أن يغيب في جحره مجللاً بالحزى والعار • وهناك ، في قبه القذر العفن ، لا يملك صاحبنا الفأر الصغير ، المهان المصعوق المهنأ ، الا أن ينفطس على مهل في حنقه البارد ، المسموم الذي لا يتغد ولا يفيض • سوف يظل على مدى أربعين عاماً يتذكر الاهانة التي تحمّلها ، يتذكرها بأخزى تفاصيلها ، مضيئاً الى هذه التفاصيل في كل مرة تفاصيل أخرى أشد خزيّاً منها ، مستثيراً نفسه في خبث وشر ، مؤججاً نار خياله مزيداً من التأجيج • ولسوف يشعر هو نفسه من ذلك بالحجل ، ولكنه سيظل يتذكر جميع التفاصيل ، ويستعرض جميع الظروف واحداً واحداً ، ويتخيل ظروفًا جديدة بحجة أنها كان يمكن أن تقع ، ولن يفر شيئاً البتة •

وربما حاول أن ينتقم ، ولكنه يحاول ذلك خلسةً ، يحاوله قليلاً قليلاً ، يحاوله خفيةً ، دون أن يشق أية ثقة لا بحقه في الانتقام ولا بنجاحه في الانتقام ، مدرّكاً ادراكاً قوياً أن المحاولات التي يقوم بها من أجل أن ينتقم ستجلب له هو من العذاب والألم أكثر مما ستجلب منها للشخص الذي يحاول أن ينتقم منه والذي قد لا يشعر بمحاولاته هذه ولا يلاحظها • وسيظل صاحبنا يتذكر هذا كله حتى حين يرقد على

فراش الموت ، مضيئاً اليه ما تراكم على المبلغ من فوائد مركبه ، وعندئذ... ولكن هذا نفسه ، أعنى هذا الحليط الكريه البارد برودة الجليد ، هذا الخليط من اليأس والأمل ، هذا الانقيار المقصود المتعمد ، هذا الاندفاع أثناء الحياة ، هذا الشعور بعدم وجود أى حل - وهو شعور واضح ولكن صاحبنا يشك فيه دائماً - هذه العقدة المؤلفة من رغبات لم يكتب لها التحقق فارتدت الى نفس صاحبها ، ومن قرارات محمومة عنيفة اتخذها الرجل على أنها قرارات أبدية لا تكول عنها ولكنه لم يلبث أن ندم على اتخاذها ، أقول ان هذا كله هو بعينه عصارة تلك اللذة الفريية التي أشرت اليها منذ قليل ؟ وهى لذة تبلغ من الرهافة والدقة فى بعض الأحيان ، وتبلغ من الغياب عن الوعي والهرب من الادراك أن الناس العاديين - أو حتى أولئك الذين يملكون أعصاباً متينة قوية - لا يفهمون منها شيئاً البتة . وربما أضفتم الى ذلك ساخرين : « بل أن أولئك الذين لم يُصَفَعُوا فى يوم من الأيام لا يفهمون منها شيئاً البتة أيضاً » . وهكذا تُسمعوننى ، فى رفق وكياسة وأدب ، أنبئى قد صُفَعْتُ فى يوم من الأيام ، وأننى أتكلم عن سابق خبرة ومعرفه . أراهن على أن هذا قد جال فى خاطركم ودار فى خلدكم . ولكن اطمئنوا يا سادتى : اننى لم أُصَفَع قط ؛ ثم ان ماقد يجول فى خاطركم ويدور فى خلدكم بهذا الصدد لا يعينى ولا يهمنى بحال من الأحوال . ولعلنى أنا الذى آسف على أننى لم أوزع على الناس الا قدراً قليلاً جداً من الصفات أثناء حياتى . ولكن كفى ! لا أريد كلمة واحدة حول هذا الموضوع ، مهما يكن شائقاً لكم !

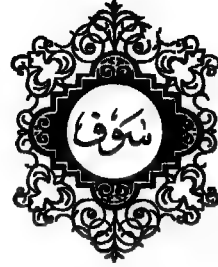
وهأنذا أتابع الكلام ، بهدوء ، عن الناس الذين يملكون أعصاباً متينة قوية ، فلا يذوقون بعض المذات المرفهة . ان هؤلاء السادة ، رغم أنهم يجأرون كالثيران فى بعض الأحوال ، ورغم أن هذا يشرفهم كثيراً ، فهم كما سبق أن قلت يذعنون أمام المستحيل ويرضخون

وَيَمْحُونَ ! وإذا قلنا المستحيل فقد قلنا جداراً من حجر ! ولكن ما هو هذا الجدار ؟ هو القوانين الطبيعية بداهة ، هو ثمرات العلوم الدقيقة ، ونتائج الرياضيات ، فإذا بُرهن لكم مثلاً على أنكم من سلالة القروذ * ، لم يكن يجديكم أن تصعزوا وجوهكم ، وكان عليكم أن تقبلوا هذا وأن تسلموا به . وإذا بُرهن لكم على أن قطرة واحدة من شحمكم أنتم يجب أن تكون أغلى عندكم وأغزى على أنفسكم وآثر في قلوبكم من مائة ألف من البشر أفرانكم ، وأن هذا بعينه هو ما تؤدي إليه جميع الفضائل ، وجميع الواجبات ، وجميع ما إلى ذلك من خيالات وأوهام ، لم يكن لكم حيلة في دفع هذه الحقيقة وجود هذه الواقعة ، وإنما كان عليكم أن تسلموا بذلك لأن $2 \times 2 = 4$ ، فذلك من الرياضيات . حاولوا قليلاً أن تناقشوا !

لسوف يهتفون عندئذ قائلين : « عفواً ، انكم لا تستطيعون أن تحتجوا : ان $2 \times 2 = 4$ ؟ والطبيعة لا تحفل بدعاواكم ولا تكثر لمزاعمكم . انها لا تهتم برغباتكم ، وليس يعينها كثيراً أن لا توافقكم قوانينها ، فأنتم مضطرون أن تقبلوها كما هي ، وأن تقبلوا كل ما ينحدر منها ويترتب عليها . ان الجدار جدار . . . » ، النخ النخ ! ولكن فيم تعني قوانين الطبيعة والرياضيات يارب ، اذا كانت هذه القوانين وهذه المعادلة « $2 \times 2 = 4$ » ، لا ترضيني ولا تعجيني ؟ صحيح أنني لن أستطيع أن أحطم هذا الجدار بجيئني اذا كانت قواي لا تكفي لهذا العمل . ولكنني أرفض أن أذل أمام هذا الحاجز لمجرد أنه جدار من صخر وأن قواي غير كافية !

لكأن هذا الجدار يمكن أن يمدني بهدوء ويزودني بطمأنينة ، لكأن المرء يستطيع أن يتصالح مع المستحيل لمجرد أن هذا المستحيل قائم على حقيقة أن « $2 \times 2 = 4$ » . آه . . . ذلك أبطل الأباطيل ! . . .

وانه لأشق من ذلك وآلم من ذلك كثيراً أن تفهم كل شيء وأن
تعى جميع الاستحالات ، وأن تدرك جميع جدران الصخر ، ثم تأبى أن
تذل أمام أية استحالة من هذه الاستحالات ، أمام أى سور من تلك
الأنوار اذا لم يعجبك ذلك ؟ وأن تصل بالاستدلال المنطقي الصارم الى
تتائج مؤسفة فيما يتعلق بذلك الموضوع الأبدى وهو نصيبك أنت
فى المسئولية عن جدار الصخر هذا رغم أن من الواضح الى حد البدهة
أنك لا شأن لك به ولا دخل لك فيه ؟ وأن تنتهى تبعاً لذلك الى أن
تفطس فى عطالتك صامتاً ، ولكن صارفاً بأسنانك من اللذة ، مقدراً مع
ذلك أنك لا تملك حتى أن تثور وتمرد على أى شخص ، اذ ليس هناك
أحد على وجه الاجمال ، ولن يكون هناك أحد ، فما ذلك الا مهزلة ،
ما ذلك الا خدعة ، ما ذلك الا هراء ، ولست تعرف شيئاً ولست تعرف
أحد ، ولكنك ، رغم جميع تلك الخدع ، ورغم كل ذلك الجهل ، تتألم
وتعذب ، وكلما قلّ فهمك ازداد ألمك وازداد عذابك •



تصبحون ضاحكين : • ها ! ها ! ها ! اذا كان
الأمر كذلك ، فلتجدن شيئاً من لذة حتى في
وجع الأسنان ، • فأقول لكم :

— طبعاً ! ان في وجع الأسنان لذة : لقد
عانيت وجع الأسنان شهراً بكامله ، فأنا أعرف ماذا أقول • ان الانسان
لا يتوجع صامتاً حين يكون في أسنانه مرض • انه يشن • ولكن أنيه
تعوزه الصراحة • ان في الأئين شيئاً من المكر • والأمر كله انما يكمن
هنا • ان الأئين يعبر عن لذة الشخص الذى يتألم • فلو لم يشعر
المريض بشئ من اللذة ، لكف عن التوجع والشكوى • ذلكم مثاله
ممتاز يا سادتى ، وسأوضحه •

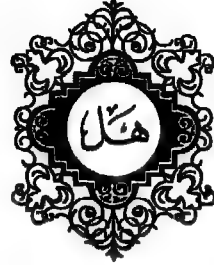
ان الأئين يعبر أولاً عن ادراككم الذليل لكون ألمكم لا جدوى
منه ولا طائل تحته البتة ، ولكونه مشروعاً من وجهة نظر الطبيعة ، التى
تبصقون عليها طبعاً ولكنها تؤلكم مع ذلك هادئة بغير احساس ولا تأثير •
والأئين يعبر ثانياً عن أنكم تفهمون أن العدو غير موجود ، ولكن الألم
موجود مع ذلك ، وأنكم رغم جيع من يسمون فاجنهایم * ، انما أتم عييد
أسنانكم ، فاذا حلا لاسان أن يوقف أوجاع أسنانكم توقفت أوجاع
أسنانكم ، أما اذا قرر غير ذلك تركها توجعكم ثلاثة أشهر أخرى ؟ واذا
رفضتم الرضوخ وأصررتم على الاحتجاج لم يكن لكم من سسل الى

الغزاء الا أن تصفوا وجوهكم أو أن تحطموا قبضات أيديكم على الحائط. ان هذه الاساءات والاهانات التي تسيل الدماء ، وهذه السخريات الصادرة لا أدري عمّن ، هي بعينها التي تولد ذلك الاحساس بالمتعة الذي يبلغ أحياناً مبلغ اللذة القصوى .

يا سادتي ، أرجوكم أن تصيخوا بأسماعكم مرةً الى أنات رجل مثقف من القرن التاسع عشر يعاني ألم الأسنان منذ يومين أو ثلاثة أيام ، وذلك حين يأخذ يثن لا كما كان يثن في اليوم الأول ، أى لا لأنه موجه فحسب ، لا كما يثن فلاح جافى الطبع غليظ القلب ، بل كما يثن انسان مثقف لمستة الحضارة الأوروبية ، كما يثن انسان « انفصل عن الأرض التي ولد فيها وانفصل عن مبادئ قومه » ، على لغة أهل هذا الزمان . ان أنات هذا الرجل تصدر عنه خبيثة حارقة لا تنقطع في نهار ولا في ليل . هو يعلم حق العلم مع ذلك أنها لا تعود عليه بأى نفع . وهو يعلم أكثر مما يعلم أى انسان آخر أنه يثير من حوله وبغضبهم ويخفقهم ويعذبهم ويعذب نفسه دون أن يجنى من ذلك أى نفع . هو يعلم أن الناس والأسرة الذين يتوجع أمامهم أصبحوا لا يشعرون الا بالاشمزاز من شكواه ، وأنهم أصبحوا لا يصدقونها ، وأنهم يفهمون أن في وسعه أن يثن بطريقة أخرى ، أن يثن أنيناً أقرب الى البساطة ، أنيناً لا تصاحبه هذه التدرجات ، ولا ترافقه هذه الأوضاع المصطنعة كلها ، وأنه يغالى ويبالغ مكرراً ودهاءً وخبثاً رأيتم ؟ الا ان هذه المذلة البصيرة هي التي تتوى فيها اللذة . فكأن الرجل يقول : « آ . . . أنا أزعجكم ، أنا أمزق قلوبكم ، أنا أحرم أهل الدار كلهم من النوم ! أحسن . . . لا تناموا ! اعلموا أن في أسناني ألماً ! لم أبق في نظركم ذلك البطل الذي كنت أدعى أنني هو . ما أنا الآن الا رجل ردىء ، ما أنا الآن الا انسان طالح ! أحسن ! بل انه ليسعدني أن تكتشفوني أخيراً . هل تشق أناتى

على أنفسكم ، هل تضايقكم وتزعجكم ؟ لا خير ... اليكم اذن مزيداً
منها ! •

ايها السادة ، أما زلتم لا تفهمون ؟ نعم ، فمن أجل أن تستطيعوا
ادراك لطائف هذه اللذة الحسية ، لا بد أن يكون وعيكم قد بلغ درجة
كبيرة من العمق • أتضحكون ؟ يسعدني هذا كثيراً • ان أمازيحي أيها
السادة رديئة حتماً ، فهي مضطربة متشابكة ، وهي سيئة الوقع في
الأسماع • ومرد ذلك كله الى انني لا أعتبر نفسي ، لا أقدرها قدراً
كبيراً • ولكن هل في وسع انسان يعرف نفسه ، أن يعتبر نفسه ولو
قليلاً ؟



فى وسع انسان تعلق باكتشاف نوع من اللذة
فى الشعور بمذلة نفسه ، هل فى وسع هذا
الانسان حقاً أن يظل يحس باحترام نفسه ؟
ان ما أقوله الآن لا تمليه على ندامة تافهة ، أو
توبة سخيفة ، فأنا على وجه العموم أكره أن أقول : « اغفر لى يا بابا ،
فلن أعود الى هذا قط ! » ، لا لأننى عاجز عن النطق بهذه الكلمات ،
بل ربما كان عكس ذلك هو الصحيح ، أى لاننى قادر على ذلك أكثر
• مما يجب •

ولقد كنت ، بما يشبه العمد ، أقحم نفسى فى أمور لا شأن لى بها
البتة ، ثم اذا أنا - وهذا أنكى وأدهى - أرقُ واعترف وأبكي وأتوب ،
فاتتهى الى خداع نفسى آخر الأمر طبعاً ، ولكن دون تظاهر كاذب ، لأن
قلبى هو الذى كان يدبر لى هذه المكائد القذرة •

وليس يسعُ المرءُ فى هذه الحالة أن يؤاخذ قوانين الطبيعة ، رغم
أن هذه القوانين قد سببت لى مضايقات كثيرة أثناء حياتى • انه ليشق على
نفسى أن أتذكر هذا كله ، ولقد كان شاقاً فى حينه أيضاً على كل حال •
دقيقةً أخرى وأدرك حانقاً ان ذلك كله لم يكن الا كذباً ، لم يكن الا
كذباً ذمياً ، لم يكن الا تمثيلاً منحطاً - أعنى تلك الندامة والتوبة ،
ذلك الحنان والترقق ، تلك الأيمان المخلطة على أن أحيا حياة جديدة •

فاذا سألتهموني لماذا كنت أعذب نفسي هذا التعذيب ، لماذا كنت أمزق نفسي ذلك التمزيق ، قلت لأنني كان يضجرني كثيراً أن أبقى مكتوف اليدين . فلهذا انما كنت أسترسل في اصطناع تلك الأوضاع الكاذبة .
أؤكد لكم أن الأمر كان كذلك . ارصدوا أنفسكم جيداً أيها السادة ، تلاحظوا أن الأمور تجري على هذا النحو بعينه . كنت أتخيل مغامرات ، وأخلق حياة وهمية لأعيش على هذا النحو أو ذاك . كم من مرة ، مثلاً ، اتفق لي أن أهيئ نفسي عامداً لغير ما سبب : أنت تعلم حق العلم أنه ليس هناك ما يوجب أن تغضب ، وأنت تستثير غضبك وتستفز حقك عامداً ، ولكنك تبلغ من استثارة غضبك واستفزاز حقك أنك تفلح أخيراً في الوصول الى حالة الغضب صادقاً كل الصدق .

كنت أحب هذه الحكايات وأميل الى هذه المشكلات دائماً ، فبلغت من ذلك حداً فقدت معه كل سيطرة على نفسي آخر الأمر . وقد أردت أن أجبر نفسي ، مرةً أو مرتين ، على أن أصبح عاشقاً . حتى لقد تأملت وتعذبت ، أؤكد لكم ذلك أيها السادة . ان المرء لا يصدق أنه في قرارة نفسه ، حتى ليكاد يضحك منه ويستهزئ به ، ولكنه يتألم مع ذلك ، تألماً واقعياً جداً يشعر بنار الغيرة ، ثور نائرتة ، يطيش صوابه ، يخرج عن طوره وليس لهذا كله من سبب الا الضجر أيها السادة . ان العطالة تسحقنا سحقاً . والعطالة هي الثمرة الشرعية ، الثمرة الطبيعية للوعى : فمن كان واعياً كتف يديه عالماً بما يفعل . لقد سبق أن تكلمت عن هذا . وأعود الآن فأكرر ثم أكرر بالحاح : ان جميع الرجال البسطاء الصادقين ، ان جميع الرجال الفعالين انما هم فعالون لأنهم غلاظ الفكر ليسوا على شيء من تفوق العقل .

كيف السبيل الى شرح هذا ؟ اليكم الشرح : انهم بسبب ضيق فكرهم يحسبون الأسباب الثانوية المباشرة أسباباً أولى ، فيتخللون بسهولة

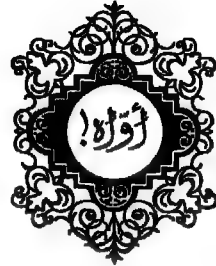
وسرعة ، أكثر من الآخرين ، انهم وجدوا العلل الراسخة الوطيدة الأساسية التى يقوم عليها نشاطهم ، فيهدأون ويطمثون . وهذا الشئ الرئيسى . ذلك أنه لا بد للمرء حتى يستطيع أن يعمل وينشط ، لا بد له من أن يصل أولاً الى طمأنينة تامة ، وأن لا يحتفظ بأى شك . ولكن أننى لى أن أصل الى طمأنينة الفكر هذه ؟ أين عساني أجد المبادئ الأساسية التى أستطيع أن أبني عليها ؟ أين هى قاعدتى ؟ أين أستطيع أن أتشدها ومن أين آتى بها ؟

اننى أمارس التفكير . معنى هذا أن كل علة تستتبع عندى على الفور علةً أخرى بعدها ، علةً أعمق من الأولى ، علةً أساسية أكثر من الأولى ، وهكذا دواليك الى غير نهاية . ذلكم هو جوهر التفكير ، ذلكم هو جوهر كل وعى . ها نحن نجد أنفسنا مرةً أخرى أمام قوانين الطبيعة . والنتيجة ؟ هى نفسها دائماً ، تذكرونها ! لقد حدثكم منذ قليل عن الانتقام . (لا شك أنكم لم تتركوا الأمر ادراكاً جيداً) . يقال : ان الانسان ينتقم ، لأنه يعد ذلك عدلاً . فهو اذن قد وجد المبدأ الأساسى الذى كان يشده : العدل . وهو يشعر اذن بطمأنينة كاملة ، فينتقم هادئاً كل الهدوء ، وهو يظفر بالانتقام ظفراً تاماً ، لاقتناعه بأنه يقوم بعمل عادل شريف . ولكننى ، أنا ، لا أرى فى ذلك لا عدلاً ولا خيراً . فاذا حاولت اذن أن أنتقم كان ذلك من جانبى شراً محضاً . صحيح أن الغضب الحائق قد ينتصر على جميع هذه الترددات ، وقد يستطيع أن ينوب مناب تلك العلة الأساسية ، لا لشيء الا لأنه لا يمكن أن يعد هو تلك العلة الأساسية . ولكن ما حيلتى اذا لم أكن شريراً بقدر كاف ؟ (لقد أشرت الى هذا منذ البداية) .

ان غضبى يخضع لنوع من التحليل الكيميائى ، بسبب تلك القوانين اللعينة نفسها ، أعنى قوانين الوعى . فما ان أميّز الموضوع الذى ينصب

عليه كرمي حتى يتبدد هذا الموضوع ، فاذا البواعث تزول ، واذا المسئول
يختفي ، واذا الاهانة لا تبقى اهانة ، وانما تصير ضربة من ضربات
القدر ، تصير الى شيء يشبه وجع الأسنان، تصير الى شيء ليس ذنباً اجترحه
أحد . ولا يبقى لي من عزاء حينذاك الا أن أحطم قبضتي يدي على
الحائط . فلأنتي استحال عليّ أن أجِد العلل الأولى ، أعدل اذن عن
الانتقام باحتقار مصطنع وازدراء مفتعل . آه . . . ليت الانسان يستطيع أن
يتقاد لعاطفته انقياداً أعمى ، دون أي تفكير ، دون بحث عن أية علة ،
مبعداً عن نفسه كل وعي ، ولو الى حين ! اذن لاختلف الأمر عندئذ
اختلافاً كبيراً . أحِبَّ أو أبغضْ ، العنْ أو عبدْ ، ولكن لا تبقى مكتوف
اليدين ! وغداة غدٍ - هذه آخر مهلة - ستحتقر نفسك لأنك خدعتها
ومكرت بها عامداً بها عامداً . والنتيجة أخيراً : فقاعة صابون ، عطالة .

آه يا سادتي ! لعنني لا أعد نفسي على جانب عظيم من الذكاء الحارق
الا لأنتي طوال حياتي لم أستطع أن أبدأ شيئاً ولا أن أنهى شيئاً . فما
أنا اذن الا ثرثار لا يؤذي ، انسان ثقيل مكدر ، مثلنا جميعاً . ولكن
ماحيلتي أيها السادة اذا كان القدر الوحيد الذي كُتِبَ على كل انسان ذكي
هو أن يثرثر ، أي أن يصب ماءً في غربال !

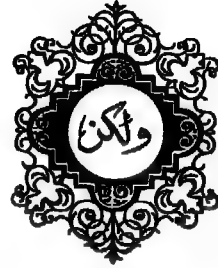


ليتني لم أكن الا كسولاً ! لشد ما كنت سأحترم
نفسى عندئذ ! لأننى كنت سأرى أتنى قادر على
أن أكون كسولاً فى أقل تقدير ، أن تكون لى
على الأقل مزية محددة معينة أنا منها على يقين •

سؤال : من أنت ؟ جواب : كسول ! ما كان أحدى أن أرائنى أسمى
هكذا ! أنا اذن معرف تعريفاً ايجابياً • أنا اذن يمكن أن أوصف بنعت ،
أن يقال عنى شئ • • • • • « كسول ! » - هذا لقب ، هذه وظيفة ، هذه
يا سادتى مهنة ! لا تضحكوا ! الأمر كذلك • كان سيحق لى عندئذ أن
أكون عضواً فى أول نادٍ بالعالم ، وكنت سأقضى وقتى كله فى احترام
نفسى • لقد عرفت سيداً كان كل عجبته وزهو طوال حياته هو أنه ذواقه
يحب خمور بوردو ويحسن معرفتها • كان يعد هذه المزية فضيلة ثمينة
جداً ، وكان لا يساوره أى شك فى نفسه • فمات وضميره ليس مطمئناً
فحسب ، بل ومتصراً أيضاً ، ولقد كان على حق • كنت سأختار لنفسى
رسالة : كنت سأصبح كسولاً وأكولاً ، لا أكولاً عامياً بل أكولاً
محباً للمباهج ، مهتماً « بكل ما هو جميل ورائع » • ما رأيكم ؟ اتنى
أفكر فى هذا منذ زمن طويل • ان « الجمال والروعة » يثقلان على كاهلى
كثيراً منذ أصبحت فى الأربعين من العمر • منذ أصبحت فى الأربعين
من العمر ، أما قبل ذلك فكان يمكن أن يختلف الأمر كل الاختلاف !

كنت سأهتدى فوراً الى صورة من صور النشاط ثلاثى طبعى : مثلاً ،
أشرب نخب جميع الأشياء « الجميلة الرائعة » • كنت سأنتهز كل فرصة
من أجل أن أشرب نخب « الجمال والروعة » ، بعد أن أسكب دمعاً
فى كأسى • وكنت سأجعل جميع الأشياء « جميلة ورائعة » • كنت
سأكتشف « الجمال والروعة » حتى فى القنارات التى لا يُجحد أنها أقدر
القنارات طراً • كنت سأنتز عبوات لا تقل غزارة عن تلك التى تتساقط
من اسفنجة • فإذا رسم أحد الرسامين ، مثلاً ، لوحةً جديدةً بالرسام
جى * ، سأرعت أشرب نخب هذا الرسام ، لأننى أحب كل ما هو
« جميل ورائع » • وإذا نظم أحد الشعراء قصيدة عنوانها « كما يروق
لكل انسان » * ، سأرعت أشرب نخب كل انسان ، لأننى أحب « الجمال
والروعة » • وسيجلب هذا لى احترام جميع الناس • وسأطالب به ،
هذا الاحترام • وسألاحق بغضبى وسخطى كل من يمنعه عنى • أحيا
فى هدوء وطمأنينة ، وأموت فى عظمة وأبهة • أليس هذا فاتناً ؟ أليس
هذا أخاذاً ؟ وكنت سأربى كرشاً يبلغ من الضخامة وأنفاً يبلغ من
السمنة ، ووجهاً تبلغ ذقنه من السعة ، أن كل انسان سيهتف حين يرانى
قائلاً : « هذا انسان له وجود واقعى حقاً ، هذا انسان ايجابى ! » •
لكم ما شئتم ، ولكن لا شك فى أنه يحلو للمرء أن يسمع الناس يقولون
عنه مثل هذه الأشياء فى عصرنا هذا الذى جوهره السلبية الى
أقصى حد •

٧



ما هذا الا أحلام ذهبية •

آ ... قولوا لى : من ذلك الذى أعلن
أول من أعلن ، من ذلك الذى نادى أول من
نادى بأن الانسان لا يرتكب أفعلاً دنيئة الا لأنه
لا يدرك مصالحه نفسها ، فاذا أثرتنا عقله وبصرته بمصالحه الحقيقية ،
مصالحه السليمة ، سارع يكف عن القيام بأعمال دنيئة ، وأصبح على الفور
إنساناً خيراً طيباً شريفاً ، لأنه وقد استنار بالعلم وأدرك مصالحه
الحقيقية ، سيجد فى الخير منفعة نفسها ؛ واذا كان المرء لا يعمل ضد منفعة
عامداً ، فسيكون اذن مضطراً الى فعل الخير اضطراراً ؟ قولوا لى : من
ذلك الذى نادى بذلك أول من نادى ؟ أوه ! ألا انه لطفل ، طفل
لا أكثر ، طفل ساذج غر ! ...

هل اتفق للانسان ، فى يوم من الأيام ، خلال هذه الألوف من
السنين ، أن لا يعمل الا وفقاً لمصلحته ؟ فما قولكم اذن بتلك الملايين
من الوقائع التى تشهد بأن البشر ، مع ادراكهم لمصلحتهم ، ينبذون هذه
المصلحة الى المحل الثانى ، ويسيروا فى طريق آخر مختلف كل
الاختلاف ، طريق ملئ بالمصادفات زاهر بالمخاطرات ؟ وهم رغم هذا غير
مضطرين الى ذلك اضطراراً ولا هم مجبرون عليه اجباراً ، وانما يبدو
انهم يريدون عامدين أن يتكبوا الطريق الذى يُدْكَون عليه ، وأن

يرسموا بحريتهم ، على ما يشاء هواهم وتحب نزواتهم ، طريقاً آخر مليئاً بالمصاعب ، طريقاً عجيباً مستحيلاً غامضاً لا يكاد يعرف أو يدرك . ان هذا يدل على أن هذه الحرية هي في نظرهم أكثر فتنة وجاذبية من مصالحهم ! ما المصلحة ؟ هلاً حددتم لي تحديداً دقيقاً ما هي مصلحة الانسان ؟ وما قولكم اذا وجد يوماً أن المصلحة الانسانية في بعض الحالات يجب أن لا تقوم على تمنى خير من الخيرات ، بل على تشدان شر من الشرور ؟ اذا صح هذا وأمكن أن تعرض حالة كهذه الحالة ، فقد انهار اذن كل شيء . ما رأيكم ؟ هل يمكن أن تعرض حالة كهذه ؟

أتضحكون ؟ اضحكوا أيها السادة ، ولكن أجيئوا ! هل أٌحصيت المصالح الانسانية احصاءً دقيقاً ؟ أليس هناك مصالح لا تدخل في أى تصنيف من التصنيفات التي تضعونها ، ولا يمكن أن تجد لها فيها مكاناً ؟ ذلك أنكم ، فيما أعلم أيها السادة ، قد وضعت سجل المصالح الانسانية على أساس الأرقام الوسطية التي تقدمها الاحصاءات والمعادلات « الاقتصادية العلمية » ، فقلتم ان المصالح الانسانية هي الثراء ، وراحة البال ، والحرية ، وهلم جرا . فاذا نبذ أحد الناس هذا ، عامداً عانداً ، كان ينبغي أن يعد في نظركم (وفي نظري أنا أيضاً على كل حال) امرءاً جاهلاً أو مجنوناً ، أليس كذلك ؟ ولكن هذا هو الأمر الذي يثير الاستغراب والدهشة حقاً : لماذا يُغفل جميع هؤلاء الاحصائيين والحكماء ومجبي البشر ، لماذا يغفلون في حساباتهم للمصالح الانسانية ، لماذا يغفلون عنصراً من العناصر ويسقطونه من هذه الحسابات دائماً ؟ انهم لا يريدون حتى ادخاله في معادلاتهم ، وبذلك تجيء النتائج التي ينتهون اليها كاذبة غير صادقة . وليس هذا بالأمر الصعب مع ذلك . فلماذا لا تكمل القائمة ، لماذا لا تدخل فيها ذلك العنصر ؟ الحق أن الصعوبة ناشئة عن أن هذا العنصر الخاص جداً لا يمكن أن يجد له مكاناً في أى تصنيف ، ولا أن يُسجّل في أية قائمة . اليكم

مثالا على ذلك : لى صديق ... ها ... تذكرت ... انكم تعرفونه
أيضاً • فهو صديق جميع الناس •

حين يتها هذا السيد لأن يعمل ، فانه يبدأ بأن يشرح لكم شرحاً واضحاً جداً ، بعبارة جميلة كبيرة ، كيف يجب عليه أن يعمل حتى يجيء عمله مطابقاً للعقل والحقيقة • ليس هذا فحسب : انه سيناقش بحرارة ، وبحماسة ، المنافع والمصالح الانسانية ، الواقعية السوية السليمة ؛ وستهكم على عماوة الأغنياء الحمقى الذين لا يفهمون لا مصالحهم الحقيقية ولا القيمة الحقيقية للفضيلة • ولكن ما أن ينقض ربع ساعة ، ربع ساعة على وجه الدقة والتمام ، حتى نراه يقوم بعمل سخيف من الأعمال أو يرتكب حماقة من حماقات ، دون أى سبب يحض على ذلك غير اندفاع داخلى أقوى من جميع اعتبارات المصلحة والمنفعة ؛ فاذا هو اذن يعمل على نقيض جميع القواعد التى كان قد ذكرها ، على نقيض العقل ، على نقيض مصالحه ، على نقيض كل شئ • ... أحب أن أنبهكم من جهة أخرى الى أن صديقى شخصية جماعية ، فمن الصعب والحالة هذه أن ندينه وحده • والى هذا انما أردت أن أصل أيها السادة ! أليس هناك شئ هو فى نظرنا جميعاً أعز وأعلى وأثمن من أعز مصالحنا وأغلاها وأثمنها ؟ أليس هناك شئ كهذا حقاً ؟ بتعبير آخر (حتى لا نخالف المنطق) : أليس هناك منفعة (تلك التى يغفلونها من الحساب كما قلنا منذ قليل) هى فى نظرنا أهم من سائر المنافع ، وأثمن منها جميعاً ، منفعة يرضى الانسان فى سبيلها ، اذا لزم الأمر ، أن يعمل على نقيض جميع القواعد ، أى على نقيض العقل ، مضحياً من أجلها بشرفه وراحته وهدوئه وسعادته ، أى مضحياً فى سبيلها بالأشياء الجميلة المفيدة ، لا يحمله على ذلك الا تشدان شئ واحد هو أعز عنده من سائر الأشياء ، وهو فى نظره المنفعة العليا والمصلحة القصوى •

قد يقولون لى : « نعم ، ولكن الأمر ما يزال أمر منفعة ومصلحة » .
 عفوكم ! يجب أن نشرح القضية • اتنا لا نستطيع أن نخرج من المسألة
 وأن نحل المشكلة بجناس لفظى • ان ما يتميز به ذلك الشيء هو أنه
 يهدم جميع التصنيفات ويقلب جميع المذاهب التى بناها أصدقاء الجنس
 البشرى فى سبيل سعادة الانسان ؛ اى انه عائق وحاجز • ولكن قبل أن
 اسمى لكم ذلك الشيء أريد أن أخطر شخصياً ، فأؤكد بجرأة
 وجسارة أن جميع هذه المذاهب الجميلة ، وجميع تلك النظريات التى
 تطمح فى أن تشرح للانسانية مصالحها الحقيقية بغية أن تصبح الانسانية
 على الفور فاضلة نبيلة فيما تبذل من جهود لبلوغ تلك المصالح المزعومة ،
 أقول ان ذلك كله ليس الا استدلالات منطقية ، نعم استدلالات منطقية
 صرفة ! وما مثل الاعتقاد بأن تجديد النوع الانسانى يمكن تحقيقه عن
 طريق تبصير النوع الانسانى بمصالحه الحقيقية ، الا كمثل الاعتقاد مع
 « باكل »* بأن المدنية تلطف طبع الانسان فاذا هو يصبح أقل تعطشاً الى الدماء
 وأقل ميلاً الى الحرب شيئاً بعد شيء • ان الانسان يحب المذاهب البنية
 والاستدلالات المنطقية جداً يبلغ من القوة أنه مستعد لأن يقلب الحقيقة
 عامداً ، مستعد لأن يغمض عينيه ويسد أذنيه أمام الحقيقة ، لا لشيء الا أن
 يسوِّغ الاستدلال المنطقى الذى يقوم به •

وانما ضربت هذا المثل لأنه مقنع • انظروا حولكم ! ان الدم يسيل
 غزيراً ، بل يسيل فى فرح كأنه شمبانيا • انظروا الى قرننا التاسع عشر
 هذا الذى عاش فيه « باكل » ! انظروا الى نابوليون ، نابوليون الآخر ،
 الكبير ، وانظروا الى نابوليون اليوم ! انظروا الى أمريكا الشمالية واتحداها
 الذى قام الى الأبد* ! انظروا الى شلفز فيج – هولشتاين الكاريكاتورى* ..
 ما الذى تطفه المدنية فينا ؟ ان المدنية لا تزيد على أن تمنى فينا تنوع
 الاحساسات ... ولا شيء غير ذلك • وبفضل نمو هذا التنوع ، قد يحدث

أن يتنهى الانسان الى أن يكشف في الدم نوعاً من اللذة ؛ حتى لقد حدث هذا منذ الآن .

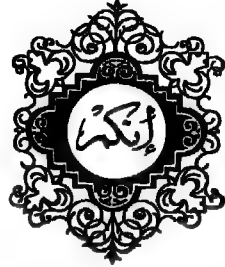
هل سبق أن لفت نظركم أن أرفع المتعطين الى الدماء انما كانوا في جميع الأحيان سادة متمدين جداً لا يقاس بهم أمثال آتيليا وأمثال ستكا رازين * جميعاً ؟ ولئن كان هؤلاء السادة لا يبرزون برون الآخرين ، فلأن عددهم كبير ، ولأننا نصادفهم كثيراً ، ولأننا اعتدنا رؤيتهم وألفناهم . ولكن اذا لم تكن المدينة قد جعلت الانسان أشد تعطشاً الى الدم ، فما لا شك فيه أنها جعلت تعطشه الى الدم أخبث وأجبن . ففي قديم الزمان كان الانسان يرى أن من حقّه أن يسفك دمّاً ، فكان اذا سفك دم من يشاء من الناس ، يفعل ذلك هادئ البال مرتاح الضمير . أما اليوم فنحن نسفك الدماء مثلما كان يسفكها الأقدمون بل أكثر منهم ، رغم أننا نعد سفك الدم عملاً سيئاً . فهل هذا أفضل ؟ اقبلوا في الأمر بأنفسكم ! يقال أن كليوباترة (اغفروا لي هذا المثال المستمد من التاريخ الروماني) كانت تتسلى بفرس ابر في صدور العبيد ، وكانت تجد لذة كبيرة حين تسمعهم يصرخون وحين تراهم يتلوون . ستقولون لي ان ذلك كان يحدث في عصر همجي بعض الشيء ، وان عصرنا هذا همجي هو أيضاً ، لأن الناس ما يزالون يفرسون ابراً في الأجساد ، وان الانسان رغم انه أصبح في هذا الزمان يدرك الأمور ادراكاً أوضح من ادراكه لها في الزمان القديم ، لم يستطع بعد أن يألّف اتباع قواعد العقل والعلم ؛ ولكنكم واثقون بأنه سيألّف هذا متى تحرر تحرراً تالماً من بعض الميول السيئة ، ومتى استطاع العقل والعلم أن يعيدا تربية الطبيعة الانسانية وأن يوجهها في طريق الرشاد . أنتم واثقون بأن الانسان سيكف يومئذ عن خداع نفسه عمداً ، وسيستحيل عليه يومئذ أن يريد معارضة مصالحه السليمة بإرادته .

بل هناك ما هو أكثر من ذلك : فإن العلم - فيما يقولون - سيعلم
الانسان يومئذ (وفي رأيي أن هذا هو منذ الآن ترف زائد) أنه لم يملك
فى يوم من الايام لا ارادة ولا نزوات ، وأن ليس مثله على وجه
الاجمال الا كمثل اصبع يسانو أو دواسة أرغن ، فهو يفعل ما يفعل
لا وفقاً لارادته بل وفقاً لقوانين الطبيعة ، فيكفى اذن أن نكتشف
هذه القوانين ، ولا يمكن أن يعد الانسان عندئذ مسئولاً عن أفعاله ،
وستصبح الحياة سهلة عليه الى أقصى حدود السهولة . لأن جميع الأفعال
الانسانية سيكون حسابها حساباً رياضياً على أساس تلك القوانين ، كما
فعل العلماء ذلك فى اللوغارتمات ، بدقة تبلغ جزءاً من مائة ألف جزء ؛
وستسجل فى تقاويم ، أو ستؤلف فيها كتب ضخمة من نوع معاجنا
الموسوعية ، كتبٌ يحسب فيها كل شيء ويتبأ فيها بكل شيء على نحو
يلبغ من الاتقان أنه لا تبقى بعد ذلك مفامرات ، بل ولا تبقى أفعال •

وعندئذ - أتم تكلمون الآن - سنرى قيام علاقات اقتصادية جديدة
تحدد هي أيضاً بدقة رياضية ، فاذا بجميع المشكلات تزول فوراً ، لسبب
بسيط هو أن جميع الحلول تكون قد اكتشفت • وعندئذ سينى قصر
كبير من الكرستال * • عندئذ سنرى « طائر النار » بيتنا ••• انا
لا نستطيع طبعاً أن نضمن (أنا الآن أتكلم) أن ذلك لن يكون مملاً
املاً رهياً (ما عسانا نفعل اذا كان كل شيء محسوباً ومحدداً من
قبل) • ولكن جميع الناس سيكونون فى مقابل ذلك على جانب عظيم من
الحكمة • آه من الملل ! آه من الضجر ! بش السأم ناصحاً ! ان السأم
هو الذى يحملنا على أن نغرس فى اللحم ابراً من ذهب ••• ولكن هذا
ليس أقبح ما فى الأمر • ان ما هو أخطر من ذلك (ما زلت أتكلم أنا) هو
أننا نجد سعادة عظيمة فى أن يكون بين أيدينا ابر : ان الانسان غبى ،
غبى غباءً فظيماً ، بل قولوا انه ليس غبياً بقدر ما هو عاق ، حتى يستحيل

أن نثر على من هو أشد عقوقاً من الانسان • لذلك لن يدهشني البتة أن أرى حيثز سيداً من السادة خالياً من الأناقة والكياسة • رجى ، الوجه ساخر الهيئة ، يهب واقفاً وسط تلك السعادة والهناء ، واضعاً قبضتي يديه على خاصرتيه ، قائلاً : هيه أيها السادة ، ألا رمينا في التراب ، بركة واحدة ، كل هذه السعادة العاقلة ، لا لشيء الا أن نرسل هذه اللوغارتمات جميعها الى الشيطان ، وأن نستطيع استئناف حياتنا على ما يشاء لنا خيالنا وهوانا ؟ وهذا كله لن يكون شيئاً ذا بال • وانما أقطع ما فى الأمر أن ذلك الرجل سيجد حتماً مؤيدين ومريدين • هكذا خلق الانسان • ومرد ذلك كله الى شيء صغير غاية الصغر ، شيء يمكن اعماله اهمالاً تاماً فيما يبدو : مرد ذلك كله الى أن الانسان ، أياً كان ، ينطلع فى كل زمان ومكان الى أن يعمل وفقاً لارادته لا وفقاً لأوامر العقل والمصلحة • وارادتك يمكنها بل و • يجب عليها ، أحياناً (هذه الفكرة فكرتي أنا شخصياً) أن تناقض مصالحكم • فارادتي الحرة ، ومشيتي الطليقة ، ونزوتى مهما تكن مجنونة ، وبدوات خيالى مهما تكن محتاجة محمولة ، ذلكم هو بعينه الشيء الذى يفلونه ويسقطونه من الحساب ، تلكم هى المصلحة التى هى أغلى وأثمن من سائر المصالح ، والتى لا يمكن أن تجد لها مكاناً فى تصنيفاتكم ، والتى تحطم جميع المذاهب وجميع النظريات ألف جزء •

من أين استمد حكمائنا هذا الرأى القائل بأن الانسان فى حاجة الى تلك الارادة السوية الفاضلة التى لا أدرى ما هى ؟ لماذا تخيلوا أن الانسان يصبو الى ارادة عاقلة نافعة ؟ ان الانسان لا يتوق الا الى ارادة « مستقلة » ، مهما يكن ثمنها ومهما تكن عواقبها • ولكن لا يدرى الا الشيطان ما قيمة تلك الارادة •••



تقاطعوننى قائلين : « ها ! ها ! ها ! ولكن الارادة
لا وجود لها . فقد استطاع العلم منذ الآن أن
يشرح الانسان تشريحاً يبلغ من العمق أننا
أصبحنا نعلم أن الارادة وما يسمى بحرية

الاختيار ليسا الا . . . »

- عفوكم يا سادة ! لقد كنت أستعد أنا نفسى لأن أبدأ بهذا الكلام .
حتى لقد شعرت بخوف ، أعترف لكم بذلك : لقد هممت أن اهتف قائلاً
ان الارادة رهن بما لا يدرى الا الشيطان ما هو . . . وأن هذا ربما كان
حظاً موقفاً كل التوفيق ، ولكننى فكرت فى العلم ، فعضضت على لسانى ،
وفى تلك اللحظة انما قاطعتمونى . فاذا استطعنا فى الواقع أن نكتشف
معادلة جميع رغباتنا ، وجميع نزواتنا ، أى اذا استطعنا أن نكتشف
المصدر الذى تتبع منه ، والقوانين التى تحكم ظهورها وتطورها ، واذا
عرفنا كيف تتكاثر وتتوالد ، وما هى الأهداف التى تسعى اليها فى هذه
الحالات أو تلك ، الخ ، كان من الجائز أن يكف الانسان عندئذ فوراً عن
أن يريد . . . وليس هذا جائزاً فحسب ، بل هو محقق مؤكد أيضاً . فأية
لذة يمكن أن يجدها الانسان فى أن لا يريد الا وفقاً لجداول حساب ؟
بل ليس هذا كل شئ أيضاً : ان الانسان سيسقط عندئذ توالى الى صف
مسمار فى آلة . ما عسى يكون انسان بلا رغبة ولا ارادة ، ان لم يكن

مسماراً في آلة أو شيئاً من هذا القليل ؟ ما رأيكم ؟ لتتظر في الاحتمالات
الممكنة : أيمكن أن يحدث هذا أم لا ؟

ستقولون :

- هم ... ان رغباتنا تخطيء في كثير من الأحيان لأننا نخطيء
في حساب قيمة مصالحنا ومنافعنا . فنحن انما يتفق لنا أن نريد أموراً
سيئة لأننا نظن بمساعدة الغباء أننا بذلك نتقرب مما نعدده ذا فائدة كبيرة
ومنفعة عظيمة . ولكن متى شُرح لنا كل شيء ، متى تم ترتيب كل شيء ،
متى تم ترتيب كل شيء وتحديد كل شيء (وذلك جائز جداً ، لأن
من السخف ومن الغباء أن نظن أن بعض قوانين الطبيعة ستبقى الغائراً
مستغلة على الفهم) فمئذ لن يبقى هنالك محل لما يسمى رغبات بطبيعة
الحال . فإذا نشب صراع بين رغباتنا وعقلنا ، كان في وسعنا أن نفكر
لا أن نريد ، لأنه يستحيل على انسان عاقل أن يرغب في أمور سخيصة ،
وأن يلقض العقل عامداً ، وأن يسعى الى إيذاء نفسه بنفسه ...
وما دامت جميع الرغبات وجميع استدالات الفكر يمكن أن تحسب
سلفاً ، لأننا نكون قد اكتشفنا قوانين ما يسمى بحرية الاختيار ، فسيكون
من الممكن في ذات يوم (ولست أمزح) أن نضع شيئاً يشبه أن يكون
قائمة أو ثبناً ، وأن نرجع في ارادتنا الى هذه القائمة أو الثبت . لتفرض
أنه برهن لي في يوم من الأيام على أنني اذا أريت أحد الناس قبضة
يدي ، فانما أنا أفعل ذلك لأنني لم يكن في وسعي أن أفعل غير ذلك ،
ولأنني كان لا بد لي أن أقض يدي على هذا النحو نفسه . فما هي
الحرية التي لا أزال أملكها ، ولا سيما اذا كنت أنا نفسي عالماً وكنت
أحمل شهادة جامعية ؟ انني أستطيع أذن أن أحسب حياتي على مدى
ثلاثين سنة سلفاً . خلاصة القول : اذا تحقق هذا فلن يكون علينا ان
نفعل شيئاً غير أن نفهم . وينبغي لنا أن نكرر على مسامعنا ، بوجه عام ،

دون ما أسف أو حسرة ، أن الطبيعة ، فى هذه اللحظة وفى هذا الطرف
بعينه ، لا تهتم بنا أى اهتمام ، ولا تكثر لنا البتة ، وأن علينا اذن أن
نقبلها كما هى لا كما يزينها لنا خيالنا ، فاذا كنا نتوق فعلاً الى المعادلات ،
والى التقاويم ، والى الاميق ، فليس علينا الا أن نقبل الاميق ونسلم به
ونرتضيه ، فان لم نفعل استغنى الاميق عن رضانا به وتأيدنا له كل
الاستغناء .

نعم ، ولكن فى هذا الموضع بعينه انما تبدو لى الصعوبة . واعذرونى
اذا أنا أخذت أتفلسف هذا التفلسف . لا تنسوا اننى فى الأربعين من
عمرى ، وأننى قضيت الأربعين فى قبوى . اسمعوا يا سادتى ، ان العقل
شئ ممتاز رائع . ذلك أمر لا يمكن جحوده . ولكن العقل هو العقل ،
وهو لا يرضى فى الانسان الا ملكة التفكير العلى ، أما الرغبة فهى تعبر
عن مجموع الحياة ، أى عن الحياة الانسانية كلها ، بما فيها العقل
ووساوسه . ورغم أن حياتنا ، فى تعبيرها عن نفسها على هذا النحو ،
تكتسى فى كثير من الأحيان مظهراً رديئاً جداً ، فذلك لا ينفى أنها الحياة ،
لا استخراج الجذر التربيعى .

ولأضرب بنفسى مثلاً : أنا أريد أن أحيا طبعاً ، بنية أن أرضى
ملكة الوجود فى جملتها ، لا بنية أن أرضى ملكة التفكير العلى وحدها ،
التي لا تمثل الا جزءاً من عشرين جزءاً من القوى القائمة فى نفسى .
ما الذى يعرفه العقل ؟ ان العقل لا يعرف الا ما تعلم (ولعله لن يعلم
شيئاً غير هذا فى يوم من الأيام ، وليس ذلك عزاءً ولكن ما ينبغي أن
نخفيه) ، أما الطبيعة الانسانية فانها تفعل بكل ثقلها ان صرح التعبير ،
مستخدمة كل ما تظمه وتشتمل عليه ، بشمور وغير شمور . قد ترتكب
أكاذيب ، ولكنها تحيا .

أحسب يا سادتى أنكم تنظرون الى شئ من الازدراء والاحقار :

اتكم ترددون على مسامعي أنه يستحيل على انسان متوّر مثقف ، يستحيل على انسان المستقبل أن يرغب عامداً فيما ينأقض مصالحه وأن يريد ما يتنافى مع منافعه . واتى أوافقكم فى هذا كل الموافقة : نعم ، هذا صحيح صحة رياضية . ولكننى أعود فأكرر على مسامعكم للمرة المائة قولى : ان هناك حالة ، حالة واحدة ، قد يريد فيها الانسان ، عامداً ، أن يشد ما هو مخالف لمصلحته ، وأن يسعى الى ما يبدو له غباء وبلاهة وسخفاً ، لا لشيء الا أن يتحرر من الاضطراب الى اختيار ما هو نافع ولائق . ذلك أن هذه السخافة ، هذه النزوة ، قد تكون يا سادتى أنفع شيء فى نظرنا على وجه الأرض ، ولا سيما فى بعض الأحوال . حتى لقد تكون هذه المنفعة أعلى من سائر المنافع ، ولو كانت تحمل لنا أذى واضحاً ، وكانت تناقض أسلم النتائج التى ينتهى اليها استدلالنا العقلى وتفكيرنا المنطقى . ذلك أنها تصون لنا وتحفظ علينا الشيء الذى هو أعز عندنا وأعلى فى نظرنا من سائر الأشياء ، ألا وهو شخصيتنا ؟ فان بين الناس من يؤكدون أن هذا بعينه هو أئمن ما نملك . قد تريد الارادة أحياناً أن تكون على اتفاق مع العقل ، لا سيما حين لا يكون فى هذا الاتفاق غلو وحين يُستفاد منه استفادة معتدلة . وقد يكون هذا نافعاً خليقاً بالتحيز والتأييد . ولكن الارادة فى كثير من الأحيان ، بل وفى أكثر الأحيان ، ترفض فى عناد أن تكون على اتفاق مع العقل ، وعندئذ . . . عندئذ . . . ولكن هل تعلمون أن هذا « أيضاً » نافع جدير بالتحيز والتأييد جداً ؟

لنسلم أيها السادة بأن الانسان ليس غيباً . والواقع أننا لا نستطيع أن نقول ان الانسان غيبى ، اذ لو كان غيباً فمن ذا الذى يمكن أن يزعم لنفسه الذكاء ؟ ولكن اذا لم يكن الانسان غيباً ، فهو على الأقل عاقل عقوقاً فطيعاً ، عقوقاً خارقاً ؟ بل اننى لأعتقد أن خير تعريف يُعرّف به الانسان

هو التعريف التالى : كائن يمشى على قدمين وعاق • وليس هذا كل شئ •
 بعد : ليست هذه الآفة آفته الرئيسية ، وانما آفته الرئيسية أنه سىء
 الطبع ، وأنه احتفظ بسوء طبعه هذا منذ عهد الطوفان الكبير الى العهد
 السلفىجيهولشتاني من تاريخنا • واذا قلنا سوء الطبع فقد قلنا طيش
 السلوك ، فمن المعروف منذ زمان طويل أن الأمرين مرتبطان وأن
 أحدهما مشتق بالآخر • حاولوا أن تلقوا نظرة على تاريخ الانسانية :
 ماذا ترون ؟ قد تقولون : نرى فحامة وروعة ! نعم ، هذا جائز • ان
 تمثال رودس وحده يمثل شيئاً عظيماً • وليس عبثاً أن صاحبنا السيد
 آنايفسكى* يذكر لنا أن بعضهم يرى أن هذا التمثال هو من صنع القوى
 الطيحية • وقد تقولون : انا نرى تنوعاً كبيراً • حقاً ، ان هناك شيئاً من
 تنوع : يكفى أن تلقى نظرة على مختلف الأزياء الموحدة الكبرى ، العسكرية
 والمدنية ، خلال المصور وعند شتى الشعوب ، عدا أنواع الثياب الأخرى ،
 حتى نفتتح بذلك • ان هذا كله متنوع تنوعاً يخلب الأبصار ، ويتيه فيه
 الفكر ، ولا يصمد لاغرائه مؤرخ • وقد تقولون انا نرى تشابهاً ورتابة !
 ممكن • فالناس فى الواقع لا يزدون على أن يقتلوا • اقتلوا أمس ،
 ويقتلون اليوم ، وسيقتلون غداً • حقاً أن فى هذا اسرافاً فى التشابه
 والرتابة ، اعترفوا بذلك •

أى أننا نستطيع أن نقول عن التاريخ العام كل شئ • ، نستطيع أن
 نقول عنه كل ما يسنُّ على البال ويدور فى الخيال • ولكن يستحيل علينا
 أن نقول عنه انه مطابق للعقل : ان لساننا سيثلم منذ تنطق بأول حرف
 من هذا الكلام • وما الذى نلقاه فى كل يوم أيضاً ؟ أننا نلقى كل يوم
 أناساً يظهرن لنا عقلاء حكماء ، أناساً يحبون الانسانية ، ويهدفون الى
 أن يعيشوا حياة تستوحى العقل وتستلهم مبادئ الشرف بنية أن يؤثروا
 فى أقرانهم بالقوة الحسنة وأن يبرهنوا لهم على أن فى وسع الانسان أن

يلتزم في حياته جانب الحكمة . ولكن ماذا يحدث عندئذ ؟ انكم تعرفون أن عدداً من محبي الحكمة هؤلاء ينتهي بهم الأمر عاجلاً أو آجلاً الى أن يخونوا أفكارهم وأن يتورطوا في قصص فاضحة !

فماذا يمكن أن تتوقع من الانسان ، ماذا يمكن أن تتوقع من هذا الكائن الذي أوتي هذه الصفات العجيبة ؟ حاولوا أن تفقدوا عليه جميع خيرات الأرض ؟ أغرقوه في السعادة اغراقاً ؟ لبوا حاجاته الاقتصادية تلبية تبلغ من الكمال أن يصبح في غير حاجة الى شيء غير أن ينام ويأكل فاخر الحلوى ويفكر في الوسائل التي تكفل استمرار التاريخ العام ... فماذا يحدث عندئذ ؟ أن الانسان ، حتى في هذه الحالة ، سينقاد لعقوبه ، وسينساق مع حاجته الى تلويث نفسه ، فيرتكب حقارة من الحقارات من باب السكر وعرفان الجميل ! ... حتى لقد يجازف بفاخر حلوله ، فيسعى الى أخطر الحماقات ، وأضر السخافات ، لا لغرض الا أن يمزج تلك الحكمة الايجابية الوضعية بنصر خيالي شاذ مؤذ . تلك أحلام وهمية وغباوات تافهة يريد المحافظة عليها لا لهدف الا أن يبرهن لنفسه (كما لو كان ذلك ضرورياً الى هذه الدرجة حقاً) على أن البشر بشر وليسوا أصابع يانو تتنازل قوانين الطبيعة أن تعزف عليها وتلعب بها ، وهي تعزف عليها وتلعب بها في براعة تبلغ من الخلق أنه لن يبقى من الممكن في المستقبل القريب أن يريد الانسان أى شيء دون الرجوع الى التفاويم والاعتماد عليها . وهب أن الانسان ليس الا اصبع يانو ، وهبك استطعت أن تبرهن له على ذلك برهاناً رياضياً ، فانه لن يعود الى الصواب ولن يلتزم جانب الحكمة والرشاد ، بل سيظل يرتكب حماقة من الحماقات ، لا لشيء الا أن يدل على عقوبه ويستمر في انقياده لنزوته ؟ وقد يوغل في التخريب ، وينحدر الى السديم والفوضى اذا أعوزته الوسائل الأخرى ؟ فاذا هو يسبب شروراً لا أدرى ما هي ، ولكنه لن يستلهم

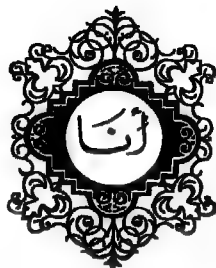
فى آخر الأمر الا ما يمنُ بباله ويأمره به خياله ، ثم اذا هو يصب على العالم لعتة ؟ واذا كان الانسان لا يملك شيئاً الا أن يلعن (وهذه ميزته التى ينفرد بها من دون سائر الحيوانات) ، فسيحقق بذلك أهدافه ويبلغ غايته ، وهى الاقتناع بأنه انسان وليس مسماراً فى آلة .

فاذا قلتم لى ان السديم والظلمات والغوضى واللغات ، اذا قلتم لى ان ذلك كله أيضاً يمكن حسابه سلفاً ، فتكون امكانية هذا الحساب وحدها قادرة على أن تشل اندفاع الانسان ، ويتسنى للعقل عندئذ أن يتصر مرةً أخرى اذن ، قلت فان الانسان لا تبقى له والحالة هذه الا وسيلة واحدة من أجل أن يعمل بوحى رأسه ، ألا وهى أن يفقد عقله عامداً ، وأن يجنَّ جنوناً تاماً .

أنا من ذلك على يقين . أنا أضمن لكم أن هذا ما سيحدث . اذ يبدو أن الهم الأكبر الذى كان يشغل الانسان فى جميع الأزمان هو أن يبرهن لنفسه بغير انقطاع على أنه انسان لا جزء من آلة . كان الانسان يجازف فى سبيل هذا بجلده ، ولكنه كان يظفر بأن يبرهن لنفسه عليه . كان يعيش حياة سكان الكهوف ، ولكنه كان يبرهن لنفسه على ما يريد البرهان لها عليه . فكيف بعد هذا لا نغبط أنفسنا ولا نهنى أنفسنا على أننا لما نصل الى هذه المرحلة ، وعلى أن الارادة ما تزال متوقفة على ... لا أدرى ماذا ؟

قد تصيحون قائلين (اذا كنتم ما تزالون تولوننى شرف الصراخ فى وجهى) ان أحداً لا يخطر بباله أن يحرمنى من ارادتى ، وان هذه الجهود كلها ليس لها من هدفٍ الا أن ترتب الأمور على نحو يمكن ارادتى أن تكون من تلقاء نفسها ، وبمبادرتها هى ، على اتفاق مع مصالحى السوية ، مع القوانين الطبيعية ، مع علم الحساب .

دعونا من هذا الكلام أيها السادة ! ما عسى يبقى من ارادتي حين
لا يكون علىَّ أن لا أرجع الا الى جداول الحساب ، وحين لا يبقى الا
« $2 \times 2 = 4$ » ؟ ان 2×2 تساوى ٤ دون أن تتدخل في هذا ارادتي •
وانما تريد الارادة شيئاً آخر •



يا سادتي أمزح طبعاً ؛ بل اننى لأعلم أن أمازيحى
ليست حسنة جداً • ولكن هذه الأمازيح ليست
أمازيح فحسب • ولعلنى أمزح وأنا أصرف
بأسنانى غيظاً • يا سادتي ، هنالك أسئلة ترهقنى
من امرى عسراً ، وتعذبنى تعذيباً : فساعدونى فى حلها • أتم مثلاً
تريدون أن تحرروا الانسان من عاداته القديمة ، وأن تصلحوا ارادته
على ما توجهه حقائق العلم ومبادئ العقل • ولكن كيف عرفتم أن الانسان
يستطيع ويجب عليه أن يصلح ؟ من أين استنتجتم أن ارادة الانسان
ينبغى أن تربي حتماً ؟ وبكلمة واحدة : لماذا تظنون أن هذه التربية مفيدة
للانسان حقاً ؟ ما مصدر هذا الاقتناع الراسخ لديكم بأن من الخير للانسان
دائماً أن لا يعارض مصالحه السليمة السوية الواقعية التى يضمنها الاستدلال
ويكفلها الحساب ؟ ليس هذا فى آخر الأمر الا افتراضاً تفترضونه •
لنسلم جدلاً بأن هذا هو القانون المنطقى فعلاً ، ولكن أهو القانون
الانسانى حقاً ؟ ربما تخيلتم أننى مجنون يا سادتي ، أليس كذلك ؟
فاسمحوا لى اذن أن أشرح ما بنفسى •

اننى أسلم لكم بأن الانسان هو فى جوهره حيوان بناءً ، مضطر
أن يتجه واعياً نحو هدفٍ ما : انه مهندس ؟ فعليه اذن أن لا ينسى

طرقاً جديدة في جميع الاتجاهات • ولكن ربما كان هذا نفسه هو السبب في انه يريد أحياناً ان يوارب ويتملص ، لا لشيء الا لانه « محكوم عليه » أن يرسم طريقاً ، ولأن الانسان العامل الفعال ، مهما يكن غيباً ، يحزر في بعض الأحيان أن الطريق يؤدي دائماً الى « مكان ما » وأن اتجاه الطريق ليس هو الأمر الهام ، وإنما الأمر الهام هو أن الطريق يفضي الى مكان ما ، حتى لا يخطر ببال الطفل الحكيم العاقل أن يحترق مهنة الهندسة التي يعمل فيها ، ويستسلم للكسل الذي هو أبو الآفات جميعاً كما هو معلوم • صحيح أن الانسان يحب كثيراً أن يبنى وأن يشق طرقاً ، ذلك أمر لا جدال فيه ؟ ولكن لماذا نرى الانسان يحب الهمم والفوضى كذلك جداً يبلغ هذا المبلغ من القوة ؟ هلاً قتم لي لماذا ؟ ولكنني أحب أنا نفسي أن أقول بضع كلمات في هذا الموضوع •

أليس جائزاً أن يكون مرد هذا الحب القوي للهمم والفوضى لدى الانسان (والانسان يحب الهمم والفوضى أحياناً ، ذلك أمر لا جدال فيه) أليس جائزاً أن يكون مرد ذلك الى أن الانسان يخشى بفريرته أن يبلغ الهدف وأن يتم الصرح الذي يبنيه ؟ ما يدريكم ؟ لعل الانسان لا يحب هذا الصرح الا من بعد ، لا من قرب • لعل الانسان يحلو له أن يبنيه لا أن يعيش فيه ، ولعله مستعد أن يتركه « للحوانات الداجنة » * : للنمل ، للشيء ، الخ • والنمل من جهته له أذواق أخرى • ان للنمل في هذا المضمار مبنى آخر يتحدى العصور هو قرية النمل •

ان النمل المحترم انما بدأ بقرية نمل ، ولعله سينتهي في آخر المطاف من عمله بقرية نمل ؟ وذلك أمر يشرق ما يبذله من جهد دائم ، وما يبدية من حسن عمل • ولكن الانسان كائن متقلب الرأي ، وربما كان ، كلاعب الشطرنج ، لا يحب الا العمل نفسه ، لا الهدف الذي يجب بلوغه • ومن يدري ؟ (ليس هناك ضامن) ، ربما كان

الهدف الوحيد الذى تسمى اليه الانسانية هو هذا الجهد وحده ، هذا العمل وحده . وبتعبير آخر : قد لا يكون للحياة هدف خارجى هو ذلك الهدف الذى لا يمكن أن يكون طبعاً الا « $2 \times 2 = 4$ » ، أى لا يمكن أن يكون الا معادلة . وهذه المعادلة يا سادتى هى مبدأ موت لا مبدأ حياة . ومهما من أمر فان الانسان قد خشي دائماً معادلة « $2 \times 2 = 4$ » هذه ، وأنا أيضاً أخشاه .

صحيح أن الانسان لا يهتم الا بالسعى وراء معادلة « $2 \times 2 = 4$ » ، وهو فى سعيه وراءها يجتاز محيطات ويعرض حياته لمخاطر . ولكنى أحلف لكم على أنه يخاف من الوصول اليها ، ويتهب ادراكها ادراكاً واقعياً ، ذلك أنه يحس أنه متى وصل اليها لم يبق له شيء يعمل . ان العمال حين ينهون عملهم يتقاضون أجرهم ويذهبون الى الحمار ، وقد يختمون ليلتهم مع الشرطة ، فيشغلهم هذا أسبوعاً على الأقل . ولكن الى أين يذهب الانسان ؟ مهما يكن من أمر ، فانتا تلاحظ فى الانسان ، على الدوام ، شيئاً من الضيق كلما وصل الى هدف من تلك الأهداف . انه يحرص على الاقتراب من الهدف ، ولكنه متى وصل اليه أصبح غير راضٍ . ذلك أمر مضحك حقاً . الخلاصة أن الانسان قد كُوِّنَ تكويناً مضحكاً جداً ، انه مكوِّن تكويناً يبعث على الضحك مثلما تبعث عليه نكتة قائمة على الجناس اللفظى . ولكن كيف دار الحال ، فان « $2 \times 2 = 4$ » شيء لا يحتل ولا يطاق . وفى رأى أن معادلة « $2 \times 2 = 4$ » تنفرس فينا بوقاحة . انها تضع يديها على خاصرتيها وتعرض طريقنا وتبصق فى وجوهنا . أنا أسلم بأن « $2 \times 2 = 4$ » شيء عظيم . ولكن اذا كان لا بد من التناء على كل أمر من الأمور ، فانتى أقول لكم ان معادلة « $2 \times 2 = 5$ » هى أيضاً فى بعض الأحيان شيء جميل جداً ، فان

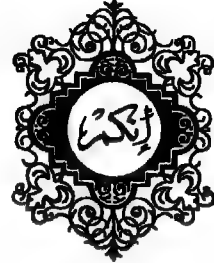
جداً .

نم ، فيم اقتاعكم هذا الراسخ الذي لا يتزعزع ولا يتزعزع ، فيم
 اقتاعكم هذا الجازم القاطع بأن الشيء الطيبي السوى ، الشيء الايجابي
 الوضعي ، الشيء الذي يكفل الرخاء والراحة والدعة هو وحده ضروري؟
 وتعبير آخر : أليس يخطيء العقل في تقديراته ؟ جائز أن الانسان
 لا يحب الراحة والرخاء والدعة وحدها . جائز أن الانسان يحب الألم
 والعذاب أيضاً . أليس جائزاً أن يكون الألم مفيداً للانسان كفائدة الدعة
 سواء بسواء ؟ ان الإنسان يأخذ في التوله بالألم أحياناً . ذلك واقع .
 ولا حاجة بنا البتة الى أن نستشير التاريخ العام في هذا الأمر ، وأن
 نستفتيه فيه . أسألوا أنفسكم ، اذا كنتم بشراً ، واذا كنتم قد عشتُم ولو
 قليلاً . أما اذا سألتُموني رأيي الشخصي ، فإني أقول لكم انه غير
 اللائق بالانسان أن لا يحب الا الدعة والراحة والرخاء . أهذا خير ؟ أهذا
 شر ؟ لست أدري . ولكنه ممتع جداً في بعض الأحيان أن يحطم المرء
 شيئاً ما . لست أدافع هنا عن الألم أو عن الدعة ؟ وانما هي رغبتى أنا ،
 وتزوتى أنا ، واني لأصرُّ على أن تكفّل لي وأن تُضَمّن اذا وجب
 الأمر . أنا أعلم أن الآلام في التمثيلات الهزلية مثلاً غير مقبولة ؟
 لا ولا يمكن قبولها في قصر من كريستال : ففي الألم شك وريب ،
 وانكار ونفي . ولكن ما عسى يكون قصر من الكريستال يمكن الشك
 فيه ، وأنا على يقين من الانسان لن يتنازل يوماً عن الألم الحق ، أى عن
 التحطيم والفوضى والسديم .

الألم ! ألا انه لهو السبب الوحيد للشعور ، والعلّة الوحيدة
 للوعى ! صحيح أنني أعلنت لكم في البداية أن الوعي هو في رأيي من
 أكبر عيوب الانسان ومن أعظم آفاته . ولكنني أعلم أن الانسان يحبه ،
 وأنه لن يرتضى أية لذة من اللذات بديلاً له . الوعي ، مثلاً ، أعلى

كثيراً من « $2 \times 2 = 4$ » ، وبعد « 2×2 » ، لا يبقى بطبيعة الحال شيء ،
لا يبقى شيء نعمله ، لا ولا يبقى شيء نعرفه . الأمر الوحيد الذي يبقى
لنا عندئذ هو أن نسد حواسنا الخمس وأن نفرق في التأمل . صحيح أننا
بالوعي نصل الى نتيجة مماثلة ، أى الى القمود عن الفعل ، ولكننا نستطيع
على الأقل ، عندئذ ، أن نلهب أنفسنا من حين الى حين ، وذلك يشجذ
فينا الفكر والروح على كل حال . ذلك رجى جداً ، ولكنه يظل خيراً
من لا شيء ! ...

١٠



تؤمنون بقصر الكريستال الذى لا يتهدم الى
الأبد ، والذى لا يمكن للمرء أن يمد له لسانه
ساخراً ، ولا أن يريه قبضة يده خلصة . ولئن
كنت أنا أشك فى قصر الكريستال وأحذر منه ،
فلعل ذلك لا يرجع الا الى أنه من كريستال ، وأنه لا يتهدم ، وأن المرء
لا يستطيع أن يمد له لسانه ولو خفية وخلصة .

انظروا : لنفرض أنني لا أملك ، بدلاً من قصر الكريستال ،
الا خمّ دجاج ؟ ولنفرض أن السماء أمطرت . اتنى قد أنسلل الى خمّ
الدجاج اتقاءً للمطر ، ولكنى مع اعترافى بما لحقّ الدجاج علىّ من فضل ،
لأنه وقانى من المطر ، لن أعدّ خمّ الدجاج هذا قصراً . انكم تضحكون ،
وانكم تقولون لى ان خمّ الدجاج والقصر يتساويان فى مثل هذه الحالة .
فأقول لكم : هذا صحيح ، اذا كان الانسان لا يحيا الا فى سبيل أن لا تبلله
مياه الأمطار .

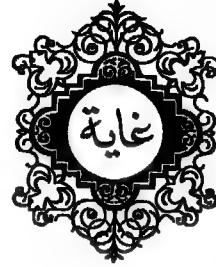
ولكن ما حيلتى اذا كنت قد وضعت فى رأسى أن الانسان لا يحيا
فى سبيل هذا فحصب ، وأن الانسان اذا كان يريد أن يحيا فى قصر من
الكريستال انما يجب أن يسكن ؟ تلك ارادتى ، تلك رغبتى . ولن
تفلحوا فى انتزاع هذه الارادة من نفسى الا حين تستطيعون أن تبدلوا
رغباتى . فهياً بدّلوها ان كنتم قادرين ، هياً اعرضوا لى هدفاً آخر ، هياً

قدموا لى غاية أخرى ، هيّا اعطونى مثلاً أعلى آخر ! ولكنى بانتظار ذلك ، أرفض أن أعد خمّ الدجاج قصر كريستال • قد لا يكون قصر الكريستال الا خرافة ، وقد ترفضه قوانين الطبيعة ، وقد أكون اخترعته اختراعاً من باب الحماقة والغباء تدفعنى الى ذلك عادات مخالفة للعقل تعودها أبناء جيلنا ! ولكن ما قيمة هذا الكلام اذا كان قصر الكريستال هذا موجوداً فى رغباتى ، وما دام باقياً ما بقيت رغباتى • أظن أنكم ما زلتم تضحكون ! فاضحكوا ما شاء لكم هواكم أن تضحكوا ! سوف أقبل جميع السخریات ، ولكنى سأرفض أن أقول اننى شعبان حين أكون ما أزال جائعاً • لن أكتفى بتسوية ، لن أقبل حلاً وسطاً ، لن أقبل صفرآ يتكرر الى غير نهاية ، لا لشيء الا لأنه مطابق للقوانين الطبيعية ، وأنه موجود فى الواقع فعلاً • لن أقبل أن تتوج رغباتى بأن أستأجر ، بأجر زهيد ، لمدة ألف عام ، بيتاً من آجر عليه اسم طيب الأسنان فاجنهام • حطموا رغباتى ، اقبلوا مثلى الأعلى ، قدموا لى هدفاً أفضل ، فأتبعكم حينذاك • قد تقولون اننى لا أستحق منكم عناء الاهتمام بأمرى • ولكنى سأجيبكم عندئذ بمثل ما تقولون • انا نتناقش جادين ، فاذا لم تنزلوا الى حيث تلتفتون الىّ وتولونى اتباهكم ، فلن يبكينى هذا • ان لى قبوى •

ولكن ألا فلتتيسر يداى اذا أنا حملت الى ذلك البيت ولو آجرة واحدة ، ما ظللت أوجد ، وما ظللت أرغب ! لا تقولوا لى اننى قد تنازلت أنا نفسى منذ قليل عن قصر الكريستال لسبب واحد هو اننى لن أستطيع أن أخرج له لسانى ساخراً • لئن قلت هذا الكلام ، فما ذلك لأننى أحب اخراج لسانى كل هذا الحب • ولعل ما يثير حقتى هو أن مبانيكم جميعها ليس فيها واحد الا ويمكن أن يخرج له المرء لسانه • بالعكس : اننى مستعد لأن أقطع لسانى عرفاناً بالجميل اذا رُتبت الأمور ترتيباً

لا أشعر بعده برغبة فى أن أخرج لسانى • مهما يكن من أمر ، فليس
يعنى أن يكون هذا مستحيلاً ، وأن لا يكون بدٌ من الاكتفاء بالبيوت
المكتراة بأجر بخس ! ولكن لماذا تهيش فى نفسى تلك الرغبات ؟ أأكون
الهدف من تكوينى على هذا النحو هو أن ألاحظ أن هذا التكوين ليس
الا مزحة دميمة ؟ أأكون هذا هو الهدف حقاً ؟ لا أظن ذلك !

ولكن هل تعرفون ما سأقوله لكم ؟ اننى مقتنع بأننا ، نحن أهل
الأقيّة ، يجب أن نُلجِمَ • ان انسان القبول قادر على أن يمكث صامتاً
فى قبوه أربعين سنة ، ولكنه اذا خرج من جحره انطلق خارجاً من صمته ،
وأخذ يتكلم ، ويتكلم ، ويتكلم ...



الغايات يا سادتي أن لا يفعل المرء شيئاً البتة •
 ان القعود عن الفعل والخلود الى التأمل مفضلان
 على أى شيء آخر • عائش القبو اذن ! فرغم
 ما قلته منذ قليل من اننى أحسد الانسان السوى
 الطبيعى أشد الحسد ، فاننى حين أراه على ما هو عليه ، أتنازل عن أن
 أكون انساناً سوياً طبيعياً (مع استمرارى على حسده) • لا ! لا ! ان
 القبو أفضل وأحسن على كل حال • فهناك يستطيع المرء على الأقل
 أن ... آه ... هأنا ذا أكذب من جديد ! أكذب لأننى أعلم بوضوح
 كوضوح علمى بأن $2 \times 2 = 4$ ، أعلم أن القبو ليس هو الأفضل ،
 وانما الأفضل شيء آخر مختلف عنه كل الاختلاف ، شيء أتطلع اليه
 ولكننى لا أستطيع أن أكتشفه • سحقا للقبو !

ليتنى أستطيع ، على الأقل ، أن أؤمن بكلمة واحدة مما أكتبه هنا !
 يميناً يا سادتي اننى لا أصدق كلمة واحدة من هذا الكلام ، لا أصدق
 حرفاً واحداً صغيراً ! أو قولوا : ربما كنت أصدقه ، ولكننى أحس في
 الوقت نفسه - لا أدري لماذا ! - أننى أكذب كما يكذب خالع أسنان •
 لا شك أنكم ستسألوننى :

- فلماذا كتبت هذا كله اذن ؟

ما ذا كان يمكن أن تقولوا لو اتى حبستكم خلال أربعين سنة

لا تعملون شيئاً ، ثم جئت أزوركم في قبوكم بعد انقضاء هذه المدة ،
لأرى ما الذى صرتم اليه ؟ وددت لو رأيتم هـنالك ! هل يمكن أن
يترك انسان وحيداً بلا شاغل مدة أربعين عاماً ؟

ربما قلت لى وأتم تهزرون رعوكم باحتقار : « ولكن أليس هذا
مخزياً ؟ أليس هذا ذلاً وعاراً ؟ أنت ظالم الى الحياة ، ولكنك تريد أن
تحل جميع مسائل الحياة باشكالات منطقية . ويا له من عناد ! ويا لها
من وقاحة فوق هذا ! ولكنك مع ذلك خائف . أنت تقول سخافات راضياً
وترتكب وقاحات مريباً ، ولكنك خائف من هذه السخافات والوقاحات ،
فأنت تستدر عنها . تزعم أنك لا تخشى أحداً ، ولكنك تلتبس رضى
الناس وتنشد عطفهم . تؤكد أنك تصرف بأسنانك غيظاً ، ولكنك
فى الوقت نفسه تمزح وتتدر لتضحكننا . تعلم أن أقوالك الجميلة ليست
جميلة ، ولكنك تبدو شديد الرضى عن كلامك ، كثير الاعجاب
بأدبك . جائز أن تكون قد تألبت ، ولكنك لا تحترم أملك أى احترام .
فى أقوالك شىء من حقيقة ، ولكن يعوزها الحياء والخير . غرورك
التافه المسكين يجعلك تحمل حقيقتك الى الميدان وتعرضها فى السوق ،
وتلقها أمام الناس عرضةً للسخريات . فى نفسك شىء تريد أن تقوله ،
ولكن الحشية تجعلك تبلى الكلمة الأخيرة ، لأنك تملك وقاحة ولكنك
لا تملك شجاعة . أنت تمتدح وعيك ، ولكنك غير قادر الا على التردد ،
ذلك لأنك ، رغم أن عقلك يعمل ، متسخ القلب بالفحش ملوث النفس
من الفجور ، وما لم يكن القلب صافياً طاهراً فلا يمكن أن يكون الوعى
بصيراً ولا كاملاً ! يا لك من مشعب مهرج ! كذب ! كل هذا ! كذب !
كذب ! » .

هذه الكلمات كلها أنا الذى قلتها طبعاً . انها هى أيضاً آتية من
القبو صادرة عنه . خلال أربعين عاماً ظلت أصيح بمعنى الى هذه

الأحاديث من خلال شق صغير • أنشأتها بنفسى ، اذ لم يكن هناك شيء آخر أعمله • كان سهلاً علىّ اذن أن أحفظها على ظهر القلب ، وأن ألبسها نوباً أدياً •

ولكن هل صدقتم حقاً أنني سأنتشر هذا الكلام كله ، وأقدمه اليكم لتقرأوه ؟ واليكم هذا الأمر الذى لا أفهمه : لماذا أخطبكم بقولى « أيها السادة ، ، كما لو كنتم قرائى ؟ ان هذه المسارآت التى أستعد للافضاء بها هنا ، لن تنتشر ، ولن تُقدّم الى أحد ليقراها • أنا على الأقل لا أملك من القوة قدراً كافياً لأن أفعل هذا ، لا ولا أرى أنه ضرورى من جهة أخرى • ولكن اسمعوا : لقد بدت لى بدوة ، وراودتنى نزوة أريد أن أحققها مهما كلف الأمر • اليكم الموضوع :

ان بين الذكريات الذى يختزنها كل منا ، ذكريات لا نرويها الا لأصدقائنا ؟ وان بينها ذكريات أخرى لا نعترف بها حتى لأصدقائنا ، ولا نردها الا على أنفسنا ، بل ولا نردها على أنفسنا الا سراً • ولكن هناك ذكريات أخرى يرفض الانسان حتى أن يعترف بها لنفسه • وكل انسان شريف أمين قد اختزن أثناء حياته قدراً كافياً من هذه الذكريات ، حتى ليتمكننى أن أقول ان عدد هذه الذكريات يكون على قدر ما يتصف به الانسان من الشرف والأمانة • أنا على كل حال لم أقرر الا منذ مدة قصيرة أن أعيد تذكر بعض مغامراتى القديمة ، وكنت أقبل ذلك أتحاشاها شاعراً بشيء من القلق • والآن ، حين أستعيد هذه الذكريات وأريد أن أسجلها ، أمتحن نفسى فأتساءل : هل يمكن أن يكون المرء صريحاً وصادقاً ، تجاه نفسه على الأقل ، وهل يستطيع أن يقول لنفسه كل الحقيقة ؟ يحضرنى فى هذه المناسبة أن الشاعر هاينى يؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك « سير ذاتية » صحيحة ، وان الانسان يكذب دائماً حين يتحدث عن نفسه • وفى رأيه أن روسو قد خدعنا حتماً

فى كتابه " الاعترافات " ، بل وانه خدعنا عامداً ، من باب حب الظهور .
 اتنى موقن من أن هاينى على حق : اتنى لأفهم حق الفهم ان المرء يمكن
 أن يقترب جرائم فظيعة لا لسبب غير حب الظهور ، واتنى لأفهم أيضاً
 ما يمكن أن تكون هذه العاطفة . ولكن هاينى كان يقصد الاعترافات
 للناس . أما أنا فأتنى أكتب لنفسى وحدها ؛ وأعود فأقول الآن مرة أخرى
 الى الأبد : اذا كان يبدو على أنى أخطب القارىء ، فما ذلك الا طريقة
 أعمد اليها التماساً لمزيد من السهولة . هذه صورة ، هذا شكل ، شكل
 أجوف . أما القراء فلن يكون لى قراء قط . سبق أن قلت هذا .

ولا أريد أن يزعجنى شىء فى كتابة ذكرياتى . لن أتقيد بأى
 ترتيب ، ولن أراعى أى نظام . لن أزيد على أن أسجل ما أتذكره .
 ولكن قد يكون فى وسعكم أن تقبضوا على " وتسألونى : « لو كان
 صدقاً ما تدعيه من أنك لا تفكر فى قرائك ، فعلام تعلن - كتابةً على
 الورق أيضاً - أنك لن تقيد بأى ترتيب ولن تراعى أى نظام ، وأنتك
 ستسجل ما يخطر ببالك ، الخ ؟ علام تقدم هذا التبرير ؟ وفيه تسوق هذا
 الاعتذار ؟

سوف أجيئك عندئذ قائلاً :
 - هكذا !

على أن هذا حالة سيكولوجية هامة شائعة . من الجائز أن أكون
 جباناً لا أكثر . ولكن من الجائز أيضاً اتنى أتصور أمامى جمهوراً حتى
 لا أخل بقواعد اللباقة أثناء الكتابة . ومن الجائز أن يكون هنالك بواعث
 من هذا القليل بُعد بالألوف ...

غير أن هناك سؤالاً آخر أيضاً : لماذا شرعت فى الكتابة أصلاً ؟
 اذا كنت لا أكتب للجمهور ، أفلا أستطيع أن أستحضر ذكرياتى دون أن
 أضعها على ورق ؟

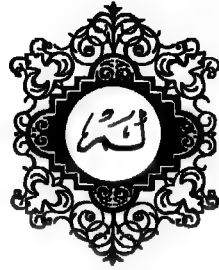
فعلا • ولكن هذه الذكريات ستكسى مظهراً فيه مزيد من الأبهة
حين تُنبت على ورق • ان فى هذا مهابة وجلالاً • سوف يحسن رأى
فى نفسى ، وسوف وجود أسلوبى • ثم ان من الممكن أن يحمل الى
هذا شيئاً من التخفف والسلوى والعزاء • أنا اليوم ، مثلاً ، ترهقنى
ذكرى بعيدة ارهاقاً شديداً • لقد انبثقت فى ذهنى واضحة جداً منذ
بضعة أيام ، وهى تلاحقنى وتطاردننى الى الآن بلا هوادة ولا مهادنة ،
كلحن من تلك الألحان الموسيقية التى تشبث بك ولا تريد أن تدعك •
ولا بد لى من التخلص من هذه الذكرى • عندى ذكريات من هذا النوع
تُعدُّ بالآلاف • ولكن واحدة من هذه الذكريات تستيقظ فى بعض الأحيان
فجأة ، وتمسك بخناقى • فيخيل الى - لا أدري لماذا - اننى قد أتححر
منها اذا أنا كتبتها • فلماذا لا أحاول ؟

ثم اننى ، أخيراً ، أشعر بضجر شديد وسأم قوى ، ولا أعمل
شيئاً قط • فاذا كتبت ذكرياتى كنت أقوم بعمل • والعمل ، فيما يقال ،
يجعل الانسان طيباً شريفاً • فهذه اذن فرصة تعرض لى ...
الثلوج تساقط اليوم كيباً كثيفة مصفرة نصف ذائبة • وقد تساقطت
أمس وأمس الأول أيضاً • أحسب أن هذا الثلج الذائب هو الذى ذكرنى
بالقصة التى أصبحت ذكرها لا تبارحنى • لذلك سأضع لقصى هذا
العنوان : « بمناسبة الثلج الذائب » •

بمناسبة الثلج الدائب

حين استطاعت حرارة كلماتي المؤثرة *
أن تنتشل من هوة الضلال المظلمة ،
نفسك التي سقطت الى هاوية عميقة ؛
وحين زحرت نفسك بالام حادة ،
فلعننت الرذيلة التي فتنتك في الماضي
وتلويت لوحة واسفا وحسرة ؛
حين عاقبت ضميرك ،
وقصصت على كل ماجرى قبل
وتنكرت لحياتك السالفة
ثم دفنت وجهك في يديك ،
وامتلا قلبك هولا وخزيا ،
فاخذت تبكين على حين فجأة ..

نكراسوف



يكن عمري أكثر من أربعة وعشرين عاماً في ذلك الأوان . وكانت حياتي عندئذ على ما هي عليه الآن : قاتمة ، مضطربة ، فوضى ، معتزلة اعتزالاً متوحشاً . لم تكن لي علاقات ، حتى لقد كنت أتحاشى أن أكلم أى إنسان ، ولا يخطر ببالي إلا أن أختبئ في ركني . وكنت أثناء الساعات التي أقضيها في المكتب أحاول أن لا أرفع عيني نحو أحد ؟ ولكنني كنت ألاحظ تماماً أن زملائي يعدونني امرأة متفرداً شاذاً ، وكان يخيّل اليّ أيضاً أنهم ينظرون اليّ بشيء من النفور والكرهية . كنت أسامل في بعض الأحيان : لماذا أنا الشخص الوحيد الذي يتخيّل أن الناس ينظرون اليه نظرة فيها نفور وكرهية ؟ كان أحد الموظفين قبيح الوجه مجدور البشرة ، وكأنه لص من قطاع الطرق ، فلو كان وجهي دميماً دامة وجهه اذن لما تجرأت حتى على أن أظهر للناس . وكانت بزة موظف ثانٍ من الموظفين تبلغ من الاتساع أن المرء يشعر براحتها الكريهة متى كان على مقربة منه . ومع ذلك لم يكن يبدو على أحد من هؤلاء السادة أنه يشعر بخجل لا من وجهه ولا من بزته ولا من طبعه . كانوا لا يتخيلون أن من الممكن أن ينظر اليهم أحد نظرة فيها استمتراز . وهبهم تخيلوا ذلك ، فإنهم لا يأبهون له ولا يكتنون به ، اللهم إلا أن يكون من جانب رؤسائهم .

يتراعى لى الآن أنتى بسبب غرورى المفرط وبسبب شدة ما أطلبه من نفسى ، كنت أنظر الى نفسى فى كثير من الأحيان بنوع من استياء حائق قد يبلغ حد الاشتزاز . وعلى هذا النحو انما وصلت الى اقناع نفسى بأن الآخرين ينظرون الىّ هذه النظرة نفسها . كنت أكره وجهى ، مثلاً : كنت أرى أنه يفتر الى التبل ، وأنه يعبّر عن شئ من جبن وخسة ودناءة . وذلكم هو السبب فى أنتى حين كنت أعمل فى المكتب صباحاً ، كنت أبذل جهداً كبيراً فى سبيل أن اصطنع وضع الانطلاق والاستقلال ، مخافة أن يظنوا بى الجبن والخفارة ، وكنت أحاول أن أسبغ على وجهى كل ما يمكنى اسباغه عليه من نبل ورفعة ، قائلاً لنفسى : « ليس وجهى جميلاً ، فلا أقل من أن يكون نبلاً ، معبراً ، وأن يكون على وجه الخصوص ذكياً جداً ، . وكنت أعلم علم اليقين ، واحسرتاه ، أن وجهى لن يستطيع أن يعبّر عن هذه الأمور الجميلة فى يوم من الأيام . ولكن التئى الرهيب المرعب حقاً هو أنتى كنت أرى وجهى غيباً بليداً . لقد كان يمكن أن أكفى أخيراً بالذكاء ، وأن استقنى به عما عداه ، حتى لقد كان يمكن أن أقبل أن يعبر وجهى عن الضمة والحسة ، شريطة أن يكون ذكياً ذكاء خارقاً .

وطبعى أنتى كنت أبغض جميع موظفى الدائرة ، من أولهم الى آخرهم ، وكنت أحترمهم جميعاً . ولكننى كنت فى الوقت نفسه أخشاهم جميعاً ، فيما أظن . حتى لقد كان يتفق لى أن أضهم فوقى وأن أنزلهم فى منزلة أعلى من منزلتى . وتلك أمور تحدث لى دائماً على حين فجأة : فانا تارةً أحقر الناس ، وتارةً أرفع شأنهم وأعظم قدرهم . ما من انسان شريف مثقف يمكن أن يكون منوراً ما لم يكن متشدداً مع نفسه كثير المطالب تجاهها حتى ليحقرها فى بعض الأحيان احتقاراً يبلغ حد الكره والبغض . ولكننى أنا ، أية كانت مشاعر الاحتقار

والاحترام ، كنت أغض طرفى وأخفض بصرى أمام كل انسان • حتى
لقد كنت أحاول القيام بتجارب فى بعض الأحيان • أترانى أستطيع أن
أحتمل نظرة فلان أو فلان من الناس ؟ وكنت ألاحظ فى كل مرة أننى
مضطرب الى أن أغض طرفى وأخفض بصرى • وكان هذا يعذبنى تعذيباً
يلبغ حد الجنون •

وكنت أتصف كذلك بخوفٍ مرضى من أن أكون مضحكاً ؛ ولهذا
السبب انما كنت أحب أن أنصاع للروتين انصياعاً ذليلاً فى كل مايتصل
بالحياة الخارجية ، وكنت أهوى أن أسير فى الطريق المهد الذى يسير
فيه سائر الناس ، وىروغنى ما قد ألاحظه فى نفسى من رغبة فى الابتعاد
عن هذا الطريق • ولكن كيف كان يمكننى أن أقاوم ؟ لقد كان ذكائى
نامياً نمواً عظيماً يلبغ حد المرض ، كما ينبغى أن يكون ذكاء رجال هذا
العصر ؛ أما هم فقد كانوا جميعاً أغبياء ، وكانوا يتشابهون تشابه
الخراف • ولئن كنت الوحيد الذى يعد نفسه جباناً ، وعبداً ، فلعل سبب
ذلك هو أن ذكائى كان أنسى من ذكائهم •

على أن هذا لم يكن مجرد وهم منى : لقد كنت فى واقع الأمر
وحقيقة الحال جباناً وعبداً • أقول هذا دون أن أشعر منه بأى حرج •
ان كل انسان شريف فى عصرنا هذا لا بد أن يكون جباناً وعبداً • تلك
حالته الطبيعية • أنا مقتنع بهذا اقتناعاً عميقاً • هكذا خُلِق ، ولهذا
رُكِّب • وليس ذلك ظاهرة ينفرد بها عصرنا ، وتتعلق بتضافر ظروف
خاصة • فى جميع الأزمان كان الرجل الشريف جباناً وعبداً •
واذا اتفق له أن يصطنع الشجاعة فما ينبغى له أن يباهى بذلك وأن يفاخر
لأنه سرعان ما سياخذ بعد ذلك بالتباكى • هذا قانونه الأبدى • الحمير
والبغال وحدهم شجعان ، بعض الشجاعة من جهة أخرى • وهؤلاء
لا يستحقون منا عناء الالتفات اليهم ! انهم لا شأن لهم البتة •

هناك ظرف آخر كان يعذبني بغير انقطاع : كنت ألاحظ أنني لا أشبه أحداً ، وأن أحداً لا يشبهني . فكنت أقول لنفسي : « أنا وحيد وهم جميع » ، وأخذ أفكر .

واضح من كل هذا أنني لم أكن بعدُ الا صيياً .

ولكن كان يحدث لى فى بعض الأحيان تغير مفاجئ . • لشد ما كان الذهاب الى المكتب يشق على نفسى ! كانت هذه المشقة تبلغ من الشدة فى بعض الأحيان أنني أرجع الى البيت مريضاً تماماً . ولكننى ما ألبت أن أدخل فجأة فى فترة أخرى تتميز بالريبة وقلة الاكرات وعدم المبالاة (ان كل شئ يحدث عندى فترات فترات) ، فاذا أنا أسخر من شدة صرامتى وكثرة احتقاراتى ، وأتهم نفسى بالرومانسية . أمس كنت لا أريد أن أخاطبهم ، ولكننى اليوم أتحدث معهم ، وأحاول أن أصادقهم . ان كل نفورى قد تبدد بما يشبه السحر . من يدرى ؟ لعل هذا النفور لم يخالجنى فى يوم من الأيام ، ولعلنى اصطنعه اصطناعاً مستمداً من قراءة الكتب . اتنى لم أستطع حتى الآن أن أحل هذه المشكلة وأن أجيب عن هذا السؤال . حتى لقد اتفق لى مرة أن شددت اليهم بصداقة حميمة . فكنت أزورهم ، فتلعب بالورق ، وتشرب الحمرة ، وتحدث عن الدرجات والعلاوات . . . ولكن اسمحوا لى هنا أن أفتح قوسين مستطرداً بعض الامتطراد .

قلماً يوجد بيننا ، نحن الروس ، على وجه العموم ، أناس من أولئك الرومانسين الأغبياء الألمان ، أو الفرنسيين خاصة ، الذين يحلقون فى كواكب أحلامهم ، ولا يفعلون عليها شيئاً ولو اهتزت الأرض تحت أقدامهم ، ولو هلكت فرنسا على التاريس ! انهم لا يتغيرون أبداً ، حتى ولا من قيل اللبابة والكياسة ، بل يظلون يصدقون بأناشيدهم

السماوية الى آخر يوم ، لأنهم أغنياء . عندنا نحن ، على أرضنا روسيا ، لا يوجد أمثال هؤلاء البلهاء . ذلك معروف . وهو بعينه ما يميز بلادنا عن البلاد الأجنبية . ليس عندنا اذن أناس لهم تلك الطبائع المثالية على حالة الحسام ان صح التعبير . إن النقاد والكتاب الصحفيين في العصر السالف قد أوهمهم خيالهم الغبي أن أمثال كونستانجوجولو والعم بطرس ايفانوفتش * هم مثلنا الأعلى ، فاعتقدوا أن روائينا الرومانسيين مخلقون في الأحلام الرائعة تحليق رومانسي ألمانيا أو فرنسا .

بالعكس : ان طبع الرومانسى فى بلادنا يختلف كل الاختلاف عن طبع زملائه الأجانب ، وما من وحدة من وحدات القياس الأوروبية يمكن أن تصلح له (اسمحوا لى أن استعمل هذه الكلمة : « الرومانسى » ، التى هى كلمة قديمة محترمة يصفها جميع الناس) . ان السمة البارزة المسيطرة فى طبع الرومانسى عندنا هى أنه يفهم كل شئ ، ويرى كل شئ ، يرى رؤية لا تقل وضوحاً عن رؤية اشد العقول ايضالاً فى الواقعية وتشبهاً بالوضعية ، بل تزيد عليها وضوحاً . صحيح أن الرومانسى عندنا لا يطاقطى رأسه للواقع ، ولكنه لا يحقر الواقع أيضاً . وهو يخضع وينصاع اذا وجب الخضوع والانصياع . ان الهدف العملى النافع المفيد (كمعاش حسن ، ووسام جيل ، ومنزل أتيق) لا يغيب عن بصره أبداً ، بل هو يميزه من خلال جميع الحماسات ، ومن خلال جميع دواوين الشعر العاطفى القنائى . ولكنه فى الوقت نفسه يحتفظ بمثله الأعلى فى « الجمال والروعة » ، مع محافظته على نفسه فى هذه المناسبة ذاتها ملفوفاً بالقطن كجوهرة ثمينة فى سبيل مصلحة ذلك الجمال نفسه وتلك الروعة نفسها ان الرومانسى عندنا انسان واسع الى أقصى حدود السعة ، وهو أوغد الأوغاد ، يؤكد لكم ذلك ... فأننا أعرفه حتى من تجربتى الخاصة . ولكن هذا كله لا يتعلق الا بالرومانسى الذكى . ماذا أقول ؟

ان الرومانسى ذكى دائماً • وانما أردت أن ألفت نظرکم الى أنه ان وجد بين الرومانسين عندنا عدد من الأغبياء ، فهؤلاء لا يحسبون ، لأنهم يصيرون منذ زهرة العمر الى ألمان حقاً ، فيستقرون أخيراً فى مكان ما من الغابة السوداء بألمانيا (شفارتسفالده) أو يستقرون فى سويسرا ، حفاظاً على جوهرتهم سليمة لا يمسخها أذى ولا ينالها سوء •

ولأضرب مثلاً بنفسى : لقد كنت أكره مشاغلى صادقاً أكبر الصديق ، ولئن لم أبصق عليها ، فلأنتى كنت مضطراً أن أذهب الى المكتب فى سبيل أن أقبض راتباً • لاحظوا أنتى كنت أذهب الى المكتب مهما يكن من أمر ! ان الرومانسى عندنا يؤثر أن يفقد عقله (ونادراً ما يحدث له ذلك على كل حال) على أن يركل وظيفته ان لم تعرض له وظيفة أخرى . لن يستطيع أحد أن يحمله على التخلي عن مكانه ولو ركلاً بالأرجل ؟ وكل ما يمكن فعله فى أكثر تقدير ، اذا هو فقد عقله تماماً ، هو أن يُحبس فى مستشفى من مستشفيات المجانين ، فيمثل هنالك دور ملك اسبانيا * •

ولكن الذين يفقدون عقولهم انما هم النحاف الشقر المخثون ، على حين أن عدداً لا حصر له من الرومانسين يبلغون أعلى الرتب • وان تنوع مواهبهم يبلغ حداً خارقاً • ولشد ما يسهل عليهم أن يوقفوا بين المواطن المتناقضة والاحساسات المتضاربة ! لقد لفت ذلك نظرى وخطف انتباهى وعزائى وواسانى منذ ذلك الحين ! ولهذا يوجد بيننا هذا العدد الغفير كله من « الطبائع الواسعة » التى تحتفظ بمثلها الأعلى حتى فى سقوطها الأخير • ورغم أن هؤلاء لا يحركون حتى اصبعاً واحدة فى سبيل هذا المثل الأعلى ، ورغم أنهم أوباش من قطاع الطرق حقاً ، فانهم يظنون شرفاء فى نفوسهم الى أقصى حد ، ويظنون يحترمون مثلهم الأعلى الذى يتحدثون عنه والدموع فى أصواتهم •

نعم يا سادتي ، لا يوجد الا عندنا انسان يمكن أن يكون أوغد الأوغاد ثم هو شريف في نفسه ، شريف الى حد الروعة ، ولكن دون أن يكف بسبب ذلك عن أن يكون مسكيناً تافهاً • أعود فأقول : انه يخرج دائماً من بين صفوف الرومانسيين عندنا غشاشون يلغون من البراعة والخلق (اننى استعمل هنا كلمة «الفشاش» بمعنى فيه مداغة) ويظهرون من قوة الحبس الواقى ووفرة المعارف العملية ما يجعل الناس ورؤساءهم يفركون أعينهم دهشةً واستغراباً •

نعم ، ان التويع والسعة فينا خارقان حقاً ، والله وحده يعلم ما الذى سيخرج منهما أيضاً ، وما الذى يبشّران به للمستقبل ! ليس هذا النسيج بردىء في الواقع ! ما رأيكم يا سادتي ؟ اذا كنت أقول هذا فليس يدفعنى الى قوله عاطفة وطنية مضحكة • ثم انكم تتخيلون مرةً أخرى أننى أمزح • أنا واثق بأنكم تتخيلون هذا • أو لعل العكس هو الصحيح : لعلكم تظنون أننى أنكلم جاداً • مهما يكن من أمر ، فالرأيان كلاهما يشرّفاننى يا سادتي ، وهما كلاهما يسرّاننى على حدٍ سواء •

ولكن اغفروا لى هذا الاستطراد •

لم أكن أستطيع ، بطبيعة الحال ، أن احتمل علاقات الصداقة مع زملائى زمنياً طويلاً • فسرعان ما كنا نفترق افتراقاً عاصفاً ، حتى لقد كنت أكف عن تحيتهم - وتلك ثمرة من ثمرات قلة خبرتى ونقص تجربتى - فاذا بكل شيء بيننا ينتهى ! على أن هذا لم يحدث لى الا مرةً واحدة ، لأننى كنت متوحداً على الدوام •

وفى بيتى كنت أعكف على القراءة أكثر الوقت • فبذلك كنت أحاول أن أطفىء بالتأثرات الخارجية ما كان يغلى فى نفسى بغير انقطاع • والتأثرات الخارجية الوحيدة التى كنت أملك الحصول عليها انما تأتىنى

من القراءة • فكانت هذه التأثيرات تساعدني كثيراً والحق يقال : فهي تهز نفسي ، وتسري غي ، وتمدبني • ولكنني كنت أصل الى لحظة أتب فيها منها ، وأشعر بالحاجة الى أن أعمل ، فكت أغرق عندئذ في مجون صغير قدر مراء متخف • كان خفي المتصل وغيظي المستمر يجعلان أهوائي جامحة حارة واخزة • وكانت اندفاعاتي المحمومة تؤدي بي الى نوبات عصبية تصاحبها دموع وتشنجات • لا شيء حولي يستطيع أن يفرض عليّ احتراماً له وأن يجذبني اليه • كان قلق غامض يحتاج نفسي ويعرقني في لوجه • كنت أشعر بظماً هستري الى التناقضات والتعارضات والتضاربات ، فكنت ألقى بنفسي الى الفسق والمجون •

لست أقول هذا كله لأبرئ نفسي ••• ومع ذلك !••• لا ! انني أكذب • فانما أنا أردت أن أعذر • ولكنني لنفسي انما أسوق هذه الملاحظة • انني لا أريد أن أكذب • لقد قطعت على نفسي عهداً بذلك •

كنت أتسلل الى عند النساء خلصةً ، وأنا أشعر بعاري لا يبارحني قط ، حتى في أحط اللحظات ، فيغيظني ويخرجني عن طوري الى حد الجنون • منذ ذلك الحين كانت نفسي تحمل في ذاتها قبوها • كنت أخاف خوفاً شديداً قوياً أن يصادفني وأن يعرفني أحد ، فكنت لذلك أذهب الى أحقر المواخير وأقذرها •

وفي ذات مساء ، بينما كنت أمر أمام مطعم صغير ، شهدت من خلال النوافذ المضادة معرّكةً بمعىّ البلياردو بين لاعبين ، ورأيت أحدهم يُرمى من النافذة • لو قد شهدت ذلك في لحظة غير تلك اللحظة ، اذن لشعرت منه بتقزز ، ولكنني كنت في تلك اللحظة على حال نفسية خاصة جعلتني أحسد ذلك السيد الذي طرد تلك الطردة على هذا النحو • وقد بلغ شعور الحسد هذا من القوة في نفسي أنني دخلت المطعم وولجت الى

صالة البلياردو ، قائلاً لنفسى : « من يدري ؟ قد أثير أنا أيضاً شجاراً طيباً كذلك الشجار فأفصح فى أن أحملهم على القائى من النافذة ! » •

لم أكن سكران ، ولكن ماذا تريدون ؟ لقد أفقدنى الضجر والسأم والقلق والخوف عقلى فصرت كالمجنون • ولكن الذى حدث هو أنتى لم أستحق حتى أن أرمى من النافذة ، فخرجت دون أن أفصح فى الاقتال مع أحد •

ذلك أن ضابطاً قد ردنى منذ البداية •

لقد وقفت قرب مائدة البلياردو ، وأخذت أزعج اللاعبين وأنا لا أعرف منهم أحداً • وأراد الضابط أن يمر ، فأمسكنى من كفتى ، وأبعدنى دون أى شرح ، دون أن ينطق بكلمة ، ومرراً كأتى لا وجود لى • كان يمكن أن أغفر له لطمت يكلها لى ، ولكن الشيء الذى لم أطق احتماله هو أنه أبعادنى صامتاً بغير كلام •

لقد كنت على استعداد لأن أهب كثيراً فى سبيل أن أظفر بمشاجرة نظامية ، باقتال لائق ، باختصاص أدبى ان صح التعبير • ولكننى عوملت كما تعامل ذبابة • كان الضابط طويل القامة ، وكنت أنا قصيراً هزيباً • ومع ذلك كان لا يتوقف الا علىّ أنا أن أثير فضيحة وأن أحدث جرسة : فلو قد هبت أحتج اذن لألقيت من النافذة فوراً ، ولكننى فكرت فى الأمر ، فأثرت أن أنسل هارباً والفيظ يملأ قلبى •

وجدت نفسى فى الشارع مضطرباً حائر النفس مبلبل الفكر ، فعدت الى منزلى رأساً • وفى الغداة غطست فى دعاتى الصغيرة بمزيد من الوجل والحشنية ، وبمزيد من الأسى والكآبة ، حتى لقد انسكبت الدموع من عيني ، ولكننى واصلت ولم أكف • لا تظنوا مع ذلك أن تراجعى أمام الضابط كان عن خوف • ان نفسى لم تكن خواقة فى يوم

من الأيام ، رغم أنني كنت طوال حياتي أخاف الفعل ، أخاف العمل •
ولكن حسبكم ضحكاً ! إن لهذا تفسيراً • إن عندي تفسيرات لجميع
الحالات •

أوه ! ليت ذلك الضابط كان واحداً من أولئك الناس الذين
يرتضون أن يقتلوا في مبارزة ! ولكن لا ! إنه واحد من أولئك السادة
(وقد زال نموذجهم منذ زمن طويل وأسفاه !) الذين يؤثرون أن
يستعملوا عصي البلياردو أو أن يشتكوا إلى رؤسائهم على أن يتبعوا
طريقة الملازم بيروجوف الذي حدثنا عنه جوجول * • إن هؤلاء
لا يقتلون في مبارزة ، ولا سيما حين يكون شأنهم مع أمثالنا نحن معشر
المدينين المساكين • إنهم يعدون المبارزة أمراً غير لائق ، يعدونها موضة
فرنسية ، يعدونها دليلاً على روح لبرالية • ولكن هذا لا يمنعهم ،
ولا سيما إذا كانوا طوال القامة أقوياء الجسم ، من أن يهينوا غيرهم في
سجاء •

ليس الخوف هو الذي حملني على الانصراف ، بل الفرور والخيلاء •
لم أخف من طول قامة هذا الضابط الذي أهانتني ، ولا من اللطحات التي
كان يمكن أن تكال لي ، ولا من أن أطرده بالقناني من النافذة • ليست
الشجاعة الجسمية هي التي أعوزتني ، ولكن شجاعتي الروحية هي التي لم
تكن كافية • لقد خفت أن يأخذ جميع الحضور بالضحك مني إذا أنا رفعت
صوتي محتجاً وكلمتهم بلغة أدبية ••• أقول جميع الحضور ، ابتداءً من
ذلك الضابط الوقح وانتهاءً بذلك المستخدم المتبثر الوجه الفاسد الدم
القذر الياقة الذي كان يحوم حول اللاعبين منهمكاً • ذلك أن المرء
في بلادنا لا يستطيع أن يتكلم عن « نقطة الشرف » (لا عن الشرف ، بل
عن « نقطة الشرف ») * ، إلا إذا هو استعمل لغة أدبية • أما باللغة العادية
فلا يستطيع المرء أن يبحث نقطة الشرف وأن يناقش فيها • كنت على

يقين كامل (هأتم أولاء ترون أن الرومانسية لا تنفي الحب الواقعي)
من أنهم سيفطسون من فرط الضحك ، وان الضابط لن يكتفى بأن
يضرني ، وانما هو سيجلني أدور حول البلياردو ركلاً برجليه ، ثم قد
يشفق عليّ بعد ذلك فيلقيني من النافذة • واضح أن هذه القصة الشقية
لا يمكن أن تنتهي معي أنا الا على هذه الصورة •

وقد التقيت بهذا الضابط مراراً بعد ذلك في الشارع ، فلاحظته
وأحسنت ملاحظته • ترى هل عرفني هو ؟ لا أدري ! أغلب الظن أنه
لم يعرفني • أستتج ذلك من بعض القرائن • أما أنا فكنت أتفحصه بكرة
شديد ، وحق مسعور • ودام ذلك عدة سنين • نعم يا سادتي ! بل كان
كرهى يزداد حدة وشدة مع الزمن • أخذت في أول الأمر أجمع بعض
المعلومات عن شخصه خفية • وقد كلفني ذلك عناءً كبيراً ، لأنني لم
أكن أعرف أحداً ، لم أكن أعرف هراً • ولكن حدث في ذات مرة ،
بينما كنت أتبعه من بعيد ، مقتفياً أثره ، أن ناداه أحد باسمه في الشارع •
وهكذا عرفت ماذا كان اسمه • وفي مرة أخرى تبعته حتى بيته ،
واستطعت بقرشين أن أعرف من البواب في أى طابق يسكن ، ومع من
يسكن ، الى آخر ما يمكن أن يعرف من بواب •

وفي ذات صباح ، خطر ببالي ، رغم أنني لم أكن قبل ذلك بالأدب
يوماً ، أن أصف هذا الضابط وصفاً هجائياً ، وأن أرسم لشخصيته
صورة كاريكاتورية ، وأن أتخذه بطلاً لقصة • وغرقت في هذا العمل
سعيداً به ، فوصفت بطلً وصفاً سيئاً ، وصورته في صورة بشعة ،
وصيغته بألوان قاتمة ، حتى لقد أسرفت في التجني عليه • ولم أبدل
اسمه في أول القصة الا تبديلاً يسيراً جداً ، فاذا قرأ أصدقاؤه هذه
القصة كان لا بد أن يعرفوا أنه هو المقصود فيها فوراً • وأرسلت قصتي
الى مجلة « حويلات الوطن » * ، ولكن الموضة الأدبية التي كانت رائجة

فى ذلك الحين لم تكن موضحة القصص الهجائى ، فلم يُتَحَ لقصتى أن
تشر ، واستأت من ذلك استياءً شديداً •

و كنت فى بعض الأحيان أكاذ اختق غضباً وسخطاً وحقناً ؛ حتى
لقد قررت أخيراً أن أدعو عدوى الى المبارزة ، فديجت رسالةً جميلة
جداً أتوسل اليه فيها أن يعتذر لى ، فاذا رفض أن يعتذر بادرت فأشرت
اشارة واضحة جداً الى موضوع المبارزة • وقد بلغت فى تدبيج الرسالة
من حسن الاتقان وجودة الصياغة أن الضابط لو كان يملك ذرة من
الشعور « بالجمال والروعة » اذن لأسرع الى حتماً ، فارتضى على عنقى
وقدم لى صداقته ، ولكن ذلك مؤثراً فى النفس أبلغ التأثير ، ولعشنا
سعداء ، سعداء غاية السعادة ! ••• ان هيته الجميلة المهية كانت ستحمينى
من أعدائى ، وان ما أتم به أنا من ذكاء ، وما أملكه من أفكار وآراء ،
كان سيكمل لى أن أؤثر فيه تأثيراً يفضى على النفس سموً ونبلاً •
ما أكثر الأشياء التى كان يمكن أن نفعها ! تصوروا أن هذا جرى بعد
وقوع الحادثة بستين ، وأن التحدى الذى فكرت فيه كان قد انقضى أوانه
فهو الآن سخيف مضحك رغم كل ما بذلته من حنق وبراعة فى سبيل
تعليل واخفاء ما يتصف به من أنه قد فات أوانه • ولكننى أحمد الله
(اتنى ما زلت الى يومنا هذا أحمد الله داعم العينين شكراناً و عرفاناً) على
أتنى لم أبعث الرسالة • ان رعدة تسرى فى جسمى متى تصورت ما كان
يمكن أن يحدث لو بعثتها •

ثم ••• ثم أقلحت فجأة فى الانتقام لنفسى على نحو بسيط عبقري •
ومضت فى ذهنى فكرة نيرة مضيئة • كنت أحياناً فى أيام الأعياد أمضى
أتنزه فى شارع نفسكى ، وأسير فى نحو الساعة الرابعة على الرصيف
المعرض لأشعة الشمس • واذا أردت الدقة فى التعبير قلت اتنى كنت
لا أتنزه هنالك وانما أعانى تباريح وآلاماً لا نهاية لها ، وأقاسى مذلات

شديدة ونوبات أوجاع فى الكبد • ولكن لعل ذلك بعينه هو ما كنت
أشده وأبتهى فى تلك الأماكن • فكما تفعل حشرة من الحشرات ، كنت
أندس^١ بين المارة على نحو كريبه بشع ، متحياً عن الطريق للجزرات
وضباط الحرس والفرسان والسيدات الجميلات • وكنت أشعر بتقلصات
حقيقية تقبض قلبى ، وبرعدات تسرى فى ظهرى ، متى تصورت حقارة
ملاسى ، ومتى تخيلت ما لا بد أن يكون فى شخصى الصغير المضطرب
القلق من مظهر الضعة والعامية • انه لمذاب حقيقى وذل فى كل لحظة
ما كان يشير فى نفسى شعورى الواضح بأننى لم أكن بين تلك الأماكات
الا ذبابه ، الا ذبابه كريبه ، ذبابه تفوق هؤلاء الناس طبعاً من حيث
الذكاء والنبل ، ولكنها مهانة دائماً ، مذلة بغير انقطاع ، مضطرة الى
التنحي فى كل حين •

لماذا كنت أذهب الى شارع نفسكى ؟ لماذا كنت أسعى وراء ذلك
العذاب وأشده وأبتهى ؟ لا أدرى • ولكنى كنت أشعر بأننى منجذب
نحوه فأهرع اليه كلما استطعت الى ذلك سبيلاً •

كنت اذن منذ ذلك الحين أحس بنوبات التلذذ التى تكلمت عنها
فى الفصل الأول • ولكن هذا الاغراء قد ازداد قوة بعد حادثتى مع
الضابط • وفى شارع نفسكى انما كنت ألقاه فى أكثر الأحيان • هناك
انما كنت أستطيع أن أعجب به • كان هو ايضاً يتزهر فى شارع نفسكى
أيام الأعياد • وكان يتنحي كذلك للجزرات والشخصيات العليا ،
ويتسلل بينهم تسلسل سمكة صغيرة ؛ أما اذا كان الأمر أمر أشخاص من
نوعى أو أنظف قليلاً ، فانه كان يدوسهم دوساً ، فهو يسير اليهم قدماً
كأنهم لا وجود لهم ، ولا يتنحي لهم بحال من الأحوال • وكان يأكلنى
حنقى وغيظى حين أراه مقبلاً ، ولكننى أتحوّل عن طريقي فى كل
مرة ، ممتلى النفس غضباً • كان يؤلمنى أن لا أستطيع ، حتى فى الشارع ،

أن أفق على قدم المساواة معه ؟ وكنت أسأل نفسي أحياناً ، في وسط الليل ، وقد تشنجت من فرط الغضب : « لماذا تكون أنت المتعجى دائماً ؟ لماذا أنت ؟ ما من قاعدة هنالك . ليس هذا مكتوباً في أى مكان . أنا أفهم أن يكون ثمة اقتسام ومشاطرة ، كما يحدث هذا بين أناس محترمين : يتعجى هو ، وتعجى أنت ، وتمران كلاكما على احترام متبادل ، . مهما يكن من أمر ، فقد كنت أنا الذى أتحوّل عن طريقي دائماً ، أما هو فكان لا يلاحظ حتى هذا الأدب والتهذيب من جانبى . وهذه فكرة رائعة تخطر على بالى فى ذات مرة . قلت لنفسى : « ماذا لو تجاسرت أن لا أتعجى له ، عامداً ، عانداً ، حتى ولو دفعتى ؟ ما عسى يحدث حينئذ ؟ ، . واستولت علىّ هذه الفكرة الجريئة شيئاً بعد شيء ، وبلغت من قوة استيلائها علىّ أنى أصبحت لا أستطيع منها فكاًكاً . أصبحت لا أنفك أحلم بهذا اللقاء بنى وبينه ، وأصبحت أكثر من ذهابى الى شارع نفسكى بنية أن أتصور بمزيد من الوضوح طريقة تصرفى حين سأصرف . واجتاح الفرح نفسى . صرت كلما فكرت فى مشروعى مزيداً من التفكير ، ازداد اقتناعاً بأنه يمكن تحقيقه . أخذت أحدث نفسى قائلاً : « لن أدفعه دفعةً قوية بطبيعة الحال - لقد أحسن الفرح الىّ وطامن من حدثى - ولكننى لن أتحاشاه . سنتصادم ، ولكن دون أحداث ألم شديد . يكفى أن تتلامس كنفانا ، يكفى هذا حتى تراعى الواجبات وتُصان الكرامة ، .

وعزمت أمرى أخيراً ، واتخذت قرارى . ولكن التحضيرات استغرقت زمناً طويلاً . كان علىّ قبل كل شيء أن أكون حسن الهندام أثناء تلك العملية ، فكان لا بد أن أُنقى اذن بملبسى . « اذا حدثت فضيحة مثلاً (ان الجمهور فى مثل تلك الساعة يكون من أكثر الناس أناقة هندام : الأمير د . . . ، الكوتيسة ، جميع الكتاب) ، فيجب أن

تكون حسن الملبس ؛ ان ذلك يجعل لك مهابة ، ويضعك على قدم المساواة فوراً مع أى انسان ، • ذلك ما كنت أحدث به نفسى • ولهذا اقترضت سلفة على روائبى واشتريت من عند تشوركين قبة وقفازين سوداوين • بدا لى أن القفازات السوداء أحسن وقفاً وأكثر رصانة من القفازات الليمونية اللون التى خطرت ببالى فى أول الأمر ثم رأيت أنها صارخة • فكأنتى أريد بها أن ألفت الانتباه الى • • هكذا عدلت عن شراء قفازين بلون الليمون • وكنت قد أعددت منذ مدة طويلة قميصاً أنيقاً له أزرار من عاج • ولكن حالة معطفى تطلبت اعدادات طويلة • لم يكن ذلك المعطف بشعاً مسرفاً فى البشاعة على وجه الاجمال ، وكان يوفر لى دفئاً كافياً • ولكنه كان مبطناً بقطن ، وكانت ياقته من فراء الغار كعاطف الخدم • فكان لا بد من ابدال هذه الياقة مهما كلف الأمر ، ومن تركيب ياقة من فراء الكستور كتلك التى يلبسها الضباط • مضيت أطوف بالمناجر ، واستطعت أخيراً بعد مساع مخففة وجهود عقيمة أن أعثر على نوع من كستور ألمانى قدرت أنه لن يكون باهظ الثمن • ان الكستور الألمانى ، رغم أنه ليس متيناً ورغم أنه سرعان ما يسوء مظهره ، يبدو حسناً حين يكون جديداً • وأنا لم أكن فى حاجة اليه الا لهذه المناسبة وحدها • سألت عن الثمن فاذا هو باهظ مع ذلك • فقررت عندئذ أن أبيع ياقتى المصنوعة من فراء الفأر ، وأن اقترض المبلغ الذى ما يزال يعوزنى ، وهو فى نظرى مبلغ ضخم ، أن أقترضه من أنطون أنطونوفتش سيتوشكين ، رئيس المكتب الذى أعمل فيه ، وهو انسان لطيف دمث ، لكنه جدى وعملى ، وكان قد أوصاه بى خيراً رجل من عليا القوم منذ تعيينى فى وظيفتى •

كنت أعانى هناباً شديداً وألماً رهيباً : كان يبدو لى أن من أكبر العار والخزى أن أسأل أنطون أنطونوفتش مالا • ولبت ليلتين أو ثلاث

ليال لا يعرف جفائى الى الغمض سيلاً • وكنت أثناء تلك المدة كلها
لا أنام الا قليلاً جداً على كل حال • واثابتنى حمى ، وانقبض قلبي
انقباضاً شديداً ، ثم أخذ يشب في صدرى على حين فجأة ، يشب ، ويشب ،
ويشب •••

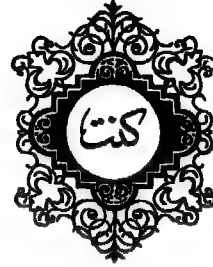
دُهِش أنطون أنطونوفتش بمض الدهشة في أول الأمر ، ثم صَعَرَ
وجهه ، وفكَّر ؛ ثم أقرضنى المال المطلوب أخيراً ، بعد أن جعلنى أوقع
سنداً أفوضه فيه بأن يقبض راتبى بعد أسبوعين •

غدا كل شيء مهيباً • حلَّ الكستور الجميل محلَّ فراء الفأر
البشع ، وشرعت أرتب ، شيئاً بعد شيء ، مراحل عملى • ليس يستطيع
المرء أن يعمل منذ أول لقاء طبيعياً • فلا بد من انتهاز ظرف مناسب ، لا بد
من التمهّل والصبر • ولكننى بعد بضع محاولات عقيمة أخذت أياأس من
النجاح ، أعترف لكم بذلك • لم نفلح فى أن نلتقى وجهاً لوجه • ألم
أكن قد تأهبت كل التأهب مع ذلك ؟ ألم أخذ جميع احتياطاتى ؟ وهانحن
نلتقى وجهاً لوجه ذات مرة • ها قد أفلحنا فى ذلك أخيراً • ولكن
ماذا أرى ؟ لقد تنجبت له من جديد ، فمرَّ دون أن يلتفت الىّ أىّ
التفات ؟ وأخذت أضرع الى الله أن يلهمنى قوة العزيمة حين رأيته مقبلاً
علىّ فى مرة ثانية ، فلما قررت أن أنفذ قرارى أخيراً ، رأيته لا أزيد
على أن أقع عند قدميه ، لأننى ترددت حين صرت على مسافة خطوتين
منه ، فمرَّ من فوقى هادئاً كل الهدوء ، ورُميت جانباً كما تُرمى كرة •

اعترتنى الحمى مرةً أخرى فى تلك الليلة ، وصرت أهذى •
ولكن هذه القعدة انحلت فجأة على خير ما يُرام • قررت فى ذات مساء
أن أعدل عن خطئى المشؤمة وأن أدع كل شيء • وفى اليوم التالى اتجهت
نحو شارع نفسكى مرةً أخيرة وأنا على تلك الحالة النفسية ، بغية أن
أشهد تركى لمشروعى ان صح التعبير • وفيما أنا أمشى ، وجدتهى أعزم

أمرى واتخذ قرارى فجأة وأنا على بعد ثلاث خطوات من عدوى •
 أغمضت عيني ••• وتصادمنا ، كنتأ بكثف ••• لم أتح شبرأ واحداً
 ••• ومررنا متحاذيين كما يمر ندان ••• ولم يقم هو بأى حركة ، حتى
 أنه لم يلفت رأسه ، وتظاهر بأنه لم يلاحظ شيئاً • ولكننى على يقين من
 أن ذلك لم يكن منه الا وضعا مصطنعاً • وما زلت على يقين من ذلك الى
 يومنا هذا • وقد أوجستى الصدمة أكثر مما أوجعته طبعاً ، فهو أقوى منى
 جسماً وأصلب عوداً • ولكن هدفى قد تحقق كله • لقد أنقذت كرامتى :
 لم أتح شبرأ واحداً وأجبرته على أن يعاملنى معاملة الند للند على
 رموس الأشهداد • فلما عدت الى بيتى كنت أحس بأننى ثارت ثأراً تاماً
 لكل ما عانته من مذلات • أصبحت أسبح فى الفرح • انتصرت • أخذت
 أفنى ألماناً ايطالية •

لن أصف لكم طبعاً ما حدث بعد ذلك بثلاثة أيام • اذا كنتم قد
 قرأتم الفصل الأول ، ، القبو ، ، فانه يكون سهلاً عليكم أن تتخللوا
 ما حدث • لقد نُقل الضابط بعد ذلك الى مكان آخر لا أدرى أين •
 اتنى لم أره منذ أربعة عشر عاماً • ما الذى يعله الآن ذلك الصاحب
 العزيز ؟ من تراه يدوس ؟



إذا انتهت فترة الفجور والفسق أشعر باشمزاز
شديد وتقزز حاد ، وكنت أحس بالندم وعذاب
الضمير ، ولكنني كنت أطردهما ، لأنهما يثيران
في نفسي غيائاً . ومع ذلك فقد ألفت الأمر
وتعودته قليلاً قليلاً . كنت أعتاد كل شيء ؛ أو قولوا بتعبير أصح وأدق
انني كنت لا أعتاد ، وإنما أرتضى أن أحتمل كل ما يقع وأن أصبر على
كل ما يحدث . ولكن كان لي مخرج أفزع اليه هو أن أهرب الى آفاق
« الجمال والروعة » ، بالحلم طبعاً . كنت أغرق في الأحلام غرقاً جنونياً ،
طوال ثلاثة أشهر ، قابلاً في قبوى . وصدقوني إذا قلت لكم انني كنت
في أثناء تلك اللحظات لا أشبه في شيء ذلك السيد الذي كان يخطط
لمعطفه ياقه من فراء الكستور الألماني ، مضطرب القلب كدجاجة . كنت
أستحيل فجأة الى بطل ، فلو طلب صاحبي الضابط ذاك أن أستقبله
لرفضت استقباله في تلك اللحظات ، وما كان ليخطر ببالي هذا كله على
كل حال ...

فماذا كانت تلك الأحلام ، وكيف كانت تكفيني وترضيني ؟ انه
ليصعب عليّ أن أشرح ذلك في هذه الأيام . ولكنني أعلم أنني كنت
عندئذ مكتفياً راضياً . ثم ان هذه الأحلام تكاد تكفيني حتى في هذا

الأوان • كانت تلك الأحلام تكتسى صوراً عذبة آسرة فور انتهاء نوبات فسقى وفجورى ، حينما توافينى وسط آلام الضمير ودموع الندامة ولغات النفس وحماسات القلب • يميناً لقد كانت تمر بى لحظات تبلغ من قوة الامتلاء وكمال السعادة أن كل سخرية كانت تخرس ، فلا يبقى فى نفسى الا الايمان والأمل والحب • وفى مثل ذلك الأوان انما كنت اقتنع اقتناعاً أعمى بأننى بفضل معجزة من المعجزات ، بفضل ظرف من الظروف الخارجية ، سوف تزول من أمامى جميع المصاعب ، وسوف تهدم جميع الأسوار ، وسوف ينفسح لى ميدان عمل نافع جميل ، عمل يتصف خاصة بأنه « يمكن أن يتحقق » (لم أعرف فى يوم من الأيام ما عسى يكون ذلك العمل ، ولكن الأمر الأساسى فى نظرى هو أنه عمل متأهب لأن يتحقق كل التأهب) • وكنت عندئذ أرى نفسى مالىء الدنيا ، وشاغل الناس ، أكاد امتطى جواداً أبيض ، وعلى رأسى أكليل من الفار • كنت لا أريد حتى أن أفكر فى امكان دور ثانوى • ولعل هذا هو السبب أننى كنت فى الحياة الواقعية أكتفى بهذا الدور الثانوى هادئاً كل الهدوء • اما أن أكون بطلاً • اما أن لا أكون شيئاً ، فلا وسط فى نظرى ، وذلك بعينه هو ما ضيعنى ، لأننى حين كنت أغوص فى الوحل كنت أعزى نفسى متذكراً أننى فى لحظات أخرى كنت بطلاً ، فكان البطل يصفى على الوحل اشراقة مهابته ، وسطوع عظمتة : انه لمحظور على الانسان العادى أن يغوص فى الوحل ، أما البطل فانه يخلق فى ذرى تبلغ من العلو أنه لن يستطيع أن يتسخ اتساخاً كاملاً ، ففى وسعى اذن أن أتدحرج فى القذارة ...

وأعجب ما فى الأمر أن هذه الاندفاعات نحو « الجمال والروعة » كانت تنشأ فى نفسى أحياناً أثناء نوبات الفجور والدعارة ، ولا سيما حين أكون قد سقطت الى قاع الهاوية • فاذا هى تنبجس انبجاس الذكريات ،

مسقطه شعاعاً شاحباً ، ولكنها تعجز مع ذلك عن تبديد رغباتى وإزالة شهواتى حتى لكأنها تحرضها مزيداً من التحريض وتثيرها مزيداً من الانارة ، بسبب ما تظهره من تضاد وتناقض هما أشبه بتوابل تجعل للطعام مذاقاً شهياً . ان هذه التوابل تتألف من تناقضات وتبايير وتجليات موجمة أليمة ، فهذه العذابات كلها ، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، تضيف الى فجورى طعماً حاداً محرقاً ، بل وتسبغ عليه شيئاً من معنى . الخلاصة أن تلك الاندفاعات انما كانت تقوم حق القيام بدور توابل لذينة بنية أن أتصور بمزيد من الوضوح طريقة تصرفى حين سأصرف . النكهة طيبة الطعم حتى أن ذلك كله كان لا يخلو من بعض العمق . والا فهل كان يمكننى أن أقبل فجوراً عادياً ودعارة تافهة بسيطة صادقة يترسل فيها موظف صغير ، وأن أحتمل هذه القضاة راضياً هادئاً ؟ كلا . . . لقد كنت أدخر فى جعبتى دائماً طريقة نبيلة وأسلوباً رفيعاً فى مواجهة الأشياء والنظر الى الأمور .

ولكن ما كان أعظمه من حب ، يا رب ، ذلك الحب الذى كنت أشعر بنبضه فى نفسى أثناء استرسالى فى تلك الأحلام ، حين كنت أفرّ الى آفاق « الجمال والروعة » ! ورغم أن هذا الحب كان أخيلة خارقة وأوهاماً عجيبة ورغم أنه كان لا ينصب قط على أى شئ انسانى ، فلقد كانت تفيض به نفسى فيضاً يبلغ من الوفرة أننى كنت أصبح فى غير حاجة الى ذلك التحقق الذى يكاد يكون نافلة لا قيمة لها ولا جدوى منها . وكان كل شئ ينتهى انتهاءً موفقاً جداً على كل حال . فكنت ألتفت ، فى كسل وتوان ولذة ، الى الفن ، أى الى الصور الجميلة والأشكال البديعة الجاهزة المهيئة تستمد من الشعراء والروائيين وتلائم جميع الحاجات وجميع المطالب فى سهولة ويسر .

هأنذا مثلاً اتصر على الكون بأسره فاذا بجميع الناس يسجدون

أمامى على التراب مضطرين الى الاعجاب بفضائل الكاملة ولكنى أغفر لهم جميعاً ؟ أو هأنذا ، وقد أصبحت شاعراً مرموقاً وموطئاً فى قصر القصر ، أقيم غراماً وأصبح عاشقاً • وهأنذا أتلقى ملايين لا حصر لها ولا عدّ ، فأبادر الى تقديمها هديةً للنوع الانسانى ، معترفاً أمام الشعب المحتشد بكل ما أتصف به من عيوب مخزية ، ولكنها ليست عيوباً عادية بطبيعة الحال وانما هى عيوب فيها شيء من « جمال وروعة » ، عيوب فيها شيء « بايرونى » من نوع مانفرد • وهام أولاء جميعاً يذرفون الدموع ويعانقوننى ويقبلوننى (ولو لم يفعلوا ذلك لكانوا أغنياء بلهاء) ، وهأنذا أمضى حافى القدمين جاثماً ساعياً أبشّر بالأفكار الجديدة وأفصح الرجعيين فضحاً كاملاً فى أوترلنس ! ثم يُعزف تشيد : انه العفو العام • يوافق البابا على أن يترك روما وأن يذهب الى البرازيل • ثم تقام حفلة رقص لاطاليا كلها فى « فيلا » بورجيز التى تقع على شاطئ بحيرة كومو ، لأن البحيرة قد نُقلت الى ضواحي روما لهذه المناسبة خصيصاً • وبعد ذلك يعجى مشهد عظيم فى الأدغال ، الخ الخ ! ••• كأنكم لا تعرفون هذا كله حق معرفته ! •••

ستقولون لى انه لفناء وعار أن أحلم بهذا كله بعد الدموع الغزيرة وحالات الوجد التى اعترفت بها أنا نفسى • ولكن لماذا يكون هذا عاراً يا سادتى ؟ أتصورون حقاً أننى أستحى من هذا كله ، وأن أحلامى أشد غباءً مما وقع لكم أنتم فى حياتكم أيها السادة ؟ ثم ••• صدقونى اذا قلت لكم ان الأمور كانت مرتبة على أحسن نحو ، لأن بحيرة كومو لم تكن وحدها مسرحاً لكل شيء ••• ولكنكم على حق مع ذلك : هذا غباء ، هذا عار ! غير أن أنكى ما فى الأمر أننى أسوِّغ نفسى أمامكم • وهذه الملاحظة الأخيرة شر من ذلك أيضاً • ولكن كفى ! قد لا يفرغ المرء من هذا قط لأن المزيد من الاتحاد ممكن دائماً •

وكنـت لا أستطيع أن أواصل الاسترسال في الأحلام على هذا النحو أكثر من ثلاثة أشهر متتالية ، ثم أشعر بحاجة لا تقاوم الى معاشرـة الناس . وكان هذا يعنى أن أزور رئيس مكتبى أنطون أنطونوفتش سيتوشكين . كان هذا الرجل ، فى حياتى ، هو الشخص الوحيد الذى قامت ببنى وبينه صلات مطردة . وذلك أمر ما يزال يدهشنى الى يومنا هذا . ولكننى كنت لا أذهب إليه الا حين تكون أحلامى قد أوغلت فى البعد حتى أصبحت أحب أن أعانى الانسانية بأسرها . فكان لا بد لى عندئذ من أن ألقى انساناً واحداً على الأقل ، من لحم ودم . على أن أنطون أنطونوفتش كان لا يزور الا فى يوم الثلاثاء ، فذلك هو اليوم الذى يستقبل فيه الناس ، فكان علىّ اذن أن أوفّق بين ظمئى الى معاينة البشر وبين ذلك اليوم بعينه .

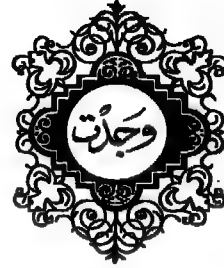
كان أنطون أنطونوفتش هذا يقيم فى شارع « الأركان الخمسة » ، وكان بيته يقع فى الدور الثالث ، ويتألف من أربع غرف صغيرة جداً ، واطىء سقفها ، فقيرة المظهر ، مصفرة اللون . وكان له ابتنان وعمة تهيء المائدة وتخدم الضيوف . والبتنان تبلغ احدهما من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وتبلغ الثانية أربعة عشر . وكان أنف كل منهما أقنى . كانت هاتان البتان تثيران فى نفسى الحجل والوجل كبيراً ، لأنهما لا تكفان عن التهامس ، وتطلقان ضحكات مخنوقة من حين الى حين . ان رب البيت يستقر عادةً فى حجرة عمله جالساً على كبة كبيرة من جلد ، أمام مائدة مستديرة ، فى صحبة سيد محترم هو موظف من موظفى وزارتنا . لم ألتق هنالك فى يوم من الأيام بأكثر من شخصين أو ثلاثة أشخاص لا يتشيرون . والحديث انما يدور على مناقصات وجلسات ومرتببات وتعيينات . ويتحدث المتحدثون عن صاحب المعالي ، ووسائل الارضاء وما الى ذلك . ولقد كنت أصبر على البقاء مع هؤلاء الناس كحطبة خلال

ثلاث ساعات ، لا أجسر ولا أستطيع أن أكلهم فى أى أمر • كنت أحس أننى عدت فأصبحت غيياً بليداً ، وكان العرق يتصبب منى ، وكنت أشعر أننى سأصاب بشلل • ولكن ذلك كان يعود علىّ بنفع ، فأتيت ما ان أرجع الى منزلى حتى أكون قد عدلت ، الى حين ، عن رغبتى فى ضمّ الاسانية كلها بين ذراعىّ •

وكان لى صاحب آخر أيضاً هو سيمونوف ، أحد رفاقى القدامى فى المدرسة • وكان فى وسعى ، على كل حال ، أن أعثر على عدة أشخاص من قدامى رفاق المدرسة فى بطرسبرج ، ولكننى كنت قد انقطعت عن رؤيتهم ، حتى لقد كفت عن تحييتهم فى الشارع ؟ وربما كان حرصى على تحاشيهم وتحببهم وقطع الصلة بجميع ذكريات طفولتى الكريهة هو الذى جعلنى ألتحق بوظيفة فى وزارة أخرى • لعنة الله على تلك المدرسة ، وعلى تلك السنين القاسية التى عشتها فيها كما يعيش سجين فى سجن ! الخلاصة ••• لقد قطعت الصلة بجميع رفاق المدرسة منذ أنهيت دراستى ، وأصبحت لا أحيى منهم الا اثنين أو ثلاثة ، وكان أحد هؤلاء سيمونوف هذا الذى لم يكن يتميز فى المدرسة بشيء ، وكان حلو الحصال متساوى المزاج ، ولكننى كنت أحترمه لما يتمتع به من استقلال الطبع واستقامة الخلق • حتى اننى لا أعتقد أنه كان غيياً غباء شديداً جداً • وقد عشنا معاً لحظات جميلة • ولكن علاقاتنا الحسنة لم تدم طويلاً ، لأن نوعاً من ضباب قد غشيها على حين فجأة • ومما لا شك فيه أن ذكرها كانت تزعج سيمونوف الذى كان يخشى دائماً أن تعود صلاتنا الى ما كانت عليه • حتى لقد كنت أحس أنه ينفر منى بعض النفور ويشمئز بعض الاشمئزاز ، ولكننى لست تأكدي من ذلك كنت ما أزال أذهب اليه بين الفينة والفينة •

وهنا ذا أعجز فى ذات يوم من أيام الخميس عن احتمال العزلة

مزيدياً من الاحتمال، فأتذكر سيمونوف لعلمي بأن منزل أنطون أنطونوفتش
مطلق في أيام الخميس . وفيما أنا أصعد السلم المؤدى الى مسكنه في الدور
الرابع ، اذا بي أتصور أن حضوري سيزعج هذا السيد ، وأتنبأ أخطأت
اذ فكرت في المجيء اليه . ولكن لما كانت أمثال هذه الخواطر لا تزيد على
أن تحضني على التماس المواقف الملتبسة بالحرجة ، فقد دخلت عليه دون
تفكير ، وكنت قد انقطعت عن زيارته منذ سنة .



عنده اثنين من قدامى رفاقي في المدرسة • كان يبدو عليهم أنهم يتكلمون في أمر هام • لم يظهر أحد من الرفيقين أى اهتمام بدخولى الذى كان يدعو الى الاستغراب حقاً ، لأننا لم نكن قد التقينا منذ سنين • كان واضحاً أنهما يعداني شخصاً تافهاً لا قيمة له البتة ، كذباً • لم أكن أعامل هذه العاملة فى المدرسة ، رغم أننى كنت فيها مكروها • ولقد أدركت على كل حال أنهما لا بد أن يحتراني بسبب اخفاقي فى الحياة والعمل ، وكذلك بسبب مظهرى الزرى ، بسبب ثيابى العتيقة البالية التى كانت فى نظرهم دليلاً واضحاً على عجزى ، وعلامة جلية على ما أنا فيه من حال بائسة • ومع ذلك لم أكن أتوقع أن أحتقر احتقاراً واضحاً هذا الوضوح كله • أما سيمونوف فقد ظهرت عليه دهشة شديدة من دخولى • على أنه قد دُهِش من زيارتى مراراً قبل ذلك • وشعرت من هذا كله بضيق وحرَج • وجلست منزعجاً بعض الانزعاج ، وأخذت أصغى الى ما كانوا يقولونه •

كانوا يتناقشون بلهجة جادة ، بل وبشيء من الحرارة ، فى موضوع حفلة عشاء وداعية كان هؤلاء السادة يريدون أن يقيموها معاً لواحد من رفاقهم اسمه زفر كوف ، وهو ضابط سيسافر الى الأقاليم • كان السيد زفر كوف أحد رفاقي فى المدرسة هو أيضاً ، وكنت قد أخذت أكرهه منذ

ذلك الحين ، ولا سيما في الصفوف العليا • انه حين كان طفلاً صغيراً لم يكن الا صيياً مهذباً مرحاً يحبه الجميع • أما أنا فلم أكن أحبه ، لا لسبب الا أنه كان مهذباً • وكانت دراسته منذ البداية متعثرة ، وأصبح يزداد كسلًا في الدراسة مع الوقت • ومع ذلك أنهى الدراسة بنجاح ، لأنه كان ذا سند يحميه • وفي ختام حياته الدراسية ورث أرضاً ومائتي قن ؟ واذا كنا جميعاً فقراء تقريباً فقد أخذ يصطنع بيننا مظاهر العظمة • لقد كان زفر كوف في ذلك الحين صيياً تافهاً ولكنه كان طيب القلب مع ذلك • ورغم أن عواطف الشرف ومشاعر الكرامة كانت تتخذ في مدرستا في بعض الأحيان صوراً عنيفة فيها كثير من التفاخر الكلامي ، فإن جميع التلاميذ ، باستثناء عدد قليل منهم ، قد أخذوا يتقربون منه ويتوددون اليه ، فكان هذا يحضه على اصطناع المزيد من مظاهر التعاطف • ولكن لئن كانوا يدورون جميعاً حوله ويحتفلون به ، فإن ذلك لم يكن منهم سعيًا الى فائدة ونشيداً لمنفعة ، بل لمجرد أن الطبيعة قد خصته بنعمها وأغدقت عليه • ثم ان جميع التلاميذ كانوا يعدون زفر كوف اختصاصياً في كل ما يتصل بأنافة الهندام وحسن الآداب • وذلك بعينه هو ما كان يفيظني خاصة • كنت أكره الصوت الحاد في كلامه الممتلئ دائماً بالثقة ، وكنت أكره كلماته الفكاهية التي كان يبدو راضياً عنها كل الرضى ولكنها كانت غنية سخيفة ، رغم أنه جرىء في كلامه متحلل غير متحرج • كنت أكره وجهه الذي كان وجهاً جميلاً ولكنه أبله (ومع ذلك لشد ما كان يمكن أن أسرع الى مقايضة وجهي « الذكي » بوجهه الأبله فرحاً بذلك كل الفرح) ، وكنت أكره حركاته المنطلقة المتحررة على طراز ضباط سنة ١٨٤٠ • وكنت أكرهه لما يقدر أنه سيناله من نجاح مع النساء (كان لا يجسر أن يشرع في غزواته النسائية قبل أن يفوز بالشارات التي مستزين كتفيه ، ولذلك كان ينتظر فوزه بها نافذ

الصبر) ، ولما يمتنى نفسه بالقيام به من مبارزات • ما زلت أتذكر أننى
 قطعت صمتى فى ذات مرة ، فشاجرت زفر كوف مشاجرة غنية ، وذلك
 حين كان يحدث رفاقه عن مغامراته الغرامية القريبة ، فوصل من الافتان
 الى درجة أصبح فيها أشبه بكلب صغير يتدحرج فى الشمس ، فأعلن
 فجأة أنه لن يفوت أية فلاحه من الفلاحات الصبايا فى أراضيه ، لأن
 ذلك • حق من حقوق السيد على أفتانه • ، فاذا تجاسر الفلاحون فاحتجوا
 جلدهم بالسياط وضاعف الضرائب على هؤلاء • الأوغاد الملتحين • ،
 صَفَّق رفاقنا الجبناء لكلامه • فابترت أنا أهاجمه هجوماً غنياً ، لا من
 باب الشفقة على البنات وآبائهم ، وإنما لمجرد أن هذا الانسان الحسرة قد
 صَفَّقوا له ذلك التصفيق • وقد انتصرت فى تلك المرة • ولكن زفر كوف
 كان رغم غباوته مرحاً ووقحاً ، فاستطاع أن يجتذب الضاحكين الى صفه ،
 وبلغ من النجاح فى ذلك أن انتصارى لم يكن كاملاً فى حقيقة الأمر :
 فقد أصبح الضاحكون يضحكون علىّ أنا • وقد انتصر علىّ مراراً بعد
 ذلك ، دون خبث أو شر ، وإنما مازحاً ضاحكاً • أما أنا فكنت ألزم
 الصمت احتقاراً وازدراء • وحين أنهينا دراستنا تودد الى بعض التودد ،
 فلم أرفض هذا التودد ، لأنه قد أَرْضَى غرورى ، ولكننا لم نلبث أن
 افترقنا افتراقاً طبيعياً • وسمعت بعد ذلك عن نجاحه ضابطاً ، وعن
 « الحياة المرحية » التى كان يعيشها • ثم علمت شيئاً آخر هو ترقّيه
 السريع • وأصبح اذا رآنى فى الشارع لا يحيينى ، فقدّرت أنه لا يريد
 أن يعرّض سمعته لسوء اللقاء التحية على امرئ يبلغ من الضعة ما أبلغ •
 وقد رأيتُه مرةً فى المسرح أيضاً ، فى شرفات الدور الثالث ، مزدان
 الصدر بالأوسمة منذ ذلك الحين ، منهمكاً حول بنات جنرال عجوز •
 ثم لم أره بعد ذلك خلال ثلاث سنين • وقد تغير أثناء هذه المدة تغيراً

كبيراً ، ولكنه رغم سمته الشديدة ، قد احتفظ بجمال وجهه وأناقته
حركاته وآدابه . وأغلب الظن أنه سيترهل حين يبلغ من عمره الثلاثين .
ان زفر كوف هذا هو الذى عيّن اذن فى الاقاليم ، وهو الذى يريد
رفاقه أن يقيموا له حفلة عشاء وداعية . وهم لم يقطعوا علاقاتهم به ، رغم
أنهم لا يعدون أنفسهم أنداداً له ، أنا واثق من ذلك .

ان أحد ضيفى سيمونوف يسمى برفتشكين . انه روسى من أصل
المانى ، قصير القامة له وجه قرد . وهو غبى يسخر من جميع الناس ،
وقد كان ألد أعدائى فى المدرسة منذ الصفوف الدنيا . انه متحذلق وفتح
يتظاهر بفرط الحساسية وشدة الشعور بالكرامة ، ولكنه ليس فى حقيقته
الا جباناً رعيدياً . وكان واحداً من أولئك المعجيين بزفر كوف ، يتقرب
منه ويتزلف اليه ويتملقه ، وذلك لهدف على نفعى ، فكثيراً ما كان
يقترض منه بعض المال .

أما الثانى ، واسمه ترودوليوبوف ، فليس فيه أى شىء بارز يلفت
النظر . هو عسكرى فارع الطول ، قوى البنية ، بارد الوجه . ولئن كان
شريفاً مستقيماً ، فانه يحترم النجاس أياً كان ، وينحنى له ، ولا يجيد
الكلام فى شىء غير التعينات والترقيات وما الى ذلك . وهو يمت الى
زفر كوف بقراءة بعيدة ، وكان ذلك يضيف عليه فى نظرنا شيئاً من مهابة
مهما يظهر هذا سخيلاً . وكان ينظر الى نظرتة الى شخص تافه لا قيمة
له ، ولكنه يعاملنى معاملة مقبولة محتملة ، ان لم أقل رقيقة مهذبة .

قال ترودوليوبوف :

- فاذا كان ما سيدفعه كل واحد سبعة روبلات ، كان المجموع
واحداً وعشرين ما دمنا ثلاثة . وبهذا المبلغ نستطيع أن نصيب عشاءً
مناسباً . ولن يدفع زفر كوف شيئاً بطبيعة الحال .

فأجاب سيمونوف قائلاً :

- طبعاً ، ما دمنا ندعوه الى العشاء دعوة •

فتدخل برفتشكين يقول بلهجة متعالية وقحة ، كخادم سفيه يتباهى

بأوسمة سيده :

- كيف تستطيعون أن تصدقوا أن زفركوف يقبل أن تدفع النفقات

وحدنا ؟ سوف يقبل دعوتنا من باب اللباقة والكياسة ، ولكنه سيأمر لنا

بشمياتيا ، بست زجاجات حتماً •

قال ترودوليويوف الذى لم يفتن الا الى عدد الزجاجات :

- ست زجاجات ؟ هذا كثير على أربعة أشخاص •

وقال سيمونوف الذى اختير منظماً للمحفلة ، قال يلخص الموضوع :

- نحن اذن ثلاثة ، فاذا أضفنا زفركوف كان المجموع أربعة •

والمبلغ واحد وعشرون روبلاً ؟ والمكان « فندق باريس » ؟ والموعد غداً

فى الساعة الخامسة •

هتفت أقول منفعلاً بعض الانفعال وأنا أشعر بشيء من اهانة

ألحقت بى :

- لماذا واحد وعشرون ؟ اذا عدتمونى أنا كان المبلغ لا واحداً

وعشرين روبلاً بل ثمانية وعشرين •

لقد خيل الى اننى اذا عرضت نفسى على هذا النحو فجأة فلا بد

أن أحدث أثراً حسناً ، ولا بد أن أتصر عليهم بسخاى وكرمى ،

ولا بد أن ينظروا الى نظرة اعجاب •

- أتريد حقاً أن تشاركنا ؟

كذلك سألتى سيمونوف مستاءً ، وكان يتحاشى أن ينظر الى لأنه

كان يعرفنى على ظهر القلب •

أُغاضبني أن يعرفني هذه المعرفة الكاملة • فهتفت أقول بصوت أجش :

— لم لا ؟ يخيّل الىّ أنني كنت رفيقه أيضاً ، وائني لأعترف لكم بأنني قد ساءني أن لا يُحسب حسابي وأنّ أُنحىّ جانِباً •

تدخل ترودوليوبوف يقول في خشونة :

— أين كان يمكننا أن نعرّ عليك ؟

وأضاف يقول وقد احتقن وجهه :

— ثم انك لم تكن على علاقة طيبة بزفر كوف في يوم من الأيام •
غير أنني كنت قد اندفعت وتورطت فقلت بصوت مرتعش ، كأن الأمر على جانب عظيم من خطورة الشأن :

— أحسب أنه ليس يحق لأحد أن يقضى في هذا الأمر •• ولعلني ،
لأننا لم نكن على علاقة طيبة ، انما أريد الآن أن •••
قال ترودوليوبوف ساخراً :

— من ذا الذي يستطيع يوماً أن يفهمك ••• وأن يفهم أفكارك
العالية ؟ •••

قال سيمونوف يحسم الأمر وهو يلتفت نحوي :

— سنسجل اسمك • غداً ، الساعة الخامسة ، في « فندق
باريس » ••• لا تنس فتخطي •••

قال فرقتشكين بصوت خافت وهو يوميء لسيمونوف الىّ :

— والمال ؟

ولكنه توقف عن الكلام فجأة ، لأن سيمونوف نفسه انزعج •

قال ترودوليوبوف وهو ينهض :

— كفى ! ما عليه الا أن يأتى اذا كان يرغب فى ذلك الى هذا الحد.

فقال فرفتشكين حائقاً أشد الحلق :

— ولكن الجو سيكون جوَّ أصدقاء • ليس هذا اجتماعاً رسمياً ،
ومن الجائز أن لا نكون راغبين فى حضورك •••

وخرج الرجلان • حتى أن فرفتشكين لم يسلم على حين خرج .
أما ترودوليوبوف فانه انحنى برأسه انحانة خفيفة دون أن ينظر الى •

وبقيت وحدى مع سيمونوف ، فكان يبدو عليه الاضطراب والحيرة
والضيق والازعاج ، وكان ينظر الى نظرة غريبة ؛ ثم انه لم يجلس
ولا دعانى أن أجلس •

ثم قال بسرعة وخجل :

— همّ ••• نعم ••• الموعد غداً ••• هل تدفع المال اليوم ؟ اننى
ألقى عليك هذا السؤال من باب التأكد •

فاحمر وجهى غضباً • ولكننى ، وقد احمر وجهى غضباً ، تذكرت
اننى مدين لسيمونوف بمبلغ خمسة عشر روبلاً منذ عهد قديم موغل
فى القدم ، وذلك أمر ما نسيته فى يوم من الأيام على كّل حال •
قلت له :

— لا بد أن تقدر يا سيمونوف اننى حين جئت الى هنا لم أكن أتبأ
بأن ••• ويؤسفنى أننى نسيته أن •••

— نعم نعم ، لا ضير ••• ستدفع غداً • أنا لم أقل ما قلت الا لأعلم
على وجه اليقين أنك ••• أرجوك أن •••

وتوقف عن الكلام ، وأخذ يسير فى الغرفة طويلاً وعرضاً ، بينما كان يزداد ضيقه وانزعاجه ، وكان يقرع أرض الغرفة بكفيه قرعاً قوياً .

سألته بعد بضع دقائق من صمت :

— أأست أحجزك عن الخروج ؟

فأجاب يقول كمن يشوب الى نفسه فجأة :

— لا ، لا ...

ولكنه أضاف يقول خجلان بصوت المتذر :

— الحق أن على أن أذهب الى ... ليس المكان بعيداً عن هنا ...

فهمت أقول وأنا أتناول قبعتي بحركة منطلقة لا يدرى الا الله من أين وافقتى :

— أوه ! ولكن لماذا لم تذكر لى ذلك ؟

فكرر سيمونوف يقول وهو يشيعنى بانهماك لا يناسبه :

— ليس المكان بعيداً عن هنا ... هو على مسافة خطوتين لا أكثر .

وصاح يقول لى على السلم :

— اذن الى الفد ... الساعة الخامسة تماماً .

وكان يبدو عليه أنه سعيد حقاً بانصرافى . أما أنا فكنت منتاظاً محققاً .

تباً لى ! ما كان أغثنى عن التورط فى هذه الحكاية ! وأخذت أصرف باسنانى وأنا أقطع الشارع بخطى كبيرة . ومن أجل من ؟ من أجل هذا الحنزير زفر كوف ! لن أذهب حتماً ! اتنى أبصق عليه ! لا شىء يجبرنى

على الذهاب الى الموعد • سأتبىء سيمونوف بذلك فى رسالة أبعث بها
إليه •

ولكن الشيء الذى كان يؤجج حنفى هو أتى كنت أعلم أتى
سأذهب الى الموعد ، وأتى سأحث خطاى إله على قدر ما فيه من مجافاة
للعقل ، وقرب من السخف الذى يبعث على الضحك !

على أن هناك عائقاً واقعياً جداً ، هو أتى لا أملك مالا • كان كل
ما معى تسعة روبلات على أن أدفع سبعة منها فى القدر لخدمى آبولون
الذى كان يأكل على نفقته طبعاً •

وأنا أعرف طبع آبولون ، وأعرف أتى لا أستطيع أن أستعمله وان
أحملة على الانتظار • - لا بد أن أحدثكم فى يوم من الأيام عن هذا
الوعد ، عن هذا الطاعون ! - ومع ذلك كنت أعلم أتى لن أدفع له
أجره ، واننى سأذهب الى العشاء •

رأيت فى تلك الليلة أحلاماً فظيمة • ولا غرابة فى هذا ، فقد
عذبتنى طوال نهارى ذكرى سنى المدرسة التى كانت لى بمشابة سجن
خائق • كان قد أودعنى فى تلك المدرسة أقرباء بعيدون ، أقرباء كنت
رهناً بهم وعالة عليهم ، ثم لم أرهم بعد ذلك ولا عرفت عنهم شيئاً قط •
لقد ألغونى فى تلك المدرسة يتيماً يشعر بالألم والعذاب منذ ذلك الحين ،
طفلاً حالماً صموتاً يلقي على كل ما حوله نظرات متوحشة • واستمبلى
رفاقى بسخریات خبيثة شريرة ، لأننى لم أكن أشبه أحداً منهم • ولكننى
لم أستطع أن احتمل السخریات ، ولم أستطع أن أفهم بسهولة كما كان
يألف بعضهم بعضاً • فأخذت أكرهم اذن منذ البداية ، وانطويت على
نفسى فى خيلاء وجلة جريحة لا حدود لها • كانت فظاظتهم تثير فى نفسى
التمرد • كانوا يضحكون ضحكاً ساخراً مستهتراً ، من وجهى ومن

مظهرى الأخرق الثقيل . ولكن ما كان أشد الغباء الذى يبدو فى وجوههم
 هم ! ان الوجوه فى مدرستنا كانت تتغير وتتخط ، فسرعان ما تغير عن
 بلاهة . ما أكثر الاطفال الحسان الذين رأيتهم يدخلون هذه المدرسة !
 فما هى الا بضعة سنين حتى كانت تكسى وجوههم طابعاً منفراً كريهاً . كنت
 منذ السادسة عشرة من عمرى أنفوس فىهم قوى الاستطلاع مظلم
 النفس : فكانت تفاهة آرائهم وسخافة اهتماماتهم وحماقة أحاديثهم وبلاهة
 ألعابهم ، كان ذلك كله يخطف بصرى ويشير دهشتى . واذ كانوا
 يعجزون عن فهم بعض الأشياء الهامة جداً ، واذ كانوا لا يتنبهون أى
 انتباه الى أمور خاصة جداً ، فقد أصبحت أعد نفسى ، رغم ارادتى ، أعلى
 قدراً وأرفع منزلةً . ولم يكن ذلك منى ثمرة الكرامة الجريئة والغرور
 المهان ! ناشدتكم الله أن لا تزعجونى بذلك الاعتراض الذى شبعتنا منه
 حتى أصبح يثير فىنا الشيان وهو القول بأننى كنت لا أريد على أن
 استرسل فى الأحلام وأغرق فى التهاويل ، بينما كانوا ، هم ، يملكون
 الاحساس بالواقع منذ ذلك الحين . لا ! لقد كانوا لا يفهمون شيئاً ،
 وكانوا لا يملكون أى احساس بالواقع وبمياً لقد كان هذا بعينه هو
 ما يغيظنى فىهم أكثر من أى شىء آخره بالعكس : كانوا يستقبلون أوضح
 واقعة من الوقائع على أغبى نحوٍ خيالى ، ولو كانت تلك الواقعة تفتقاً
 الأعين ان صبح التعبير ؟ وكانوا قد اعتادوا منذ تلك السن أن لا يحترموا
 الا النجاح وأن لا ينحزوا الا له . كانوا يسخرون سخراً غيباً قاسياً من
 كل ما هو حق وعدل متى كان مهجوراً مُذلاً . كانوا يحترمون الرتب
 أكثر مما يحترمون الذكاء ، وكانوا منذ السادسة عشرة من أعمارهم
 لا يحلمون الا بمناصب لا تقتضيهام عملاً . لا شك أن غباوتهم كان لها
 دخل كبير فى هذا ، وكذلك القدوات السيئة التى أحاطت بهم فى طفولتهم
 وشبابهم . ولكن لا شك أيضاً أن فى هذا جانباً خارجياً وأوضاعاً

استخفاف واستهتار مصطنعة ، فكانت نضارة شبابهم تتراعى بالشفافية رغم كل شيء من وراء انحطاطهم في بعض الأحيان • ولكن نضارتهم هذه نفسها لم تكن جذابة فيهم ، لأنها كانت تتجلى بنوع من الشهوانية الفظة الغليظة • فكنت أكرههم وأمقتهم ، رغم أنني ربما كنت شراً منهم وأخبت • وقد بادلونى كرهاً بكره ومقتاً بمقت ، وكانوا لا يخفون حتى اشمئزازهم منى • ولكننى كنت قد كفت عن التفكير فى صداقتهم ، وأصبحت ، خلافاً لذلك ، لا أطلع الا الى اذلالهم •

ومن أجل أن أخلص من سخرياتهم أخذت أجد واجتهد ما وسعنى الجد والاجتهاد ، فأصبحت فى المدرسة بين الأوائل ، ففرضت بذلك عليهم مهاتى : وأدركوا جميعاً على وجه التقريب أنني قد قرأت كتباً ما كان فى وسعهم أن يعرفوها بعد ، وأننى أفهم أموراً كانت مازال غريبةً عنهم كل الغرابية (أموراً لا شأن لها بدروسنا الخاصة) • لاحظوا ذلك بدهشة ساخرة ، ولكنهم أصبحوا يهابوننى ويراعون حرمتى ، لا سيما وأن ما حصلته من معارف قد لفت الى أنظار معلمينا أيضاً • فانقطعت السخريات اذن ، غير أن الكره ظل باقياً ، وقامت بيننا علاقات باردة رسمية •

وضقت ذرعاً أنا نفسى آخر الأمر : لقد أصبحت أشعر مع انقضاء السنين بحاجة الى أن أمضى الى البشر وأن يكون لى أصدقاء • فحاولت أن أتقرب من بعض رفاقى • ولكن علاقاتنا كان فيها دائماً شيء مزيف مصطنع كاذب ، فسرعان ما انتهت وانقطعت • ومع ذلك أصبح لى صديق فى ذات مرة • ولكن نفسى كانت طاغية مستبدة منذ ذلك الحين ، فكنت أريد أن أسيطر على فكره سيطرة تامة ، وكنت أريد أن أفرض عليه احتقار من يحيطون به ، وكنت أطلب منه أن يقطع الصلة بيئته قطعاً حاسماً فيه كثير من الأنفة والكبرياء • فأرعبته صداقتى الجالحة العنيفة

هذه ، وروَّعته الى حد الدموع ، الى حد التشنج • وكان فتى ساذج الطبع جواد النفس كريم الخلق • فما ان وهب لى ذاته كاملةً حتى كرهته ونبذته • فكأنتى لم أكن فى حاجة اليه الا من أجل أن أحقق نصراً ومن أجل أن أصبح سيِّده • ولكننى لم أستطع أن أتصر عليهم جميعاً • وكان صديقى هذا لا يشبه أحداً منهم ، وانما كان استثناءً نادراً •

وما ان أنهيت دراستى حتى كان أكبر همى أن أترك المهنة التى تهيأت لها ، وذلك حتى أقطع جميع الصلات وأحطم جميع الروابط ، وحتى أستطيع أن ألعن الماضى وأن أهمل عليه التراب ••• ولا يدرى الا الشيطان لماذا ظلت أذهب بعد ذلك الى سيمونوف هذا •

استيقظت فى صباح الغد مبكراً ، فنهضت عن سريرى مضطرباً أشد الاضطراب ، كأن موعد العشاء قد أزف فوراً • ولكننى كنت مقتنعاً بأنه لا بد أن يحدث فى ذلك اليوم نفسه ، بل وأنه سيحدث فى ذلك اليوم نفسه تبدل أساسى وتغير جذرى فى حياتى • ولعل مرد ذلك الى قلة التعود • ومهما يكن من أمر ، فانتى كنت طوال حياتى أتوقع دائماً ، عند حدوث أى حادث مهما يكن تافهاً ، أتوقع أن يقع لحياتى تبدل أساسى وتغير جذرى •

وذهبت الى المكتب كما كنت أذهب اليه كل يوم ، ولكننى غادرت قبل موعد مغادرته بساعتين ، بغية أن أستعد وأن أنهيأ • قلت لنفسى : « يجب خاصة أن لا أصل أول الواصلين ، حتى لا يتخللوا أنتى نافذ الصبر » • ولكن كانت تشغلنى كذلك هموم أخرى كثيرة غير ذلك الهم ! وبلغت فى ذلك من الاضطراب ما أعيانى وأوهن قواى الى أقصى حدود الوهن •

نظفت حذائي مرة أخرى : ما كان لأبولون أن يرضى بحال من الأحوال أن يلمعها لي مرتين في يوم واحد ، لاعتقاده بأن ذلك يثبت الاضطراب والفوضى في عمله . ومن أجل أن أنظف حذائي مرة أخرى اضطررت أن أختلس الفرشة من حجرة المدخل اختلاساً حتى لا يلاحظ أبولون أنني أتولى تنظيف حذائي بنفسى فيزدرينى ويحتقرنى . ثم فحصت ملابسى تفصيلاً فلاحظت أن كل شيء كان عتيقاً بالياً مهترئاً . ذلك أنني قد تعودت فرط الإهمال حقاً ! لعل بزتى كانت ما تزال حسنة لائحة ، ولكن لم يكن فى وسعى أن أذهب الى العشاء مرتدياً بزة . والأنكى من ذلك أن سروالى كان على الركبة منهما بقعة صفراء كبيرة . وكنت أتنبأ منذ تلك اللحظة أن هذه البقعة ستذهب بتسعة أعشار مهابتى . ولكنى كنت أعلم أيضاً أن التفكير على هذا النحو فيه حطة وصغار ، وعامية وابتذال . . . » على أن الأمر الآن ليس أمر تفكير ، فأنما نحن أمام الواقع وجهاً لوجه ، ، كذلك كنت أقول لنفسى ، غير أنني كنت أفقد شجاعتى مزيداً من الفقد شيئاً بعد شيء . كنت أعلم حق العلم أنني أبالغ وأغالى وأضخم جميع هذه الأمور تضخيماً جنونياً . ولكن ما حيلتى ؟ لقد أصبحت لا أسيطر على نفسى ، وكانت الحمى تهزنى هزاً قوياً .

طفقت أتخيل ، بكثير من الكمد واليأس ، تلك اللهجة المتعالية الباردة التى سيستقبلنى بها ذلك الوغد زفركوف ، وطفقت أتخيل تلك النظرة التى سيرمقنى بها ترودوليوبوف مليئةً باحتقار غبى لا مناص منه ؛ وطفقت أتخيل كذلك تلك الضحكة الوقحة التى سيفضحكها ذلك الانسان الحشرة فرفتشكين الذى سيريد أن يتودد الى زفركوف وأن يتعلمه . أما سيمونوف فلا شك أنه سيدرك كل شيء ، وسيحتقرنى لهوان كرامتى وحطة غرورى وجبانته خلقى . وطفقت أقول لنفسى : ما أحقر هذا كله ، وما أشد ابتذاله ، وما أبعد عن « الأدب » ! ولقد كان الأفضل

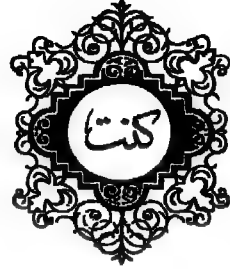
أن أمكت في بيتي فلا أمضى الى العشاء • ولكن هذا بعينه كان أصعب من كل ما عداه • اتى حين أشعر بانجذاب من هذا النوع أندفع الى النهاية وأتردى تردياً كاملاً • فلو قد أحجمت اذن لظلت طوال حياتى أسخر من نفسى وأنهمك عليها قائلاً : « ها ••• لقد خفت ، خفت من الواقع ، نعم خفت ! » • وأنا انما كنت أريد تقيض ذلك ، كنت أرغب رغبة محموعة فى أن أبرهن لذلك الوبش التافه أننى لست جباناً رعيداً الى الحد الذى يبدو • غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً : لقد كنت أحلم ، وأنا فيما أنا فيه من حمى شديدة ، أن أغلبهم جميعاً ، ان اتصر عليهم ، ان أقتنهم ، أن أجبرهم على أن يحبونى ، أن يحبونى على الأقل • لسمو فكرى وحدة ذهنى التى لا سليل الى جحودها • • وستركون زفر كوف : فيبقى وحيداً ، صامتاً ، شاعراً بالحزى والحجل ، فأسحقه • وربما قبلت بعد ذلك أن أصلحه ، فنشرب معاً ، ونرفع الكلفة بيتنا ، وتخطب بصيغة المفرد •

ولكن الشئ الذى يخفنى ويهينى أكثر مما يخفنى ويهينى أى شئ سواه ، هو أتنى كنت أعلم ، كنت أعلم تمام العلم أتنى لست فى حاجة الى شئ من هذا كله ، واتنى لا أرغب البتة فى أن أسحقهم وأن أتصر عليهم وأن أقتنهم ، وأتنى أول من لا يرضى أن يدفع قرشاً واحداً فى سليل الحصول على هذه النتيجة اذا حصلت عليها • رباه ! ما أكثر ما تضرعت الى الله أن تنفض تلك الأمسية بأقصى سرعة !

ودنوت من النافذة وأنا أشد ما أكون قلقاً وغماً لا سليل الى وصفهما ، وفتحت خوضتها ، وحاولت أن أشق ببصرى الحجاب الكثيف من الثلج الذائب الذى كان يتساقط كيباً كبيرة •

وأخيراً دقت ساعتى الحظيرة الصغيرة القديمة المعلقة على الجدار ،

دَقَّتْ الخامسة بصوت أبَحَّ أَجَشَّ ؛ فتناولت قُبْعِي ، وتسَلَّلت الى الخارج
محاوِلاً أَنْ لا أنظر كثيراً الى آبولون الذى كان ينتظر راتبه منذ الصباح
ولكنه لغباوته لم يشأ أَنْ يكون أول من يتكلم فيه • واستأجرت عربة
جميلة بالخمسين كوبكاً الأخيرة التى كانت معى ، فوصلت الى « فندرق
باريس » كما يصل سيد عظيم •



أعلم منذ أمس أنني سأكون أول الواصلين •
 ولكن الأمر ليس هذا الآن •
 لم يقتصر الأمر على أنني لم أجد أحداً
 منهم ، وإنما لقيت كذلك عناءً كبيراً في الاهتداء
 الى الحجرة المحجوزة لنا • ولم تكن الأغلبية قد وضعت على الموائد بعد •
 ما معنى هذا ؟ وعلمت من الخدم بعد أسئلة كثيرة أن العشاء قد أوصى به
 للساعة السادسة لا الساعة الخامسة ، ثم أكدت لي مدير الخدمة هذا بعدئذ •
 انزعجت أنا نفسي من القاء تلك الأسئلة عليهم • وكانت الساعة لا تعدو
 الخامسة وعشرين دقيقة • لو كانوا قد غيروا الموعد لكان عليهم أن
 ينبئوني بذلك على الأقل ، فلهذا انما وجدت مصلحة البريد ؛ كان
 ينبغي لهم أن لا يعرضوني لهذا الهوان أمام نفسي وأمام الخدم !
 وجلست • وجاء الخادم يضع غطاء المائدة ، فزاد وجوده حقى وغضبي •
 وفي نحو الساعة السادسة ، جىء بشموع ، زيادة على المصابيح التى
 كانت تضىء الحجرة • غير أن الخادم لم يخطر بباله أن يجىء بالشموع
 منذ وصولي • وفي الحجرة المجاورة كان يتعشى سيدان ، كل على مائدة
 مستقلة ، وكل صامت مظلم الوجه عابس الأسارير • ولكن ضجة
 كبيرة كانت تسمع آتية من الصالونات الكبيرة ، حتى لقد سمعت
 صرخات وضحكات وصيحات بلغة فرنسية رديئة ركيكة تتبادلها جماعة

كبيرة تضم رجالاً وسيدات. شعرت بتقززه فلما عرفت في حياتي لحظات أمقت الى نفسي من تلك اللحظات ، حتى أتني حين وصلوا في الساعة السادسة تماماً مجتمعين ، وجدتنى مستعداً لأن أستقبلهم استقبال المتقذين والمخلصين ، ونسيت في اللحظة الأولى أن على أن أظهر شيئاً من الاستياء .

دخل زفر كوف أول الداخلين كأنه رئيس العصابة . وكانوا جميعاً يضحكون ولكن زفر كوف رفع رأسه حين أبصرنى ، وأقبل على دون تمجل ، متبخرأً تبخرأً امرأة مفتاح ، ومدّ الى يده بحركة ودود ، ولكن بغير مبالغة ، مع نوع من التهذيب المتأنى هو التهذيب الذى يلاحظ في شخصية رفيعة المقام ؟ وكان ، وهو يمد يده الى يده ، كمن يحمى نفسه من خطر ما . كنت أتخيل ، على خلاف ذلك ، أنه سيأخذ يضحك ضحكاً حاداً صارخاً متى ظهر ، كما كان يفعل ذلك في الماضي ، وأنه سيطلق مزحة من مزحاته التافهة على عهدي به . وكنت أهيم نفسي لهذا منذ الأمس . ولكننى لم أتوقع منه البتة لهجة تبلغ هذا المبلغ من تكلف التواضع واصطناع التهذيب المتعالى المتكبر . أهو يعد نفسه اذن أعلى قدراً منى الى هذا الحد ، من جميع النواحي ؟ ولقد كان يهون الأمر لو أنه اصطنع هذه اللهجة التى يصطنعها السادة العظماء فى سبيل اذلالى ؟ فلو أنه فعل ذلك لكان فى وسعى أن أقابله بما يقابلنى به . ولكن ماعساى أفعّل اذا كان لم يخطر بباله البتة أن يهيننى ، وكان كل ما فى الأمر أنه قد وقع فى وهمه الشبى أنه أرفع منى منزلة وأسمى قدراً الى الحد الذى لا يستطيع معه أن يخاطبنى الا بهذه اللهجة التى يخاطب بها العظيم من يرعاهم ويحميهم من الناس ؟ فما ان قام فى ذهنى هذا الافتراض ، حتى أخذ قلبى يخفق خفقاناً شديداً .

بدأ كلامه يقول متغماً صوته ، ماطاً كل كلمة من كلماته ، وذلك أمر لم يكن يفعله فى الماضى :

- علمت ، على دهشة منى ، أنك رغبْتَ أن تشارك فى عشائنا هذا ! لقد أصبحنا لا نلتقى فى الآونة الأخيرة • كنتَ تتحاشانا وتتجنب لقاءنا • ولقد أخطأت فى هذا : فلما أناساً رهييين الى الحد الذى قد يترامى • على كل حال ، يسمعننى جداً أن نصل ما انا • • • • • طلع ا • •

قال ذلك ثم تحول عنى ليلقى قبضته على مسند النافذة باهمال •
وقال ترودوليوبوف سائلاً :

- هل انتظرت مدة طويلة ؟

فأجبه بصوت عالٍ وغيظ ينذر بانفجار قريب :

- أنا هنا منذ الساعة الخامسة على ما اتفقنا عليه بالأسى •

فأجبه ترودوليوبوف الى سيمونوف يسأله :

- ألم تبلغه أننا أخرنا الموعد ؟

فأجاب سيمونوف يقول :

- لا • • • • • نسيت •

ولكنه لم يظهر أى أسف ، حتى لقد أغفل أن يعتذر لى ، وخرج يصدر أوامره •

صاح زفر كوف يقول ساخراً :

- أأنت هنا منذ ساعة اذن أيها الفتى المسكين ؟

ذلك أن هذا الأمر لا بد أن يبدو لعقله مضحكاً الى أبعد حد •

ولم يلبث فرفتشكين الحقيز أن حذا حذوه فضحك ضحكته البشعة الحادة
المجلجلة • لكأنه كلب صغير • لقد بدت له مضحكاً الى أبعد حد !

انطلقت أقول وقد أخذ غيظي يشتد مزيداً من الاستداد :

- ليس في هذا ما يبعث على الضحك • تلك خطيتهم هم
لا خطيتي أنا ! لقد أغفلوا أن يبلغوني تأخير الموعد ! ••• هذه
هذه ••• حماقة لا أكثر !•••

جميعم ترودوليوبوف يقول مدافعاً عنى في سداجة :

- بل أكثر من حماقة • انك رقيق مسرف فى الرقة • تلك فظاظة
••• ولكنها غير مقصودة طبعاً ••• كيف يغفل سيمونوف أن يبلغه تأخير
الموعد ؟ هه ؟

قال فرفتشكين :

- لو صُنع بى أنا هذا ، لكنك ' •••
- لكنك أمرت بشيء ، أو لشرعت تتناول عشاءك دون أن تنتظر
أحداً •

بهذا قاطعه زفركوف • فقلت بلهجة قاطعة :

- كان فى وسعى أن أفعل هذا دون أن تأذنوا به • وإذا كنت قد
انتظرت ، فلأن •••

هنا دخل سيمونوف قائلاً :

- الى المائدة أيها السادة • كل شيء مهياً • أنا أضمن الشمينانيا •
انها مثلجة تماماً •

ثم التفت نحوى فجأة وقال لى دون أن ينظر الى :

— لم أكن أعرف عنوانك ، فأين كان يمكن أن أعرّ عليك ؟
كان واضحاً أنه ناغم علىّ ، وأنه قد ظل يفكر في ماضيها طوال
أُس .

وجلسوا وجلست • كانت المائدة مستديرة • ووجدتني على يمين
ترودوليووف وعلى يسار سيمونوف • وكان مكان زفركوف أمامي •
وقد جلس الى جانبه فرفتشكين قريباً من ترودوليووف •
استمر زفركوف على الاهتمام بي فسألني :

— قل لي ... أأنت ... في الوزارة ؟

انه وقد رأى اضطرابي ، تخيّل جاداً أنه لا بد من ايناسي
وتشجيمي ان صح التعبير • قلت لنفسي وقد شعرت بالحنق يجتاحني
ويستبد بي : « أهو يريد أن أرميه بزجاجة على رأسه ؟ » • لعل
اهتياجي السريع الشديد هذا انما يرجع الى قلة التعود •

قلت بصوت متقطع :

— نعم ... أنا ملحق بالدائرة •

— وهل تجد في ذلك مزايا وفوائد ؟ قل لي : ما الذي حملك على
هجر مشاغلك القديمة ؟

— سئمتها .. هذا كل شيء ...

قلت ذلك وأنا أطمط كلامي أكثر منه ثلاث مرات • أصبحت لا أكاد
أسيطر على نفسي • ألقى على سيمونوف نظرة ساخرة • وتوقف
ترودوليووف عن الطعام وتفرس في وجهي مستطعاً متعجباً •

انتفض زفر كوف انتفاضة خفيفة • ولكنه تظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً •

- وراتبك ؟

- أى راتب ؟

- أجورك !

- أهذا امتحان ؟

ولكننى ذكرت له مع ذلك راتبى وقد اصطبغ وجهى بحمرة رهيبة •

قال زفر كوف بلهجة وقور :

- مبلغ ضئيل •

وزاد فرفتشكين على ذلك فقال بوقاحة :

- من كان راتبه ضئيلاً هذه الضالة ، لا يسمع لنفسه بعشاء فى

مطعم •

وأضاف ترودوليوفوف يقول جاداً :

- فى رأى أن هذا بؤس !

وقال زفر كوف ، ولكن دون خبث أو مكر فى هذه المرة ، بل بنوع

من شفقة وقحة ، وهو يتفرس فى " " وينظر الى ردائى :

- وما أشد ما أصابك من نحول ! ما أكثر ما تغيرت !

وقال فرفتشكين ضاحكاً فى سخرية :

- كفافكم ! ها هو ذا قد اضطرب منذ الآن !

فصحت أخيراً أقول :

- اعلم أيها السيد اننى لست مضطرباً البتة ، هل تسمع ؟ أنا أتعشى
« فى المطعم » على نفقتى ، من جيبي ، بآلى أنا ، لا بمال غيرى ، لاحظ
هذا يا سيد فرفتشكين !

- كيف ؟ من ذا الذى لا يتعشى هنا على نفقته ويماله ؟ ماذا تريد
أن تقول ؟

كان فرفتشكين قد احمر وجهه احمراراً شديداً ، ونظر الى نظرة
فيها حنق قوى .

شعرت أننى بالفت وأسرفت فقلت :

- قلت هذا هكذا ... وانى لأحسب على كل حال أن الأفضل أن
تحدث فى أمور أقرب الى العقل والذكاء .

- أتريد أن تبهرنا بعقلك وذكاك ؟

- لا تقلق : لا جدوى من هذا هنا !

- ما هذا الذى تهرف به أيها السيد ؟ أترك فقدت عقلك تماماً
فى ذلك المكتب الذى تعمل فيه ؟ أترك جئنت ؟

صرخ زفركوف يقول بصوت فيه تسلط واستبداد .

- كفى أيها السادة ! كفى !

وجمعهم سينونوف يقول :

- ما أغبى هذا كله !

وقال ترودوليوبوف بفظاظة متجهاً الى وحدى :

- هذا غباء كبير حقاً ! لقد اجتمعنا هنا كما يجتمع أصدقاء ،
لنودّع رفيقنا الطيب ، فأخذتم تتشاجرون • أنت الذى طلبت أن تشاركنا
العشاء ، فلا تعكر صفونا ولا تشوش انسجامنا !

وصاح زفر كوف :

- كفى ! كفى ! هلاًّ كففتم أيها السادة ! حقاً ليس هذا بمحمود !
أوثر أن أقص عليكم الآن كيف أوشكت أن أتزوج أسس الأول •

وما هو ذا ، هذا السيد ، يأخذ يقص علينا حكاية سخيفة غبية ،
لا شأن لها طبعاً بزواج ولا لهو ، وانما هى وسيلة اتخذها ليحدثنا عن
جنرالات وكولونيلات ورجال من مجلس النواب ، يكاد يمثل بينهم
الدور الأول ويكاد يحتل بينهم المقام الأكبر • وطفى الحضور يقهقهون
استحساناً وطرباً ، حتى لقد أخذ فرفتشكين يئن من فرط ابتهاجه أئناً •

لقد هجرنى الجميع ، وأصبحت وحيداً مُذلاًّ مسحوقاً •

قلت لنفسى : « رباء ! أهذا هو المجتمع الذى يناسبنى ؟ وما أغبى
ذلك الدور الذى مثله أمامهم منذ قليل ! ولكننى أسرفت فى التسامع مع
هذا النذل فرفتشكين ! يتخيل هؤلاء البلهاء أنهم يشرفونى باجلاسى الى
مائدتهم ، ولا يخطر على بالهم أتنى أنا ، نعم أنا ، أنا الذى أشرفهم
بالجلوس الى مائدة معهم ! لقد أصابنى تحول ! وهذا الرداء الذى
أرتديه ! أوه ! قُبِّحَ هذان السروالان ما أبشعهما ! ان زفر كوف قد
لاحظ البقعة الصفراء عند الركبة فوراً • لم يبق لى الا شئ واحد
أستطيع أن أعمله : أن أنهض عن المائدة ، فأتناول قبعتى وأخرج دون
أن أنطق بكلمة واحدة ••• فبذلك أظهر لهم احتقارى • وسأكون
فى الغد مستعداً لأن أبارز ! يا للجناء ! ليست الروبلات السبعة هى

ما آسف عليه ربما ظنوا ذلك شيطان يأخذهم ! اننى غير
آسف على الروبلات السبعة . سأصرف حالاً ! .

ولم أتحرك من مكانى طبعاً .

وفى سبيل أن أغرق حزنى وشجنى أخذت أعب من صنوف
الخمرة كثوساً كبيرة ، فسرعان ما سكرت لأننى لم أعتد ذلك . وكان
غيطى يزداد ويشدد . وخطر ببالي فجأة أن لا أنصرف الا بعد أن أهينهم
على أوقع نحو . يجب أن اختار اللحظة المناسبة ، فأعرفهم بقيمتى .
سيقولون بعد ذلك انه مضحك ، ولكنه ذكى ذكاءً خارقاً !
الخلاصة شيطان يأخذهم !

طفت على المائدة بنظرة وقحة مضطربة . ولكن كان يبدو أنهم
نسئى كل النسيان . الجو « عندهم » صاحب مرح . ما يزال زفر كوف
يهذر . أصحخت بسمعى . كان زفر كوف يتكلم عن سيدة جميلة عرف
كيف يحسن مداورتها فإذا هى أخيراً تصارحه بحبها (كان يكذب
طبعاً) ؟ وقد ساعده فى هذه الحكاية واحد من أصدقائه الحميمين هو
أمير شاب فى سلاح الفرسان اسمه كوليا ويملك ثلاثة آلاف نفس .

- ولكن أين ذلك الفارس كوليا الذى يملك ثلاثة آلاف نفس ؟
اتنا لا نراه هنا ! لماذا لم يجرى لتوديعك ؟

أطلقت هذا الكلام فى وسط الحديث ، فخيم صمت طويل .
وأخيراً تنازل ترودوليوبوف فاتبته الى ورشقى بنظرة احتقار
وقال لى :

- أنت سكران تماماً .

وكان زفر كوف يتفرس فى صامتاً كتفرسه فى حشرة عجبية .
غضضت عينى . وأسرع سيمونوف يصب الشمبانيا فى الأقداح .

رفع ترودوليووف كأسه ، واقتدى به الآخرون ، الا أنا ؛ وقال
يخاطب زفركوف :

- كأسَ صحتك ، ورحلتك الموفقة السعيدة • كأسَ ذكريات
سنيننا الماضية أيها السادة ! كأسَ مستقبلنا !

وشرب الجميع ، واسرعوا يعاقون زفركوف ويقبلونه • لم
أتحرك ، وظلت كأسى أمامى ملأى •

زأر ترودوليووف وهو يلتفت نحوى بهيئة مهددة متوعدة :

- وأنت ؟ ألا تشرب ؟

- أريد أن أقول كلمتى أنا أولاً ، يا سيد ترودوليووف ، وبعد
ذلك أشرب !

دمدم سيمونوف يقول هامساً :

- يا للحرب القذر !

نهضت عن كرسيى ورفعت كأسى • كان بى حمى ، وكنت أستمع
لأمر خارق ، دون أن أعرف على وجه الدقة ما الذى سأقوله • هتف
فرفتشكين يقول :

- حتماً ! الآن انما سنسمع أقوالاً ذكية آخر الأمر !

كان زفركوف ينتظر جاداً كل الجدد ، مدركاً ما سيحدث • وبدأت
كلامى فقلت :

- يا سيدى الليوتان زفركوف ، اعلم أننى أمقت الجمل الرثانة
والعبارات الطنانة ، وأحتقر الذين يقولونها ، وأكره البزات الأنيقة •
تلك نقطة أولى • أما النقطة الثانية فإليك هى ...

رأيتهم يضطربون جميعاً على مقاعدهم •

– النقطة الثانية هي أنتى أكره المجانين المستهترين الداعرين •
والنقطة الثالثة هي أنتى أحب الحقيقة ، أحب الصدق ، أحب الاستقامة
(كنت أستمّر فى الكلام استمراراً يشبه أن يكون آلياً ، وأشعر بهول
يجمدنى تجميداً ، ولا أدرى كيف أتجاسر فأقول هذا الكلام) ...
أحب الفكر يا سيد زفركوف ، أحب أن يكون الرفاق رفاقاً صادقين
يتعاملون تعامل أُنْدَاد متساوين • هيم • هيم • هيم • ولكن لِمَ لا ؟
سأشرب أنا أيضاً كأس صحتك يا سيد زفركوف • افتن الصبايا
الشركسيات ، وأقتل أعداء الوطن ، و ... كأس صحتك يا سيد
زفركوف !

نهض زفركوف فحياىنى وقال :

– لك أجزل الشكر !

كان يشعر بأنه أ”هين اهانة“ بالغة ، حتى لقد انكفأ وجهه وشحب
لونه •

أُعول ترودوليوبوف قائلاً وهو يضرب المائدة ضربة قوية عنيفة
بقبضة يده :

– شيطان يأخذه !

وصرخ فرفتشكين يقول بصوته الحاد :

– لا بل انه يستحق أن يُحطَّم بوزء !

وجمجم سيمونوف :

– يجب طرده •

وعندئذ هتب زفر كوف يقول فى عظمة وأبهة ليقوف السخط
الشامل :

— لا كلمة ولا حركة أيها السادة • شكراً لكم جميعاً • ولكنى
سأعرف كيف أبرهن له على قيمة أقواله فى نظرى •

اتجهت الى فرفتشكين وقلت له بلهجة وقور :

— ياسيد فرفتشكين ، غداً تتحاسب على الأقوال التى تفوهت بها !
فأجبنى فرفتشكين قائلاً :

— ماذا ؟ مبارزة ؟ بكل سرور •

ولكن يظهر أتنى حين ألقىت هذا التحدى كنت مضحكاً الى حد
جعلهم جميعاً ينفجرون مقهقهين ، وينقلبون على كراسيهم من شدة
الضحك ، ومنهم فرفتشكين نفسه •

قال ترودوليوبوف باشمتراز :

— طبعاً طبعاً ... دعوه ! ... لقد أخذ منه السكر كل مأخذ •

وعاد سيمونوف يجمعهم قائلاً :

— لن أغفر لنفسى قط أتنى أشركته •

قلت لنفسى وأنا أمسك زجاجة ملأى : « هذا أوان أن أرميهم
بزجاجة على رؤوسهم » ، ولكنى سكبت كأساً ، وحدثت نفسى قائلاً :
« لا ... الأفضل أن أبقي الى النهاية ... لو أخليت لكم المكان لأسعدكم
ذلك كثيراً أيها السادة ! لا ... لن أنصرف بحال من الأحوال ! سأبقى
عامداً ، وسأظل أشرب ، لأبرهن لكم على أتنى لا أولى هذا كله أى
اهتمام ، ولا أقيم له أى وزن • سأبقى وسأشرب ، لأننا فى كاباريه ،

ولأنتى دفعت حصتى • سألنى حيث أنا ، وسأظل أشرب ، لأننى لا أعدكم
الا خشباً مستدة ، لأننى لا أعدكم الا كائنات لا وجود لها • • • سأشرب ،
وسأغنى ، اذا حلا لى ذلك • نعم ، سأغنى ، يحق لى أن أغنى • • •
هم • • • • •

ولكننى لم أغن • وانما حاولت أن لا أنظر الى أحد منهم •
واصطفت هيئة طلبة وأوضاعاً غير متحرجة ، وانتظرت نافذة الصبر أن
يبادثنوى الكلام • ولكنهم لم يكلمونى وا أسفاه ! ومع ذلك ما كان أقوى
رغبتي فى أن أصلحهم ، فى تلك اللحظة نفسها ! ودقت الساعة الثامنة ،
ثم التاسعة • وتركوا المائدة ، واستقروا على الأريكة • واستلقى
زفر كوف على مضجع واضعاً قدميه على منضدة صغيرة • وصفت
الزجاجات والكؤوس بالقرب منه • فقد أمر لهم هو أيضاً بثلاث زجاجات
من الشمبانيا • أما أنا فلم يدعونى طبعاً • وتحلقوا جميعاً خوله • كانوا
يصفون الى كلامه بما يشبه التقديس • واضح أنهم يحبونه • تساءلت :
لماذا يحبونه ؟ لماذا ؟ وكان يصصف بهم السكر فى بعض الأحيان فيتعاقون
ويقبل بعضهم بعضاً • وكانوا يتكلمون عن القفاس ، وعن الغرام
المشوب والهوى الصادق ، وعن مزايا الخدمة العسكرية ، وعن ايرادات
الضابط فى سلاح الفرسان بودخايفسكى الذى لم يكن يعرفه أحد
منهم ؟ وقد أسعدهم كثيراً أن تكون ايراداته ضخمة • وتكلموا كذلك
عن الأميرة د • • • ، تكلموا عن رشاقتها ولطفها وجمالها ، دون أن
يسرفوها أيضاً ، بل ودون أن يكونوا قد رأوها • واتفوا أخيراً الى
الكلام على شكسبير فقالوا انه خالد •

كنت أبتسم احتقاراً وأنا أسير طولاً وعرضاً ، من المائدة الى المدفأة
ومن المدفأة الى المائدة ، حذاء الحدار الذى يقابل الأريكة • كنت

أحرص على أن أبرهن لهم أنني أستطيع الاستغناء عنهم ، ومع ذلك كنت أفرع أرض الحجرة بكعبي عامراً • ولكن ذلك لم يجدي شيئاً • انهم لم يلتفتوا الى أي التفات • وصبرت • ظلمت أذهب وأجىء أمامهم كالملكوك ، من المائدة الى المدفأة ومن المدفأة الى المائدة ، من الساعة الثامنة حتى الساعة الحادية عشرة : « أنا أمشي لأننى يحلو لى أن أفعل ، وما من أحد يستطيع أن يمننى من ذلك ، • كذلك قلت لنفسى • وقد توقف الخادم عدة مرات لينظر الى مستطعماً متعجباً • أصابنى دوار من كثرة الذهاب والاياب ، وخبيل الى فى بعض اللحظات أنني أهذى • بللنى العرق ثلاث مرات أثناء تلك الساعات الثلاث ؛ وثلاث مرات جف عرقى جفافاً كاملاً •

وشعرت فى بعض اللحظات بما يشبه طعنات السكين قسوة حين كانت تشق ذهنى تلك الفكرة الرهية وهى أنني سأظل أتذكر دائماً ، بانتمتزاز ومذلة وهوان ، بعد عشر سنين ، بعد أربعين سنة ، هذه الدقائق التى هى أنذل وأسخف وأفظع ما عرفت فى حياتى من لحظات • حقاً لقد كان من المستحيل أن يُذلّ امرؤ نفسه اذلالاً يفوق هذا الاذلال خبثاً وشرأ ، وقصداً وتعهداً • كنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً ، ولكننى أوصل سيرى من المائدة الى المدفأة ومن المدفأة الى المائدة • وكنت أقول بينى وبين نفسى فى بعض اللحظات ، مخاطباً فى ذهنى أعدائى الجالسين على الأريكة : « آه ••• ليتكم تعرفون على الأقل ما أنا قادر عليه من عواطف وأفكار ! ليتكم تعرفون مدى ما أملك من ذكاء ! • ولكن أعدائى كانوا يتصرفون تصرفاً من لا يشعر بوجودى البتة ! مرة واحدة التقوا نحوى ، حين أخذ زفر كوف يتحدث عن شكسير ، فأطلقت أنا ضحكة احتكار • وكانت ضحكتى تبلغ من الزيف والحبث والشر أنهم قطعوا حديثهم فجأة ، وأخذوا يتابعون ، بكثير من الانتباه والجد ، خلال

دقيقة أو دقيقتين ، سبرى حذاء الجدار من المائدة الى المدفأة ومن المدفأة الى المائدة ، « دون أن ألفت اليهم أى التفات » • ولكننى لم أظفر من ذلك بطائل ، فانهم لم يخاطبونى بكلمة واحدة ، وما انقضت دقيقتان حتى نسونى من جديد • دقت الساعة الحادية عشرة •

هتف زفر كوف يقول وهو ينهض :

ـ والآن ، أيها السادة ، نذهب جميعاً الى « هناك » •

فقال الآخرون مؤبدين :

ـ طبعاً ، طبعاً •

التفت فجأة نحو زفر كوف • كنت قد بلغت من الانسحاق والتحطم أننى أصبحت مستعداً لكل شئ ، حتى للانتحار ، فى سبيل أن أفرغ من هذا الأمر •• كان بى حمى • ان شعرى المبتل بالمرق يلتصق بجبهتى ، وصدغى •

قلت بلمهجة حازمة :

ـ زفر كوف ، أنا استغفرك • واستغفرك أنت أيضاً يا فرفتشكين ، واستغفركم جميعاً ، جميعاً • لقد أسأت اليكم جميعاً •

قال فرفتشكين بصوته التحيل الوقع :

ـ ها ها ••• أنت خائف من المباراة •

شعرت بطلعة فى قلبى •

ـ لا ••• ليست المباراة هى ما أخشاه • اننى مستعد لأن أبارك غداً ، بعد أن تتصالح ؟ بل اننى لأصر على هذا • ولا تستطيع أن

ترفض • أريد أن أبرهن لكم على أن المباراة لا تخيفني • أنت تطلق
الرصاصة أولاً ، ثم أطلق أنا في الهواء •

قال سيمونوف :

- يسليه هذا الكلام !

وقال تروودليوبوف :

- سخافات !

وقال زفركوف باحتقار :

- هلاً تركتنا نمر ! انك تسد طريقنا • ماذا تريد أخيراً ؟

كانت وجوههم جميعاً قد احتقنت دماً ، وكان عيونهم تسطع • لقد
شربوا كثيراً • قلت :

- أنا أشد صداقتك يا زفركوف • لقد أسأت اليك ، لقد أهنتك ،

ولكن ...

- أهنتي ؟ أنت أهنتني ؟ أهنتني أنا ؟ اعلم أيها السيد أنك لن

تستطيع أن تهينني بحال من الأحوال ، في يوم من الأيام ...

وقال تروودليوبوف يختم الكلام :

- وكفى هذا ! امض ! هياً بنا نحن !

صاح زفركوف يقول :

- ستكون أولمبيا لي أنا أيها السادة • هذا متفق عليه ، مفروغ منه •

أليس كذلك ؟

- طبعاً ، طبعاً ، بلا جدال ! ...

بقيت هنالك مهان الكرامة مسحوق النفس • وخرجت العصبة
صاخبةً ضاجة • أخذ ترودوليبوف يغني أغنية سخيفة بلهاء • وتأخر
سيمونوف قليلاً عن صحبه ليوزع « البقاشيش » على الحدم • فرأيتي
أتقدم منه بفتة وأقول له يائساً :

- سيمونوف ، اعطني ستة روبلات •

فنظر الى مذهول العقل مضطرب العينين ؛ كان هو أيضاً سكران •
سألني :

- ماذا ؟ أتريد أن تذهب معنا « الى هناك » ؟

قلت :

- نعم •

فقال بلهجة قاطمة وهو يتبسم ابتسامة احتقار :

- ليس معي مال •

واتجه نحو باب الخروج • فأمسكته من حافة معطفه • كان ذلك
كابوساً حقيقياً •

- سيمونوف ! رأيت معك مالاً فلماذا تمنعه عني ؟ أنا شقي ؟
حذار أن تمنع عني المال ! ليتك تعلم ، ليتك تستطيع أن تعلم لماذا أطلب
منك هذا المال ! ان مستقبلي كله مرهون به ، وان خططي كلها
موقوفة عليه •

أخرج سيمونوف المال من جيبه ورماه الى رمية على وجه القريب
وهو يقول لي بخشونة وقسوة :

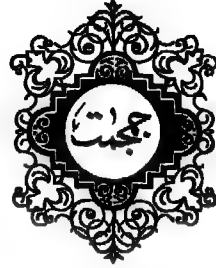
- خذّه اذا كنت قد بلغت هذا المبلغ من قلة الكرامة •

وأُسرع يلحق بصمجه •

لبثت لحظةً وحدى • ما أشد الفوضى من حولي ! نفايات موائد ،
أقداح مخطومة ، خر مسفوح ، أعقاب سجائر !... خنق القلق قلبي ،
واجتاح دخان السكر رأسي • ولمحت خادماً • لقد رأى كل شيء ،
وسمع كل شيء ، وها هو ذا يتفرس فيَّ متعجباً •

هتفت أقول :

- هلمَّ ! اما أن يجثوا متضرعين الى ملتسسين صداقتي وهم
يقبلون قدميَّ ، واما أن ... واما أن أصنع زفر كوف !...



أقول وأنا أهبط السلم مهرولاً : « هذا هو الصراع مع الواقع اذن ... هذا هو الصراع مع الواقع أخيراً • ليس الأمر الآن أمر سفر البابا الى البرازيل ، ولا أمر حفلة رقص على

شاطيء بحيرة كومو ! » •

ثم دمدت أقول : « يا لحماقتك اذ تسخر من هذا في هذه اللحظة • لما يضع كل شيء بعد ، فلا ضير اذن ! » •

كانوا قد غابوا فلا أثر لهم • ولكننى كنت أعرف أين أعر عليهم •

رأيت عربية زحافة منزلة ، عربية من تلك العربات التى تعمل ليلاً • ان الحوذى يرتدى معطفاً من صوف ينفطيه ثلج ذائب يوشك أن يكون دافئاً • والجو رطب خانق • والحصان الصغير الأحلس متشعث الرأس وقد غشسته كذلك طبقة من ثلج • وكان الحصان يسعل • اننى أتذكر ذلك تذكراً واضحاً كل الوضوح • أسرعت نحو العربية ، ولكن ما ان رفعت قدمى لأدخلها حتى تراءت لى صورة سيمونوف وهو يرمى الى المال ، فاذا بهذه الصورة تهدمنى تهديماً ، واذا بى أتهالك فأسقط فى داخل العربية سقوط كيس •

هتفت أقول : « نعم ، هناك أشياء كثيرة سيكون على أن أفقدى بها

ذلك كله • ولكننى سأقتديه ... أو أهلك فى هذه الليلة نفسها •
هياً ! • •

سارت بى العربية • الأفكار تفور وتغلى فى رأسى هوجاء مجنونة •
« سوف يضرعون الى ملتصين صدائى جثواً على الركب •
ما هذا الا سراب ، سراب غيبى ، رومانسى ، خيالى ، ما هو الا حفلة
الرقص تلك نفسها على شاطئ بحيرة كومو • أنا « مضطر » اذن الى أن
أصفع زفر كوف • على أن أصفعه • تقرر هذا اذن : « أنا راكض اليه
لأصفعه • هياً ... مزيداً من السرعة ! » •

شد الحوذى زمام الحصان •

تابعت أخطب نفسى قائلاً : « ما ان أدخل حتى أصفعه • هل
على أن أقول بضع كلمات من باب التمهيد لصفعه ؟ لا ... بل أدخل
وأضربه • سيكونون قد اجتمعوا كلهم فى الصالون • وسيكون هو
جالساً على الديوان مع أولييا • لُصت أولييا • لقد استهزأت يوماً
بوجهى ، حتى لقد رفضت أن تتبعنى • سأجرها من شعرها ، وسأشد
أذنى زفر كوف • لا بل الأفضل أن أمسكه من أرنبة أنفه فأجبره على أن
يدور فى الصالة • قد يسرعون الى عندئذ ليضربونى وليرمونى الى
خارج • بل ان هذا لمؤكد محقق • لا ضير ! ... سأكون أنا الذى
ضربته أولاً • سأكون أنا البادى ، وهذا وحده كافٍ فى مقاييس
الشرف • سيكون جبينه قد تلمطخ بالعار ، فاذا أراد أن يغسل اللطخة ،
فلن يجد بدأ من قبول المبارزة • سيكون مضطراً الى مبارزتى • ليس
يهمنى أن يهجموا على • ليس يهمنى هذا • يا لهم من أناس عقوقين !
سوف تكون لطعات ترودوليووف قوية قوة خاصة : انه قوى جداً •
أما فرقتشكين فسوف يعدنى خائناً غداراً فيمسكنى من شعرى • أنا من

ذلك على يقين • ولكن لا خير ! ليس يهمنى هذا • لقد عزمت امرى ،
فأنا مستعد لكل شيء • يجب أن تفهم عقولهم التى تشبه عقول الخراف ،
يجب أن تفهم أخيراً جانب الفاجعة والمأساة فى هذه القصة • حين
سيجرونى نحو الباب سأصرخ قائلاً لهم انهم أقل قيمة من خنصرى • -
أسرع أيها الخوذى ، أسرع مزيداً من الاسراع !

انتفض الخوذى ، وحرك سوطه • كان فى صرختى شيء من
توحش حقاً •

• سوف تبارز عند مطلع الصبح • هذا مقرر • أما مكتبى فقد
اتمتهت منه • ولكن من أين نأتى بمسدسات ؟ الأمر بسيط : سوف
أطلب سلفةً على مرتباتى فاشتري مسدسات ؟ ليس لى أصدقاء ؟ الأمر
بسيط أيضاً (قلت ذلك وأنا اشتد حماسة واندفاعاً) ! ان أول عابر ألقاء
فى الشارع وأطلب منه أن يكون شاهدى ، سيكون مضطراً الى أن يقبل ،
كاضطراره الى أن يتنشل من الماء انساناً يفرق • ان أكثر الحلول اغراباً
فى الشنوذ مقبولة فى مثل هذه الحالات • فلو طلبت الى مديرى أن
يشهد هذه المباراة لما وسعه أن يرفض ذلك اذا كان على شيء من روح
الفروسية ، ولوجب عليه أن يكتم السر • وأنطون أنطونوفتش • • •

ولكننى فى تلك اللحظة نفسها أدركت بوضوح وجلاء وضياء ،
أكثر من أى انسان فى هذا العالم ، كل ما تشتمل عليه افتراضاتى هذه من
بشاعة تدعو الى الاشتمزاز وسخافة تبعث على الضحك ، ورأيت ظهر
القضية ، غير أن • • •

- مزيداً من السرعة أيها الخوذى ، اضرب أيها الوغد ! اضرب !
فقال لى رجل الشعب البسيط ، قال لى بلهجة شاكية :
- آه • • • سيدى ! • • •

فاذا أنا أشعر ببرد كبرد الجليد يسرى في جسمي .

« ولكن أليس الأفضل ... أليس الأفضل أن أعود رأساً الى البيت ؟ آه ! رباه ! لماذا تورطت في هذا العشاء ؟ ولكن ... مستحيل ... مستحيل ... أنسى الساعات الثلاث التي قضيتها ذاهباً آيماً من المدفأة الى المائدة ومن المائدة الى المدفأة ؟ لا ... ان عليهم هم أن يدفعوا ثمن تلك الساعات الثلاث ! ان عليهم أن يخلصوني من لطخة العار هذه !

— اضرب أيها الخوذي !

« ماذا لو أسلموني للشرطة ؟ لا ... لن يجسروا . سوف يخشون الفضيحة . وماذا لو رفض زفر كوف مبارزتي اظهاراً لاحتقاره ؟ أنا واثق بأنه سيرفض مبارزتي . ولكنني سأبرهن لهم عندئذ ... سوف أركض في هذه الحالة الى محطة الخيول لحظة سفره ، فأسكه من ساقه ، وأنزع معطفه حين يركب العربية ، وأغرس أسناني في يده فأعضه : « انظروا الى أى مدى يستطيع اليأس أن يدفع بالانسان ! ، قد يضربني عندئذ على رأسي ، وقد ينهال عليّ الآخرون من ورائي . ولكن لا ضير ! ... سوف أصرخ قائلاً لجميع الناس : « انظروا الى هذا الصبي الذي يسافر ليفوى الشركسيات وبصقتي على وجهه ! » .

« وبعد ذلك يكون كل شيء قد انتهى طبعاً . سيكون مكتبي قد زال من على سطح الأرض . سأُعتقل ، وسُحْكم عليّ ، وسأُطرد من الوزارة ، وسأُسجن ، وسأُنفي الى سيبيريا . ليكن ما يكون . ما هذا بشيء . بعد خمسة عشر عاماً ، حين يُطلق سراحى ، فأضرب في الأرض بأُسساً رثّ الثياب ، سوف أهدى الى آثاره ، سوف أعثر عليه في مدينة من المدن بالأقاليم ، ويكون قد تزوج وسعد وأنجب بنتاً أصبحت في ريعان الصبا ... سأقول له : انظر أيها الشيطان الرجيم ! انظر الى خديّ

الحاسفين والى أسمالى البالية ! لقد فقدت كل شيء : السعادة ،
والوظيفة ، والفن ، والعلم و « الحية » ... وذلك كله بسببك أنت .
هذه مسدسات • لقد جئت لأفرغ مسدسى ... وأنا ... أغفر لك .
وعندئذ سأطلق الرصاص فى الهواء ، ثم أمضى دون أن أخلف أثراً • ،
تأثرت من هذا تأثيراً قوياً بلغ بى حد البكاء ، على شعورى الكامل ،
فى تلك الدقيقة نفسها ، بأننى قد استمدت هذا من « سيلفيو » * ومن
مسرحية « الحفلة التكرية » التى ألفها ليرمونتوف • وفجأة شعرت بخجل
حاد وخزى لاذع دفعنى الى أن استوقف الحصان ، فأخرج من العربة ،
وأظلم على هذه الحال فى وسط الشارع لحظةً ، غارق القدمين فى الثلج .
كان الحوذى ينظر الى مدهوشاً وهو يزفر زفرات عميقة •

ماذا كان ينبغى أن أعمل ؟ يستحيل أن أذهب الى هناك ؟ فانى
لن أجنى من هنالك شيئاً • ولكن يستحيل كذلك أن أترك الأمور على
ما هى عليه ، فان هذا لا يمكن أن يطاق ... رباه ! كيف يمكننى أن
دع هذا الأمر ؟ أأدعه بعد كل تلك الاهانات !

صحت أقول وأنا أندفع الى العربة من جديد •
« لا ... هذا قدرى ! اسرع ، أسرع ، هلم ! » •
ومن شدة نفاد صبرى ، لطمت الحوذى فى ظهره بقبضة يدى •
هتف الحوذى يقول :

— ماذا دهالك ؟ لماذا تضربنى ؟

ومع ذلك ضرب حصانه بسوطه ضربة قوية ، فأخذ الحصان
يسرع •
كان الثلج يتساقط سباتخ كبيرة • وكنت قد حللت أضرار معطفى ،

لأن أموراً أخرى تشغل بالي وتستأثر بتفكيرى • كنت قد نسيت كل شيء ، لأننى قررت أن أصفه ، وأنا أشعر مرتاعاً بأن هذا سيحدث . لا محالة ، فوراً ، فما من قوة تستطيع أن تقف الأحداث بعد الآن • المصابيح المنعزلة تلمع كابية فى ضباب الثلج كأنها مشاعل دفن • الثلج قد نفذ تحت معطفى وردنجوتى ، وتراكم تحت رباط عنقى وأخذ ينوب هنالك • ولكننى لم أتدثر : ألم يضع كل شيء ؟

ووصلنا أخيراً • وثبت من العربة كالمجنون ، وصعدت الدرجات القليلة وأخذت أقرع الباب بقدمى ويديّ • كنت أشعر بضعف شديد فى الساقين ، ولا سيما فى الركبتين • وسرعان ما فُتح الباب ، كأن قدومى كان متظراً (الواقع أن سيمونوف كان أبلغ أهل المحل أن زائراً آخر قد يجرى ، اذ لا بد فى هذا المحل من الإبلاغ لاتخاذ بعض الاحتياطات • المحل نوع من « متجر للملبوسات » قد أغلقته الشرطة بعد ذلك ، وهو فى الواقع متجر أثناء النهار ، غير أن فى وسع المرء أن يقضى فيه الليل اذا أوصى به أحد) • اجتزت الدكان المظلمة مسرعاً ، ودخلت صالون الاستقبال الذى كنت أعرفه حق المعرفة ولم يكن يضيئه فى ذلك الحين الا شمعة واحدة • ثم ما لبثت أن توقفت مدهوشاً مذهولاً : لم يكن ثمة أحد •

سألت :

- أين هم ؟

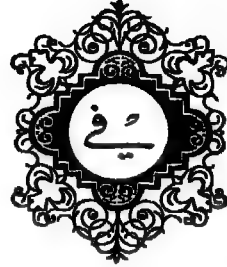
ولكنهم كانوا قد انصرفوا وافترقوا •

كانت صاحبة المحل واقفة أمامى وعلى شفيتها ابتسامة بلهاء • لم تكن هذه المرأة تجهلنى •

وبعد لحظة ، انفتح الباب ودخل داخل •

لم التفت الى أحد ، وأخذت أسير في الغرفة طولاً وعرضاً ، وأنا أحدث نفسي ، فيما أظن . كان يتراءى لي أنني أفلت من الموت ، فكان كيائي كله يهتز طرباً ويتفتح فرحاً . فلو قد وجدته لصنفته حتماً . أنا من ذلك على يقين مطلق . ولكنهم انصرفوا جميعاً لقد زال كل شيء لقد تغير كل شيء . نظرت حولى . لم أكن قد استطعت بعد أن أعي كل ما جرى . رفعت عيني نحو الداخل الذى دخل منه هنيهة ، رفعت عيني نحو ذاهلاً ، فلمحت وجهاً فتياً ، نصرأ ، شاحباً بعض الشحوب ، له حاجبان داكنان مستقيمان ، ونظرة جادة فيها شيء من دهشة . سرعان ما أعجبنى هذا . لو قد ابتسمت لكرهتها واحقرتها . تفرست فيها مزيداً من التفرس وأنا أبذل شيئاً من جهد : كنت ما أزال أجد عناء في استجماع أفكارى . كان في هذا الوجه تعبير ساذج طيب ، ولكنه جادٌ جداً غريباً . أنا على يقين من أن هذا التعبير يسىء اليها في هذا المحل ، وأن أحداً من هؤلاء البلهاء لم يلاحظه . على أنني لا أستطيع أن أقول انها على جانب عظيم من الجمال ، رغم أنها فاعلة الطول بضة الجسم حسنة التكوين . وكانت ملابسها بسيطة . شعرت بعضة قوية في قلبي ، ودنوت منها .

وفى تلك اللحظة ذاتها رأيت نفسي في المرأة . كان وجهي منقلباً ، فبدأ لي كريبها منفراً : ان فيه صفرةً وشرأً وحنقاً . وكان شنعوى مشفقاً . حدثت نفسي قائلاً : « هذا أحسن . . . يسرنى أن أكون كذلك . نعم ، يسرنى أن أبدو لها منفراً ، يلذ لي هذا ! » .



الجهة الثانية من الحاجز ، أخذت ساعة حائط
تحسرج أو تسعل : لكأن صوتها صوت انسان
أمسك خنقه وشدّ شدّاً قوياً . وأعقبت تلك
الحسرجة الطويلة رنات حادة مرعجة ما ان
يسمعه المرء حتى يتصور انساناً يندفع متواثباً على حين فجأة . هي
الساعة الثانية بعد منتصف الليل .
ثبت الى رشدى . لم أكن نائماً ، ولكننى كنت فى حالة تشبه
الوسن .

الظلام يكاد يكون كاملاً فى الغرفة الواطئة الضيقة التى تملؤها
خزانة كبيرة للثياب ، وعلب كرتون ، وملابس مبشرة ، وأسفال بالية ،
حتى ليتعذر على المرء أن يتحرك فيها من فرط ازدحامها بتلك الأشياء .
وكانت بقية الشمعة المشتعلة فى أحد الأركان توشك أن تذوب كلها ،
فهى لا تبعث الآن الا أشعة باهتة كابية . فما هى الا دقائق حتى يعم ظلام
تام حالك .

ثبت الى رشدى بسرعة . تذكرت كل شيء دفعة واحدة بغير
جهد ، كأن ذكرياتى كانت لا تنتظر الا أن أصحو حتى تسرع الى
وتتكأثر على . ثم اننى ، حتى حين كنت فيما يشبه الوسن ، كان فى
نفسى شيء لم يبارحنى ، شيء هو أشبه بنقطة لا أستطيع أن أسأها وعلينا

تدور أحلامى ثقيلة ثقيلة • ولكن الأمر الغريب هو أن كل ما وقع لى فى ذلك اليوم بدا لى الآن فى صحوى بعيداً ، فكأنه حدث منذ زمن طويل ، وكأنى عشت تلك الأحداث قبل بضع سنين •
كان فى رأسى ثقل • وكنت أحس أن شيئاً ما يحلق فوقى ويلامس رأسى • فكان ذلك يزعجنى ويشيرنى ويستفزنى • وعاد القلق والغضب يغليان فى نفسى ويلتسمان لهما مخرجاً • وفجأة رايت الى جانبى عينين محمقتين تفرسان فى تفرساً غريباً غيبداً • ان نظرتهما باردة قاتمة تعبر عن قلة الاكرات ، وكأنها آتية من مكان بعيد جداً • انها تحدث فى النفس شعوراً بالضيق •

انجست فى ذهنى فكرة غامضة ، فولدت فى جسمى كله احساساً بالانزعاج شيئاً بما يحسه المرء حين يدخل قبواً رطباً خانقاً • تراءى لى أنه ليس طبعياً أن لا تأخذ هاتان العينان بتفحصى الا الآن ، وفى هذه اللحظة بينها • وتذكرت أيضاً أننى خلال الساعتين اللتين انقضتا لم أبادل كلمة واحدة مع هذه الانسانة ، لا ولا رأيت أن ذلك ضرورى • بالعكس : كنت قد وجدت فى هذا الصمت لذة • ولكننى أدركت فى تلك اللحظة سخافة وبشاعة الدعارة التى تشرع فوراً ، على نحو فظ خال من الحشمة والحياء ، فيما ينبغى أن يكون ثمرةً للحب يجنيها المحب فى النهاية • نظر كل منا الى الآخر على هذا النحو مدة طويلة • ولكنها لم تنفض عينها أمام عيني ، ولا تغير تعبير نظرتها ، فما وسعنى الا أن أشعر آخر الأمر بشيء من قلق •

سألتها بلهجة مباغتة وقد نفذ صبرى :

— ما اسمك ؟

فأجابت مددمةً تقريباً ، ولكن على نحو ليس فيه شيء كثير من كياسة ولطف ، أجابت وهى تشيح عينها :

- ليزا •

صمت •

قلت كمن يخاطب نفسه وأنا أصالب ذراعى وراء قتالى وأحرق
الى السقف ، بحركة مكتبة حزينة :

- يا له من طقس فى هذا اليوم ! التليج ... ما أشد ما يعنه فى
النفس من حزن •

لم تجب • هذه قسوة يضيق بها المرء • عدت أسألها ملتفتاً نحوها
وبى شىء من غضب :

- أأنت من هنا ؟

- لا •

- من أين أنت ؟

أجابت تقول على مضض :

- من ريجا •

- هل أنت ألمانية ؟

- لا بل روسية •

- هل تقيمين هنا منذ مدة طويلة ؟

- أين ؟

- فى هذا المحل •

- منذ أسبوعين •

أصبح صوتها يتقطع مزيداً من التقطع • وكانت الشسمة قد انطفت،
فأصبحت لا أميز وجهها •

- هل لك أب وأم ؟

- نعم ... لا ... نعم •
- أين هما ؟
- هناك في ريجا •
- ماذا يعملان ؟
- لا شيء يستحق الذكر •
- كيف هذا ؟ ما هما ؟ ما حالتهما ؟
- من متوسطي الحال •
- هل كنت تسكنين معهما ؟
- نعم •
- ما عمرك ؟
- عشرون سنة •
- لماذا تركتهما ؟
- هكذا ...
- ان كلمة « هكذا » هذه كانت تعنى : « دغنى وشأنى • لقد ضقت
بأسئلتك ! » •
- وعدنا الى الصمت •
- لا يدري الا الله لماذا لم انصرف • أنا أيضاً كنت أشعر بمزيج من
الضيق والقلق شيئاً بعد شيء • وها هي ذى صبور أحداث ذلك اليوم
الذى انقضى تأخذ تتخاطر في ذاكرتى فوضى من تلقاء نفسها دون أى
جهد أبذله • وتذكرت على حين فجأة منظرأ شهدته في الشارع حين
كنت ذاهباً الى المكتب مشغول البال مهموم النفس •
- رأيت الناس في هذا الصباح يخرجون تابوتاً ، فكادوا يقلبونه •

قلت هذه الكلمات بصوت عال دون أن أتبه الى ذلك ، ودون أن
يخطر ببالي أن استأنف الحديث معها ، فكأنتى لم أقل ما قلته عامداً •

سألتنى :

– تابوتاً ؟

– نعم ، فى سينايا * • أخرجوه من قبو •

– من قبو ؟

– نعم ، من غرفة فى قبو ••• من منزل سوء السمعة •• ما أكثر
ما كان يحيط بالمنزل من أقذار !••• قشور ، نفايات ••• ورائحة
العفونة تفوح كريهة ••• شئ فظيع !•••

وساد الصمت •

ثم عدت أقول لا لشيء الا أن لا أسكت :

– أمر مزعج أن يُدفن أحد فى هذا اليوم !

– لماذا ؟

– البرد ••• الرطوبة •••

وتثاءبت •

قالت فجأة بعد برهة من صمت :

– ما قيمة هذا ؟

– كيف ؟ هذا شئ محزن (وتثاءبت مرة أخرى) • لا بد أن
حفارى القبر قد أصابهم مرض ، لأن الثلج بللهم ••• ولا شك أن حفرة
القبر قد امتلأت ماءً •

سألتنى بنوع من الاستطلاع والتعجب ، ولكن بلمهجة فيها مزيد من
التقطع والمباغلة اللذين لاحظتهما فى لهجتها منذ قليل :

— لماذا تقدّر أن الحفرة لا بد أن تكون قد امتلأت بالماء ؟

شعرت فجأة بشيء يستيقظ في نفسي • قلت :

— كيف لا تعرفين هذا ؟ ان ارتفاع الماء لا يقل عن ثلاثة أشبار •
ما من حفرة جافة في مقبرة فولكوفو •

— لماذا ؟

— لماذا ؟ لأن الأرض ملأى بالماء • الندران في كل مكان •
والتابوت يوضع في الماء رأساً • رأيت هذا مراراً •

(الحق أنني لم أر هذا في يوم من الأيام ، ولا ذهبت الى مقبرة
فولكوفو * مرة واحدة ، ولكنني سمعت من يتكلم عن هذا الأمر) •
قلت لها :

— أأنت لا يهمك حقاً أن تموتى ؟

فأجابت تقول وكأنها تدافع عن نفسها :

— لماذا يجب أن أموت ؟

— ستموتين في يوم من الأيام ، وستموتين كما ماتت تلك المرأة التي
حدثتك عنها ••• انها هي أيضاً « بنت » ••• وقد ماتت بمرض السل •

— لو كانت « بنتاً » لماتت في المستشفى •••

قلت لنفسى : « هي تعلم هذا اذن • قالت « بنتاً » ولم تقل « فتاة » •
أجبتها قائلاً :

— كانت مدينة لقوادتها بجمال كثير • وظلت تعمل حتى لفظت آخر
أنفاسها تقريباً ، رغم أنها كانت مريضة بالسل • ان الحوذين الذين كانوا
هناك قد تحدثوا في هذا مع الجنود • لعلهم أصحابها القدامى • كانوا

يضحكون ويتأهبون لشرب كأس من الخمر في الكاباريه احتفاء بذكرها
(هنا أيضاً لفقت وزوقت كثيراً) •

وساد صمت ، صمت عميق • لم تقم حتى بحركة صغيرة • قلت :
- والمستشفى ؟ هل الموت فيه أفضل ؟
أجابت :

- سبان الأمران واحد
ثم أضافت متبرمة :

- ولكن لماذا يجب أن أموت ؟
- لا الآن ، بل في المستقبل •
- ما يزال الوقت طويلاً

- لا تتخيلي هذا ! أنت الآن فتية جميلة نضرة ، والناس هنا
يقدرونك لهذا • ولكنك ستغيرين تغيراً كبيراً بعد سنة واحدة ، سوف
تذبلين ! ...

- بعد سنة واحدة ؟

أجبتها ملحاً مصرراً في خبث وشر :

- على كل حال ، لن تكون قيمتك بعد سنة كقيمتك اليوم •
سوف تتركين هذا المنزل الى منزل آخر أدنى منه • فما ان تنقض سنة
أخرى حتى تتركي المنزل الثاني الى منزل ثالث حتى اذا انقضت
ست سنوات أو سبع انتهيت الى غرفة في قبر بميدان سينايا • وهذا كله
لا يعد شيئاً ذا بال وانما الشر كل الشر أن يلم بك مرض
مرض في الصدر أو مرض آخر اذا أصابك برد والمرض
يتفاقم ويستفحل في ظروف حياة كالحياة التي تعيشها ، فاذا هو
لا يتركك ، ثم اذا أنت تموتين •

- سأموت ، ثم ماذا ؟
بهذه الكلمات رشقتني حادثة ، واختلج جسمها اختلاجة مفاجئة .
قلت :
- سيكون هذا أمراً محزناً •
- هل في حياتي ما آسف عليه •
- الحياة نفسها •
وساد صمت •
- هل كان لك خطيب ؟
- ما شأنك أنت وهذا ؟
- أنا لا أستجوبك • فيم يعني هذا الأمر ؟ لماذا تفضين ؟ لا شك
أنك قاسيت متاعب كثيرة • وهذا لا شأن لى به • ولكننى أشعر بشفقة ••
- على من ؟
- عليك •
دمدمت تقول بصوت خافت :
- لا داعى الى الشفقة •
ومرة أخرى اختلجت اختلاجة مفاجئة •
أغاظنى منها هذا • كيف ؟ أأكون لطيفاً معها ثم هى •••
قلت :
- ولكن ماذا تظنين ؟ أتحسين أنك فى الطريق القويم ؟
- لست أظن شيئاً البتة •
- هذا بعينه هو ما يؤسف له ••• هذا بعينه هو ما يحز فى النفس •

عودى الى نفسك قبل أن يفوت الأوان • لم يفت الأوان بعد • انك
ما زلت شابة جميلة • ففى وسعك أن تحبى وأن تتزوجى وأن تسعدى ••

قالت بلهجة خشنة :

— ما كل المتزوجات سعيدات !

— طبعاً ، ما كلهن سعيدات • ولكن أى شىء أفضل من البقاء هنا •
لا مجال للمقارنة ••• شتان ••• اذا أحب الانسان فانه يستطيع أن
يستغنى حتى عن السعادة • الحياة جميلة حتى فى الشقاء والعناء • الحياة
حلوة أية كانت • أما هنا ••• فهنا عفونة ••• شىء فطيع !•••

وأشحت وجهى باشمزاز • أصبحت لا أفكر فى الأمور تفكيراً
هادئاً • أخذت أشعر فعلاً بالأشياء التى أتحدث عنها وأخطب فيها •
اندفعت وتحسست • أصبحت أطلع الى شرح أفكارى العزيزة وآرائى
الحسية التى كنت قد أنصبتها قابلاً فى ركنى • ان شيئاً ما قد اشتعل
فجأة فى نفسى ؟ تراءى لى هدف ، تبدت لى غاية • قلت :

— لا تلتفتى الى وجودى فى هذا المكان • لا تتخذينى قدوة •
ربما كنت أسوأ منك • ثم اننى كنت سكران حين جئت الى هنا (أسرع
أبرىء نفسى مع ذلك) • هذا عدا أن المرأة يجب أن لا تقتدى بالرجل •
الأمران مختلفان • أنا أوسّع نفسى هنا ، ولكنى لست عبداً لأحد •
أدخل ثم أخرج فأنفذ عن نفسى الوساخة فاذا أنا شخص آخر •
ولا كذلك أنت • فأنت أولاً عبدة ••• نعم عبدة ••• أنت تتخلين
عن كل شىء ، تتخلين عن كل ارادتك • وقد تريدان فى المستقبل
أن تحطى القيد ولكنك لن تستطيعى الى ذلك سيلاً • ستكبلن
الأغلال بمزيد من القوة يوماً بعد يوم • هذه هى السلسلة التى تقيده •

اننى اعرفها ... ناهيك عما عدا ذلك • لعلك لن تفهمينى • ولكن
قولى لى : لا شك أنك مدينة للقوادة بملء ، أليس كذلك ؟

لم تجبى ، وظلت تصفى الى صامته ، فتبعت أقول رغم ذلك :

— أرايت اذن ؟ هذه سلسلة أولى قيّدك • ولن تتحررى منها فى
يوم من الأيام • سيرتبون الأمور ترتيباً يضمن لهم هذا • فكأنك بعث
روحك للشيطان ... وما يدريك ؟ لعلنى لا أقل عنك شقاء ... لعلنى
لا أغوص فى الوحل الا لأنسى عذابى ! بعض الناس يشربون الخمر
التماساً للنسيان ... وأنا أجيء الى هنا لهذا الغرض • قولى لى : أهذا
خير ؟ لقد تضاجنا ... ولم تبادل كلمة واحدة ... وبعد أن انتهى
كل شيء انما اخذت تنفرسين فى كمتوحشة ، وأخذت أنظر اليك أنا
أيضاً • أهكذا يكون الحب ؟ أهكذا ينبغي أن يكون الاتحاد بين الرجل
والمرأة ؟ هذا يدعو الى الاشتزاز ، لا أكثر ...

قالت بصوت متعجل قاطع :

— نعم !

ان تسجلها هذا فى اطلاق كلمة « نعم » قد أدهشنى • اذن لقد
كانت هذه الفكرة تدور فى رأسها حين كانت تنفرس فى منذ قليل • هى
اذن قادرة على أن يكون لها أفكار • ألا ان الأمر قد أصبح شائقاً ! ...
هنالك اذن شيء من التقارب • ان من الممكن جداً توجيه نفس شابة الى
هذا الحد •

كدت أفرك بديّ فرحاً •

وأصبحت اللعبة تغرينى مزيداً من الاغراء شيئاً بعد شيء •

قدّمت رأسها نحوى ، وأسندته على ذراعى • هذا ما خيّل الى

فى الظلام • أتراها تتفرس فى ؟ لشد ما أسفت على أتنى لا أستطيع أن
أرى عينها ! وكنت أسمع تنفسها العميق •

سألها بلهجة فيها شيء من التسلط منذ الآن :

— لماذا جئت الى هنا ؟

— هكذا !

— ما كان أجمل الإقامة فى بيت الأبوين مع ذلك ! ما أكثر ما فى
بيت الأبوين من دفء وراحة ! كان ذلك البيت عشك الأمين •

— فما قولك اذا ذكرت لك أن حياتى فيه كانت أسوأ من حياتى

هنا ؟

قلت لىفسى : « يجب أن أجد اللهجة المناسبة • بالكلام العاطفى لن
أجنى شيئاً كثيراً » •

على أن هذه الفكرة لم تزد على أن ومضت فى فكرى وميضاً سريعاً
ثم زالت • أحلف لكم أن تلك المرأة قد شافتنى حقاً • ثم اننى كنت
موهنأ ضعيفاً ، وكنت مؤهبأ للشعور بعواطف كريمة يسهل كثيراً أن
يرافقها المكر •

أجبت بسرعة أقول :

— لا أحد ينكر هذا • كل شيء يمكن أن يحدث • أنا متأكد مثلاً
من أن اهانة قد لحقت بك ، وأن اساءة قد نالتك ، وأنهم «هم» المذنبون
فى حقك ، وأن الخطأ ليس خطأك بل خطؤهم • لست أعرف شيئاً عن
تاريخك ، ولكن لا شك أن فتاة مثلك لا تدخل الى هنا راضية مختارة •
دمدمت تقول بصوت لا يكاد يُسمع ، ولكننى سمعته :

— ماذا تعنى بقولك « فتاة مثلى » ؟

ها ... انتى أتملقها • هذا جبن • ولكن قد يكون فى ذلك خير
كثير ...

صمتت • قلت لها :

- اسمعى يا ليزا • سأضرب لك بنفسى مثلاً • لو قد كان لى أسرة
أثناء طفولتى ، لما كنت اليوم على ما أنا عليه • انتى كثيراً ما أفكر فى هذا
الأمر • مهما تكن حياتك فى أسرتك شقية ، فإن أباك وأمك ليسا عدوَّين
لك على كل حال ... ما هما عنك بغريبين • لا بد أن يعبرا لك عن
حبهما مرةً فى السنة على الأقل • أنت هناك تشعرين بأنك فى منزلك •
أما أنا فلم تكن لى أسرة ، ولعل هذا هو السبب فى انتى بلغت هذا المبلغ
من ... انعدام الاحساس •

انتظرت من جديد •

قلت لنفسى : « لعلها لا تفهم • انه لشيء مضحك أن أسدى إليها
دروساً فى الأخلاق ! » •

استأنفت كلامى بصوت عال وأنا أحاول أن لا أواجه الأمور
مواجهة مباشرة ، وأتظاهر بأننى لا أتكلم الا لأسليها :
- لو كنت أباً وكان لى ابنة لأحييتها أكثر مما أحب ابناً • أنا
وانق بذلك •

أعترف لكم بأن وجهى قد احمر •
سألتى :

- لماذا ؟

آ ... هى اذن تصنى الى كلامى • قلت :

- لا أدرى يا ليزا • عرفت فى الماضى أباً قاسياً عاتياً ولكنه يركع
أمام ابنته • كان يقبّل قدميها ويديها ولا يكف عن الإعجاب بها • اذا

كانت ترقص في حفلة رقص ، لبث هو خمس ساعات طوال في مكان واحد لا يحوّل عنها بصره • كان كالمجنون بسببها • لست أفهم هذا • كان يسهر في الليل حين تنام ، ويأتى إليها أثناء رقادها فيقبلها ويباركها • وكان بخيلاً على غيرها ، وكان هو نفسه يرتدى رديجوتاً متسخاً ، أما معها فهو لا يبالي النفقات مهما تكن باهظة • كان يهدى إليها هدايا ثمينة ••• فإذا أظهرت رضاها عنها وسرورها بها شعر بفرح لا حدود له ! ان الآباء يحبون بناتهم أكثر مما تحبهن الأمهات • والبنات يسعدن في منزل الأب على وجه الاجمال • ما أحسب أننى أرضى أن أزوج ابنتى لو كان لى ابنة •

قالت وهى تبسّم ابتسامة خفيفة :

- عجيب ! لماذا ؟

- لعيرتى عليها ••• حقاً ! كيف يمكن أن تقبل شخصاً غريباً ؟ كيف يمكن أن تحب أحداً أكثر مما تحب أباه ؟ هذا أمر يؤلمنى بصورة • تلك سخافات طبعاً ، ولا بد أن يرتد المرء الى الصواب آخر الأمر • ولكن يخيّل الىّ اننى قبل أن أزوّجها سأتعب خاطبها وأستبخدم واحداً بعد آخر ، الى أن أزوّجها منّ تحبه مع ذلك آخر الأمر • والرجل الذى تحبه البنت هو بعينه الرجل الذى يكرهه أبوها أكثر مما يكرهه من عداة • نعم ، ان الأمر كذلك • وما أكثر المصائب التى تقع فى الأسر بسبب هذا ؟

قالت فجأة :

- بين الآباء من يسعدهم أن يبيعوا بناتهم ، لا أن يزوجهن زواجاً شريفاً •

آ ••• هذا هو الأمر اذن !•••

واستأنفت كلامى قائلاً بحرارة :

- ذلك ، يا ليزا ، لا يحدث الا في الأسر التي كتبت عليها اللعة ،
الأسر التي لا تعرف الله ولا تعرف الحب . وحينما يئب الحب يئب العقل
أيضاً . صحيح أن أسراً كهذه الأسر موجودة ، ولكن كلامي لا ينصرف
اليها ولا ينصب عليها . انتى أدرك الآن أنك لم تكونى سعيدة فى بيت
أهلك ما دمت تقولين هذا الكلام . نعم . . . أنت شقية حقاً . . . هم
. . . ان الفقر هو سبب جميع هذه الشرور بوجه عام .

- هل تجرى الأمور على غير هذا النحو فى منازل الأثرياء ؟ ان
الشرفاء يعيشون سعاداً حتى فى الفقر .

- هم . . . نعم . . . ربما . . . وهناك شىء يا ليزا ، هو أن
الانسان لا يتبى الا الى آله ، أما سعادته فلا يتوقف عندها ولا يلتفت اليها .
ولو فكر الانسان فى سعادته ، لوجد أن لكل مرحلة من مراحل حياته
خطاً منها . . . فكيف اذا جرت جميع الأمور فى الأسرة مجرى حسناً ،
فباركها الله ، وكان الزوج طيباً ، وكان يعنى بك وكان لا يتركك !
ما أسعد الحياة فى الأسرة حينذاك ، ولو تسلسل اليها شىء من شقاء .
أليس يتسلسل الشقاء الى كل مكان ؟ اذا تزوجت فى يوم من الأيام ،
فلربما عرفت ذلك بنفسك . ثم فلتنظر فى الأوقات الأولى من حياتك
مع الرجل الذى تحبين . ما أعظم سعادة هذه الأوقات ! ما أعظم
سعادتها ! وهذا يحدث دائماً . حتى المشاجرات تنتهى بينكما نهاية
حسنة فى تلك الأوقات . من النساء من يسمعن الى مشاجرة أزواجهن
على قدر ما يحينهم . أوكد لك ذلك . لقد عرفت امرأة من هذا
الطراز . لسان حالها يقول : « أحبك كثيراً » . واذا كنت أعذبك فلكى
تشعر بذلك . . . هل تعرفين هذا يا ليزا ؟ قد يحدث أن يعذب أحد
أحدًا لا لشيء الا لأنه يحب . النساء يفعلن هذا . والمرأة تقول بينها وبين
نفسها أثناء ذلك مخاطبةً رجلها الذى تحبه « سوف أبلغ من قوة حبك

وكثرة ملاطفتك بعد هذا ، أثنى لا آثم اذا عذبتك الآن ! ، ، الجميع يتقاسمون الفرح فى الدار ، ويسودهم جو المرح والشرف ، ويرفرف عليهم الامن والسلام . ان بعض النساء غيورات . فاذا خرج الرجل لم يطقن احتمال ذلك . أنا أعرف امرأة كانت تنصرف هذا التصرف . انها تشب من سريرها فى الليل وتسرع لترى اليس زوجها الان مع فلانة فى مكان كذا ؟ ما هذا بالامر المستحسن . والمرأة تعرف ذلك . وهى تتالم وتحكم على نفسها وتدين سلوكها . ولكن ماذا تريدن ؟ انها تحبه ! ... ولكن ما أحلى المصالحة بعد مشاجرة ! ما أحلى أن تستغفره أو أن تغفر له . انهما كليهما يشعران بالسعادة حينئذ ، كأنهما قد التقيا منذ لحظة ، أو كأنهما قد تزوجا منذ هنيهة ، وكان جبهما انما بدأ الآن ... وما من أحد ، ما من أحد يجب ان يعرف ما يحدث بين الرجل وامراته اذا كانا متحابين حقاً . مهما يتشاجرا فما ينبغي أن يحتكم أحد منهما حتما الى أمه ، وما ينبغي لهما أن يقصا على أحد شيئاً مما وقع بينهما ؛ ما ينبغي أن يحتكما الا الى نفسيهما . الحب سرّ الهى يجب أن يظل مخبأ عن أعين جميع الناس ، مهما يحدث من أمر ، ومهما يقع من خلاف . ذلك خير وأبقى ، ذلك أنبل وأقدس . بهذا يزداد الاحترام المتبادل ، وما أكثر الأشياء التى تُبنى على الاحترام المتبادل ! اذا قام الزواج على الحب ، فلماذا يجب أن يموت هذا الحب ؟ هل يتعذر حقاً بقاء هذا الحب حياً ؟ انه لمن النادر أن يتعذر ذلك . كيف يمكن أن يتعذر ذلك اذا كان الرجل طيب القلب شريف النفس ؟ صحيح أن الحب الأول ينقضى ، ولكن حباً أخز سيعقب الحب الأول ، حباً أسمى كثيراً من الحب الأول ، حباً يوحد النفسين ، ويجعل كل شيء مشتركاً بينهما ، فلا تخفى أحدهما عن الأخرى سرّاً ؛ فاذا جاء الأولاد بدا كل شيء عندئذ جميلاً ، حتى أصعب المصاعب ، شريطة أن يوجد الحب

وأن توجد الشجاعة • العمل نفسه زاجر بالفرح ، وانه ليفرح الانسان ان يحرم نفسه من الحُبز فى سبيل أن يهبه للأولاد • لان الاولاد سيحبونك لهذا فى المستقبل • ولنفسك اذن انما تكتزين وتدخرين • ويكبر الاولاد ، فتشعرين انك لهم قدوة ، وأنتك سندهم • حتى اذا واقتك المنية حملوا بعدك الافكار والمواطف التى أخذوها منك ، فاذا هم قد خلقوا على صورتك • هذا يملى عليك اذن واجباً خطيراً • كيف لا يتحد الابوان اتحاداً أقوى واثق ما دام الامر كذلك ؟ يقال ان الاولاد مشقة وعناء • كذب القائل • الاولاد فرحة الهية • هل تحين الاطفال الصغار يا ليزا ؟ أنا أعبدهم عبادة ••• تصوّرى ••• تصوّرى وليدأ بلون الورد يرضع من ثدى ••• أى زوج لا يذوب قلبه خائناً حين يرى امرأته تحضن ابنه بذراعيها ؟ ••• طفل صغير بلون الورد ، بض الجسم ، يتمطى ، يتسسم ، يلعب ••• قدامان صغيرتان ••• يدان صغيرتان سميتان ••• أطافر صغيرة نظيفة تبلغ من الصغر أنها تبعث على الضحك ••• عيان صغيرتان يبدو منذ الآن انهما تفهمان كل شيء ••• وهو اذ يرضع يربت على ثديك ••• ويعبت ••• ويشدك ••• حتى اذا اقترب الأب انقلب الى وراء ، ونظر الى أبيه ، وأخذ يضحك • يا له من منظر مضحك ! ثم يعود الصغير الى ثدى أمه ويستأنف الرضع • وسوف يعرض الثدي فى مرة أخرى حين تنبت أسنانه، وسوف يرشق أمه فى الوقت نفسه بنظرة مأكرة فكأنه يقول لها : « هل أحسنست ؟ لقد عضضتكم !... » .

أليست هى السعادة ، أليست هى السعادة الكاملة أن يكونوا جميعهم معاً : الأم والأب والطفل ؟ ان الانسان يمكن أن يغفر أموراً كثيرة فى سبيل هذه اللحظات • لا يا ليزا : على المرء ، قبل أن يتهم الآخرين ، أن يتعلم هو نفسه الحياة !

قلت بنى وبين نفسى مخاطباً ليزا : « بهذه اللوحات انما يجب

التأثير فيك ، ، قلت ذلك بيني وبين نفسي رغم أنني قد تكلمت صادقاً كل
الصدق مخلصاً كل الاخلاص ، أحلف لكم ... ثم اذا بي أحمر على
حين فجأة . تساءلت : « ما عساي أفعل اذا هي انفجرت ضاحكة ، أين
عساي أدس نفسي حينذاك ؟ » وأحنقتني هذه الفكرة . كنت في نهاية
خطابي شديد الاحتياج ، وهأنا ذا الآن أشعر من ذلك بفضاضة تعرج
كبريائي . واستمر الصمت . وددت حتى لو أدفعها عني ...

بدأت تتكلم فقالت :

— مالك تتكلم مثل ...

ثم أمسكت عن اتمام كلامها .

ولكنني كنت قد أدركت كل شيء . هناك أمر آخر كان يختلج
في صوتها : ان المرء لا يلاحظ في صوتها الآن ما كان يلاحظه منذ قليل
من جفاء وعناد ، بالعكس : ان في صوتها الآن عاطفة رقيقة ، يبلغ
ما تشتمل عليه من الحفر والحشمة والحياء أنني شعرت أمامها على حين
فجأة بخجل وخزي ، وأحسنست أنني مذبذب أثم .

سألتها باستطلاع رقيق :

— ماذا ؟

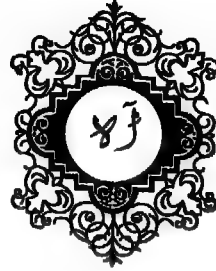
— انك ...

— ماذا ؟

— لكأنك تقرأ في كتاب ...

تصورت من جديد أن في صوتها شيئاً من سخرية .
جرحتني هذه الملاحظة جرحاً بالفاً أليماً . لقد كنت أتوقع شيئاً
آخر .

لم أدرك أنها كانت تخفى عواطفها تحت ستارٍ من لهجة ساخرة ،
وأن هذا هو المكر الأخير الذى تعتمد اليه القلوب الزاخرة حياءً وخفراً ،
القلوب المنعزلة المتوحدة ، حين يريد أحد أن يقتحمها اقتحاماً مباغتاً
عنيفاً ، فاذا هى تأبى الاستسلام مستكبرةً متعاليةً ، واذا هى تخشى أن
تظهر ما تضره من عواطف • كان يكفى أن ألاحظ ما ظهر عليها من
تردد ووجل حين استأنفت جملة ما عدة مرات قبل أن تعزم أمرها على
النطق بها ، كان يكفى أن ألاحظ ذلك حتى أدرك كل شيء • ولكننى
لم أحزر شيئاً ، واجتاحتنى عاطفة شريرة •
قلت لنفسى : « مهلاً ! انتظر قليلاً ! » •



يا ليزا ! أنا أقرأ في كتاب ؟ صحيح أنتي
 لا علاقة لي بالأمر ، ولكنني أشعر بامتنزاز .
 ثم ان الأمر يهمني . لقد استيقظت روحي في
 هذا المساء . أصبح أنك لا تحسین هنا بتقزز
 عمیق ؟ ألا ان للعادة تأثيراً خارقاً . الشيطان وحده يعرف الى اين يمكن
 أن تؤدي العادة بالانسان ! أنتعقدین حقاً بأنك لن تهرمی قط ، وبأنك
 ستظلین جميلة ، وبأنهم سيحتفظون بك هنا دائماً ؟ لست أكلمك عن
 وحل هذا المكان . ولكن اليك ما سأقوله لك عن حياتك في هذه الدار :
 أنت الآن فتية ، وأنت الآن نضرة ، وان لك الآن لروحاً وعواطف .
 ولكن هل تعلمین أنتي حين صحوت منذ قليل ، قد آلمني أن أجد نفسي
 بالقرب منك ؟ ان الرجل لا يسقط في حماة هذا المكان الا وهو في حالة
 سكر تام . أما لو التقيت بك في مكان غير هذا المكان ، وكنت تميشين كما
 يعيش الشرفاء من الناس ، لكان من الممكن لا أن أغازلك فحسب ، بل
 وأن أهيمن بجبك أيضاً ، ولكان من الممكن أن تسعدني منك لا كلمة
 فحسب ، بل نظرة واحدة أيضاً . كان من الممكن أن انتظرك على الباب ،
 أن أقضي ساعات راكماً أمامك ، كان من الممكن أن أعدك خطيبتی وأن
 أومن بأن هذا يشرفني كثيراً . ما كان لي عندئذ أن أتجسراً فأدنس
 طهارتك ولو بالحیال . على حين أنه يكفيني هنا أن أصفر لك حتى

تهرعى الىّ وحتى تكونى مضطرة أن تتبعينى شئت أم أبيت • فلست أنا
 رهن مشييتك بل أنت رهن مشييتى • حين يلتزم أحقر فلاح بالقيام
 بعمل من الأعمال ، فانه لا يبيع نفسه كاملةً على كل حال ، وهو يعلم
 عدا ذلك أنه مستعبد الى حين ؟ أما أنت فمستعبدة الى الأبد • هلاً فكرت
 قليلاً فيما تبيعينه هنا ، هلاً فكرت قليلاً فيما تسلمينه للعبودية فى هذا
 المكان ؟ انه روحك وجسمك معاً ! لقد أصبحت لا تملكين أن تصرفى
 بروحك • انك تسلمين حبك لأول سكران عابر ، ليدوسه بقدميه • مع
 أن الحب هو كل شيء • الحب جوهرة غالية ، الحب كنز الفتاة وثروتها •
 ان من الناس من لا يحجمون عن التعرض للموت وعن بذل النفس فى
 سبيل أن يظفروا بهذا الحب • أما هنا فهل لهذا الحب من اعتبار ؟ لقد
 اشتريت جسماً وروحاً فى هذا المكان • وما حاجتهم الى حبك وقد
 استطاعوا أن ينالوا منك كل شيء حتى بدون حب ؟! • ما من اهانة
 أببلغ من هذه الاهانة فى حق فتاة ، فهلاً فهمت هذا ؟

• سمعت من يقول انهم يتملقونكن هنا أيتها الحمقات ، فيأذنون
 لكنّ بعشاق تعاشرنهم معاشرة الخلان • ألا ان هذا لهزل وكذب • انهم
 يضحكون عليكم فتصدقنهم • هل صحيح أن خليلك يجبك حقاً ؟ أما
 لا أصدق هذا • كيف يمكنه أن يجبك وهو يعلم أنهم سينادونك فاذا
 أنت مضطرة أن تركيه لتضى الى رجل آخر ؟ ألا انه لوبش حقير
 ونذل دنىء اذا هو ارتضى هذا ! وهل فى وسعه أن يحترمك ولو قليلاً
 من الاحترام ؟ ماذا يجمع بينكما ؟ انه يسخر منك ، ويسرق مالك فوق
 ذلك • هذا هو حبه كله • ويا للسعادة اذا هو لم يضربك • وقد يضربك
 على كل حال • اطلبى من خليلك ، اذا كان لك خليل ، أن يتزوجك •
 لسوف ينفجر ضاحكاً أمام أنفك ، هذا اذا لم يصبق فى وجهك أو لم
 يصفك • وهو نفسه لا يساوى أكثر من قرشين مثقوبين • هلا تساءلت

لماذا دفنت حياتك هنا ؟ أمن أجل أن يسقوك قهوة ويقدموا لك طعاماً ؟
ولكن ما هي غايتهم من اطعامك ؟ ألا انه ما كان لفتاة أخرى ، ما كان
لفتاة شريفة أن تستطيع ابتلاع لقمة من طعامهم ، لأنها تدرك غايتهم من
اطعامها . أنت مدينة للقوادة منذ الآن . وسيزداد دينها عليك وسيرو
يوماً بعد يوم ، وسيظل يزداد ويربو الى آخر أيامك ، الى أن يأتف منك
زبائنك ويعرضوا عنك مشمشزين . وسيحدث هذا قريباً . لا تتقى
بشبابك . الزمان يجرى هنا سريعاً . سوف تطردك يومئذ شر طردة .
ولكنها قبل أن تطردك ستلاحقك بالملامات والاهانات والشتائم ، كأنك لم
تهبى لها شبابك وصحتك ، وكأنك لم تبيعها روحك . سوف تقول انك
تسيين لها الدمار والحراب ، كأنك قد سرقت مالها ورميته الى حضيض
البؤس . ولا تتطرى من أحد عوناً . ان رفيقاتك سيهوين على ظهرك
هن أيضاً ، مداةً للقوادة ، لأنهن جميعاً مستعدات في هذا المكان ،
قد فقدن منذ زمن طويل كل شفقة وكل وجدان . ان فيهن جنناً
وحقارة . وليس على وجه الأرض اهانات أقدر ولا أسوأ ولا أقسى من
الاهانات التي سيفمرنك بها . سوف تفقدن هنا كل شيء ، حتى دون
أن تلاحظي ذلك : سوف تفقدن صحتك وشبابك وجمالك وآمالك .
فما ان تبلى الثانية والعشرين من عمرك حتى يكون مظهرك قد أصبح
مظهر امرأة في الثلاثين أو يزيد . وعليك أن تحمدى الله اذا أنت لم
تصابى بداء عضال ! لملك تتخيلن أنك لا قومين هنا بأى عمل ، وأن
أيامك كلها أعياد . ألا ان عملك هنا لعمل مرهق ، عمل من أعمال
نزلاء سجون الأشغال الشاقة . ليس هناك عمل أسوأ من هذا العمل .
ان القلب لينوب دموعاً من شدة عذابه بمثل هذا العمل !

« ولن تجبرى أن تقولى كلمة ولا نصف كلمة حين ستطردن من
هذا المكان . ستصرفين كما لو كنت قد ارتكبت جريمة . ستذهين الى

منزل ثانٍ ثم الى منزل ثالث ، ثم الى منازل أخرى ، حتى ينتهى بك المطاف الى سينايا • وهناك سيضربونك : ان الصفحات هنالك ملاطفات • لن يستطيعوا أن يلاعبوك هنالك قبل أن يلكموك بضغ لكلمات • هل تصورين أن ذلك المكان ليس فظيماً الى هذه الدرجة ؟ ما عليك اذن الا أن تزوريه مرة فتعرفى الحقيقة بنفسك •

• لقد رأيت واحدة من تلك البنات هنالك على الباب فى ذات يوم من أيام رأس السنة • ان زميلاتها أنفسهن قد طردنها الى الخارج على سبيل المزاح ، من أجل أن « يجلدنها الصقيع » قليلاً ، لأنها كانت تسرف فى البكاء • طردنها ثم أغلقن الباب • وفى الساعة التاسعة من الصباح كانت سكرى سكرأ تاماً قد تشعث شعرها وكادت تعرى ، وامتلأ جسمها بآثار الضرب : كان وجهها شديد البياض من المساحيق ، ولكن عينيها غائرتان والدم يسيل من أنفها وفمها • ان حوزياً من الحوزيين هو الذى جعلها على هذه الحال • كانت جالسة على درجات السلم الحجرى ، تمسك بيدها سمكة مملحة • وكانت تبكى وما تنفك تجمجم بكلمات غامضة عن مصيرها وتضرب السلم بسمكتها • وكان يحتشد حولها ويسخر منها حوزيون وجنود سكارى •

• أتظنين أن مصيرك لن يكون كمصيرها ؟ أنا أيضاً أود أن أظن ذلك • من يدرى ؟ لعل هذه المرأة التى تحمل السمكة المملحة قد وصلت هى نفسها الى هنا منذ عشر سنين أو منذ ثمانى سنين ، لا يعلم أحد من أين ، وصلت نضرة كطفل ، بريئة طاهرة تجهل كل شئ عن الشر ، ويحمر خذاها من كلمة • ولعلها كانت فى الماضى تشبهك : لعلها كانت شديدة الكبرياء سريعة التأذى لها هيئة كهية ملكة ، ولعلها كانت مقتنعة بأن السعادة الكاملة تنتظر الرجل الذى سيحبها وتجه • فهأنت ذى ترين كيف كانت خاتمتها !

« ما قولك اذا تذكرت هذه المرأة ، أثناء سكرها وتشعث شعرها وضربها درجات السلمَ بسمكتها المملّحة ، ما قولك اذا هى تذكرت الماضي : اذا هى تذكرت السنين الطاهرة التى قضتها فى منزل أهلها ، وتذكرت المدرسة وابن الجيران الذى كان يترقبها فى الطريق ويحلف لها ليحبها الى الأبد ، ويعدها بأن يقف عليها حياته ، فاذا هما يتاهدان على أن يبقى جهما خالداً وعلى أن يتزوجا متى أصبحا فى سن الزواج ؟

« آه يا ليزا ! لسوف يكون حظك سعيداً اذا أمكنك أن تموتى هنالك فى ركن بالقبو مئة سريعة بمرض السل كما ماتت الأخرى . انك تتكلمين عن المستشفى . ليتك تنقلين الى المستشفى . ولكن ماذا اذا كنت مدينة للقوادة ، وكانت القوادة فى حاجة اليك ؟ ان السل داء يطول أمره ، فما هو حمى طارئة تخطف الحياة خطفاً . المريض بالسل يظل الى آخر لحظة يأمل أن يكون فى صحة حسنة ويؤكد أنه فى صحة حسنة . انه يعزى نفسه ... والقوادة تعجنى من هذه الحالة النفسية نفعاً . ان الأمر هو على ما وصفت . لقد بعثها روحك ، وما تزالين مدينة لها فوق ذلك بمال ، فلم يبق لك بعد هذا حق فى الكلام .

« حتى اذا جاءت ساعة الاحتضار أعرض الجميع عنك ونسوك ، اذ لا يبقى لهم فيك مأرب ، ولا يبقى لهم فيك نفع . حتى أنهم سيلومونك على أنك ما تزالين تشغلين مكاناً كبيراً ولا تموتين بسرعة . فاذا اشتد بك الظمأ سقوك ، ولكنهم يسقونك عندئذ شاتمين ، قائلين : ألا فطست أخيراً أيتها الحقيرة ! انك تحرميننا بأنينك من النوم ! وانك تثيرين فى زبائنا الاشمزاز والتقرز . » هذه هى الحقيقة . لقد سمعت هذه الملامات بأذنى .

« سوف يلقون بك شبه مئة الى ركن من القبو هو أكثر أركانها

قذارة ورطوبة وظلاماً • فما هي الخواطر التي ستمر في رأسك وأنت راقدة هنالك على الأرض وحيدة ؟

« حتى اذا مات أخيراً لمُوك بيد كارهة وهم يدمدمون متذمرين متململين قد نفذ صبرهم • لن يباركك عندئذ أحد ، ولن يتنهد أحد حين يفكر فيك ... فانما المهم أن يتخلصوا منك بأقصى سرعة ! سيشترون تابوتاً حقيراً يضعونك فيه ، ثم ينقلونك على نحو ما نقلوا في هذا الصباح تلك الشقية التي ماتت في قبور بيميدان سينايا • فمضى فرغوا من ذلك مضوا يشربون كأساً في كبااريه !... وستكون حفرة قبرك مملأة بالوحد والأقدار والثلج الذائب • انهم لن يزعموا أنفسهم من أجلك أنت • « هياً يا فانيا ، أنزلها من هنا ! هذا مكتوب عليها • مكتوبٌ عليها أن تكون ساقاها هنا أيضاً مرفوعتين ... شدّ الجبل يا غبي ! » - « حسن هكذا » - « ألا ترى أنها راقدة على الجنب • انها من مخلوقات الله على كل حال ! » - « هياً ... حسنٌ هكذا ... اجرف التراب » •

« ولن يتشاجروا طويلاً في سييلك • سوف يدفنونك تحت طبقة رقيقة من طين رطب أزرق ، ثم يندفعون متجهين الى الكبااريه ! تلك هي نهاية ذكراك على الأرض • سوف يجيء الى القبور الأخرى أبناء وآباء وأزواج • أما قبرك أنت فلن تُسمع عنده زفرة ، ولن تسكب عليه دمة ، ولن يتذكره أحد • ما من أحد سيجيء اليك في يوم من الأيام • سيَمحى اسمك من على وجه الأرض ، فكأنك لم توجد ولم تولد • لا شيء الا الوحل ، لا شيء الا مستقع !... وربما ارتطمت بغطاء تابوتك ساعة يستيقظ الأموات في الليل ، وهتفت قولين : « دعوني أخرج أيها الناس الأخيار ! أريد أن أرى النور ! لقد عشت دون أن أعرف من الحياة شيئاً ؟ فانما كنت خرقه ملقاة على الأرض يمسح بها

المارة أُنذار أقدامهم • لقد شربوا حياتي هناك في سينايا ، في الكاباريه !
دعوني أعيش مرةً أخرى على الأرض أيها الناس الطيبون ! • •

أصبحت لا أسيطر على نفسي من شدة الانفعال ، وهذه تشنجات
في حلقي تقطع كلامي على حين فجأة ••• نهضت مرتاعاً ، وملت برأسي
خائفاً مثقل القلب ، وأصخت بسمعي : لقد كان هنالك ما يدعو الى
الاضطراب !

كنت قد شعرت منذ مدة طويلة أنني قد قلبت نفسها وحطمت
قلبيها • وكنت كلما ازدددت اقتناعاً بذلك ازدددت رغبةً في بلوغ الهدف
كاملاً وتحقيق النصر سريعاً • كان لعب الكلام يستهويني • على أن الأمر
لم يكن لعباً فحسب •••

كنت أعلم أن في أقوالى ثقلاً وخرافة واصطناعاً ، وأن كلامي
يشبه أن يكون « قراءة في كتاب » • ولكن ذلك لم يهمني • كنت أعلم
أنها ستفهمني ، وأن أسلوب الكتب هذا سيعينني هو نفسه في أن أحقق
معها نجاحاً كبيراً • ولكنني حين وصلت الى هذا الهدف شعرت بخوف •

لم تقع عيناى قبل الآن في يوم من الأيام على منظر يمثل ما كان
يمثله منظرها عندئذ من يأس رهيب ! كانت راقدةً على الفراش ، قد
دفنت وجهها عميقاً في وسادتها وعانقت الوسادة بيديها ، وأخذ الشهيق
يمزق صدرها • ان جسمها الفتى يرتعش ويتنفّض متشنجاً وان دموعها
تخفقها وتطلق على حين فجأة آهات وصرخات ، فاذا هي عندئذ تدفن
رأسها في الوسادة بمزيد من القوة ، لأنها لا تريد أن يطلع أحد في هذا
المنزل على دموعها وأن يعرف آلامها • وكانت تمض وسادتها وتمض
ذراعها عضاً شديداً يفجر منها الدم (لاحظت ذلك فيما بعد) ، وكانت

أصابعها تقبض على شعرها المبعر ، وكان تستमित فى سبيل أنفاسها وأن
تبقى على شفتيها مطبقتين •

أردت أن أكلّمها وأن أطلب منها أن تهدى روعها ، ولكننى لم
أجرؤ أن افعل ، ثم اذا أنا ارتعش اتعاشاً قوياً وأصبح فى حالة أشبه
بالهلع ، وأطفق ألمّ أمتعتى بالتمسك على حين فجأة من أجل أن أهرب •
كان الظلام حالكاً ، فلم أستطع رغم جميع جهودى أن أفرغ من لم
أمتعتى بسرعة • وعثرت أصابعى بقتة بعلبة كبريت وعثرت بشمعة
كاملة على منضدة صغيرة قرب علبة الكبريت • فما ان أضاء نور الشمعة
الغرفة حتى وثبت ليزا ، وجلست على أريكتها وحدقت الى بنظرة بلهاء
وابتسامة تشبه أن تكون ابتسامة انسان مجنون • جلست الى جانبها
ووضعت يديّ على يديها • ثابت الى نفسها • وامتدت ذراعاها نحوى
كأنما لتمسكنى ، ولكنها لم تجرؤ أن تفعل ، فما لبثت أن خفضت رأسها
ببطء •

قلت :

– ليزا ، صديقتى ، لقد أخطأت فى حقك ، سامحني ، اغفرى لى •
ولكنها ضغطت يديّ بأصابعها ضغطاً بلغ من القوة أننى صمت •
لقد أدركت أننى لم أقل ما كان ينبغى أن أقوله •

– اليك عنوانى يا ليزا • زورينى فى يوم من الأيام •

دمدمت تقول بلهجة جازمة ، ولكن دون أن ترفع رأسها :

– ساجى •

– والآن أنصرف ••• وداعاً ! الى اللقاء •••

ونهضت ، فنهضت هى أيضاً ، ولكنها احمرّت ، وفيما هى

ترتعى ارتعاشاً قوياً تناولت عن كرسىٍ متديلاً لَفَتَ به عنقها وكفيها حتى الذقن ؟ حتى اذا فرغت من ذلك ابتسمت ابتسامة خجلى ، واحمرت من جديد ، وحدقت ، الى نظرة غريبة . كنت أتألم ، ولم يكن لى الا همٌ واحد هو أن أنصرف بسرعة فأغيب .

قالت لى فجأة ونحن فى الدهليز قرب الباب ، قالت لى وهى تستوقفنى ممسكةً طرف معطفى :

— انتظر لحظة !

ومضت واكضة . لا شك أنها تذكرت شيئاً تريد أن تُرينيه . كانت عيناها تسطمان ، وكان خذاها بلون الورد ، وكانت شفتاها تبتسمان . ما هو الأمر ؟ انتظرت رغم ارادتى . فما هى الا دقيقة حتى عادت وفى نظرتها معنى طلب الصفح والمغفرة . كان وجهها قد تبدل . ليست نظرتها الآن مظلمة رِيَابَة عبيدة . ان فى عينيها ضراعة واستعطافاً ، وعذوبة ورقة ، وان فيهما كذلك شيئاً من الحُجَل ، ومن الحنان ، ومن الثقة . هكذا ينظر الأطفال الى من يحبونهم حين يهتمون أن يطلبوا منهم شيئاً . ان عينيها الشهابوين الصافيتين الجميلتين الزاخرتين بالحياة تجيدان التعبير عن الحب والكره كليهما على حد سواء .

وفى صمت — كما لو كنتُ انساناً فذاً لا بد أن يفهم كل شىء دون شرح — مدتُ الى ورقة . ان فرحاً ساذجاً يشبه أن يكون فرح طفل قد أضاء وجهها فى تلك اللحظة . فضضت الورقة . هى رسالة بعثها اليها طالب طبٍ أو شاب آخر يصارحها فيها بحبه بأسلوب يشتمل على شىء من البهرجة والتزويق ، ولكنه يشتمل كذلك على كثير من الاحترام . لا أتذكر الآن عبارات الرسالة ، ولكننى أتذكر أنها ، رغم أسلوبها المتفخم ، تشف عن عاطفة صادقة يستحيل أن تكون مزورة . فلما

فرغت من قراءة الرسالة التقى نظرى بنظر ليزا ، فرأيتها تحدّق الى
تحديقاً كتحديق الأطفال فيه كثير من الحرارة والاستطلاع ونفاد الصبر .
كانت تلتهمنى بعينها التهاماً ، وتنتظر منى ، وهى على أحرّ من الجمر ،
أن أقول لها كلمة أفصح بها عن رأى .

وببضع كلمات سريعة لكنها زاخرة بالفرح والاعتزاز ، ذكرت لى
أنها حضرت سهرة راقصة عند أسرة محترمة « أسرة محترمة جداً جداً ،
لا يعرف أحد من أفرادها عنى شيئاً على الإطلاق حتى الآن ، ...
(ذلك أنها لا تعيش فى هذا المحل الا منذ زمن قريب ... على سبيل
الاطلاع فحسب ... ولا شك أنها ستبارحه متى ردت ما عليها من
ديون ...) وقد كان ذلك الطالب أحد حضور الحفلة ، وظل يراقبها
طوال السهرة . انهما متعارقان من قبل ، متعارقان منذ كانا طفلين فى
ريجا ، وقد لعبا معاً من زمن طويل ... وكان هو يتردد الى أهلها ...

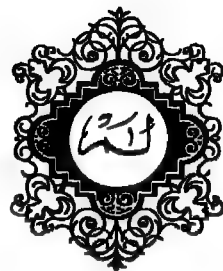
ولكنه لا يعرف عن « هذا الأمر » شيئاً ، لا يعرف عنه شيئاً البتة ،
لا ولا يخطر له على بال ! وفى غداة تلك الحفلة (أى منذ ثلاثة أيام)
بعث اليها هذه الرسالة بواسطة صديقة لها حضرت تلك الحفلة معها ...
هذا كل شيء ...

قالت ليزا تلك الكلمات وخفضت عينيها الساطعتين .

كانت الصبية تحتفظ برسالة هذا الطالب احتفاظها بكنز ثمين .
لقد أرادت أن تجيئى بهذه الثروة الوحيدة الغالية حتى لا أنصرف قبل أن
أعلم أنها تُحسبُ هى أيضاً حياً شريفاً صادقاً مخلصاً ، وأنها تُخاطبُ هى
أيضاً باحترام . لا شك أن هذه الرسالة ستبقى عندها فى درج من الأدراج
دون أن يعقبها شيء ... ولكن لا ضير ! ... ستحتفظ بها ليزا طوال
حياتها كما تحتفظ بكنز ثمين . ستظل هذه الرسالة موضع اعتزازها

وسبب اعتبارها لنفسها ... لقد تذكرتها في تلك اللحظة لتفتخر أمامي
بهذه الكلمة ، لعلو قدرها في نظري ، لأقرأ هذه السطور فأهتها بها
وأعبطها عليها !

لم أقل شيئاً • صافحتها وانصرفت • كنت استمجل الانصراف •
عدت الى منزلي سائراً رغم أن الثلج الذائب ما يزال يهطل كتلاً
كبيرة • كنت مهدود القوى خائر العزيمة مسحوق النفس متردد الفكر
حائر الارادة • ولكن الحقيقة كانت تظهر من وراء تردد الفكر وحيرة
الارادة : كانت حقيقة دمية أشد الدمامة !



أقبل تلك الحقيقة بسرعة • وحين استيقظت
في الصباح بعد بضع ساعات من نوم ثقيل
كالرصاص ، استعرضت ذكريات الأمس
فأدهشتني تلك « العاطفية المائعة » التي أظهرتها
تجاه ليذا ، وأدهشتني أحاديثنا تلك كلها عن « الشفقة والشرف » • كيف
أمكن أن أنقاد ذلك الانقياد الرخو لمثل تلك النوبة العصبية التي لا تعذر
الا بامرأة ضميعة ؟ ألا ان ذلك لأمر يثير الاشتزاز ويحث على التقزز !
ولماذا أعطيتها عنواني ؟ ما عساني فاعلاً اذا هي جاءت ؟ أوه ! ألا فلتأت
اذا شئت أن تأتي ! لا ضير •••

ولكن الشيء الهام الأساسي ، طبعاً ، هو أن أتصرف بسرعة لأسترد
سمعتي في نظر زفر كوف وسيمونوف مهما كلف الأمر • ذلك هو الأمر
الوحيد الهام الخطير ••• وقد شغلني هذا الأمر في ذلك الصباح فنسيت
ليذا نسياناً تاماً •

كان يجب عليّ أن أردّ الى سيمونوف دينه قبل كل شيء • فقررت
أن أعمد الى اتخاذ اجراء يائس ، هو أن اقترض من أنطون أنطونوفتش
خمسة عشر روبلاً بالتمام والكمال • وشئت المصادفة أن يكون أنطون
أنطونوفتش رائق المزاج مشرق النفس في ذلك الصباح ، فأعطاني المبلغ
منذ طلبته ، فبلغت من شدة الفرح وأنا أوقع له سند استلام المبلغ انني

حكيت له ، منبسط النفس طلق اللسان مهملاً غير متحرج ، عن
 « حفلة القصف » التي أقمتها مع بعض الأصدقاء في « فندق باريس »
 توديعاً لرفيق من رفاق المدرسة - نعم لماذا لا أقول له هذا ؟ - واندفعت
 في الكلام قائلاً : « هو ! هو ماجن رهيب ... دلتته الحياة ... سليل
 أسرة عريقة طبعاً ... على جانب عظيم من الثراء ... لامع في وظيفته
 ... فكه ... لطيف ودود ... متعجل - مع النساء طبعاً ، هه ؟ شربنا
 نصف دسته من زجاجات الشمبانيا فوق ما كنا نزمع أن نشرب » . هكذا
 اندفعت أقول في يسر وسهولة وانطلاق ، بلهجة مريحة ، راضياً عن
 نفسي كل الرضى سعيداً بها كل السعادة .

فلما عدت الى منزلى شرعت أدبج رسالة الى سيمونوف .

ما زلت الى الآن معجياً بالأسلوب المضيء الصريح الودود الذي
 كتبت به تلك الرسالة . أنه أسلوب لا يحسنه الا « جتلمان » . اتهمت
 نفسي في تلك الرسالة اتهاماً كاملاً ، على نحو بارع كريم نبيل ، دون أن
 أضمنها أية كلمة زائدة نافلة . اعتذرت اليه عما بدر مني « اذا كان
 يجوز لي أن أعتذر ، ، وألححت خاصة على أنني لم أعود شرب
 الخمر ، فلذلك سكرت سكرأ تاماً منذ الكأس الأولى التي احتسيتها قبل
 وصولهم ، بين الخامسة والسادسة (هذا ما زعمته !) . وقلت أنني أتوجه
 بالاعتذار الى سيمونوف خاصة ، ولكنني أرجوه أن يبلغ الآخرين هذه
 الشروح ، ولا سيما زفركوف الذي يترامى لي أنني أسأت اليه وأهنته
 » فهذا ما أتذكره الآن كحلم من الأحلام ، . وأعربت عن أسفني
 لمعجزى عن الذهاب اليهم بنفسى للاعتذار ، بسبب ما أعانيه من صداع
 شديد ، وخاصة بسبب ما أشعر به من خجل !

وسرّني سروراً عظيماً ما لاحظته في الرسالة التي جرى بها قلبي
 عفواً ، من « خفة » بل ومن « اهمال » (وهو اهمال مهذب على كل

حال) • ان هذه الحفة وهذا الاهمال سيفهمانهم أكثر من أى شيء آخر
 فى هذا العالم أنتى أنظر الى كل تلك « القصة السخيفة التى جرت
 بالأمس » نظرة استملاء • اننى ، أيها السادة ، لم أَسْحَقْ كما قد
 تتوهمون . بالعكس : اننى لا أنظر الى هذا الأمر كله الا نظرة « جتلمان »
 يحترم نفسه بهدوء ورضا • « ان لسنَّ الشباب ضروراته وأحكامه » •
 قلت لنفسي وأنا أعيد قراءة الرسالة : « ألا ان فيها كذلك لشيئاً
 ارستقراطياً . لماذا ؟ لأننى رجل مثقف ، لأننى رجل ذكى ! ما كان
 لغيرى أن يعرف كيف يخرج من المأزق ، أما أنا فقد خرجت منه ،
 وهأنا ذا ألهو من جديد • انظروا كيف يكون المرء ابن زمانه ، متفقاً
 ذكياً ! على أن هذا كان ذنب الحمرة التى شربتها !... لا ... ليس
 هذا صحيحاً كل الصحة • أنا لم أشرب خمرة حين كنت انتظرهم بين
 الساعة الخامسة والساعة السادسة • لقد كذبت على سيمونوف ، كذبت
 بوقاحة ، ولست أشعر من ذلك بخجل ... »

على اننى لا أبالى بهذا كله بل أبصق عليه • فانما المهم هو أن
 أخرج من الأمر •

وضعت فى الظرف ستة روبلات ثم ختمته وطلبت من آبولون أن
 يحمله الى سيمونوف • فلما علم آبولون أن فى الظرف مالاً شعر بشيء
 من الاحترام ورضى أن يحمل الظرف الى العنوان الذى ذكرته له •

وفى المساء خرجت أتزره • كنت ما أزال أشعر بصداق ودوار •

ولكن مشاعرى وخواطرى أخذت تختلط وتضطرب بمقدار ما كان
 الليل يهبط والظلام يتكاثف • كان فى نفسى ، فى قرارة قلبى ، فى أعماق
 ضميرى ، شيء لا يريد أن يموت ، شيء يتجلى فى قلق غريب • أخذت
 أتجول فى أكثر الشوارع ازدحاماً بالناس وامتلأء بالحركة : شوارع

مستشامسكيا ، شارع سادوفايا ، نواحي حديقة يوسوبوف • كنت أحب أن أتجول في هذه الشوارع خاصة عند نهاية النهار ، حين تكون زاخرةً بالخلق من مارة عابرين وتجار وأصحاب عائدین الى منازلهم بعد فراغهم من العمل وقد ظهرت في وجوههم علائم التعب • ان الشيء الذي كنت أحبه خاصة هو هذه الحركة المبتذلة في الحياة اليومية • غير أن هذا الاضطراب قد أثار أعصابي مزيداً من الاثارة في هذه المرة • أصبحت لا أستطيع السيطرة على نفسي • كان شيء ما يستيقظ في نفسي استيقاظاً مؤلماً موجعاً ولا يريد أن يسكن ويهدأ • رجعت الى الدار مضطرب النفس والفكر • لكن ضميري مثل بجريمة ارتكبتها •

كان يعذبني تصویری أن ليزا ستجیء • شيء غريب : بين جميع ذكريات الليلة البارحة ، كانت ذكری ليزا بارزة مستقلة ، وكانت ترهقني ارهاقاً خاصاً • كنت عند هبوط المساء قد انقطعت عن التفكير في كل ما عدا ليزا ، وكنت من جهة أخرى ما أزال راضياً عن رسالتي الى سيمونوف ، حتى اذا تذكرت ليزا زال رضای واعتكرت نفسي ، فكان يخیل اليّ أن سبب عذابی انما هو ليزا •

كنت أقول لنفسي بغير انقطاع : « ما عساني فاعلاً اذا هي جاءت ؟ طيب ... فلتجیء ... ما عليها الا أن تجیء ! ... هم ... ان الشيء المزعج خاصة هو أنها ستري كيف أعيش • لقد مثلت أمامها بالأمس دور البطل ، والآن ... آه ... أخطأت حين اندفعت ذلك الاندفاع • ان هذا المسكن بائس • وكيف رضيتُ أن أذهب الى المطعم للعشاء بهذه الثياب ؟ ما أحقر هذه الأريكة المنجدة بقماش مشمّع ، الممزقة المتهترئة ، التي يخرج قشها من كل جهة ! ما أبشع ثوب المنزل هذا الذي ارتديه ! انه خرقة رثة بالية ! ... سوف ترى ليزا كل هذا • وسوف ترى أبولون • لا شك أن هذا الحيوان أبولون سوف يهينها • سوف يتتحل

أى عذر لاهاتها ، ولو فى سيل اغاظتى • أما أنا فسأخاف ، على عادتى
فى الخوف • سوف أتهزز أمامها وأتلف بشوبى وأبتسم وأكذب •
يا للفضاعة ! ولكن هذا ليس كل شئ : هناك ما هو أخس وأحقر !
نعم ! سيكون على أن أضع ذلك القناع الكاذب من جديد ! • • • •
احمر وجهى احمراراً شديداً •

• الكاذب ؟ أكان قناعاً كاذباً ؟ لقد تكلمت بالأمس مخلصاً كل
الاخلاص • انتى اذكر هذا • كان يهزنى انفعال صادق • كنت أريد أن
أوقظ فى نفسها عواطف كريمة نبيلة طيبة • ومن الخير أنها بكت • ان
للبكاء أثراً حسناً • •

ولكننى لم أفصح مع ذلك فى تهدئة نفسى • ولبثت طوال المساء ،
حتى بعد الساعة التاسعة ، أى حتى بعد الساعة التى يمكن أن تأتى فيها
ليزا ، لبثت لا أنقطع عن التفكير فيها وعن رؤيتها بالحىال على نحو
ما تبدت لى البارحة فى لحظة خاصة أثرت فى نفسى تأثيراً شديداً •
وهى اللحظة التى أشعلت فيها عود الكبريت فأضاء نوره وجهها الشاحب
ونظرتها الأليمة وابسامتها المتكلفة المريرة • ألا ما أكثر ما كان فى تلك
الابتسامة التى تبعث على الشفقة من افتعال وتوتر ! ولكننى كنت ما أزال
أجهل أننى سأظل خمسة عشر عاماً أتذكر ليذا خلالها على هذه الصورة •
مبتسمة تلك الابتسامة نفسها ، تلك الابتسامة المقتعلة التى تبعث على
الشفقة •

وفى الغداة كنت مستعداً لأن أنظر الى كل ما جرى على أنه ترهة
من الترهات ضخمتهأ أعصابى المريضة تضخماً كبيراً • لقد كنت أدرك
حق الادراك تلك الآفة من آفات طبيعى وكنت أخشأها كثيراً ، فكنت
لا أبرح أردد قائلاً : « انتى أبالغ دائماً ، وهذه علتى وبلواى » • ولكننى

كنت أقول لنفسى مع ذلك : « ستأتى ليزا ... لا شك فى أنها ستأتى » .
 كانت هذه العبارة هى اللازمة التى أختتم بها جميع خواطرى • وقد بلغت
 من الاهتمام بهذا أننى كنت أصل منه فى بعض الأحيان الى حنق شديد
 وغيظ مسعور ، فإذا أنا أطفق راكضاً فى الغرفة صائحاً : « ستأتى حتماً » .
 ان لم تأت اليوم فستأتى غداً • سوف تكشفنى ! أوه ! تبا لرومانسية
 القلوب الطاهرة ! أوه ! هذه خسة ! أوه ! يا لتفاهة هذه النفوس
 العاطفية السخيفة ! كيف لا أدرك هذا ؟ كيف لا أدرك هذا ؟ • ولكننى
 كنت ما ألبث أن أتوقف وقد بلغ منى الاضطراب كل مبلغ •
 قلت لنفسى : « لقد كفتى كلمات قليلة وقصيدة قصيرة ، قصيدة
 هى من جهة أخرى كاذبة مخترعة ملفقة ، فقبلت حياة بأكملها رأساً على
 عقب • يا للأرض العذراء ! » •

وكان يخطر ببالى أحياناً أن أذهب إليها بنفسى فأذكر لها كل شئ
 وأطلب منها أن لا تجيء الى • ولكن ما ان تراودنى هذه الفكرة حتى
 يجتاحنى حنقٌ يبلغ من الشدة أننى أتصور أن من الممكن أن أسحق
 « ليزا اللعينة » هذه لو رأيته ، أن أطردها وأبصق عليها وأطردها
 وأضربها •

وانقضى يوم ، ثم انقضى يوم ثانٍ فثالث ولم تجيء ليزا • وكنت
 استرد رباطة جأشى على وجه عام بعد الساعة التاسعة من المساء ، حتى لقد
 كنت أسترسل عندئذ فى أحلام عذبة ممتعة : « هأنا ذا ، مثلاً » ، أنقذ ليزا
 بمجرد التحدث إليها حين تجيء الى • • • اننى أثقها وأنشئها • وألاحظ
 أخيراً أنها تحببى ، انها تحببى حباً غنياً ، فأتظاهر بأننى لا ألاحظ
 ذلك (لماذا أظاهر هذا التظاهر ؟ لا أدري • • • ربما كان ذلك عن
 ميل الى اصطناع المواقف الجميلة) • وها هى ذى ، آخر الأمر ،
 ترتدى على قدمى مضطربة مرتعشة باكية ، فتقول لى اننى منقذها

ومخلّصها وانها تجبني أكثر من أى شئ في هذا العالم ، فيأخذني ذهول وأقول لها : « أنت تتخيلين حقاً يا ليزا أنتى لم ألاحظ حبك ؟ لقد رأيت كل شئ وأدركت كل شئ ، ولكننى لم أجرو أن استولى على قلبك لأننى كنت أوثر فيك فكنت أخشى أن تقسرى قلبك قسراً على الاستجابة لحبى وأن يضطرك العرفان بالجميل الى أن تحرّضى في نفسك حباً قد لا يكون له وجود . كنت لا أريد ذلك ، والا كنت أتسلط وأستبد وأسلك سلوكاً لا يجمل بى أن أسلكه (الخلاصة أنتى كنت استرسل هنا في عاطفيات مرهقة لطيفة تبلغ غاية النبل ، عاطفيات «أوربية» حقاً على طريقة جورج صاند) . أما الآن فأنت لى أنا ، أنت من صنعى أنا ، وأنت جميلة ، وأنت زوجتى ! » .

« هذا بيتى فادخله ، بجرأة وحرية ، سيدة لى » * .

ثم نعيش بعد ذلك سعيدين ، ونسافر الى الخارج ، الخ ،
الخلاصة أنتى كنت أبلغ من الاسترسال فى مثل هذه الاحلام حدّاً لا يسعنى معه الا أن أشعر بخجل ، فاذا أنا أمدّ لسانى لنفسى أمام المرأة آخر الأمر .

وقلت لنفسى : انهم لن يدعوا لها أن تخرج على كل حال . ليس يُسمح لهنّ بالخروج عامةً ، ولا سيما فى المساء (لا أدرى لماذا كنت أتصور أنها ستجىء مساءً ، فى الساعة السادسة على وجه الدقة) . ولكنها قالت لى انها لم ترتبط بعد ارتباطاً تاماً وانها تتمتع بحقوق خاصة . اذن . . . هم . . . سوف تجىء ! أنا واثق بأنها سوف تجىء !

ومن حسن الحظ أنتى كان لى طوال ذلك الوقت ما يسلىنى ويشغلنى عن نفسى ، ألا وهو آبولون ووقاحاته التى تخرجنى عن طورى . لقد كان آبولون جرحاً أو طاعوناً أرسلته الى السماء . كنا

تتراشق كلمات لازعة منذ عدة سنين ، وكنت اكرهه . رباه ! لشد ما كنت اكرهه ولا سيما فى بعض اللحظات ! هو رجل متقدم فى السن وقور المظهر ، يعمل فى ساعات فراغه خياطاً . كان يحقرنى ، لا أدري لماذا ، يحقرنى احتقاراً لا حدود له ، وينظر الىّ دائماً من على . على أنه كان ينظر الى جميع الناس هذه النظرة . حسبك أن ترى رأسه وشعره الأملس الأشقر الباهت وذؤابته التى يجعلها ويعتق بتدهينها ، وفمه القاسى الذى يشبه الحرف ʌ ؛ حسبك هذا حتى تدرك فوراً أنك أمام انسان لا يخامره أى شك فى قيمة نفسه . انه رجل متحذلق متفهب الى أبعد حد ، بل انه بين جميع من رأيت على وجه الأرض من رجال أشدّهم تحذلقاً وتفهباً . وقد أوتى عدا ذلك غروراً خليقاً بالاسكندر المقدونى . كان مولّهاً بكل زر من أزراره ، وكل ظفر من أظفاره . نعم كان مولّهاً . . . ان مظهره ينبىء بذلك ويدل عليه . وكان يعاملنى معاملة طاغية مستبد ، ولا يكلمنى الا قليلاً ، فاذا اتفق أن ألقى على نظرة ، كان فى نظراته دائماً أبهة وعظمة وغرور وشئ من سخرية ، فكان هذا يثير حنقى ويؤجج نار غيظى .

وكان يقوم بواجبات الخدمة وكأنه يتفضل على أكبر التفضل ويحسن الىّ أعظم الاحسان . وكان من جهة أخرى لا يكاد يعمل من أجلى شيئاً ، ولا يعد نفسه مضطراً الى أن يعمل شيئاً . وليس يخامرنى أى شك فى أنه كان يعدنى أغبى الأغبياء طراً ، واذا كان يحرص على فلائتى أدفع له حقوقه كل شهر ، فهو « يرتضى » أن لا يعمل شيئاً جزاء الروبلات السبعة التى يتقاضاها أجراً . ألا ان الله سيفغر لى كثيراً من الذنوب بسبب ما قاسيته من هذا الرجل . كان كرهى له يبلغ فى بعض الأحيان من الشدة ان صوت وقع خطواته كان يكفى لأن يثير فى جسمى تشنجات قوية . على أن « زأزأته » فى النطق هى التى كانت تبعث فى

نفسى الاشتمتزاز خاصة • كان لسانه مفرطاً فى الطول بعض الافراط ،
أو كانت به آفة أخرى من هذا النوع ، فكان لذلك يقلب « الجيم » فى
نطقه « زايًا » ، وكان هذا يفرحه كثيراً ، لأنه يتخيل أن هذا العيب فى
النطق يزيد به مهابة وجلالاً • وكان آبولون يتكلم بصوت هادى •
متساو ، واضعاً يديه وراء ظهره خافضاً عينيه • ولكنه كان يفظن
خاصةً حين يأخذ يتلو المزامير جهراً فى ركنه وراء الحاجز الذى يفصل
بيننا • لطالما بذلت جهوداً مضنية فى سبيل تحمل تلك التلاوات • وكان
يجب قراءة المزامير فى المساء خاصة ، فاذا صدح بها صوته الهادى •
المتساوى المنغم فى جوف الليل ، حسبه يسهر على جثمان ميت • والى
هذا انما انتهت حياته فى الواقع حين أصبح يكلّف بتلاوة المزامير على
الأموات • وهناك اختصاص آخر له : كان آبولون يبد الفئران ويصنع
دهاناً لتلميع الأحذية •

ولكننى لم أكن أستطيع طرده ، فكأنه مرتبط بحياتى ارتباطاً
لا انفصام له ؛ وما كان له هو نفسه أن يقبل تركى على كل حال • كان
يستحيل علىّ أن أقيم فى غرفة مؤثثة : لقد كان مسكنى هو فوقعتى التى
أجأ اليها ، وأحتمى بها من الانسانية بأسرها ؛ وكان يخيل الىّ –
لا يدري الا الشيطان لماذا – أن آبولون جزء من هذا المسكن لا يفصل
عنه • ذلكم هو السبب فى أننى لم أستطع ، طوال سبع سنين ، أن أطرده •
كان يستحيل كل الاستحالة تأخير دفع أجوره يومين أو ثلاثة
أيام • فلو فعلت ذلك لأثار فضيحة لا أعرف معها كيف أهرب ولا أين
أختبئ •

ولكننى كنت فى تلك الأيام قد بلغت من شدة الخنق على العالم كله
والبشر جميعاً أننى قررت فجأة أن أعاقب آبولون وأن أوخر دفع أجوره
شهرين كاملين • كنت أهىء له هذه الضربة منذ زمن طويل – منذ سنتين

— لا لشيء الا أن أبرهن له على أنه ليس من حقه أن يتعاضد على ، وأن في امكاني دائماً أن لا أدفع له أجره • وقررت في هذه المرة أن لا أقول له شيئاً ، قررت أن أصمت لأتصر على صلفه وكبريائه ، لأجبره على أن يطالبني هو بالأجر ؟ فإذا طالبني أخرجت من درجي سبعة روبلات ، فأريتـه أنني أملكها ، وأنني قد وضعتها جانباً ، ولكنني لا أريد ، نعم لا أريد أن أعطيه اياها ، لأن هذا يحلوني ، لأن مشيتي تريد ذلك ، ولأنه وقع ، ولأنه فقط غليظ • ولكن اذا ارتضى أن يكلمني بأدب وتهذيب فقد يرق قلبي فأدفع له المال ، أما اذا لم يفعل ذلك فسيكون عليه أن ينتظر أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أو شهراً بكامله •

ولكن أبولون هو الذي اتصر رغم غضبي الشديد • انني لم أستطع أن أصمد أكثر من أربعة أيام • أخذ يفعل ما يفعله دائماً في مثل هذه الحالات ، ذلك أن هذا الأمر قد سبق أن حدث قبل هذه المرة (وكنت عرف أسلوبه الدنيء وأتنبأ به سلفاً) فهو في البداية يوجهني الى نظرة قاسية خلال بضعة دقائق ، ولا سيما عند خروجي من البيت أو عودتي اليه • فإذا صمدت فتظاهرت بأنني لا ألاحظ ما يفعله ، ظل يلتزم الصمت ولكنه يشرع عندئذ في سلسلة أخرى من الوسائل ، فإذا هو يدخل الى غرفتي بخطي بطيئة على حين فجأة دون أي سبب ، بينما أنا أقرأ أو أسير في الفرفة طويلاً وعرضاً ، فيقف قرب الباب جاعلاً احدي ساقيه ممتدة الى أمام ، واحدي ذراعيه وراء ظهره ، ويأخذ يتفرس في نظرة ليس فيها قسوة فحسب ، بل فيها كذلك ازدراء شديد واحتقار عميق • فإذا سألتـه ماذا يريد لم يجب عن سؤالي ، وظل ينظر الى خلال بضعة نوان أخرى ثم زم شفتيه زمّاً بليغ الدلالة ، وتحول عنى ببطء ، ورجع الى غرفته بخطي وثيدة ؟ فما تكاد تنقضي ساعتان حتى يخرج من غرفته مرة أخرى ويظهر أمامي من جديد فيجن جنوني من شدة

الغضب ، ولكننى لا أسأله عندئذ عما يريد ، وإنما أرفع رأسى بحركة متكبّرة متسلطة ، وأخذ أهدق الى عينيه بنظرة ثابتة لا تريم ، فنبث على هذه الحال فى بعض الاحيان دقيقة أو دقيقتين ، فيتحول عنى أخيراً ببطء وأبهة ، ثم ينيب ساعتين آخرين •

فاذا لم يؤثر هذا فى فاستسمرت فى تمردى وعصيانى أخذ يتنهد وهو ينظر الى تهدياً بطيئاً عميقاً ، كأنه يقيس به عمق سقوطى الاخلاقى كلّه ؛ ويتنهد كل شئ بعد ذلك بانتصاره هو طبعاً ، فأنا أنور وأصرخ حانقاً ، ولكننى أكون مضطراً الى تحقيق ما يتوقفه منى •

أما فى هذه المرة فما كادت تبدأ مكائده الأولى التى قوامها نظرات قاسية حتى اندفعت اندفاعاً شديداً وأسّرت أهماً عليه • كانت أعصابى مهتاجة مفرطة فى الاحتياج !•••

صحت أقول له وهو يتحول عنى بطيئاً صامتاً ، ويتجه الى غرفته جاعلاً يده وراء ظهره ، صحت أقول له :

– قف ! ارجع ، أقول لك ارجع !

ويظهر أن صيحتى كان فيها من الكرب واليأس ما جعله يدور على عقبيه وينظر الى بشىء من دهشة ، غير أنه ظل يتفرس فى صامتاً ، وهذا بعينه ما كان يؤجج حلقى •

– كيف تجرؤ أن تدخل علىّ بغير استئذان وأن تنظر الىّ هذه النظرة ؟ أجب !

فبعد أن تفرّس فى قرابة ثلاثين ثانية ، ظهر عليه من جديد أنه بهم أن ينصرف • فزارت قائلاً وأنا أركض نحوه :

– قف ! اياك أن تتحرك ! هه ! أجبنى الآن : لماذا كنت تنظر

الىّ ؟

فلبت صامتاً برهةً قصيرةً ، ثم قال يجيب « مزأزناً » بصوت هادئ ،
موزون ، وهو يحنى رأسه بوقار رهيب :

— اذا كنت تأمرنى بشئ فعلىَّ واجب الطاعة والتنفيذ .

فصحت أقول وأنا أرتجف من شدة الغضب :

— لست أكلمك عن هذا ، لست أكلمك عن هذا أيها السفاح .
سأقول لك أنا نفسى سبب مجيئك الى هنا أيها السفاح : انك ترى اننى
لم أدفع لك أجرك ، ولكنك لا تريد أن تطالبنى به زهواً منك وصلفاً ؟
ومن أجل أن تعاقبنى انما تجيء تلقى علىَّ هذه النظرات البلهاء ، من
أجل أن تعاقبنى ، من أجل أن تعذبنى . ولكنك لا تتصور ، أيها
السفاح ، مدى ما فى سلوكك هذا من غباوة ، من غباوة ، من غباوة ،
من غباوة !

وهم مرةً أخرى أن يترك الغرفة وهو ما يزال صامتاً ، ولكننى
أمسكت بشيابه ، وصرخت أقول له :

— اسمع . انظر الى المال . هل تراه ؟ (أخرجت المال من الدرج).
هى سبعة روبلات بالتمام والكمال . ولكنك لن تنالها ، لن تنالها ما لم
تجىء الىَّ مستغفراً باحترام . هل فهمت ؟
فأجابنى قائلاً برزانة خارقة :

— لن يكون هذا !

فصرخت أقول :

— بل سيكون . يميناً سيكون !

وتابع كلامه وكأنه لم يلاحظ صرخاتى :

— ليس علىَّ أن استغفرك ، لأنك أنت الذى وصفتنى منذ هنيهة

بأننى سفاح ، حتى لممكننى أن أشكوك الى رئيس الشرطة .

فصرخت أقول بصوت حاد وأنا أقبض على كتفه :

- عليك برئيس الشرطة ، عليك به ! اذهب اليه حالاً ، بلا إبطاء !
هذا لا يمنع أنك سفاح ، سفاح !

ولكنه اكتفى بأن نظر الىّ ، ثم استدار وخرج بخطاه الوئيدة
المتساوية دون أن يلقي بالاً الى صرخاتي ودون أن يلتفت •

قلت لنفسي : « لولا ليزا لما حدث شيء ! » • وانتظرت قرابة
دقيقة ، ثم سرت بأبهة وعظمة ، ولكن على خفقان ثقيل في قلبي ، الى
الركن الصغير الذى يشغله آبولون وراء الحاجز •

قلت بصوت رقيق ولكنه مختق :

- آبولون ! هياً اطلب رئيس الشرطة حالاً دون أن تضيّع لحظة
واحدة •

كان آبولون قد استقر أمام منصذته ووضع نظاريته واستعد لحياطة
شيء ما ، ولكنه حين سمع الأمر الذى أصدرته اليه انفجر يضحك
في قهقهة يحاول مغالبتها •

- امض الى رئيس الشرطة ! امض اليه فوراً ! انك لا تستطيع حتى
أن تتخيل ما قد يقع !

قال حتى دون أن يرفع رأسه ، قال « مزأزئاً » وهو يحاول أن
ادخال الحيط فى سم ابرته :

- لقد فقدت عقلك حقاً ! أين رأى الناس رجلاً يشى بنفسه الى
الشرطة ؟ أما اذا كنت تريد أن تخيفنى فعبث ما تفعل ، لأنك لن تظفر
بذلك •

عدت أصرخ بصوت حاد وأنا أمسك كتفه :

- اذهب الى رئيس الشرطة •

• وكدت أضربه •

ولكن باب حجرة المدخل فُتح في تلك اللحظة نفسها ببطء دون ضجة ، فدخل شخص توقف على العتبة ونظر إلينا كلينا مرتبكاً أشد الارتباك • رفعت عيني ، فذهلت ، ثم أسرعت أمضى إلى غرفتي طائش العقل من الشعور بالحزى والعار • وهناك أمسكت شعري بكلتا يديّ ، وأسندت رأسي إلى الجدار ، ولبثت على هذه الحال أتظر •

وبعد دقيقتين سمعت وقع خطوات آبولون البطيئة •

قال لي وهو ينظر إلى نظرة شديدة القسوة :

— شخص يسأل عنك •

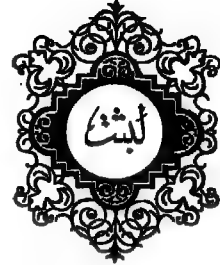
ثم تنحى فدخلت ليزا •

كان لا يريد أن ينصرف ، وكان يتفرس فينا كلينا وقد ظهرت في وجهه معاني السخر • فصرخت أقول له وقد جن جنوني :

— اذهب ! اذهب !

وفي تلك اللحظة جهدت ساعة الحائط في بيتي ، فسعلت تدق الخامسة •

« هذا بيتي فادخليه ، بجرأة وحرية ، سيادة لي »



أمام ليذا تائه العقل مسحوق النفس أشعر
 بخجل رهيب ؟ وأظن أنني كنت ابتسم حين
 أخذت أحاول أن أتلف بشوي المهترء القدر ،
 على نحو ما كنت أتصور ذلك تماماً منذ قليل .
 وقد تركنا آبولون بعد أن انتظر دقيقتين ، ولكن حالتني لم تتحسن .
 وأنكى ما في الأمر أن ليذا حين رأيتني على هذه الحال من الاضطراب قد
 فقدت سيطرتها على نفسها هي أيضاً ، وذلك ما لم أكن أتوقعه .
 قلت لها على نحو آلي وأنا أقرب كرسياً من المائدة :
 - اجلس !

وجلست أنا على الأريكة . فسرعان ما أطاعتني فجلست وهي
 تحدّق الى عيني . كان واضحاً أنها تتوقع أن يصدر عني شيء خارق .
 وقد أثار هذا التوقع حنفي ، ولكنني كنت ما أزال مسيطراً على نفسي .
 كان عليّ أن لا ألاحظ شيئاً ، كأن ما يجري طبعي تماماً ،
 أما هي ...

وأحسست احساساً غامضاً بأنها ستدفع لي ثمن « هذا كله » ،
 غالياً .

قلت متلعناً وأنا أدرك ادراكاً كاملاً أن كلامي هذا ليس هو
 الكلام الذي يجب أن أبادئها به :

- لقد فاجأتني يا ليزا وأنا في وضع غريب ...
فلما رأيتهما تحمرُّ على حين فجأة أردفت أقول صائحاً :
- لا ، لا ، لا يخطرُن على بالك شيء • لست بالخبجلان من فقرى
... بالعكس • أنا به معتز • نعم أنا فقير ، ولكنني شريف ...
وتابعت كلامي مدمماً :
- يمكن أن يكون المرء فقيراً وشريفاً • ثم ان ... ألا تريدِين
شيئاً من الشاي ؟
قالت :
- لا ...
قلت :-
- انتظري !
ووثبت عن أريكتي ومضيت الى آبولون • كان لا بد لي من أن
أغيب في مكان ما •
دمدمت أقول له محموراً وأنا أرمي أمامه على المائدة الروبلات
السبعة التي كنت ما أزال قابضاً عليها في راحة كفي :
- آبولون • اليك أجرك • أرايت ؟ هأنا ذا أعطيك أجرك • ولكن
عليك أن تنقذني : اتسي فوراً ، من الدكان القريبة ، بشاي وعشر
بسكويئات • فإذا لم تفعل كنت تُشقى انساناً • أنت لا تعرف ما هذه
المرأة !... انها ... انك ستخيل لا أدري ماذا ... ولكنك لا تستطيع
أن تتصور ما هذه المرأة !...
كان آبولون قد استأنف عمله وأعاد وضع نظارتيه على أذنيه ،
وها هو ذا يلقي على المال نظرةً من جانب ، دون أن يقول شيئاً وحتى

دون أن يترك ابرته ، وها هو ذا يستمر في عمله من غير أن يجينى •
 لبثت واقعاً قربه ثلاث دقائق ، مصالباً ذراعى على طريقة نابوليون • كان
 العرق يبلل صدغى • وأحسست أن وجهى قد اصفر اصفراراً شديداً •
 ولكن لعل منظرى قد أثار شفقتة ولله الحمد ، فها هو ذا يضع ابرته على
 المنضدة ، وينهض ببطء ، ويزيح الكرسي مشدأ ، ويخلع نظارتيه
 متمهلاً ، ويعد المال ثم يخرج من الغرفة أخيراً بخطى بطيئة •

وفيما كنت عائداً الى ليزا خطر ببالي أن أهرب ، كما أنا ، بثوب
 المنزل ، وأن أمضى قدماً لا ألوى على شيء ولا أفكر فى شيء •

رجعت الى مكائى وجلست • أخذت ليزا تنظر الى فى قلق • ولبثنا
 صامتين بضعة دقائق •

صحت أقول وأنا أضرب المائدة بيدي ضربة بلغت من القوة أن
 الحبر انبجس من المحبرة :

– سوف أقتله !

فصاحت تقول وهى تتنفض واثبة :

– رباه ! ماذا تقول !

فأعولت أقول وأنا أضرب المائدة :

– سوف أقتله ! سوف أقتله !

كنت فيما يشبه الهذيان ، ومع ذلك كنت أدرك ادراكاً تاماً أن من
 الغباء أن أكون على هذه الحال •

وأردفت أقول :

– انك لا تستطيعين أن تدركى يا ليزا مدى ما يسييه لى هذا

السفاح من عذاب • انه جلاّدى • • • ذهب يشترى الآن بسكويّتا • • •

انه • • •

ولم أستطع أن أتم جملي فقد أجهشت باكياً • كانت تلك نوبة
عصية • ما أشد ما شعرت به من خجل! ••• ولكنني لم أستطع أن
أسيطر على نفسي •

خافت ليزا • وصاحت تقول وهي تضطرب حولي :

— ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

فجمجمت أقول بصوت واهن :

— ماء ! اعطيني ماءً ! •••

وكنت أدرك ادراكاً تاماً أنني أستطيع الاستغناء عن الماء ، وأستطيع
أن أتكلم بصوت أقوى وأثبت • ولكنني كنت أبالغ انقاداً للمظاهر ، رغم
أن نوبتي العصية صادقة غير مقتعلة • وفي تلك اللحظة جاء أبولون
بالشاي • فبدأ لي فجأة أن الشاي شيء مبتذل خالٍ من الشعر وأنه
يحدث أثراً تافهاً وضيعاً يكاد يكون غير لائق بعد كل ما جرى • فاحمر
وجهه خجلاً •

وخرج أبولون دون أن ينظر إلينا •

قلت وأنا أهدق إلى عيني ليزا وأرتجف تحرقاً إلى معرفة رأيها :

— ليزا ، أنت تحتقريني ، أليس كذلك ؟

فاحمر وجهها ولم تستطع أن تجيب •

قلت لها غاضباً :

— اشربي الشاي !

كنت غاضباً من نفسي حانقاً عليها ، وواضح أن ليزا هي التي لا بد
أن تتحمل غضبي • وأحسست فجأة بكره شديد لها وحقد قوي عليها :
كان يمكن أن أقتلها في تلك اللحظة • وقررت عندئذ ، بيني وبين

نفسى ، أن أثار منها بأن أمسك عن الكلام فما أنطق بحرف • « أليست سبب كل شيء ؟ • • • • • بهذا حدثت نفسى »

دام صمتنا أكثر من خمس دقائق • كان الشاى على المائدة ، ولكننا لم نلمسه • كنت فى حالة أرفض معها أن أكون البادى • شرب الشاى ، وذلك لأجعل الموقف أكثر صعوبة وأشد حرجاً • وكان يضايقها هى أن تشرب وحدها • وهى تلقى على نظرات قلقة حزينة من حين الى حين • ولكن لا شك أننى كنت أشقى منها وأتس ، لأننى كنت أدرك ادراكاً واضحاً جداً أن حلقى خسة وضعة ثم أنا لا أفلع فى كبح جماح نفسى والسيطرة على مشاعرى •

بدأت تقول أخيراً من أجل أن تنهى صمتنا :

– أريد أن أغادر • • • نهائياً • • • ذلك المنحل • • •

يا للمسكينة ! ان هذا الكلام بعينه هو ما لا ينبغي أن يكون فاتحة الحديث فى تلك اللحظة البلهاء مع رجل يبلغ ما أبلغه أنا من بلاهة • شعرت بشفقة أليمة على صراحتها العقيمة وعجزها الخائف الوجل • ولكن سرعان ما انجس فى نفسى شيء خنق تلك الشفقة وحرّض حلقى مزيداً من التحريض ، فلو هلك العالم بأسره لما هزّنى ذلك !

وانقضت خمس دقائق •

سألتى خجلةً بصوتٍ لا يكاد يُسمع :

– لعننى أضيائك ؟

وظهر عليها أنها تهتم أن تهض •

ولكننى ما ان لاحظت هذه الحركة الأولى التى تدل على شعورها بكرامتها الجريحة حتى أخذت أرتجف غيظاً وحتى أطلقت ما كان يعمل

فى نفسى ، فقلت أسألها بصوت مخنوق دون أن أراعى فى كلامى أى نظام منطقى ، لأننى كنت فى حاجة الى أن أقول كل شىء فى آن واحد ، حتى دون أن أعبأ بالبداية :

— هلاً قلت لى لماذا جئت الى ؟ هلاً قلت لى ذلك من فضلك ؟ لماذا جئت ؟ أجيبنى ! أجيبى !

كذلك صرخت خارجاً عن طورى ثم أردفت :

— طيب ... سأقول لك أنا ، يا عزيزتى ، لماذا جئت ! لقد جئت لأننى قلت لك فى ذلك اليوم • كلمات مؤثرة • ، فرق قلبك ، فأردت أن تسمعى كلمات أخرى من ذلك النوع • ألا فاعلمى أننى كنت فى ذلك اليوم أسخر منك وأضحك عليك ، واننى أسخر منك وأضحك عليك اليوم أيضاً • لماذا ترتعشين ؟ نعم ، لقد سخرت منك • كانوا قد أهانونى أثناء العشاء ... أولئك الذين وصلوا اليك قبلى ، وقد جئت لأنار من أحدهم ، من الضابط ، ولكننى لم أظفر بذلك ، فانهم كانوا قد انصرفوا • وكان لا بد لى مع ذلك من أن أصب غضبى على أحد من الناس ، فظهرت أنت فى تلك اللحظة ، فثارت لنفسى منك وضحكت عليك • لقد أذلونى فأردت أن أذل أحداً أيضاً • عاملونى كما تعامل خرقة بالية ، فأحييت أن أجرب أنا سلطتى ... ذلك ما جرى ، بينما تصورت أننى ما ظهرت الا لأفقدك • ألم تتخيلى هذا ؟ ألم تتخيليه حقاً ؟ هه ؟

كنت أعرف أنها مبليلة الفكر وأنها لن تستطيع أن تفهم جميع هذه التفاصيل ، ولكننى كنت أعرف فى الوقت نفسه أنها ستفهم الشىء الأساسى • وذلكم ما حدث : اصفر وجهها اصفراراً شديداً وحاولت أن تكلمنى • تقلصت شفتاها من الألم • ثم تهالكت على كرسيها تهالك من ضرب بقأس • وظلت تصفى الى فاعرة الفم جامدة العينين مرتجفة من الخوف • ان ما فى أقوالى من وقاحة شديدة قد سحقها سحقاً تاماً •

صرخت قائلاً وأنا أنهض عن كرسي وأطلق أسير في الغرفة طويلاً
وعرضاً :

- أنفذك ؟ مم أنفذك ؟ ألا اتنى قد أكون شراً منك . لماذا لم
تصرخى فى وجهى حين كنت ألقى عليك دروساً فى الأخلاق ، لماذا لم
تصرخى فى وجهى قائلة : « وأنت ما مجيئك البنا ؟ أجئت من أجل القاء
درس فى الاخلاق ؟ » . ان ما كنت فى حاجة اليه حينذاك هو أن أمارس
سلطتى على أحد من الناس ، وكنت فى حاجة الى أن أعبت أيضاً : كنت
فى حاجة الى دموعك ، والى مذلتك ، والى نوبتك العvisية . ذلك ماكنت
فى حاجة اليه . ولكننى كنت لا أملك القوة اللازمة للصمود ، لأننى
لست الا خرقه ، فاذا أنا أخاف ، واذا أنا أعطيت عنوانى ، لا يدرى الا
الشیطان لماذا ! وقبل أن أرجع الى البيت كنت أشتك وألنك بسبب ذلك
العنوان . وكنت قد كرهتك لأننى كذبت عليك . ذلك أتنى ان كنت
أحب اللعب فى الكلام والأقوال ، وان كنت أحب أن أحلم أيضاً ، فان
الشیء الذى أريده فى الواقع هو أن تفوروا جميعاً ، هو أن تذهبوا جميعاً
الى الشیطان ! لست فى حاجة الا الى هذا . أنا فى حاجة الى الهدوء .
اننى مستعد لأن أبيع الكون كله بقرش واحد ، شريطة أن أترك وشأنى
هادئاً مطمئناً ! لو سئلت ماذا تؤثر : أن يهلك العالم كله أو أن تحرم
من احتساء نصيبك من الشای لقلت : ألا فليهلك العالم شريطة أن أشرب
الشای ! أكنت تعلمين هذا ؟ أما أنا فاعلمه . أعلم أتنى سافل دنىء كسول
أنانى . اننى منذ ثلاثة أيام أرتجف خوفاً من أن تجيئى . ولكن هل
تعلمين ما الذى كان يشغل بالى ويقلق فكرى خاصةً خلال هذه الأيام
الأخيرة ؟ هو أتنى كنت فى نظرك بطلاً ، وأنتك ستريننى على حين فجأة
متسخاً بائساً فى نوبى العتيق المهترء الممزق . لقد زعمت لك منذ قليل
أننى لا أستحى من فقرى . ألا فاعلمى أتنى استحى من فقرى أكثر مما

أستحي من أى شىء آخر ، أكثر مما استحي من السرقة ، وأنتى أخافه وأخشاه - لاننى أبلغ من حب الذات درجة يترامى لى معها أن الناس تسلمج جلدى حياً ، وأن ملامسة النسيم وحدها تؤذنى وتؤلى . فهل أدركت أخيراً أن رؤيتك اياى مرتدياً ثوبى هذا هاجماً على آبولون هجوم كلب من الكلاب الشرسة أمرٌ لن أغفره لك ما حيت ؟ لقد رأيت البطل المنقذ يهجم على خادمه الذى يسخر منه كما يهجم كلب متسخ ! لا ولن أغفر لك فى يوم من الأيام تلك الدموع التى لم أملك الا أن أذرفها أمامك كما تفعل امرأة ضبعت متلبسةً بالعار . لا ولن أغفر لك اعترافى هذه نفسها ! نعم ، أنت ، أنت وحدك مسئولة عن هذا كله ، لأنك وجدت تحت يدى ، ولأنتى بين سائر ديدان الأرض أحقرها وأبعتها على الضحك وأنذلها وأغيبها وأشدّها حسداً ! ليس الآخرون خيراً منى ، ولكنهم يمتازون عنى بأنهم لا يفقدون ثقتهم ورباطة جأشهم ، الشيطان وحده يعلم لماذا ! ... أما أنا فسأظل طوال حياتى ألقى ضربات من أتفه هذه الحشرات التى تملأ الأرض . على أنتى لا يهمنى أن لا تفهمى ما أقوله لك الآن . وما شأنى بك على كل حال ؟ قيم يعينى أن تهلكى أو أن لا تهلكى ؟ فهل تدركين الآن مدى ما سألحه لك من كره وحقد بعد كل ما قلته لك ، وبعد كل ما رأيته هنا وما سمعته ؟ مرة واحدة فى حياته يستطيع رجل مريض الأعصاب أن يسمح لنفسه أن يتكلم بصراحة تبلغ هذا المبلغ ... فماذا تريد منى إذن ؟ ما بقاؤك هنا أمامى بعد هذا كله ؟ لماذا لا تصرفين ؟

غير أن شيئاً خارقاً قد حدث عندئذ .

كنت قد بلغت من التعود على أن أفكر وعلى أن أحلم وفقاً للكتب وعلى أن أتصور الأشياء كما خلقتها قبل ذلك فى أحلامي ، أنتى فى الوهلة الأولى لم أستطع حتى أن أدرك ما يحدث . ولكن اليكم ما حدث فى

الواقع : ان ليزا التى أهنتها وسحققتها قد فهمت أكثر كثيراً مما كنت أتوقع أن تفهم . لقد فهمت من كل كلامى ما تفهمه المرأة حين تحب حباً صادقاً : لقد رأت أننى شقى بائس .

ان الشعور بالخوف والشعور بالكرامة الجريحة سرعان ما حلَّ محلَّهما على وجهها انشدهاء أليم . وحين أخذت أهين نفسى وأصف نفسى بائس « نذل » وأننى « حقير » ، وحين أخذت أبكى (لقد كان ذلك الكلام الطويل كله مصحوباً بدموع) ، قبض وجهها وتقلص على حين فجأة . وحاولت مراراً أن تنهض وأن توقظنى عن الاسترسال فى الحديث ؛ ولكنها حين أنهت كلامى قد انتهت لا الى الأقوال المهينة الجارحة التى تفوهت بها (« ما بقاءك هنا ؟ لماذا لا تنصرفين ؟ ») بل الى الجهد الرهيب الذى لا بد أننى كنت أبذله من أجل أن أقول كل ذلك الكلام . وعدا هذا ، بدا على المسكينة انصعاق كامل : لقد كانت تعد نفسها أقل منى قيمةً وأوضع شأنًا وأحط منزلة . فكيف يمكن أن تنفض وأن تستاء . على أنها وثبتت عن كرسيها ومدَّت الى ذراعيها وهى ترتعش ارتعاشاً شديداً دون أن تجرؤ على الاقتراب منى بعد .

شعرت بقلبي يذوب عندئذ فى صدرى . وأخيراً هرعت الى وأحاطت عنقى بذراعيها احاطة قوية وأخذت تبكى صامتة . لم أستطع أن أقاوم فأجهشت أبكى . كما لم أجهد قبل ذلك طوال حياتى .

وقلت فى مشقة وجهي :

— لا يُتاح لى . . . لا أستطيع أن أكون طيباً .

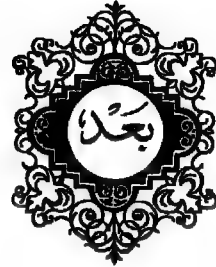
ثم جررت نفسى نحو الأريكة فتهالكت عليها مكباً بوجهى ، وظللت أبكى مدة ربع ساعة أخرى وأنا فريسة نوبة عصية رهية . اقتربت ليزا منى ، وأحاطتنى بذراعيها ولبتت على هذه الحال ساكنة لا تتحرك .

ولكن كان لا بد لنوبتى العصية أن تنتهى آخر الأمر ، وتلك هى الصعوبة • وهأنا ذا أتناه رقادى على الأريكة مدفونَ الوجه فى الوسائد الجلدية (انتى أصف الحقيقة الملية) ، هأنا ذا ، أصور تصوراً غامضاً فى أول الأمر واضحاً بعد ذلك ، أنتى سيزعجنى كثيراً أن أرفع رأسى وأن أنظر الى ليزا وجهاً لوجه • لا أدرى ما الذى كان يخلجنى ، ولكنى كنت أشعر بخجل • وخطر ببالى أيضاً أننا قد تبادلنا الدور ، فهى الآن البطلة ، أما أنا فأنسان مُدَلِّسٌ مسحوق ، كما كانت هى كذلك فى نظرى منذ أربعة أيام • خامرتنى هذه الفكرة بينما كنت راقداً على الأريكة دافئاً وجهى فى الوسائد الجلدية •

« رباه ! أنا أحسدها حقاً ؟ » • لا أدرى • انتى لم أحلّ هذه المسألة بعد ، واضح انتى كنت عندئذ أعجز عن حلّها منى الآن • انتى لا أستطيع أن أحيا دون أن أمارس سلطتى على أحد ••• دون أن أستبد بأحد ••• ولكن ••• ولكن الاستدلالات المنطقية لا تفسر شيئاً ، فالأولى اذن أن أكف عن الاستدلال المنطقى •

استطعت أخيراً أن أسيطر على نفسى فرفعت رأسى • كان لا بد لى من هذا • وفى تلك اللحظة اشتعلت فى قلبى عاطفة أخرى ألهمت نفسى وأججت نيرانها ، تلك هى عاطفة التسلط والامتلاك • انتى لعلى يقين من أن تشوّء هذه العاطفة انما مرده الى أنتى كنت أشعر بخجل من رفع رأسى والنظر الى ليزا • فهما عيناى تسطمان ، وهأناذا أضغط يدي ليزا بين يديّ ضغطاً قوياً • لشدّ ما كنت أكرهها فى تلك اللحظة ولشد ما كانت تجذبني ! كانت كل عاطفة من هاتين العاطفتين تقوّى الأخرى وتمززها • يشبه أن يكون هذا نوعاً من الانتقام • عبّر وجهها فى أول الأمر عن حيرة وبلبلّة ، وعمّاً يشبه الخوف والرغبة • ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة ، ثم اذا هى تشدنى بذراعيها فرحةً فرحاً حاراً عنيفاً •

١.



ربع ساعة ، كنت أركض في الفرفة طويلاً
وعرضاً وأنا أرتعش من نفاد الصبر ، وأتوقف
في كل لحظة أمام الستارة التي كان يتبع لي
شقها أن أرى ليزا جالسة على الأرض مسندة
رأسها الى السرير . لعلها كانت تبكي ، ولكنها لا تريد أن تنصرف ،
فكان ذلك يزعجني ويضايقني . لقد عرفت في هذه المرة كل شيء .
أهنتها اهانة لا يبرء منها ولا اصلاح لها . ولكن ... ليس من الضروري
أن أروى لكم كيف أهنتها . لقد أدركت أن اندفاعة الهوى المشوب لم
تكن الا انتقاماً وناراً واذلالاً جديداً ، وأن الكره الذي شعرت به منذ
قليل والذي كان كرهاً غامضاً لا موضوع له ، قد أضيف اليه كره حاسد
ينصب عليها هي ... على أنني لست واقفاً بأنها قد فهمت هذا كله فهماً
واضحاً . ولكنها أدركت على كل حال أنني انسان دنيء ، وأدركت
خاصة أنني لا أستطيع أن أحبها .

أعلم أنكم ستقولون لي : هذا أمر لا يُصدق ، فمن المستحيل أن
يبلغ المرء هذا المبلغ من الشر والغباء ، وربما أضيقتم الى ذلك أنه
لا يُصدق أن لا أكون قد أحيتها قط ، أو أن لا أكون قد تأثرت بحبها
في أقل تقدير . ولكن لماذا تظنون أن هذا الأمر لا يُصدق ؟ انه
ليستحيل على أن أحب ، ذلك أن الحب - أعود فأكرر على مسامعكم

ما سبق أن قلته - انما يعنى فى نظرى الاستبداد والنسلط الروحى •
 اننى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أتخيل الحب فى صورة غير هذه
 الصورة ، وقد بلغت من ذلك أننى ما زلت حتى الآن أرى فى بعض
 الأحيان أن قوام الحب هو أن يهب المحبوب للمحب حقَّ الاستبداد به •
 اننى فى أحلام قبوى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أتخيل الحب الا
 فى صورة صراع : صراع يبدأ بكره وينتهى بعبودية روحية • أى نىء
 يصعب تصديقه فى هذا ما دمت قد بلغت من فساد الروح ومن فقدان
 التوحد على « الحياة الواقعية » أننى قد أخذت أُخجلها منذ قليل ، وأعيب
 عليها أنها جاءت الىَّ لتسمع منى • كلمات عاطفية ؟ اننى لم أدرك أنها
 لم تجىء الىَّ لهذا الغرض وانما جاءت لتحبنى ، لأن كل انبعاث وكل
 خلاص انما يكون لدى المرأة بالحب ، ولا يمكن أن يتجلى الا حباً • ثم
 ... هل كنت أكرهها الى ذلك الحد من الكره حين كنت أذرع الغرفة
 طولاً وعرضاً واختلس النظر اليها من شق الستارة ؟ لا ... ولكن
 وجودها كان يعذبنى عذاباً شديداً • وددت لو تختفى • كنت ظامئاً الى
 « الهدوء » • كنت أريد أن أدخلو الى نفسى وحيداً فى قبوى • ان
 « الحياة الواقعية » التى لم أعودها كانت تضايقنى الى حد الاختناق •

كانت الدقائق تنقض وليسزلا لا تنهض فكأنها غائبة فى حلم •
 وتواقحت فنقرت نقرأ خفيفاً لأذكرها ... فانتفضت ونهضت بوثبة
 سريعة وأخذت تجمع أشياءها : منديلها ، وقبعتها ، ومعطفها ، كأنها تفر
 وتنجو بنفسها • وبعد دقيقتين ، خرجت من وراء الحاجز بخطى بطيئة
 وألقت علىَّ نظرة ثقيلة • فضحكت ضحكة شريرة أجبرت نفسى عليها
 اجباراً من باب « التقيد بالواجبات » ، ثم أشجت وجهى عنها •

قالت لى وهى تتجه نحو الباب :

— وداعاً !

فأسرعت إليها فجأة ، فأمسكت يدها وبسطتها ووضعت فيها ما كنت قد أعددت ، ثم قبضتها من جديد . وبعد ذلك تحولت عنها وركضت بأقصى سرعة الى الطرف الآخر من الغرفة حتى لا أرى على الأقل ...

لقد هممت الآن أن اكذب فاكتب أنني فعلت ذلك مصادفة بغير تفكير لأنني كنت قد فقدت صوابي تماماً . ولكنني لا أريد أن أكذب وهأنذا أقول صراحةً أنني قد بسطت يدها ووضعت فيها مالا ... لا يدفعني الى ذلك الا الحب والشر . لقد خطر ببالي أن أقفل هذا بينما كنت أسير في الغرفة محمومًا وكانت جالسةً على الأرض قرب الحائز . ولكن اليكم ما أستطيع أن أقوله جازمًا : ان هذه القسوة التي اقترفتها عامداً لم تصدر من القلب بل صدرت من رأسي الخبيث المريض . ولقد كانت هذه القسوة من الزيف والاصطناع « والاستقاء من الكتب » أنني لم أستطع أن أحتملها أنا نفسي ثانية واحدة ... لذلك هربت الى الطرف الآخر من الغرفة ... وهأنذا بعد ذلك أركض وراء ليذا وقد استبد بي الحجل والحزى واليأس والكرب ، فأفتح باب الدهليز وأصيح بسمعي ، ثم أنادي في السلم ولكن بصوت خافت خجول :

- ليذا ! ليذا !

ولم أتلق جواباً ، وخيّل اليّ أنني أسمع صوت وقع أقدامها على الدرجات الأخيرة .

فصحت منادياً بصوت قوى :

- ليذا .

فلم أسمع جواباً كذلك . ولكن الباب الزجاجي فُتح على الشارع في تلك اللحظة نفسها ثقيلًا صاراً ، ثم أغلق فحدث اغلاقه ضجةً قاسية ترجعت في السلم .

لقد انصرفت ليزا • فعدت الى غرفتي واجماً مفكراً وأنا أشعر
بثقل رهيب يجثم على قلبي •

وقفت قرب المائدة الى جانب الكرسي الذي كانت جالسة عليه ،
ونظرت أمامي في غباء وبلاهة • انقضت دقيقة ، فاذا أنا اتفض على حين
فجأة • فعلى المائدة ، أمامي ، رأيت ••• رأيت الورقة التقدية الزرقاء ،
ورقة الخمسة روبلات التي كنت قد وضعتها في يدها منذ قليل ، رأيتهما
مجمعة • هي تلك الورقة نفسها ، نعم • لا يمكن أن تكون ورقة
أخرى • ليس عندي غيرها • لقد اتسع وقت ليزا اذن لأن تردها فتضعها
على هذه المائدة بينما كنت أنا أهرب الى الطرف الآخر من الغرفة •••

آه ! ••• كان يمكنني أن أتوقع هذا ! هل كنت أتوقعه ؟ لا •••
لقد بلغت من فرط الأنانية ومن قلة الاعتبار للبشر أنني لم أتخيل أن
في وسع ليزا أن تفعل هذا • لم أستطع تحمل ذلك • فهجمت على ثيابي
كالمجنون ، فألقيت على منها ما وقعت عليه يدي ، وهبطت السلم
مهولاً • لا شك أنها لم تكن قد قطعت مائتي خطوة حين صرت أنا في
خارج البيت •

كان الجو لطيفاً • الثلج يهطل سباتح كبيرة هطولا يكاد يكون
عمودياً فيشكل على الأرصفة والشارع المقفر فراشاً سميكاً ما يمن انسان
يرى ، وما من صوت يُسمع • المصابيح تلتع حزينه في غير جدوى •
سرت بضع مئات من الأمتار حتى وصلت الى مفترق الطرق فوقفت •
تري في أي اتجاه سارت ؟ ولماذا أركض وراءها ؟

لماذا ؟ لأرتمي على قدميها ، فأبكي عندهما وأهدي ما أشعر به من
ندم ومن عذاب الضمير ، لأقبل ركبتيها وأتوسل اليها طالباً غفرانها •
ذلكم ما كنت أريد أن أفعله • كنت أشعر بصدرى يتزق • ألا انني لن
أستطيع أن أتذكر هذه اللحظات في يوم من الأيام دون أن تهتز نفسي •

تساءلت : ولكن ما هدفى من هذا ؟ هل يمكن أن لا أكرهها منذ
الغد ، لا لشيء الا أتى قبَلت قديمها اليوم ؟ هل يمكننى أن أسعدها ؟
ألم أدرك مرةً أخرى هى المرة المائة أتى انسان تافه دنىء ؟ هل يمكننى
أن أمتنع عن تعذيبها ؟

كنت واقفاً فى الثلج أحاول أن أثقب ببصرى حجابيه الكيف ،
وكت غارقاً فى تفكير عميق •

وقلت لنفسى حين عدت الى البيت محاولاً أن أنسى ألمى بالاسترسال
فى الأحلام : « أليس الأفضل أن تحمل هذه الاهانة معها ؟ ان الاهانة
تطهر النفس • هى أشد العواطف مرارة وألماً • لا شك فى أتى كنت
سأوسخ نفس ليزا منذ الغد ، وسأقل قلبها بعبء باهظ • أما وقد
تركتها تضى حاملةً معها الاهانة ، فانها لن تنسى هذه الاهانة فى يوم من
الأيام ، وستظل الاهانة حيةً فى نفسها لا تموت • مهما يكن الوحل
الذى ينتظرها رهيباً فظيماً ، فان الاهانة سترفعها وتطهرها • • • بالكره
• • • هم ! • • • وربما بالفقران أيضاً • • • ولكن هل من شأن هذا
كله أن يجعل حياتها أسهل وأيسر ؟ » •

الحق أتى ما زلت حتى الآن ألقى على نفسى هذا السؤال الذى
لا طائل تحته : أى الأمرين أفضل : أسعادةً مبتذلة أم آلام رفيعة ؟ هلا
قلتم لى أى الأمرين أفضل ؟

على هذا النحو كنت أفكر ، فى ذلك المساء ، محطّم النفس من شدة
الألم • اننى لم أعرف فى حياتى ، حتى ذلك الحين ، عذاباً كالعذاب الذى
كنت أكتوى بناره حينذاك • ولكن هل كان يمكن أن يخطر ببال أحد ،
ولو لحظة قصيرة ، حين ركضت باحثاً عن ليزا ، أتى قد أقف فى منتصف
الطريق ؟ لم ألق ليزا بعد ذلك فى يوم من الأيام ، ولا سمعت عنها
قط • • • وأضيف الى هذا أتى لبثت خلال مدة طويلة راضياً عن الجملة

التي قلتها عن فائدة الاهانة والكره . ومع ذلك أوشتك أمراض من
فرط الحزن والقلق والنم .

ان هذه الذكريات ما تزال تشق على نفسى حتى اليوم بعد انقضاء
ذلك العدد كله من السنين . وان هناك أموراً مؤلة كثيرة تستيقظ
في ذاكرتى ، ولكن . . أليس الأفضل أن أحتم كتابة هذه «الذكريات» ؟
أحسب أنني قد أخطأت حين بدأتها . . . ومهما يكن من أمر ، فأننى
ما برحت أشعر بالحجل والعار أثناء كتابة هذه القصة : ليست كتابة هذه
القصة أدباً ، بل هى عقاب وتكفير وقصاص .

ألا انه ليس بالأمر الشائق أن أروى ، فى قصص طويلة ، كيف
ضيمت حياتى وفقدت عادة الحياة وقبعت فى قبوى حانقاً مقناطاً . ان كتابة
رواية من الروايات لا بد لها من بطل ، أما أنا فقد جمعت ، كأنما على
عمد ، جميع الصفات التى يتصف بها « نقيض البطل » . ثم ان هذا كله
سيحدث فى النفس أثراً كريهاً ، لأننا جميعاً قد فقدنا عادة الحياة ، لأننا
جميعاً نخرج كثيراً أو قليلاً ، حتى لقد بلغنا من فقدان تعود الحياة أننا
نشعر تجاه الحياة الواقعية ، تجاه « الحياة الحية » بما يشبه أن يكون
اشمئزاً ، وذلكم هو السبب فى أننا لا نحب أن يذكرنا بها أحد ؟
وقد وصلنا فى هذا الطريق الى حيث صرنا نعد الحياة الواقعية ، « الحياة
الحية » مخنة أليمة أو جهداً شاقاً . ونحن جميعاً متفقون على أن
الأفضل لنا أن نقرأ هذه الحياة فى كتاب . علام هذه الاضطرابات التى
تخطب فيها ؟ علام هذه الاندفاعات الجنونية التى نستسلم لها ؟ ما الذى
نطلبه ؟ اتنا نحن أنفسنا نجهل ذلك . ولو قد استجيت دعواتنا الحمقاء
لكننا أول من يتألم من ذلك .

هياً جربوا ! هبوا لنا مزيداً من الاستقلال ، فكوا أيدينا ، وسّعوا
ميدان عملنا ، ارفعوا الوصاية عنا ، تجدوا أننا . . . أحلف لكم أننا متى

رفتم الوصاية عنا فسنمود نطالب بها • أنا أعلم أنكم ستصرخون محتجين ، وستفضبون وأتم تخططون الارض باقدامكم قائلين :
- تحدث عن نفسك ، صور أنواع الشقاء التي تمنيتها في قبوك ، ولكن حذار أن تقول : « نحن جميعاً » •

عفوكم يا سادة ! ليس في نيتي أن أبرر نفسي حين أقول : « نحن جميعاً » • أنا لم أزد في حياتي على أن مضيت الى الحد الأقصى بما لم تجرؤوا أتم على أن تمضوا به ولو الى منتصف الطريق ، مطلقين على الجبن اسم الحكمة ، معزّين أنفسكم على هذا النحو بأكاذيب • وربما كنت لهذا أكثر حياة منكم •

ألا أنصوا النظر ! انا اليوم لا نعرف حتى أين هي الحياة ، وماهى ، وما صفتها • فيكفى أن نترك وشأتنا ، يكفى أن تسحب الكتب من بين أيدينا ، حتى ترتبك فوراً ، وحتى تختلط علينا جميع الأمور ، فاذا نحن لا ندرى أين نسير ، وكيف تتجه ، وماذا يجب أن نحب وأن نكره ، وماذا يجب أن نحترم وأن نحقر • حتى انه ليشق علينا أن نكون بشراً ، بشراً يملكون أجساداً هى لهم حقاً ، أجساداً تجري فيها دماء • انا نخجل أن نكون كذلك ، ونعد هذا عاراً ، ونحلم فى أن نصبح نوعاً من كائنات مجردة ، عامة • نحن مخلوقات « ولدت ميتة » ، ثم انا قد أصبحنا منذ زمن طويل لا نولد من آباء أحياء ، وهذا يرضينا ويعجينا كثيراً • انه يلقي فى نفوسنا هوى • وقريباً سنجد السيل الى أن نولد رأساً من فكرة •

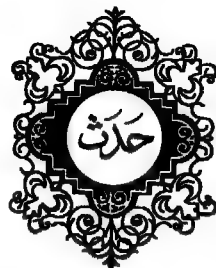
ولكن كفى ! لا أحب بعد الآن أن أسمعكم صوتي من «القبو» • لم تنته ذكريات هذا الرجل المحب للمفارقات الغريبة • انه لم يستطع أن يقاوم الاغراء ، فعاد يمسك القلم • ولكن يخيل لنا ، نحن أيضاً ، أن فى وسعنا هنا أن نختم •

قصة الزينة

١٨٦٢

« قصة اليمة » (Skverni Anekdot)

لعلها كتبت في شهرى ايلول وتشرين الاول -
سبتمبر واکتوبر - سنة ١٨٦٢ وقد نشرت في
مجلة «الزمان» في شهر تشرين الثانى (نوفمبر)
من السنة نفسها •



هذا أيامَ كان الايمان بنهضة وطننا الغالى يهز
نفوس خيرة أبنائه فيندفعون في حماسة وحمياً
نحو آمال جديدة ومصائر جديدة •

في ليلة صاحية هادئة من ليالى الشتاء كان
ثلاثة رجال محترمين قد اجتمعوا في غرفة مريحة بل وفاخرة الأثاث من
منزل يُعد من أجمل منازل حيّ بطرسبورجسكيا ستورونا * • ان هؤلاء
الرجال الثلاثة ، الغائصين في مقاعد عميقة وثيرة رخصة ، يحملون
جميعاً رتبة جنرال ، وهم الآن بسبيل التناقش ، بوقار وحرص ، في
موضوع هام جداً ، أثناء احتسابهم رشفات كبيرة من الشمبانيا من حين
الى حين •

ان صاحب الدار ، وهو مستشار الدولة ستيفان نيكيفوروفتش ،
الغارب الذى يبلغ من العمر خمسة وستين عاماً ، يحتفل اليوم بسكنى منزله
الجديد الذى اشتراه منذ مدة قصيرة • ومن المصادفات عدا ذلك أن عيد
ميلاده الذى لم يحتفل به قبل ذلك قط ، يقع في هذا اليوم نفسه. والحق أن
الاحتفال بالمنزل الجديد لم يكن خارقاً ، فان صاحب المنزل لم يدع الى
هذا الاحتفال الا ضيفين اثنين هما له زميلان قديمان ومرموسان : مستشار
الدولة سيمن ايفانوفتش شيبولنكو، وايفان ايلتش برانسكى الذى يشغل

منصب مستشار دولة أيضاً • لقد وصلا في الساعة التاسعة لتناول الشاي، ولكنهما تلبثا يشربان وفي تقديرهما أن عليهما أن يعودا الى منزلهما قبل منتصف الليل بعشرين دقيقة لأن صاحب الدار رجل شديد التقيد بالمواعيد شديد الحرص على أن لا يخل بما ألف من عادات •

ان ستيفان نيكيفوروفتش الذى بدأ حياته فى المناصب موظفاً صغيراً ، قد ظل يعمل فى كثير من النصب والعناء خلال خمسة وأربعين عاماً ، وهو يعلم سلفاً ما الذى تؤدى اليه هذه الحياة المتواضعة المطردة التى يجيها • كان ، كما يقال ، لا يحب أن يفتن نجوم السماء ، وان يكن يحمل على صدر بزته الرسمية نجمتين اثنتين • وكان يكره خاصة أن يعلن رأيه الشخصى • وهو يستطيع أن يصف نفسه بأنه رجل شريف مستقيم ، بمعنى أنه لم يتفق له فى حياته أن ارتكب عملاً غير لائق • وقد ظل عازباً من باب الأثانية • وهو على كونه ليس بالفبى ، لا يحب أن يبدى ذكاه ، وكان يكره الحماسة أكثر مما يكره أى شئ آخر ، فهو يعد الحماسة عيباً أخلاقياً كبيراً •

وفى نهاية حياة طويلة ليس فيها بريق أو لمعان ، أخذ ستيفان نيكيفوروفتش ينعم وحيداً برخاء وادع وهناء رضية • وكان على ترده الى المجتمع من حين الى حين يكره أن يستقبل أحداً فى منزله ، حتى لقد انتهى به الأمر فى الآونة الأخيرة الى الاكتفاء بمصاحبة تلك الساعة الكبيرة الموضوعة على المدفأة ، يستمع الى دقاتها كل مساء وهو جالس على مقعده هادئاً نصف نائم ، وربما عمد بين الفينة والفينة الى الاسترقاق فى لعبة من ألعاب الصبر على منضدته • فاذا نظرت الى هذا الموظف الكبير رأيته شديد العناية بهندامه ، كثير الاهتمام بحلاقة ذقنه ، وحسبته أصغر سناً من عمره ، فهو ما يزال محافظاً على نصارة صحته ، وما يزال يعد بأن يعمر طويلاً وأن يعيش جتلمناً كما يعتقد •

وكان منصبه مريحاً : وسوف تقدرّون خطورة منصبه متى قلنا لكم
ان له مكتباً في مكانٍ ما ، وانه يديّل بتوقيعه بعض الأوراق • الخلاصة
أنه كان يُعدُّ انساناً ممتازاً •

وقد كان له طوال حياته هوى قوى وحيد أو قل رغبة حارة وحيدة
كانت تضيء أيامه : ألا وهى أن يملك منزلاً ، لا منزلاً للتأجير بل
منزلاً خاصاً من منازل السادة ذات الأبهاء والفخامة ، وقد تحققت له
هذه الرغبة أخيراً • لقد عثر ستيفان نيكيفوروفتش على منزل فى حى
بترسبورسكايا ستورونا ، ولئن كان هذا المنزل بعيداً ، فانه منزل أنيق
جداً ، تحيطه حديقة كبيرة •

حتى لقد اغتبط المالك الجديد بكون المنزل بعيداً عن مركز المدينة
هذا البعد : فهو ، كما تعلمون ، لا يجب أن يستقبل فى منزله زواراً •
أما من أجل أن يقوم هو بزيارة ومن أجل أن يذهب الى مكتبه ، فقد
كان يملك عربة ذات أربع عجلات ، بلون الشوكولاته ، تسع لشخصين
وحوذاً اسمه ميشيل ، وحصانين صغيرين جميلين قويين • ان هذه
الثروة التى هى حصيلة خمسة وأربعين عاماً من الجهد الشاق والتوفير
المتصل ، كان يشب لها قلبه فرحاً واعتزازاً • وذلك هو السبب فى أن
هذا الشيخ ما ان استقر فى منزله الجديد حتى شعرت نفسه الحساسة
بسعادة بلغت من القوة أنه دعا الى الاحتفال بعيد ميلاده (الذى حرص
قبل ذلك على كتمانها) هذين الصديقين القريين • يجب أن نضيف الى
هذا أن صاحب الدار كان يطعم فى أن يعجنى من أحد الضيفين منقعة :
ان ستيفان نيكيفوروفتش يحتل من المنزل الطابق الأول الوحيد ، وعليه
أن يجد للطابق الأرضى مستأجراً ، فهو يأمل أن يكترى منه سيمن
ايفانوفتش هذا الطابق الأرضى ، وقد قاد الحديث فى ذلك المساء نفسه

الى هذا الموضوع مرتين ، ولكن صاحبه لزم انصمت حريصاً على أن
يجيب بشئ •

ان سيمن ايفانوفتش هذا ، وهو رجل أسود شعر الرأس
والعارضين ، ملون الوجه بالصفرة من نوبات الصفراء ، كان هو أيضاً
قد كافح كفاحاً طويلاً قاسياً في سبيل أن يشق لنفسه طريقاً في الحياة •
وهو متزوج ، يحب المكوث في بيته ، شرس الطبع ، مغلق باب داره ،
قائم بواجبات عمله في ثقة وطمأنينة ، مشارف على نهاية نشاطه كمضيفه
عالم في الوقت نفسه بأنه لن يصل يوماً الى الذرى التي طالما هفت نفسه
اليها ••• لقد ملك منصباً حسناً فهو متمسك به أشد التمسك ، حريص
عليه أشد الحرص • أما الأفكار الجديدة التي كانت تنفذ الى روسيا في
ذلك الزمان ، فانه لا يعبأ بها ولا يكثر لها ، فهي لا تثير في نفسه
لا غضباً ولا خشية • لذلك نستطيع أن نقول انه كان يصفى في ذلك
المساء بنوع من الحب الماكر الى التمرينات الخطائية التي كان ايفان
يلتش برالنسكى مسترسلاً فيها ، أثناء تدفقه الغزير في الكلام عن
النظريات الراجحة •

يجب أن نذكر أن الرجال الثلاثة قد شربوا أكثر قليلاً مما ألفوا
أن يشربوا ، وذلك هو السبب في أن ستيفان نيكيفوروفتش قد تنازل
وتواضع الى حيث ارتضى أن يشرع في مناقشة خفيفة مع السيد
برالنسكى عن النظام الذي سيسود في المستقبل •

هنا ينبغي لنا أن نتوسع في الكلام قليلاً لنزوّد القارئ ببعض
المعلومات عن صاحب السعادة السيد برالنسكى ؛ اننا مضطرون الى ذلك
لا سيما وأن هذا الموظف هو البطل الرئيسى في قصتنا •

ان مستشار الدولة ايفان ايلتش برالنسكى لم يحمل لقب « صاحب السعادة » الا منذ أربعة اشهر ، فهو ما يزال جنرالاً شاباً • انه ليس متقدماً فى السن ، فعمره لا يزيد على ثلاثة وأربعين عاماً ، وهو عدا ذلك يرغب فى أن يبدو أكثر شباباً ، وينجح فى ذلك نجاحاً تاماً •

انه وسيم الطلعة فارغ القامة أتيق الهندام فاخر الثياب يزدان صدره بوسام فارس من درجة عالية • وقد عرف منذ ريعان صباه كيف يتقن بعض الآداب الاجتماعية الراقية ، وحلم دائماً فى أن يخطب فتاة غنية تنتمى الى أسرة مرموقة • على أن ايفان ايلتش الذى لم يكن مع ذلك غنياً كان يحلم كثيراً ، وكان يحلم فى أشياء كثيرة • وكان يبدو فى بعض الأحيان بارع الحديث ذرب اللسان ، وكان يحب أن يصطنع أوضاعاً برلمانية • وقد تربى فى مدرسة ارسقراطية ، لأن أباه كان جنرالاً ، فهو قد ارتدى ثياباً من مخمل ومن باتيستته منذ صباه ؛ ولئن لم يستمد من مدرسته تلك علماً غزيراً ، لقد عرف كيف يحصل على التقدير فى عمله ، فسرعان ما وصل الى رتبته الحالية •

كان رؤساؤه يرون أنه رجل كفء ، بل كفء جداً ، وكانوا يعتقدون عليه آمالاً كثيرة • ولكن ستيفان نيكيفوروفتش الذى كان فى الماضى رئيسه ، والذى ما يزال ايفان ايلتش يعمل تحت امرته ، لم يكن يرى فيه رجلاً ذا قيمة عالية ، ولم يكن يثق بمستقبله ثقة كبيرة •

على أن الجنرال المعجوز كان يسرّه أن يعرف أن مرعوسه الذى ينحدر من أسرة رفيعة ، كان يملك ثروة لا بأس بها هى فى الدرجة الأولى منزل جميل يدر عليه ايراداً كبيراً • ومع ذلك فان الشيء الذى كان يسره ويتملق غروره خاصة هو أن يعمل تحت امرته رجل يمت بصلة الى أناس من أصحاب النفوذ ، وأن له هيئة مهية تفرض نفسها ، ولهذا شأنه • وكانت هذه الزايا كلها لا تمنع الرئيس من أن يلوم مرعوسه

الشاب فى كثير من الأحيان ، بينه وبين نفسه ، على اندفاعات خياله وخفة
طبعه •

ولكن ايفان ايلتش كان ذكياً ذكاهً كافياً من أجل أن يأخذ على نفسه
كذلك أنه مسرف فى حب ذاته وسرعة تأذيه • ومن الأمور الغريبة أنه ،
حين يفعل ذلك ، توافيه وساوس مرضية ، بل ويلم به نوع من الندم ؛
وهو يضطر حينئذ الى أن يعترف لنفسه بأن قيمته لا تبلغ الدرجة التى
يتصورها لها (يجب أن نضيف الى هذا أن لحظات الانهيار هذه كانت
تتأبه فى الوقت الذى يعانى فيه آلام البواسير) ، وكان يخلص من ذلك
الى أن حياته حياة مخففة ، وكان ينتهى عادةً ، وقد فقد كل ثقة بكفاءاته
البرلمانية ، الى أن يصف نفسه بأنه انسان لا يحسن الا تزويق الكلام •
على أن هذه الاتهامات التى يتهم بها نفسه ، وهى تشرّفه على كل حال ،
كانت لا تدوم زمناً طويلاً ، ولا تمنعه من أن يرفع رأسه بعد نصف
ساعة ، فاذا هو يسترد طمأنينته ، ويعلم بمزيد من الثقة بنفسه أنه لن
يصبح شخصية مرموقة فحسب ، بل سيصبح كذلك رجلاً من رجال
الدولة تحتفظ روسيا بذكره زمناً طويلاً • حتى لقد تتراعى لخياله فى
بعض اللحظات أنصاب تذكارية تشاد له بعد موته مخليداً لذكراه •

ان جميع ما ذكرناه الآن يسمح لنا أن نفترض أن ايفان ايلتش
كان رجلاً طموحاً ، رغم أن شيئاً من القلق كان يحمله أحياناً على أن
يدفن ، الى زمن ، فى ركن مظلم من نفسه ، الأحلام الغامضة التى تكون
قد راودته • وهو على وجه الاجمال انسان طيب ، حتى ليتمكن أن توصف
نفسه بأنها نفس شاعر • غير أن النوبات المرضية التى سبقت الاشارة اليها
قد أصبحت توافيه فى السنين الأخيرة أكثر مما كانت توافيه قبل ذلك ،
فجعله هذا أسرع الى الاحتياج والشك ، حتى صار يعد أى اعتراض
عليه إهانةً شخصية له •

وكان قد ظهر في روسيا في تلك الآونة تيار نهضة وانبعث أشعل في نفس السيد برانسكى آمالاً كبيراً أوصلتها رتبة الجنرال التي حصل عليها الى ذروتها •

رفع ايفان ايلتش رأسه وأخذ يتكلم بفصاحة وبلاغة عن الآراء الرائجة التي سرعان ما جعلها آراءه • ان جميع الفرص تبدو له مواتية • كان قد أخذ يسمى في المدينة ، فلم يلبث أن اشتهر بأنه لبرالى ، فسرّ هذا سروراً عظيماً وأرضى طموحه ارضاءً كبيراً •

وها هو ذا الآن ، في المساء الذي تبدأ فيه قصتنا ، بعد أن شرب أربع أقذاح من الشمبانيا ، يزعم وقد توقدت موهبته الخطابية توقداً خاصاً ، أن يأخذ في اقناع ستيفان نيكيفوروفتش الذي لم يره منذ زمن طويل ، ولكنه ما يزال يحتفظ تجاهه بعادات الطاعة والاحترام •

وها هو ذا يعتقد فجأة ، دون أن يدري لماذا ، أن رئيسه السابق رجل رجى ، فيندفع في حديثه اليه اندفاعاً قوياً • لم يجب المعجوز بشيء ، ولكنه كان يصنى اليه بانتباه مكرر ، لأن الموضوع يشوقه كثيراً • وأخذت حماسة ايفان ايلتش تزداد تأججاً ، وفي أثناء المناقشة الحارة التي كان يتخيل أنه يجريها ، راح يرشف من قدح الشمبانيا أكثر مما يجب أن يرشف • وكان ستيفان نيكيفوروفتش أثناء تدفق الجنرال الشاب في الكلام يتناول قنينة الشمبانيا على مهل ويملأ القدح ، فأثار هذا استياء ايفان ايلتش أخيراً ، لا سيما وأن سيمن ايفانوفتش شيوونكو الذي كان ايفان ايلتش يكرهه كرهاً خاصاً لما يتصف به من استخفاف وسخرية وخبت ، يصرّ على الصمت ولا يزيد على الابتسام •

حدث ايفان ايلتش نفسه على حين فجأة قائلاً : « أظن أنهما يعداننى صيياً صغيراً ، فتابع كلامه يقول حانقاً :

– لا ، لا ، ألا انه قد آن الأوان ! ألا انه قد آن الأوان جداً •
نحن متأخرون كثيراً • وفي رأيي أن الروح الانسانية يجب أن توضع
فى المقام الأول ، ان الروح الانسانية تجاه من هم دوتنا ، وهم بشر
مثلنا ، أمر لا بد منه ولا غنى عنه ! لسوف تكون الروح الانسانية كل شئ
وسوف تساعد على كل شئ •••

– هـى ، هـى ، هـى !

كذلك فعل سيمن ايفانوفتش •

وقال ستيفان نيكيفوروفتش فى رفق ولين وهو يتسم ابتسامة
لطيفة متوددة :

– ولكن ما بالك تؤنينا وتقرعنا ؟ اننى اعترف لك يا ايفان ايلتش
أننى لم أستطع حتى الآن أن أدرك ما تريد أن تشرحه لنا متفضلاً •
أنت تتكلم عن الروح الانسانية : أفتراك تشير الى حب الانسان أخاه
الانسان ؟

– نعم نعم ، طبعاً ، ولكننى أنا •••

– اسمح لى ! اذا صدق حكمى فان الأمر لا يقتصر على هذا •
ان الروح الانسانية كانت فى جميع الأزمان ضرورة لا بد منها فى علاقات
البشر بعضهم ببعض ، ولكن الاصلاحات تمضى الى أبعد من هذا كثيراً •
الآن تنشأ مسائل تتعلق بالفلاحين ، ومسائل قضائية واقتصادية وأخلاقية ،
ومسائل تتعلق بشراء الأراضى ، الى آخر ما هنالك من مسائل لا نهاية
لها ••• أى مسائل كثيرة يمكنها أن تخلق ، مجتمعة ، بعض المتاعب !•••
ذلك ما نخشاه ، لا الروح الانسانية التى تحدثنا عنها •

وددم سيمن يقول بهيئة عليمه :

- نعم نعم ، هذا صحيح كل الصحة ! ان القضية تسير الآن الى أبعد من ذلك كثيراً ، وتتناول أموراً أعمق من ذلك كثيراً ...

قال ايفان ايلتش وهو يتبسم ابتسامة ساخرة :

- اننى أدرك اعتراضك كل الادراك يا سيمن ايفانوفتش ، واسمع لى أن أقول لك اننى لا أحرص البتة على أن لا أبقي وراء تفكيرك ، ولكننى أجزى لنفسى مع ذلك أن ألقت نظرك ، وأن ألقت نظرك أنت ايضاً يا ستيفان نيكيفوروفتش ، الى أنه ليس يبدو لى أنكما تفهمان عنى ما أقول ...

قال صاحب الدار :

- حقاً لست أفهم !

- ومع ذلك فانتى أحرص على آرائى ولن أكف عن شرحها لجميع الناس . ان الروح الانسانية ، حين نطبقها على مروسينا ، من الموظف الى الكاتب ، ومن الكاتب الى الحاجب ، ومن الخادم الى الفلاح ، ان هذه الروح الانسانية هى وحدها التى يمكن أن تكون حجر الزاوية فى الاصلاحات لنهضة بلادنا . فاذا سألتنى : لماذا ؟ قلت لك لأن ... (هنا توقف لحظة) ... اسمع هذا القياس المنطقي : انا انسان ، اذن يحبني الناس ؛ يحبني الناس ، اذن يتقون بى ، اذن يصدقوننى ؛ يصدقوننى ، اذن يحبوننى ... أقصد ... لا ... وانما أريد أن أقول : اذا كانوا يصدقوننى فسوف يتقون بالاصلاحات التى أنادى بها ، وسوف يدركون معنى المسألة نفسها ، وسيكون من شأن هذا أن يتعاقى جميع البشر ، بالمعنى الروحى طبعاً ، وهكذا تحل جميع القضايا بالود والصدقة ...

ضحك السيد شيبولنكو فاتفض ايفان ايلتش .

- لماذا تضحك يا سيمن ايفانوفتش ؟ أليس كلامي مفهوماً ؟
لبث المسئول صامتاً ، وبدأ عليه استغراب شديد ، ورفع حاجبيه ،
ثم قال بمرارة شديدة :
- يخيل الىّ أنني أسرفت في الشراب • اذن يصعب عليّ قليلاً
أن أدرك معنى كلامك •
وأضاف قائلاً وهو يضحك ضحكة ساخرة :
- هو نوع من أقول الفكر وغياب العقل !
اجتاح ايفان ايلتش غضب شديد وحقن قوى •
وتدخل ستيفان نيكيفوروفتش فجأة فقال :
- أنحن مضطرون الى أن نحتمل هذا كله وأن نعاني منه ؟
ذُهل ايفان ايلتش من هذه الجملة المبهمة المستغلقة على الفهم
كأنها لغز •
- أقصد ... ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام ؟ أن تحتملوا ؟ أن
تحتملوا ماذا ؟ ...
كذلك سأل ايفان ايلتش رئيسه السابق ، مندهشاً من ملاحظته
تلك الموجزة المفاجئة معاً •
فدعم الآخر يقول وقد بدا عليه أنه لا يريد أن يفيض مزيداً من
الافاضة :
- أليس هذا كله فوق طاقتنا ؟
أجاب ايفان ايلتش :
- لعلك تشير الى الخمر الجديدة في زقاق عتيقة * • فاطمئن عليّ •
أما مسئول عن نفسي ! ...

- دقت ساعة الحائط الحادية عشرة والنصف
- تدخل سيمن ايفانوفتش فقال وهو يهم أن ينهض عن مكانه :
- ربما كان ينبغي أن تنصرف •
- ولكن ايفان ايلتش كان قد سبقه • تناول قبعة الرائدة على المدفأة ، وألقى على ما حوله نظرات غضبي •
- قال صاحب الدار وهو يشيخ زائريه في اتجاه حجرة المدخل :
- ستفكر في الأمر اذن يا سيمن ايفانوفتش •
- تعنى البيت ؟ نعم نعم سأفكر فيه •
- وستبلغنى قرارك ، أليس كذلك ؟
- قال السيد برالنسكى باهمال متودد :
- لا شيء الا الأعمال !
- كان السيد برالنسكى ، وهو منهمك في اللعب بقبعة ، يتصور أن صاحب الدار يعده مقداراً مهماً •
- وظلت ملاحظته بلا جواب • لقد أراد صاحب الدار بذلك أن يشعر زائريه بأنه لا يتمسك ببقائهما •
- وادر ك السيد شيولنكو هذا ، فجياً مسرعاً • قال السيد برالنسكى بينه وبين نفسه : « طيب ... اذا كنتم لا تريدون أن تفهموا عبارة ليست الا « ملاطفة » ، فليكن ما تشاءون ، ومدّ يده الى ستيفان نيكيفوروفتش بحركة تصطبغ بنوع من الاستقلال •
- وفي حجرة المدخل تلفف الجنرال الشاب بفرائه الذى يمتاز بأنه غالى الثمن خفيف الوزن دافى فى آن واحد ، متظاهراً بأنه لا يلاحظ لا يلاحظ فرة سيمن ايفانوفتش البخسة الثمن المهترئة • وهبط الموظفان الكيران على السلم •

قال السيد برالنسكى :

— يبدو على الشيخ أنه غاضب •

فقال الآخر بلمهجة هادئة باردة :

— غاضب ؟ ممَّ عساه يغضب ؟

فحدث ايفان ايلتش نفسه قائلاً : « يا للأحمق ! » •

وتحت الرواق ، رأى الرجلان عربةً زلاّقة قد قرّن بها حصان

أشهب • كانت العربة تنتظر السيد شيولنكو •

صاح ايفان ايلتش :

— يا للشيطان ! أين مضى تريفون بعربتى ؟

وأعقب ذلك بحث طويل ، ولكن العربة ظلت غائبة • ولم يستطع

خادم ستيفان نيكيفوروفتش أن يشرح غيابها ، لا ولا استطاع ذلك برهام

حوذى سيمن ايفانوفتش الذى أجاب بأنه قد لبث فى المكان لم يبرحه ،

فكان يرى العربة ثم لم يرها •

قال السيد شيولنكو :

— حادثة مؤسفة ، قصة أليمة ! هل تريد أن أوصلك ؟

فأعول السيد برالنسكى يقول وقد استبد به حنق مفاجئ :

— آه ••• يا للسفلة ! ان تريفون هذا الوغد قد استأذنتى فى أن

يذهب الى عرس قرية له • شيطان يأخذه • لقد نهيته عن الذهاب بشدة

وقسوة ، ومع ذلك أراهن أنه ذهب الى هناك !

قال برهام :

— هذا صحيح • حتى انه ، قبل أن يذهب الى هناك ، وعد بأن يعود

بعد لحظات •

- انتظر قليلاً !

قال سيمن ايفانوفتش وقد أخذ منذ ذلك الحين يدثر ركبتيه بغطاء
الجلد الذى تزدان به زلاته :

- خذه الى الشرطة ، ومُرهم بجلده !

- أشكر لك نصائحك وأرجوك أن لا تزعج نفسك يا سيمن
ايفانوفتش •

- ألا تريد اذن أن أوصلك ؟

- شكرآ • مع السلامة !

انصرف سيمن ايفانوفتش ، فنزل السيد برالنسكى عن الرصيف
الحشبي ، ومضى قدماً لا يلوى على شيء وهو فريسة غيظ شديد واهتياج
عنيف •

كان الجنرال يقول بينه وبين نفسه غاضباً : « انتظر قليلاً أيها
الوغد تريفون ! أريد أن تفهم وأن تصاف ! آه أيها الوغد ! ليتنى أرى
كيف سيكون وجهك حين تعلم متى عدت أن السيد قد انصرف سيراً على
قدميه ! » •

ان الجنرال الكامل ، ايفان ايلتش ، لم يستعمل فى حياته حتى
الآن ألفاظاً فظة هذه الفظاظة • ولكنه كان يشعر فى هذه المرة بأنه فى
ذروة السخط • أضف الى ذلك أن أبخرة كانت قد غشيت دماغه •
انه لم يعود أن يشرب كثيراً ، لهذا كانت أقذاح الشمبانيا الخمس أو
الست قد أحدثت أثرها •

الليلة رائعة. صحيح أن الجو صقيع ، ولكن الهواء هادئ ساكن ،
والسما صافية تملؤها النجوم ، والقمر بدرٌ يسكب على الأرض أشعته
الفضية .

ما أمتع التنفس في هذا الجو ! لذلك لم يكد ايفان ايلتش يخطو
خمسین خطوة حتى كان قد نسي أفعال حوذيته السيئة نسياناً تاماً . ان
ايفان ايلتش يشعر الآن بارتياح . وها هو ذا منذ الآن ، كسائر الناس
المتقلين الذين تتغير حالانهم النفسية تغيراً قوياً من حين الى حين ، هاهو ذا
يأخذ يحس منذ الآن برضى وغبطة بين السيوت الحشوية الصغيرة الحظيرة
التي تصطف على طول الرصيف .

قال يحدث نفسه : « كانت فكرة رائعة حقاً أنني قررت السير على
قدمي . هذا عدا أن ذلك سيكون درساً قاسياً لتريفون ، كما أنه سلوى
كبيرة لى . بل ان على أن أقوم بنزهات من هذا النوع في أحيان
كثيرة ! » .

وهتف بجرارة وحماسة يقول وقد رق قلبه وجاشت عاطفته :

— ما أروع هذه الليلة ! وما أفقر هذه المنازل الصغيرة البائسة !
لا شك أن سكانها موظفون صفار ، وباعة ، وربما ... آه من ذلك
السخيف ستيفان نيكيفوروفتش ! يا له من رجعى ! ما أشبهك بطاقة
عتيقة من قطن يا صديقى ! نعم : طاقة عتيقة من قطن ... تلك هى
الكلمة المناسبة ، ذلك هو التعبير اللازم ! على أن هذا الرجل لا يعوزه
الذكاء : انه يملك حساً سليماً ، انه يفهم الأشياء فهماً واضحاً عملياً .
ولكن يا للعجوز فى مقابل ذلك ! يا للعجوز ! انه يفتقر الى ... الى ..
كيف أقول ؟ نعم ... انه يفتقر الى ذلك الشيء ...

وفيما كان الجنرال يبحث عن الكلمة التي تفصح عما بذهنه ،

تذكرَ الجملة المستغلقة كأحجية ، التي قالها رئيسه ، لقد قال : « اتنا لن نحتمل » ، فماذا كان يعنى ؟ ما مضى هذا التعبير ؟ ثم انه كان مستغرقاً فى التفكير حين نطق بهذه الجملة ...

– على أن من المؤكد أنه لم يفهم شيئاً مما كنت أقوله . ولا ضير على كل حال ... فانما الأمر الأساسى أنتهى أنا مقتنع ! الروح الانسانية ... حب الانسان أخاه الانسان ! ... أن نردّ الانسان الى نفسه ... أن نوقظ فيه الشعور بكرامته ... ثم نندفع الى العمل بهذه المادة الجديدة كل الجدة .

– نعم ، ولكن اسمح لى بقياس منطقى آخر يا صاحب السعادة : انظر مثلاً الى الموظف الصغير المبهوت . هاتذا أسأله : « من أنت ؟ » فيجيب : « موظف » – « طيب ... ولكن أى موظف » – « موظف كذا أو كذا » – « أين تعمل ؟ » – « أعمل فى ... » – هل تريد أن تكون سعيداً » – « أريد ! » – « ما الذى تحتاج اليه لسعادتك ؟ » – « كيت وكيت » – « لماذا ؟ » – « لأن ... » . ويعقب شرح صادق ، فاذا بالرجل يفهم عنى ، واذا هو يصبح لى . نعم يا صاحب السعادة ! لقد احتويت هذا الرجل فى شباكى ، وسأصنع به ما أشاء ! ... وذلك فى سبيل خيره هو نفسه ...

وهتف يقول فجأة :

– يا له من شخصية تبعث على الاشمئزاز ، سيمين ايفانوفتش هذا ! ... ما أشنع تلك السخنة التى له ! « خذه الى الشرطة ومُرهم بأن يجلدوه ! » ... تجرأ أن يقول هذا الكلام غامزاً ... لا ، لا يا صديقى احتفظ بنصائحك لنفسك ! شكرًا ! لن أجلد أحداً ! سيكفينى الكلام كل الكفاية لأجعل تريفون يفهم الغلطة التى ارتكبها . أما عقوبة الجلد ... هم ... فتلك مسألة لا يمكن حلها حالاً .

ان خطورة هذه المسألة قد أوقفت تأملات الجنرال ، فحاول أن يتحاشاها • وسرعان ما عرضت له أرض أخرى : « ماذا لو ذهبت أزور ايميراس ؟ » • كذلك تساءل وهو يتسم ابتسامة بطرة •

ولكن الجواب على هذا التساؤل لم يحضر ، لأن ساق الجنرال كادت تلتوى •

قال ايفان ايلتش غاضباً :

— رصيف فطيع ! ثم يُقال هذه عاصمة ! ياها من مدينة ! قد يكسر المرء ذراعيه وساقيه ! هم • • • لشد ما أكره سيمين ايفانوفتش هذا المزدهى المغرور ! ان له وجهاً مقيتاً بشماً ! وما أكر ما ضحك حين كنت أقول ان الناس سيتعاقون عناقاً روحياً • نعم ، صحيح ، سوف يتعاق الناس • وما شأنه هو وهذا ؟ لست أنت من سأعاق • • • وانما سأعاق غلاماً • • • اذا التقت بفلاح فسوف أكلمه • ثم اتى كنت سكران ، ولا شك أنني لم أفصح بوضوح ، وربما كنت حتى الآن لا أفصح بوضوح • • • هم • • • لا أريد أن أشرب بعد اليوم ! • • • يتحدث المرء فى المساء ، ثم اذا هو فى الصباح يندم • • • ولكننى أسير مستقيماً مع ذلك • • • ما هؤلاء الا أوغاد على كل حال !

هكذا استمر ايفان ايلتش يقذف جملاً قصيرة خالية من المعنى • كان يسير محاذياً الرصيف • وفعل الهواء الطرى فعله ، بما هى الا خمس دقائق حتى كان يبدو على الجنرال أنه هدأ روعه وسكنت نفسه •

وحين صار فجأة على بعد خمسة أمتار من « الشارع الكبير » سمع أصوات موسيقى فالتفت : فى الطرف الآخر من الشارع ، فى منزل من خشب ، منزل عتيق طويل ذى طابق واحد ، كانت آلات كمان تتناوح ، وكانت ناي تصوّت ، وكانت الكوترباس تشخر على لحن

رقص ؟ وكانت تحتشد أمام التوافد المضاءة جمهرة صغيرة • ان نساء يرتدين معاطف مبطنه بقطن ويغطين رؤوسهن بمناديل ، كنَّ يجهدن فى سبيل أن يرين شيئاً من خلال شقون المصاريع • وكان واضحاً أن من فى داخل المنزل مبتهجون • وكانت ضجة أقدام الراقصين تصل الى سمع ايفان ايلتش • ورأى ايفان ايلتش شرطياً فاقرب منه وسأله وهو يزيع ياقة فرائه بالقدر الذى يتيح للشرطى أن يبصر وشاح الوسام الذى يزدان به عنقه :

— لمن هذا المنزل يا أخ ؟

قال الحارس متصباً كالمصا لأنه لاحظ الوسام :

— هو منزل الموظف بسلدونيموف :

— بسلدونيموف ؟ ها ••• بسلدونيموف ••• أهو يتزوج اذن ؟

— نعم يا صاحب السعادة ••• انه يتزوج ابنة الموظف ماميفروف ••• وقد وُهب له هذا المنزل مهراً •

— اذن أصبح المنزل ملك بسلدونيموف لا ملك ماميفروف* •

— نعم يا صاحب السعادة • فى هذا الصباح كان المنزل ما يزال ملك ماميفروف ، أما الآن فقد أصبح ملك بسلدونيموف •

— هم ••• أنا أسألك عن هذا الأمر يا أخ ••• أنا أسألك عن هذا كله ••• لأنتى رئيسه • أنا جنرال فى المكتب الذى يعمل فيه بسلدونيموف •

— نعم يا صاحب السعادة •

بدا على الحارس مزيد من الاستطالة والانتصاب ، وظهر على ايفان ايلتش الوجوم والتفكير • كان يلوح أنه يدبر أمراً ما •••

ان بسلدونيموف ينتمى فعلاً الى الدائرة التى يرأسها الجنرال •
 ان الجنرال يتذكر جيداً ذلك الموظف الصغير الذى يتقاضى راتباً قدره
 عشرة روبلات فى الشهر • فان السيد برالنسكى ، رغم أنه لم يرأس
 هذه الدائرة الا منذ بضعة أيام ورغم أنه لم يستطع أن يحفظ أسماء
 جميع مرعوسيه ، قد حفظ اسم بسلدونيموف خاصة ، لما لهذا الاسم من
 وقع خاص ولأنه اسم مستغرب لا يتوقع • وقد أعرب الجنرال عن
 رغبته فى أن يرى صاحب هذا الاسم الغريب من كتب ، فلما جىء به
 اليه رأى أمامه شاباً فى أول الشباب له أنف طويل معقوف ، وله شعر
 باهت قد نبت على رأسه حزماً حزماً ، وله جسم هزيل من سوء التغذية ،
 وقد ارتدى بزة حقيرة وسروالاً يكاد يخرج عن حدود الاحترام •
 تذكر السيد برالنسكى هذا كله ، بل تذكر أيضاً أنه قد تساءل
 حين رأى هذا «الكاريكاتور» : ألا ينبغى اعطاء هذا المسخ المسكين عشرة
 روبلات من باب المكافأة ليستطيع أن يرتدى ملابس لائقة ؟ ولكن لما كان
 هذا الشقى يبدو كمن يشارف على نهايته ، ولما كانت نظرته ، عدا ذلك ،
 غير محبة كثيراً ، فان هذا القرار الطيب الذى خطر ببال الجنرال لم يلبث
 أن تبخر ، فلم يلق بسلدونيموف مكافأة ، وظلّ شحاذاً كما كان •

وقد اندهش الجنرال بعد ذلك مزيداً من الاندهاش حين رفع اليه
 بسلدونيموف هذا نفسه طلب استئذان بالزواج •

وقد تذكر ايفان ايلتش الآن أنه قد وافق على منحه ذلك الاذن
 فوراً ، دون أن يترتب لدرسن الموضوع ، ولكنه قد حفظ عندئذ هذا
 الأمر : أن الخطيئة تقدم لخطيئها مهراً هو بيت من خشب واربعمائة
 روبل عداً ونقداً •

كان هذا كله يحاصر ذاكرة برالنسكى الآن ، وكان برالنسكى
 يبدو غارقاً فى تأملات خارقة •

انكم تعلمون أن أفكاراً كثيرة متتالية تجتاز أدمغتنا في بعض الأحيان بسرعة كسرعة البرق ، وتعرض لنا في صورة احساسات لا يمكننا أن نصوغها صياغة أدبية ، بل ولا تستطيع أية لغة انسانية أن تعبر عن دلالتها تعبيراً دقيقاً . ولكننا لن نقف الآن أمام مصاعب هذه المهمة ، وسنحاول أن نؤول ما اشتملت عليه أفكار بطلنا من أمور هي أبعدنا عن السخف ان لم نحاول أن نؤول معنى هذه الأفكار بأكمله . صحيح أن الحواطر والاحساسات التي عاناها ايفان ايلتش تفقر الى المنطق بعض الاقتار ، ولكنكم لا تجهلون سبب هذه البلبلة وهذا التخط .

قال السيد برالنسكى يحدث نفسه : « انه ليتفق لنا أن نقول أشياء كثيرة ، ولكننا نتقهقر وتراجع متى حانت ساعة التنفيذ ! لننظر مثلاً الى بسلدونيموف هذا : انه يعود من الكنيسة مرتشياً من الانفعال ! انه يأمل أن يذوق الثمرة التي حرمت عليه حتى الآن !... هذا طبعاً يوم من أجمل أيام حياته ... انه يعنى بضيوفه ، ويهيئ احتفالاً لن يعوزه لا الفرح ولا الصدق ، رغم أنه احتفال بسيط ، ان لم تقل انه احتفال فقير !... »

« فما عسى يحدث اذا هو علم ، في هذه اللحظة نفسها ، أنني ، أنا رئيسه المباشر الكبير ، واقف هنا ، أمام منزله ، أصغى الى الموسيقى ؟

« حقاً ، ما عسى يحدث - أنني أسألكم هذا السؤال - اذا أنا خطر ببالي فجأة أن أدخل على هذا المسكين ؟

« هم ... ان بسلدونيموف سيصاب عندئذ بالكم من شدة الرعب والانفعال ، وقد ينسقط على ظهره ، ولا شك أن دخولي سيقلب كل شيء .
... نعم ... هذا ما سيحدث اذا دخل على بسلدونيموف جنرال غيرى ،
نعم ... جنرال غيرى ... أما أنا فلا ... »

« نعم يا ستيفان نيكيفوروفتش ، نعم يا من كنت منذ قليل لا تفهمنى
فيما يبدو ... خذ ... هذا مثال من شأنه أن يبقا عينيك »

« نحن جميعاً ، معشر المتكلمين عن الروح الانسانية ، هل
نستطيع أن نقوم بعمل بطولى واحد ؟ نعم ، نحن نستطيع ذلك . وقد
تسألوننى : فأين البطولة فى هذا كله ؟ ألا فاسمعوا اذن :

« ما دامت العلاقات الراهنة بين أفراد المجتمع هى الآن على ما هى
عليه ، فما قولكم اذا خطر فجأة ببال مستشار دولة أن يحضر عرس
واحد من مرعوسيه هو موظف بسيط راتبه عشر روبلات فى الشهر ؟
... وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فوق ذلك ؟ ... ما قولك
فى هذا يا ستيفان نيكيفوروفتش ؟

« سوف يصيحون : يا للفضيحة ! ، وسوف يصفون هذا العقل
بالجنون ، وسوف يقولون قائلين فى آخر الدنيا « هذا آخر أيام بوميئى »* ،
وسوف يقولون ما لا أدرى أيضاً . لن يكون أحد قادراً على أن يفهم
هذا الفعل ، حتى ولا أنت يا ستيفان نيكيفوروفتش الذى تبدو مع ذلك
انساناً ذكياً ... لأن أحداً من رجال الماضى هؤلاء المشلولين الأغنياء لن
يكون قادراً على القيام بهذا الفعل الذى أعرضه عليك ! ... أما أنا
فسأقوم به ... أنظر كيف أحيل « آخر أيام بوميئى » الى أجمل يوم
فى حياة مرموسى المسكين البائس ! ... ان العمل الذى تصفه بالجنون
سيستحيل بفضلى حادثاً تاريخياً له دلالة أخلاقية بعيدة المدى لا يمكن
حسابها !

« لعلك تسألنى : كيف أتدبر الأمر ؟ فاسمع اذن . لنفرض اننى
دخلت على بسلدونيموف . ماذا يحدث عندئذ ؟ ذهول عام فى أول الأمر
طبعاً ... ان الناس المشتركين فى حفلة المرس سيقطعون رقصاتهم على

الفور ، وستوقفون وقد اتسعت عيونهم ذعراً ، وستراجعون تراجع
الأمواج عند الجزر ٠٠٠

» نعم ، ولكننى فى تلك اللحظة انما سأستعمل كل كياستى لتهدئة
روعهم ، وردهم الى الراحة والطمأنينة ٠٠ أمضى الى بسلدونيموف الذى
يتأملنى مرتعشاً من الخوف ، فابتسم له ابتسامة المودة الكاملة ، وأخاطبه
بكلام موجز بسيط قائلاً له :

» - هأنذا ! اننى آتٍ من عند صاحب السعادة ستيفان نيكيفوروفتش.
أظن أنك تعرفه . انه يسكن غير بعيد .

» ثم أسارع فأروى قصة فكهة من شأنها أن ترد جميع الحضور
الى الراحة والدعة ، فلا شئ كالفكاهة يزيل الحرج ويبدد الارتباك .
أحكى قصتى مع تريفون ، وأروى كيف قررت أن أمشى على قدمى
أنت تدرك ، أليس كذلك ؟

» اسمع . اليك هذا المثال عن حكايتى الفكهة :

» سمعت موسيقى على حين فجأة ، فسألت الشرطى ، فعلمت أنك
تحتفل بعرسك ، فخطرت ببالى فكرة فقلت لنفسى : « فلأزر مروسى
الطيب ، لأرى كيف يتسلل الموظفون فى دائرتى ٠٠ كيف يتزوجون اء .
» - آمل أن لا تطردنى !

» أن لا تطردنى ! يا لها من كلمة تقال لمروس ! ألا انه سيطير
من هذه الكلمة صوابه ! وها هو ذا يضطرب حولى ، ويأتينى بمقعد ،
ويرتعش فرحاً ، ويشعر بأنه عاجز عن تقدير السعادة التى تسقط عليه .
» أى فعل أكثر بساطة وأعظم أناقة ورشاقة من هذا الفعل ؟ فاذا
سألتمونى لماذا دخلت عليه قلت هذا سؤال آخر ، هذا سؤال يشتمل على
الجانب الأخلاقى من الأمر ان صح التعبير .

قال ايفان ايلتش يسأل نفسه وهو يضع يده على جبينه : « ماذا كنت أريد أن أقول ؟ آآآ نعم !

« ها هم أولاء يجلسسونى قرب مدعو مرموق هو موظف من الموظفين أو كابتن محال على التقاعد له أنف أحمر جميل آآآ ما أجمل تلك الصفحات التى دبجتها يراع جوجول فى وصف أمثال هؤلاء الناس !

« ثم أتعرف على العروس ، وأقول لها بضع كلمات لطيفة طبعاً • ولن يفوتنى أن أشجع الراقصين أيضاً : سأطلب اليهم أن يستمروا فى لهوهم • وسأضيف الى ذلك وأنا أضحك ضحكة صغيرة أشبه بضحكة طفل برىء :

« - استمروا فى لهوكم كما لو لم أكن حاضراً ! آآآ

« سوف ألقى فكاهات ، وسوف أضحك ، وسوف أكون فى غاية اللطف والظرف ، كما أجيد ذلك فى لحظات بهجتى آآآ

« هم • آفصد آآآ أحسب أنني أسرفت فى الشراب بعض الاسراف آآآ

« ولما كنت امرأاً جنتلماناً ، فلن أطلبهم باظهار أى علامة من علامات الاحترام طبعاً آآآ ولكن هذا أمر آخر من الناحية الأخلاقية • ان فعلى سيبعث فى نفوسهم عاطفة قديمة نبيلة : سوف يفهمون ، وسوف يقدرّون !

« وسأملك عندهم على هذه الحال نصف ساعة ، وقد امكث ساعة كاملة ، ثم انصرف حتى قبل العشاء • ويكونون قد دعونى الى العشاء مع ذلك ، ويكونون قد ألحوا أن أبقى ، ولكننى أرفض عرضهم قائلاً :

« - تعرفون طبعاً أن هناك أعمالاً تناديني وتضطرنى الى
الاستحباب »

« وسأكتفى بأن أفرغ كأساً من الشمبانيا تكريماً للعروسين »
« وسيكون من شأن اللهجة الرصينة وكلمة « الأعمال » أن ترداً
الى وجوههم صرامتها التى تعبّر عن الاحترام • سوف تذكرهم هذه
الكلمة السحرية تذكيراً لطيفاً كيّساً بكل ما يفرّق بيننا • انها تشير الى
المسافة التى تفصلنى عنهم وتفصلهم عنى : هى مسافة بعيدة بعد الأرض
عن السماء !

« ليس معنى هذا أننى أريد أن أفرض مهاتنى عليهم ، ولكن هذا
التحفظ يظل أمراً لازماً للدلالة الأخلاقية الروحية التى يتضمنها فعلى •
« ثم اننى لن ألبث أن أسترد ابتسامتى ، فأمازحهم قليلاً لأشجعهم
.... وسأقول للعروس بضع ملاطفات أخرى هم هم
ماذا أستطيع أن أقول لها ؟

« ها نعم وجدت ما يجب أن أقوله لها : أشير الى أننى
سأزورها بعد تسعة أشهر عراباً • عظيم ! لا شك أنها ستكون بعد تسعة
أشهر قد ولدت هؤلاء أناس يتناسلون كالأرانب • ويضج الحضور
بالضحك لمزاحتى ، وتحمر العروس حياءً لطيفاً ، فأقبل جيئها ، بل
وأباركها وفى الغد ، فى الغد تعلم جميع المكاتب ببطولتى وتقدرها
قدرها !

« ورغم أننى سأعود الى شدتى وقسوتى وصلابتى ، فإن جميع
الناس سيعرفوننى وسيعرفون من أنا فيقولون حين يتحدثون عنى :
« - انه قاس من حيث هو رئيس ، ولكنه ملاك من حيث هو
انسان ! »

« وهكذا انتصر ، هكذا أربح المعركة : اكتسب قلوب الملأ ، فأما الأب وهم أبنائي »

« هيّا افعل شيئاً يشبه هذا يا صاحب السعادة ستيفان نيكيفوروفتش ! »

« هل تعلم الآن ، هل تفهم الآن ما معنى هذا ؟ لاحظ أن بسلدونيموف نفسه سيقص على أبنائه في المستقبل أن جنراً لا قد حضر عرسه ، بل وأنه شرب في العرس شمبانيا . نعم ، سيقول هذا لأبنائه الذين سيقولونه هم أيضاً لأبنائهم ! وسيظل الناس يتحدثون عن هذا الأمر زمناً طويلاً في سهراتهم ؛ وسترتقى هذه القصة الصغيرة التي كان بطلها رجلاً من كبار الموظفين ، رجلاً من رجال الدولة ، سترتقى هذه القصة الصغيرة الى مصاف الأساطير المقدسة . سأكون قد أنهضت روح انسان مثل ، انسان مسكين فقير ، سأكون قد رددت هذا الامسان الى نفسه وغرست فيه في الوقت نفسه أجمل المبادئ الأخلاقية ! »

« ويكفى أن أكرر هذه الرحلة مرتين أو ثلاثاً حتى أكتسب شعبية واسعة شاملة »

« سيُحفر اسمي في جميع القلوب . وهل يدري أحد الى أين تؤدي الشعبية ؟ » .

هكذا كان يفكر ايفان ايلتش . ما أكثر ما يمكن أن يقوله لنفسه انسانٌ أثر فيه الشراب بعض التأثير ! وان جميع هذه الحواطر والأفكار قد اجتازت رأسه في أقل من دقيقة واحدة . وكان يمكن أن يكتفي صاحبنا بأحلامه هذه ، وأن يتابع سيره في الطريق الى منزله هادئاً ، بعد أن أقحم ستيفان نيكيفوروفتش هذا الافحام وبعد أن أخجله من نفسه على هذه الصورة . ولا شك أن رجوعه الى منزله هو خير ما كان يمكن أن

يفعله حينذاك • ولكن شاء سوء الحظ أن تكون تلك الدقيقة دقيقة غريبة
شاذة •

ففى تلك اللحظة نفسها صوّر له خياله ، بما يشبه العمد ، أنه يرى
وجهى ستيفان نيكيفوروفتش وسيمون ايفانوفتش متهللين راضيين • وهذا
ستيفان نيكيفوروفتش يقول له بلهجة حاقدة وضحكة مأكرة ساخرة :

« لن تملك الشجاعة اللازمة ، لن تملك القوة الكافية ، لن تملك
القوة الكافية » •

وهذا سيمون ايفانوفتش يصاحب كلام زميله بضحكة وقحة :

« هـى هـى هـى » ، فاذا بهذه الضحكة تثير حق الجنرال الشاب
آخر الأمر ، واذا هو يقول بلهجة قاطعة وهيئة حازمة :

— سنرى أأملك الشجاعة أم لا ؟

وصعد الدم الى رأسه ، فترك الرصيف ، وعبر الشارع بخطوات ثابتة ،
ليدخل منزل مروعوه الموظف الصغير بسلدونيموف •••

كان قدره يقوده • ها هو ذا يجتاز باب الحديقة الصغيرة التى تفضى
الى الدار ، سائراً بخطى حازمة • وهذا كلب صغير طويل الشعر أبيع
الصوت ينبرى له محاولاً أن يتسلل بين ساقيه نابحاً نابحاً أجش ، فيدفعه
الجنرال عنه فى احتقار وازدراء •

مشى ايفان ايلتش محاذياً فروع أشجار الصفصاف التى تؤدى الى
الفرقة ، ثم صعد الدرجات الضيقة الثلاث التى تقرّبه من المدخل •
كان هنالك عقب شمعة أو شئ من هذا القليل ، ولكن هذا الضوء

الضئيل لم يمنع الزائر المفاجيء من أن يطأ بقدمه طبق طعام كان يبتعد
فى ركن من الأركان . ومال ايفان ايلتش على الأرض مستطعلاً مستغرباً
فرأى طبقين آخرين فيهما حلوى . وقد أزعجه أنه داس طبق الطعام
فسحقه ، وأوحى اليه ذلك بفكرة سريعة عابرة هى أن يلوذ بالفرار .
ولكنه لو هرب لعدّ ذلك جبناً ، لا سيما وأنه لم ير حتى الآن مخلوقاً
قط . وما هو ذا يسمح حذاءه بحركة سريعة ليزيل علامات خراسته .
ثم ما هو ذا يجس باياً فيفتحه ، فإذا هو يجد نفسه فى حجرة صغيرة
هى حجرة المدخل التى يزدحم نصفها بمعاطف وفرواات وقبعات وأوشحة
وجراميق ، ويقع فى نصفها الثانى أربعة موسيقيين لا شك أنهم 'جمعوا من
الشارع ، وهم عازفان على الكمان ، وعازف على الناي ، وعازف على
الكوترياس .

كان هؤلاء الفنانون جالسين حول مائدة خشبية تحضّر فى وسطها
شمعة ، وكانوا يختمون عزف لحن من ألحان الرقص . ومن خلال الباب
المفتوح يرى الراقصون الذين يتحركون وسط سحابة من النبار
والدخان .

ان مرحاً جنوبياً يسيطر على الحجرة . ضحكات النساء وصيحاتهن
تنطلق من كل جانب . والراقصون يقرعون الأرض بأعقابهم فكأنهم
كوكبة من الفرسان . وفوق هذه الجلبة كلها يحلّق صوت قائد الرقص
وهو فى منطلق الحركات كان يصيح آمراً : « الراقصون يتقدمون ! ... »
حلقة السيدات ترجع ! ، ، النع .

خلع ايفان ايلتش فروته ونزع عن قدميه خفّى المطاط ، منفعلاً
بمض الانفغال ، ودخل الى الصالة ممسكاً طاقته بيده . وكان قد انقطع
عن التفكير ...

لم يلاحظه أحد فى الوهلة الأولى ، لأن الحضور جميعاً كانوا

مشدودين الى الرقص منهمكين فيه • فلبث ايفان ايلتش على هذه الحال
بضع لحظات كالذهول لا يستطيع أن يميز أى شيء فى هذه الفوضى التى
يضطرب فيها نحو ثلاثين شخصاً يتصعب منهم العرق • وكانت أنواب
السيدات تلامسه ملاسمة سريعة أثناء مرورهن به • وكان الراقصون
يقذفون وجهه بدخان سيجاراتهم الموضوعة بين شفاههم • وهذا وشاح
أزرق يدغدغ أنفه ••• ثم هذا طالب يدور على نفسه وقد طار شعره
فى الهواء ، يلكره بكونه • ووراء الطالب ضابط طويل كعمود ، يصوت
من شدة الفرع •

أحسَّ ايفان ايلتش تحت قدميه بشيء لزج : أغلب الظن أن أرض
الغرفة قد طليت بالشمع •

وانقضت بضع دقائق • فلما انتهى الرقص توقفت الحركة فجأة •
وعندئذ انما بدأ يجرى الحدث « التاريخى » على نحو ما تنبأ به الجنرال •
لقد قامت على حين بفتة دمدمة غير مألوفة جرت بين الحضور الذين
لمَّا يتسع وقتهم بعد لأن يعودوا الى أنفسهم ويتنفسوا ويجففوا العرق
الذى كان يسيل من جباههم • التفتت جميع الوجوه نحو القادم الجديد ،
وهبت ريح من ذعر ، فأخذ الجمهور يتقهقر • والذين لم ينهموا الأمر
بعد سرعان ما نبههم اليه جيرانهم بشدة حافات ثيابهم ، فالتفتوا مسرعين ،
وهرعوا يجارون الحركة العامة •

أما ايفان ايلتش ، الذى ما يزال واقفاً عند عتبة الباب ، فقد لا حظ
بشيء من الانزعاج أن المسافة التى تفصله عن المدعويين ما تنفك تكبر من
الحظة الى أخرى • ان الفراغ الذى ينشأ أمامه يتسع بغير انقطاع ، كاشفاً
عن أرض الغرفة التى تغطيها الأوساخ وتتناثر عليها مرق ورق القصدير
وأغلفة المربيات المبشرة ، وقشور الجوز وأعقاب السجائر •

وهذا الفراغ ، هذا الفراغ الذى لم يكن فى الحسبان ، ما ينفك
يكبر ، ثم يكبر ...

ثم تحرك الفضاء : فهذا شاب يرتدى فراكاً قد دخل ، فرأى فيه
الجنرال ذكرى الشعر الأشقر الباهت ، والأنف الأفتى المنحنى •

انه بسلدونيموف بعينه يتقدم من الجنرال معبراً بكيانه كله عن
هيئة الخضوع تلك التى ينظر بها الكلب الى مولاه حين يناديه هذا ليكافئه
بركلة من قدمه •

هتف الجنرال يقول فرحاً كل الفرح :

- يومك سعيد يا بسلدونيموف ! أرى أنك قد عرفتى •

ولكن الجنرال أدرك ما فى مناداته هذه من خرافة ، وأخذ يفهم
أنه بسبيل ارتكاب حماقة هى من أضخم ما ارتكب فى حياته من حماقات •

ثأناً الموظف الصغير يقول :

- صا ... صاحب السعادة !

- مساؤك سعيد ، مساؤك سعيد يا صديقى ! هأنت ذا ترى أتنى
أصل مصادفةً تماماً ... مستحکم على الأمر بنفسك •

ولكن من الواضح أن بسلدونيموف كان عاجزاً عن أن يحكم على
أى أمر من الأمور • لقد انعقد لسانه وتجمد جسمه ، وجحظت عيناه ،
وتسمّر فى مكانه على دعر لا سبيل الى مغالته •

- آمل أنك لن تطردنى ؟

وتابع ايفان ايلتش يقول وهو يشعر بازدياد اضطرابه :

- ان كرم الضيافة يوجب عليك أن تحتفظ بى ، سواءً أسرك
ذلك أم ساءك •

لم يستطع الموظف الصغير أن يخرج من ذهوله وخدره وظل
يتأمل رئيسه بهيئة غيبة كل النباء ، بلهاء كل البلاهة •

خطر ببال ايفان ايلتش ، فى لحظة من اللحظات أن يتسهم ، ولكنه
لم يستطع ذلك ، ولاحظ عندئذ أن الحرج يزداد شيئاً بعد شيء • ان
الحلم الجميل الذى بناه حين كان واقفاً على الرصيف أمام المنزل يتبدد
الآن ويتبدد حاملاً معه الحكاية الفكاهية التى كان عليها أن تكسر الجليد
وتلطف الجو •

وهذا تيار كهربائى يجتاز فوراً جسم الجنرال الذى توقع ، وهو
منقبض الصدر ، أن يتحقق حتماً شيء غير متظر ، شيء سخيف جداً
لا يجرؤ حتى أن يتصوره •

ومع ذلك قام الجنرال بجهد يائس مستميت • وددمم يقول :
- لعلنى أزعجك ... أنا ذاهب •

واختلق صوته فى حلقه ، وارتعشت شفته السفلى فى تشنيج •
فلما تاب بسلدونيسوف الى نفسه أخيراً ، انحنى نصين ، مرةً أولى
فثانية ، فثالثة ، ولجلج يقول :

- صا ... صاحب السعادة ... أرجوك ... من فضلك ...
تكرّم ... شرفنا ...

واثبتت فى نفسه على حين فجأة بطولة ما كان لأحد أن يتصورها
فيه ، فهرع نحو الكنبه التى كانت قد أبعدت عن المائدة من أجل الرقص ،
وهى التى تلاصقها فى العادة •

قال المرووس المسكين مجمجماً :

• تفضل فاجلس •

فهدأت نفس ايفان ايلتش قليلاً ، وتهالك على المقعد المتداعي •

وينظرة ألقاها على القاعة أدرك أنه وحده الجالس • أما سائر
الحفل ، وحتى السيدات ، فقد لبثوا واقفين • تطير ايفان ايلتش من
هذه الواقعة ، وقدّر أنها تنذر بشر ، ولكنه لم يحاول شيئاً لتغيير هذه
الحال ، لاعتقاده بأن ساعة التسامح لم يحن حينها بعد •

وظل المدعون يتراجسون ، وكان بسلدونيموف يشغل وسط
الغرفة وعلى وجهه ابتسامة عقوق •

وكان الجنرال الشقى يتساءل : « رباه ! كيف السبيل الى الخروج
من هذه الورطة ؟ » • • • • •

والحق أن الانزعاج الذي كان يقاسى منه فى تلك اللحظة قد بلغ
من الشدة أن غزوته التى تشبه غزوات هارون الرشيد ، والتى قررها
وعزم أمره عليها فى سبيل مبدأ ، كان يمكن بسهولة أن تكون فى عداد
أعمال التاريخ البطولية •

ولم يكن الخلاص مع ذلك بعيداً بعداً كبيراً •

فمنذ ذلك الحين كان هناك رجل قصير قد وقف قرب بسلدونيموف
وهو يحيى تحيات كبيرة • • • • • فما كان أعظم سرور ايفان ايلتش بل
وما كان أشد فرحه حين عرف فى هذا الرجل واحداً من رؤساء المكاتب
فى دائرته : انه أكيم بتروفتش زوبيكوف الذى كان يعرف الجنرال أنه
رجل كبير القيمة شديد الطاعة كثير الصمت •

فسرعان ما نهض الجنرال مبتسماً فمد الى أكيم بتروفتش لا أصبعين

من أصابع يده فحسب ، بل مدَّ اليه يده كلها • فشد آكيم على يد
رئيسه بيديه المروقتين كليهما • وكان وجهه المحلوق حلقة ناعمة يبرر
عن أعمق الاحترام • لقد اتقد كل شيء •

لقد انتصر الجنرال • وها هو ذا يتنفس الآن بحرية • ان ظهور
آكيم الذى أرسلته العناية الالهية يحمل الخلاص والنجاة : ان وجود
رئيس المكتب الصغير هذا يمكن أن يكون كافياً كفاية تامة من حيث هو
جمهور. يستمع الى القصة الفكاهية • أما بسلدونيموف الذى أصبح منذ
الآن فى المنزلة الثانية أو الثالثة ففى وسعه أن يحافظ على وضعه الفبى
كل القاء الأبله كل البلاءة • حتى ان هذا الوضع يمكن أن يُعد نوعاً
من التعظيم والتبجيل • ولكن القصة أمر لا بد منه ولا غنى عنه مدخلاً
الى الموضوع : لقد كان ايفان ايلتش يرى ذلك فى حب الاستطلاع الذى
كان يظهره جمهور المستمعين الذى تضخم بانضمام عدد غفير اليه يتألف
من الخادmates وغير الخادmates من أهل الدار ، الذين احتشدوا على الأبواب
ينتظرون شيئاً ما •

ان العقبة الوحيدة التى تحول دون حسن سير الأمور انما هى
الآن هذا الوضع المسرف فى الخضوع الذى يصطنعه الموظف المعجوز اذ
يصر على أن يبقى واقفاً •

قال له ايفان ايلتش وهو يشير الى مكان قربه :

— هيا اجلس ، ماذا تنتظر ؟

— عفوك • أنا هنا بخير •••

ولم يلبث آكيم بتروفتش أن أسرع يجلس على كرمى مد • اليه
بسلدونيموف •

بدأ ايفان بتروفتش يقول وهو يخاطب آكيم بتروفتش وحده :

- اسمع هذه القصة الحارقة التي وقعت لى منذ قليل !

كان صوته ما يزال يرتجف رغم أنه قد هدأ بعض الهدوء واطمأن
بعض الاطمئنان .

انه يطمأ ألفاظه ، ويفصل بعضها عن بعض ، ويؤكد المقاطع ،
ويلفظ الألف مائلة . كان الجنرال ، على شعوره بأنه يمثل تمثيلاً ،
لا يفلح فى الوصول الى السيطرة على نفسه . . . ان قوة خارجية كانت
تحول بينه وبين ذلك ، وتجعله يتألم ألماً لا نهاية له . قال :

- تصور أنتى آت من عند ستيفان نيكيفوروفتش الذى لا شك أنك
سمعت عنه . . . انه مستشار الدولة المعروف . . .

اتحنى آكيم بتروفتش باحترام عظيم ، متشياً نصفين ، كأنه يريد
أن يقول : « هل يمكن لأحد أن لا يعرفه » .

وتابع ايفان ايلتش كلامه مخاطباً بسلدونيموف من باب الكياسة
قائلاً :

- هو الآن جارك !

ولكنه سرعان ما رأى فى عينى مرموسه أن هذا الخبر لم يثر فى
نفسه شيئاً ، بل تركه بارداً كل البرود ، فاتجه الجنرال الى رئيس
المكتب من جديد قائلاً له :

- لقد ظل العجوز طوال حياته ، كما تعلم ، يحلم فى أن يكون له
منزل يملكه . وها هو ذا قد اشترى المنزل . وهو فى الحق منزل جميل
جداً ! وقد اتفق أيضاً أن جاء موعد هذا فى يوم عيد ميلاده الذى كان

قد حرص قبل ذلك زمناً طويلاً على أن يخفيه ، ربما عن بخل منه ...
 هيء هيء هيء ... ولكنه الآن قد بلغ من فرط سعادته بأن يرى نفسه
 مالكاً . انه دعانا الى منزله أنا وسيمن ايفانوفتش ... أغلب الظن أنك
 تعرف شيولنكو .

عاد آكيم بتروفتش ينحني بحماسة محدودة من شأنها أن تصر
 ايفان ايلتش وأن تبهج قلبه . وكان ايفان ايلتش قد أحس من قبل أن
 مرموسه يريد أن يصطنع مظهر خطورة الشأن وعلو المنزلة باعتبار نفسه
 معيناً لصاحب السعادة لا غنى له عنه !

وأردف الجنرال يقول :

- وقد سقانا شمبانيا وتحدثنا كثيراً ... في شئون الأعمال طبعاً
 ... حتى لقد تناقشنا بعض الشيء ... هيء هيء هيء .

رفع آكيم بتروفتش حاجيه باحترام وتابع الجنرال كلامه فقال :

- لكن الأمر ليس هنا . لقد استأذنت بالانصراف ، فأنت لا تجهل
 طبعاً أن العجوز يأوى الى فراشه في ساعة مبكرة .. ان للسنة أحكامها
 وضروراتها كما تعلم ... وخرجت ... فاذا بي لا أرى صاحبي تريفون
 في انتظاري . وسألت عنه ، وقلقت متسائلاً عن عربتي : « أين
 ذهبت ؟ » فعلمت أسباب غياب تريفون . لقد ذهب هذا الجوزي الى حفلة
 زفاف أخت له أو قريبة ، لسبت أدري ... وكان يحسب في أغلب
 الظن أنني سأمكث عند صاحبي مدة أطول ... الخلاصة ... لقد ذهب
 به الشيطان ، به وبالعربة على السواء ! ...

هتف آكيم بتروفتش الذي كان يبدو عايه الهول والروع مما
 أباحه الجوزي لنفسه من حرية ، هتف يقول :

— رباه !

وسرت في الجمهور هممة دهشة • ونظر الجنرال مرة أخرى الى
بسلدونيموف ، فرأى وجهه جامداً لا يعبر عن معنى ، حتى لكأنه
لا يكثر أى اكتراث لقصة المصائب التي نزلت برئيسه • حدثت
الجنرال نفسه قائلاً : « لا شك أنه امرؤ لا قلب له ولا شفقة فيه » •

عاد الجنرال ينظر الى الضيوف ويخاطبهم قائلاً :

— فانظروا الى الطرف الذي صرت اليه ! لم يبق لى فى الأمر
حيلة • أصبح لا بد لى من الانصراف سيراً على القدمين • خطر ببالي أن
أمضى ماشياً حتى « الشارع الكبير » عسى أن أجد هنالك عربية من العربات
الحقيرة تقلنى الى منزلى هى • هى • هى •

— هى • هى • هى •

كذلك فعل آكيم بتروفتش. يرافقه فى قهقهته باحترام وتبجيل •
وهزّت الجمهور هممة جديدة ، ولكنها فى هذه المرة أقرب
الى الفرح وأدنى الى المرح •

وفى تلك اللحظة فرقت زجاجة أحد المصابيح ، فسرعان ما هرع
أحدهم يعيد ترتيب الأمور • وأفاق بسلدونيموف فجأة من خدره ،
فنظر الى المصباح مروّعاً ، ولكن الجنرال لم يلاحظ شيئاً ، وعاد كل شىء
الى الهدوء •

استأنف الجنرال حكايته فقال :

— مشيت فى الليل • والسرى فى الليل جميل كما تعلمون • فاذا
أنا أسمع فى هدأته أصوات موسيقى ، فسألت شرطياً فقال لى : « انه
بسلدونيموف يتزوج » •

توقف الجنرال عن الكلام ، ثم اتجه يخاطب في هذه المرة
بسلدونيموف قائلاً :

- هيه يا أخ ! انك تقيم احتفالات تُسمع أصواتها في بطرسبورجسكيا
ستورونا كلها • ها ! ها ! ها ! •

وقهقه آكيم بتروفتش بعده •••

- هـى هـى هـى •

فكان من شأن ضجة هذه الضحكات أن أيقظت الضيوف ، فأطلقوا
من حناجرهم أصواتاً مهذبة تنم عن الاحترام • ومع ذلك فان بطل
الحفلة ، بسلدونيموف المسكين ، الذى كان ينحى فى كل لحظة ، لم
يفلح فى أن يتبسم ابتسامة واحدة • « أهو اذن من خشب ؟ » •

حدث ايفان ايلتش نفسه قائلاً : « ألا انه لأبله معتوه ! ان الحمار
نفسه كان يمكن أن يضحك لو سمع قصة كهذه القصة ! آه ! ألا ليت
يريد فحسب ، اذن لجرى كل شىء سناً وعسلاً ! » •

ونفذ صبر الجنرال ، وضاق صدره ، وتابع كلامه يقول :

- قلت لنفسى : « فلأدخل الى مرموسى • آمل ألا يطردنى !
ليكوننَّ مضطراً الى استقبال الضيف سواء أسره ذلك أم ساءه ! » •
معذرة يا أخ • قل لى : هل أزعجك فى شىء من الأشياء ؟ لأنصرفنَّ
فوراً اذا كنت أزعجك ••• فانما أنا جئت لا لشىء غير أن أرى ما يجرى
عندكم !•••

لقد اتجه الجنرال بذلك السؤال الى بسلدونيموف ، فلما لم يجب
هذا بشىء انبرى آكيم بتروفتش الذى كان يتأمل الجنرال بركة عظيمة
ولطف كبير فقال :

— كيف يمكن أن يخطر ببال صاحب السعادة أنه يزعبنا !... •••

وتحرك الضيوف فظهرت عليهم أولى علامات الارتياح و « زوال الكلفة » وجلست جميع السيدات تقريباً • هذه اشارة طيبة وبشرى ممتازة • حتى أن الجريئات منهن أخرجن مناديلهن وأخذن يهوين بها وجوههن • وهذه احداهن ترتدى ثوبا من مخمل مهترى • بعض الشيء ، تسمح لنفسها فوق ذلك أن تقول بعض الكلام بصوت مسموع • وقد أراد الضابط الذى خاطبته أن يجيها بصوت أعلى من صوتها أيضاً ، ولكنهما أدركا من الصمت الشامل الذى أستقبل به حديثهما أنهما وحدهما يتكلمان ، فسرعان ما لاذا بالصمت •

وكان الرجال ، وهم عدد من صغار الموظفين ومن الطلاب ، يتبادلون النظرات اختلاسا ، ويلكز بعضهم بعضاً بكوعه ، ويتحركون هنا وهناك فى كل اتجاه •

حتى اذا انقضى الخوف وذهبت الحشية أخذ الضيوف ينظرون الى الدخيل بشيء من عداوة ، وحاول الضابط الذى أدرك الآن ما أظهره من نقص الشجاعة منذ قليل ، أن يصلح الأمر ، فأخذ يقترب شيئاً فشيئاً من المائدة التى تعاور الكنبه •

قال ايفان ايلتش مخاطباً بسلدويموف :

— هل لى أيها الأخ أن أسألك عن اسمك واسم أبيك ؟

فما أسرع ما انتصب بسلدويموف واقفاً وقال فيما يشبه العواء :

— بورفير بتروفتش ، يا صاحب السعادة !

— هلاً قدمتنى الى عرومك الشابة يا بورفير بتروفتش ! قدنى

اليها •••

وهمَّ الجنرال بالوقوف • ولكن بسلدونيموف كان قد أخذ يجرى
في الصالون جرياً سريعاً •

ان العروس الشاببة التي ظلت طوال مدة المناقشة واقفة قرب الكنبه ،
أسرعت تخفي منذ أدركت أن الحديث قد دار الآن عليها ، ولكن
احتياطها هذا لم يُجدها نفعاً فما هي الا دقيقة واحدة ، حتى كان
بسلدونيموف عائداً نحو الجنرال يجبر اليه عروسه من يدها • تنحي
الجمهور ليفسح لهما مجال المرور ، ونهض ايفان ايلتش عن مقعده محتفلاً
أشد الاحتفال ، ورسم على شفتيه ابتسامة لطيفة ودوداً ، وقال وهو يحييها
تحية مؤدبة :

— اننى ليسعدنى أكبر السعادة أن تباح لى معرفتك ••• ولا سيما
في يوم كهذا اليوم •••

قال ذلك وانمطت شفته بحركة صغيرة مأكرة تبعث على التفكير ••
فرفعت السيدات رؤوسهن مزدهيات فى لطف وظرف •
وقالت السيدة التي ترتدى ثوباً من مخمل :

— رائع •

ان العروس الشاببة تستحق بسلدونيموف • هي فتاة فى نحو
السابعة عشرة من عمرها ، قصيرة القامة ، هزيلة الجسم ، لها وجه نحيل
شاحب يزينه أنف مستدق • كانت عيناها الصغيرتان المتحركتان تحدقان
الى الجنرال بلا تحرج ، بل وتتفرسان فيه بشئ من خبت وشر •

كان عنقها النحيل الذى يخرج من ثوب من قماش المسلمين
الأبيض المبطن ببطانة وردية اللون ، وكان كتفاها المستدقان وذراعاها

الهزيلان المعروقان ، كان ذلك كله يجعلها أشبه بدجاجة متوفة
الريش •

لم تعرف الفتاة بماذا ترد على ملاطقة الجنرال •

وأردف الجنرال يقول للعريس السعيد :

- انها لطيفة غاية اللطف ظريفة منتهى الظرف !

وكان الجنرال يتكلم بصوت عال بغية أن تسمع المرأة الشابة كلامه
لم يجب بسلدونيموف بل انه فى هذه المرة لم يردّ حتى بتحية !
أكثر من ذلك : لقد لاحظ السيد برالنسكى فى عيني بسلدونيموف
شيئاً من محاولة الاخفاء وشعور البرودة وعاطفة العداوة • ومع ذلك كان
لا بد له أن يفلح فى ايقاظ الثقة مهما كلف الأمر • ألم تكن هذه هى
الغاية الوحيدة التى جاء من أجلها الى هذا المكان ؟

وقال الجنرال يحدث نفسه : « يا لهما من زوجين ! نهايته !... »

عاد السيد برالنسكى يكلم العروس الشابة التى جلست قربه على
الكنبة • ولكن أجوبتها اقتصرت على كلمتى « نعم » و « لا » ترددهما
بمناسبة وبغير مناسبة خاطبةً خبطةً عشواء •

قال الجنرال لنفسه مشط الهمة خائب الأمل : « لو أظهرت شيئاً من
الحجل والاضطراب على الأقل ، اذن لحاولت أن أمازحها وأن أضحكها ،
أما الآن فانتنى فى وضع حرج وفى مأزق لا مخرج منه » •

والحق أن وضع الجنرال كان حرجاً • ذلك أن آكيم بتروفش
كان قد صمت فهو لا ينبس بكلمة ، فكان صمته هذا زيادة فى البلاء
ولئن لم يقصد هذا الصمت عامداً فان ذلك لا يطفف ذنبه •

فلما أصبح الجنرال فى ذروة الحسرة واللوعة على هذا النحو ولما أصبح لا يدرى ماذا يفعل ولا ماذا يقول اتجه الى الحفل كله يسأله :
- أيها السادة ! أصبح أتنى لا أزعجكم البتة ؟

وخيل اليه فى هذه اللحظة أن راحتي يده قد تبللت عرقاً .
أجاب الضابط يقول :

- أبدأ ، يا صاحب السعادة ، أبدأ ! لا تقلق البتة ! فانما نحن
ستريح قليلاً بانتظار أن نستأنف ما كنا فيه .

وسرت فى الحفل دمدمة استحسان تؤيد أقوال الضابط الذى كانت
العروس تتأمله بلذة وسعادة *** انه ما يزال فى ريعان الشباب مرتدياً
بزته العسكرية .

تنفس الجنرال ، ونظر الى بسلدونيموف الذى كان ما يزال على
مقربة منه وقد استطلال أنفه مزيداً من الاستطالة . انه واقف وقوف
الحادم الذى يحمل يده . فراء الزائر منتظراً انتهاء حديث الوداع ليساعده
فى ارتدائه .

ان هذا التشبيه قد فرض نفسه على ايفان ايلتش نفسه الذى أصبح
يرى أنه ضاع ضياعاً تاماً وأصبح لا يستطيع التحرر من الأحاسيس بحرج
ثقيل يجثم على صدره . كان يشعر أن الأرض تنسحب من تحت قدميه ،
وأنه يفوص بأساً فى ذلك المستقع الذى رمى نفسه فيه دون تبصر
بالمواقب ، وأنه وقد أحاطت به الظلمات من كل صوب ، لن يستطيع أن
يخرج من هذا المأزق قط !

لم يلاحظ الجنرال وهو غارق فى هذا العناد الأخرس والغت
الثقيل أن الضيوف يتنحون الآن فاسحين المجال لمرور امرأة قصيرة

بدينة مستنة ، هي امرأة يدل مظهرها على شيء من العناية بهندامها رغم بساطة ملابسها ... انها تعقد على عنقها منديلاً من حرير ، وتلف شعرها الأثيب بخمار من تخرير جميل كان واضحاً أنها لم تألف أن تزين رأسها به . وهي تحمل يديها خوانا مستديرا عليه زجاجة شمبابيا تشبه أن تكون مثلثة ، والى جانب الزجاجة قدحان .

أقول قدحين لأن النيذ كان مقصوراً على المرموقين من الضيوف .
اقتربت السيدة من الجنرال ، وقالت له وهي تنحني انحنا شديداً :
- لا تكن مسرفاً في التشدد يا صاحب السعادة ! لقد شئت شهادتك أن تشرف ابني بحضور عرسه ففضل على العروسين بأن تشرب نخب صحتهما .

هذا لوح نجاة حقاً ! فما أسرع ما تشبث به ايفان ايلتش مستميتاً .
ليست السيدة طاعنة في السن كثيراً ، هي في الخامسة والأربعين من عمرها أو هي في السادسة والأربعين على أكثر تقدير ، وان لها وجهاً فيه كثير من العلية والصراحة . هو وجه مستدير ، وجه روسي . انها تبسم ابتسامة تزخر بصفاء السريرة ونبل القلب ، وقد ألقت تحيتها على نحو بلغ من البساطة أن ايفان ايلتش قد ارتدت اليه طمأنينته وعاد اليه أمله وأخذ يشعر بالراحة من جديد .

تمتم يقول وهو ينهض :

- لا شك ... لا شك ... أنك ... أم ... ابنك .. أليس

كذلك ؟

تمتم بسلدونيموف يقول وهو يمسك رقبتة التي لا نهاية لطولها :

- نعم يا صاحب السعادة .

قال الجنرال :

- آه ... سعيد جداً بمعرفتك يا سيدتى ...

- هلمَّ يا صاحب السعادة ! تفضل فشرّفنا بشرب كأس !

- بسرور عظيم •

وُضع الخوان على مائدة جئ بها الى أمام الكنبه ، وهرع
بسلدونيموف متواكباً يصب النبيذ • تناول ايفان ايلتش كأساً وهو مايزال
واقفاً ، وتهاً لالقاء خطاب قصير •

- أنا سعيد جداً ، سعيد سعادة عظمى ... يسعدنى كثيراً ... أن
أبرهن هنا ... أقصد ... لما كنت ... بوصفى رئيساً ... أتمنى لك
يا سيدتى (هنا اتجه الجنرال بالكلام الى السروس) ولك يا صديقى
بورفير (وهنا مال برأسه نحو الزوج) أتمنى لكما حياة مديدة سعيدة
... مديدة ...

قال السيد برالنسكى ذلك وأفرغ في جوفه كأس الخمر ، جيّاش
ال عاطفة ، وكانت هى الكأس السابعة فى خلال تلك السهرة • وقد بثّ
الخمر شيئاً من مرح فى مزاجه المكتئب • ولكن الجنرال ما ان رأى وجه
بسلدونيموف الكالح مرة أخرى حتى تهدمت حالته النفسية وشعر
بسيل دافق من الكره لهذا المخلوق الشاحب الوجه البائس الطبع •

وألقى الجنرال نظرة على الضابط فقال يحدث نفسه : • وذلك
المتفكك المتخلع الذى يبقى هنالك ، أليس فى وسعه أن يصيح مرحاً ،
فاذا بكل شيء يعجرى على ما يرام ؟ •

واتجهت الأم العجوز فى هذه المرة الى رئيس المكتب فقالت له :
- وأنت أيضاً يا أكيمة بتروفتش هلاً تفضلت فتناولت كأساً ؟ أمت

الرئيس وابنى المرموس ، فلتكلاؤه برعايتك دائماً ••• ان أمأ هي التي تسألك ذلك ، لا تسنا في المستقبل يا عزيزى الطيب آكيم بتروفتش ، أيها الانسان الحساس الكريم •

قال ايفان ايلتش بينه وبين نفسه : « ما أحسن هؤلاء النساء الروسيات ! لقد بثت هذه المرأة روحاً ونشاطاً في الحفل كله ! لعللا أُحييت الشعب ! ••• » •

بهذه الكلمات ختم ايفان ايلتش قوله وقد فاضت نفسه حنانا • وفى تلك اللحظة جرى الى المائدة بخوان جديد •

جاءت به بنية صغيرة ترتدى تنورة فضفاضة مشدودة بأسلاك ، مصنوعة من قماش الكريتون ، لم تُغسل بعد ، فلها حين سير البنية حقيف مسموع • كانت البنية الخادمة تجدد غير قليل من العناية فى الامساك بالخوان • هو بخوان كبير ثقيل يحمل عدداً لا نهاية له من أطباق صغيرة مملوءة تفاحاً وعصائد ومرببات وجوزاً وما الى ذلك • كانت هذه الخلاوى الموقوفة على السيدات ، قد أُبقيت حتى ذلك الحين فى الصالون الصغير ، فكان وصول الجنرال عندئذ هو السبب فى نقلها من هناك •

- لا تزدري خلاوانا الوضيعة يا صاحب السعادة ! فالمرء ، كما يقال ، لا يقدر الا ما يقدر عليه !

وكانت السيدة المعجوز لا تكف عن الانحاء وهى تدعوه الى أن ينوق حلواها بتلك الطريقة المهذبة الرقيقة •

- كيف لا ؟ يسرنى جداً يا سيدتى •••

كذلك أجاب ايفان ايلتش وهو يتناول جوزة ثم يحاول أن يكسرها بين أصابعه آملاً أن تجلب له هذه البادرة البسيطة مودة الناس وأن تحضهم على حبه •

وفجأة أطلقت العروس ضحكة صغيرة •

— ماذا حدث ؟

كذلك سأل ايفان ايلتش مبتسماً وقد أفرحته هذه الظاهرة التي تدل على أن الحياة قد عادت تدب في الحفل •
أجابت الفتاة وهي تخفض رأسها :

— ان ايفان كاستيكيتش* هو الذى يضحكنى •

والواقع أن الجنرال قد لاحظ منذ هنيهة شاباً باهت الشقرة غير دميم الوجه كان مختفياً وراء الكنبه يهمس في أذن العروس بكلام ما •
ساد صمت ونهض الفتى خجلان وجلاً ، ودمدم يقول معتذراً :

— كنت أكلهما عن « مفتاح الأحلام » * •

فسأله ايفان ايلتش متلطفاً متواضعاً :

— أى مفتاح للأحلام تعنى ؟

— هو كتاب ظهر منذ قليل يا صاحب السعادة عنوانه : « مفتاح الأحلام » ، ولقد كنت أقول للسيدة ان رؤية السيد باناييف* فى المنام معناه أن قهوة ستندلق فى جيب ردائه •

فما لبث ايفان ايلتش أن عبس وجهه من جديد وقال لنفسه مستغرباً : « هذه منذاجة » •

أما الشاب فقد كان يبدو رغم احمرار وجهه سعيداً الى أقصى حدود السعادة من أنه استطاع أن يقول ذلك الكلام عن السيد باناييف •
قال صاحب السعادة وهو يخفى اعتكار مزاجه :

- نعم نعم ! فهمت !... ..

وقال صوت قريب جداً من الجنرال :

- لا بل هنالك ما هو خير من ذلك . يُطبع الآن معجم جديد سيسهم في تأليفه السيد كرايفسكى * بمقالات عن أفراكي وآخرين ...
نطق بهذه العبارة الأخيرة شارب لم يكن غير متحرج فحسب بل كان كذلك منطلقاً على سجيته في سر وسهولة . انه يلبس رداءاً رسمياً وصدره بيضاء ويمسك قبعة بيد ذات قفاز . وكان الشاب لا يرقص ، وكان ينظر الى الناس من عل ، لأنه يزعم أنه محرر في الجريدة الهجائية «جولوفشكا» * .

انه هو أيضاً ضيف مرموق دُعى الى الحفلة بصفته صديقاً قديماً من أصدقاء بسلدونيموف قضى معه أياماً حالكة في « غرف مؤتة » تديرها سيدة ألمانية .

ولكن لئن كان زاهداً بالرقص ، لقد كان لا يكره أن يشرب . فهو من أجل ذلك يغيب من حين الى حين في غرفة مجاورة وضعت فيها الفودكا شرباً للرجال ، وهي غرفة كان الرجال جميعاً يصفون الطريق اليها ولا يضلون .

لم يستلطف الجنرال صاحبنا الشاب هذا .

وتدخل الفتى الباهت الشقرة الذي تكلم منذ قليل عن الأحلام والذي ألقى عليه الصحفي بسبب ذلك نظرة مبغضة كارهة فقال من جديد :

- وأغرب ما في الأمر أن السيد كرايفسكى يجهل قواعد الاملاء وأن

ولكن المسكين لم يتم عبارته ، لأنه أدرك أن الجنرال كان يعلم هذا

كله منذ زمن طويل • رأى ذلك فى نظرة الجنرال الذى احمر وجهه
غضباً لأنه تصور أنه يعد امرأ جاهلاً تُروى له أمور يعلمها الناس كافة •
اضطرب القتي أشد الاضطراب ، وخجل أشد الخجل ، وأسرع
يختفى ، ثم لم تبسط غضون جبينه ولم تهلل أسارير وجهه لحظة بعد
ذلك طوال السهرة •

ولا كذلك محرر جريدة « جوروفشكا » فانه قد ازداد اقتراباً من
الجنرال وهمّ غير مرة أن يجلس الى جانب صاحب السعادة الذى كان
واضحاً أن عدم التخرج هذا يسوءه ويزعجه •
ومن أجل أن يخفى الجنرال استياءه عزم أمره على أن يقول
شيئاً ما :

- قل لى يابورفير : لماذا تسمى «سلدونيموف» لا «سودونيموف»؟
لعلنا أردت أن أسألك عن هذا الأمر •
تمتم المسكين يقول :

- لا يمكنى أن أجيب اجابة صحيحة دقيقة يا صاحب السعادة •
ورأى آكيم بتروفتش أن من الخير أن يتدخل فقال شارحاً :
- لا شك أن هذا خطأ ارتكب يوم سجل أبوه نفسه للخدمة
العسكرية ، فاذا بصاحبنا بورفير بتروفتش ، يضطر الى تحمل نتائج ذلك
الى الآن • ذلك يحدث أحياناً يا صاحب السعادة ! •••
هتف الجنرال يقول بحرازة :

- جائز جائز • ان اسم «بسودونيموف» مشتق من الكلمة الأدبية «بسودونيم» ، أما اسم « بسلدونيموف » فليس له معنى البتة •

همس آكيم بتروفتش يقول :

- هذا سييه الغباء •

- أى غباء تعنى ؟

- غباء الشعب الروسى يا صاحب السعادة ! ان الغباء جعل هذا الشعب يبدل بعض الأحرف وينطق الألفاظ خطأً ، فالروس يقولون مثلاً : « نيفاليد » بدلاً من « أنفاليد » ...

- آه ... نعم ... صحيح جداً ... نعم ... نيفاليد ...
هى..هى..هى! ...

ودوَّى صوت الضابط الطويل فجأة يقول بعد أن لبث مدة طويلة
يتربص فرصة الظهور والتحيز :

- ويقولون أيضاً « مرة » •

- « مرة » ؟

- بدلاً من « مرة » numéro يا صاحب السعادة !

- آه ... نعم ... هم يقولون « مرة » !... بدلاً من «مرة»
... آه ! نعم ... هى..هى..هى! ...

هكذا اضطر ايفان ايلتش أن يضحك مجاراة للضابط ، فسرَّ
الضابط بذلك سروراً كبيراً ، ورفع يده الى رباط عنقه يعدل عقده •

وتدخل محرر جريدة « جوروفشكا » فقال :

- ويقولون أيضاً •••

ولكن صاحب السعادة تظاهر بأنه لا يسمع ، لأنه كان لا يستطيع حقاً أن يضحك مجاراة لهذا الضيف !

وألح المحرر على اتمام جملته نافذ الصبر فأضاف •••

- يقولون malgré بدلاً من malgré

فرشقه ايفان ايلتش بنظرة قاسية •

وهمس بسلدونيموف يقول له :

- أما كفالك ازعاجاً له ؟

فقال المحرر غاضباً :

- ماذا ؟ أأصبح المرء لا يستطيع أن يتكلم ؟ •••

وصمت وقطّب حاجبيه ومضى بخطى ثابتة يدخل الغرفة الصغيرة التي وُضعت فيها منذ بداية الحفلة لاستعمال الراقصين مائدة مفروشة بنطاء مزودة بنوعين من الفودكا وبأسماك الرنجة وبالكافيار وبنبيذ وطني •

صب الصحفى لنفسه كأساً من النبيذ وقد امتلأ قلبه حقناً وغيظاً • وفيما هو يفرغ الكأس اذا بطالب طبع يظهر على حين فجأة مشعث الشعر • انه أحسن راقص فى حفلة بسلدونيموف • أسرع الطالب يتناول ابريق الفودكا كأن ظمأ شديداً يحرق جوفه حرقاً •

وهتف يقول مسرعاً : « سنبدأ الرقص ••• تعال انظر ••• سأرقص منفرداً ••• رافعاً ساقى فى الهواء !•••

وما ان شرب الكأس التى صبها حتى سكب كأساً أخرى •

- انها رائعة كليوباترا سيمينوفنا هذه ! فى وسع المرء أن يجازف
معهما بكل شئ!... ..

- انه رجعى *

كذلك أجاب الصحفى متجهماً الوجه كالحى الهيئة بعد أن بلغ قدح
الفودكا *

- من الرجعى الذى تغنيه ؟

- هو ذلك الشخص الذى وضعوا أمامه العصائد والجوز ! انه
رجعى ... أنا أقول لك ذلك *

وفى تلك اللحظة سمع الطالب اشارة بده الرقص ، فأسرع يخرج
من الغرفة الصغيرة قائلاً للصحفى :

- - هيا بنا ! هيا بنا !... ..

لبث الصحفى وحده فصب لنفسه قدحاً آخر من الفودكا * لقد
قرر أن يستحث كل ما يملك من شجاعة ، وأن يوقظ فى نفسه كل
ما فيها من مشاعر الاستقلال * شرب الفودكا ، وازدرد بضع شرائع من
الرتبة ، فلو أبصره مستشار الدولة ايفان ايلتش برالنسكى عندئذ لراى
أمامه عدواً لدوداً رهيباً يختفى الآن فى لباس شخصية محرر جريدة
« جوروفشكا » *

وا أسفاه ! لم يخطر ببال المسكين ايفان ايلتش شئ البتة ! لا ولا
دار فى خلد له لحظة أن حادثاً ضخماً آخر سيؤثر فى العلاقات المتبادلة
بينه وبين ضيوف السيد بسلدويموف بعد هنيهة !

ان الشروح التى قدمها ايفان ايلتش فى ايضاح الأسباب التى
جعلته يحضر عرس مرحوسه لم تقنع أحداً رغم أنها محتملة ، فظل

المدعوون جميعاً يشعرون بنوع من الحرج والتهيب الى أن تغير كل شيء على حين فجأة بما يشبه السحر • هي عبارة بسيطة أطلقها شخص لا أدري من هو ، لم تلبث أن هدأت جميع الشكوك بفتة ، فاذا بجميع الحاضرين يعودون الى ما كانوا فيه من ضحكات صاخبة وصيحات عالية وتلويحات شديدة ، حتى لكأن الزائر الذي فاجأهم وصوله لا وجود له الآن بينهم !

وكان سبب هذا التبدل المبالغ أن أحد الناس همس يقول في لحظة من اللحظات : « الرجل سكران » • ولئن بدا هذا القول في أول الأمر افتشاشاً رهيباً وتجنباً كبيراً فقد لاح مع ذلك مقولاً وجائزاً •

اتضح اذن كل شيء ! وهذا هو الحفل يتحرر فوراً من كل ضغط وهذا هو الرقص الذي رأينا الطالب يهرع للاضطراب فيه يستأنف بحماسة كبيرة وحرارة عظيمة •

وفي تلك اللحظة كان ايفان ايلتش يتجه الى العروس الشابة يهمس في أذنها قصيدة غنائية جميلة •

ولكنه لم يستطع أن يتم تلاوة قصيدته لأن الضابط الطويل لم يلبث أن تقدم نحوها بخطى ثابتة وجثا على ركبتة أمامها يدعوها للرقص في كثير من الأبهة والجلال ، فما لبثت أن هبت واقفة ، وطارت الى صفوف الراقصين • لم يقدم الضابط أى اعتذار ، ولم تتنازل العروس حتى أن تنظر الى الجنرال ، حتى لقد بدا عليها أنها سعيدة كل السعادة بتخلصها من مزعج يعكر صفوها • يا للهول ! ذهل الجنرال الطيب الشهم في أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن تاب الى نفسه محاولاً أن يتنحل للمرأة الشابة عذراً •

قال لنفسه : « هي معذورة ! إن هؤلاء الناس المساكين لا يعرفون شيئاً من قوانين الكياسة وسنن اللباقة » .

ثم اتجه الى بسلدونيموف فقال له :

— وأنت أيها الأخ بورفير ، إذا كان هنالك أوامر يجب عليك أن تصبرها فلا تتحرج وامض الى شأنك .

ثم قال بينه وبين نفسه : « لكأن هذا الخيث الماكر يراقبني حقاً » .

يجب أن نقول أن منظر هذا العنق المفرط في الطول وهاتين العينين اللتين ما تنفكان تحديقان اليه وتفرسان فيه قد أصبح أمراً لا يطيقه الجنرال ولا يحتمله . ولكن الجنرال ، رغم أن جميع الأشياء قد جرت على غير ما تمنى أن يراها ، كان ما يزال يصبر اصراراً عنيداً على أن يرفض الاعتراف لنفسه بذلك .

وبدأ الرقص .

قال أكيم بتروفتش وهو يمسك الزجاجاة بيده ويتهيأ للماء كأس الجنرال باحترام :

— هل تسمح يا صاحب السعادة ؟

— لا أدري ... حقاً لا أدري ! ...

ولكن أكيم بتروفتش ، وقد أشرق وجهه بتعظيم لا حدود له ، كان قد سكب الخمرة . وبعد أن ملأ كأس صاحب السعادة ، هدأت نفسه ، وانسبطت أسايريه ، وملأ كأساً أخرى لنفسه خلصة كما يفعل لص من اللصوص ، ولكنه لم يملأ كأسه حتى حافتها ، وأغلب الظن أنه

تعتمد ذلك اظهاراً لشعوره بأنه أقل من الجنرال شأنًا وأدنى منزلة •
 وها هو العجوز المسكين يجلس الآن قرب رئيسه جلسة امرأة في
 المخاض •

كان يسأل نفسه قلقاً : « عمَّ يجب أن أحدثه ؟ فيم ينبغي أن
 أكلمه ؟ » •

كان لا بد له أن يسلي صاحب السعادة ، وأن يسرّي عنه مهما
 كلف الأمر ، ما دام صاحب السعادة قد شرفه بقبوله جليساً له ، فكانت
 الشمبانيا اذن هي المخرج من ذلك الموقف الذي كان يبدو أنه لا مخرج
 منه • وبدأ صاحب السعادة مرتاحاً راضياً ، لا من الشمبانيا طبعاً ، لأنها
 كانت فاترة ، وكانت الى ذلك رديئة رداءةً ظاهرة ، وانما كان مرتاحاً
 وراضياً من مجرد هذا الانفراج النفسى الذى حمله اليه الاحتفال البسيط
 بالشراب •

حدث ايفان ايلتش نفسه قائلاً : « لا شك أن العجوز يجب أن
 يشرب ، ولكنه لا يجزؤ أن يشرب وحده ، وليس فى وسعى أن أمنعه
 مع ذلك من الشرب ••• بل انه لمن السخف أن تبقى الزجاجة بيتنا على
 حالها ، • هكذا شرب الجنرال ، وكان ذلك بطبيعة الحال خيراً من أن
 يبقى ساكناً لا يعمل شيئاً ولا يقوم بشئ •

وبدأ يقول مراعيًا الوقفات متقيداً بالنبرات :

— لقد جئت الى هنا مصادفةً ان صح التعبير ••• سيقول بعض
 الناس طبعاً ان مكانى ليس هذا المكان ••• وانه ليس يليق بى أن أشهد
 اجتماعاً كهذا الاجتماع •••

كان آكيم بتروفتش صامتاً يصغى باستطلاع ، خجلاً وجلاً •

وتابع الجنرال كلامه فقال :

- ولكنى آمل أن تفهم السبب الذى دعانى الى المجيء ... آمل
أن لا يذهب بك الظن الى أن الحمرة وحدها تجذبنى ... هـى هـى •
حاول آكيم بتروفتش أن يضحك ، هو أيضاً ، اقتداءً بصاحب
السعادة ، فلما لم يفلح فى ذلك ، أمسك فى منتصف الطريق دون أن
يعثر على أيسر جملة يمكن أن يقولها •

وواصل الجنرال كلامه :

- أتيت ان صح التعبير ... بغية أن أشجع ... بغية أن أيسن ان
صح التعبير ... الهدف ... ان صح التعبير ... الهدف الأخلاقى ...
وكان وضع آكيم بتروفتش أثناء اصغائه الى كلام الجنرال ينم فى
نظر الجنرال عن بلاهة وغباء ، فاستمر غضب الجنرال ، وأوشك أن
يقرّعه على ذلك ، ولكنه لم يلبث أن أدرك أن صاحبه المسكين كان
خافضاً عينيه غاضاً بصره كأنه شاعر بذنبه مدرك لحظته •

اضطرب الجنرال بعض الاضطراب ، فبلغ جرعة من الشمبانيا
ومن أجل أن ينقذ آكيم بتروفتش الموقف ، أسرع يتناول الزجاجاة
ويملاً كأس رئيسه مرةً أخرى •

قال ايفان ايلتش يحدث نفسه وهو يرشق مروعسه المسكين بنظرة
قاسية لكنها لا تخلو من شفقة وعطف : « انك لقليل الذكاء حقاً ! » •

قرر آكيم بتروفتش الذى كان يشعر بتعاطف غضب الجنرال تعاطفاً
متخفياً ، قرر أن يعصم بالصمت فلا ينطق بكلمة • وعلى هذه الحال من
الصمت لبث الرجلان أحدهما أمام الآخر مدة دقيقتين ، وهى مدة بدت
لصاحنا آكيم بتروفتش زمناً لا نهاية له ...

علينا أن نقول الآن بضع كلمات عن آكيم بتروفتش : هو رجل من الطراز القديم ، هادىء الطبع ، خواف كدجاجة ، نشأ على احترام رؤسائه ، لا تعوزه طيبة السريرة ، بل ولا يعوزه نبل القلب •

هو واحد من أولئك الروس من سكان بطرسبرج الذين يولدون فى العاصمة أبناءً عن آباء عن أجداد ، وينشأون فيها ولا يارحونها فى يوم من الأيام • ان هذا النموذج الروسى الخاص لا يملك أية فكرة عن روسيا ، ولا يعنيه هذا الأمر من قريب أو بعيد ، لأن اهتمام حياته كلها منوط ببطرسبرج ، ولا سيما بالمكان الذى يوجد فيه مكتبه • ولا تعدى مشاغل هؤلاء الناس فى العادة لعبةً بالورق على دريهمات قليلة ، وذهاباً الى متجر البقالة الذى يقع فى ركن من الشوارع يشترون منه ما هم فى حاجة اليه من غلال ، واتماساً للراتب الذى يمكّنهم من الحياة • انهم يجهلون كل شيء عن العادات الروسية • أما الأغاني الشعبية فانهم لا يعرفون منها فى العادة الا أغنية واحدة هى « البتولة » • ولئن عرفوها فما ذلك الا لأن جميع آلات الأرغن البربارية تعزفها بغير انقطاع •

خلاصة القول ان آكيم بتروفتش نموذج خاص من نماذج الحيوان ، هادىء الطبع لين العريكة ، خاضع الارادة ، مطواع ، نشأ وتكوّن خلال هذه السنين الخمس والثلاثين الأخيرة •

على أن آكيم بتروفتش لم يكن شديد القباء ، فلو قد سأله الجنرال عن شيء من اختصاصه لاستطاع أن يجيب ولأمكن أن يجرى بينه وبين الجنرال حديث ، ولكنه كان يرى أن الحشمة توجب على موظف مرموس أن لا يتدخل فيما لا يعنيه ، وأن لا يجيب عن أسئلة ليست من شأنه • ومع ذلك كان المعجوز يحترق شوقاً الى معرفة السبب الحقيقى الذى دفع صاحب السعادة الى هذه الزيارة •••

كان ايفان ايلتش يفوص مزيداً من الفوص فى هوة من الكآبة والذهول ، فيسرف مزيداً من الاسراف فى رشف جرعات من كأسه التى كانت بفضل عناية آكيم بتروفتش واخلاصه تظل ملأى حتى الحافة بغير انقطاع •

وسم ايفان ايلتش من الصمت الثقيل ، فحاول أن يسرّى عن نفسه بمشاهدة الرقص ، فما لبث منظر الرقص أن احتكر انتباهه كله • كانت الرقصات مرحلة حقاً ••• ان الضيوف غارقون فى الفرح ، بكل ما فى قلوبهم من بساطة • ورغم أن المجيدين من الراقصين كانوا قلة ، فان الراقصين الحرق كانوا يموتّضون نقص الرشاقة هذا بقرع الأرض بأعقاب أحذيتهم قرعاً يبلغ من الضجيج أن من يراهم يحسبهم أساتذة من أساتذة الباليه •

وكان الضابط يتميز فى الرقص تميزاً خاصاً ••• كان واضحاً أنه يجب أن يرقص رقصات منفردة ، فاذا بقى وحيداً مع مراقصته فى وسط القاعة ، اتخذ أوضاعاً خارقة : فيما هو منتصب كالوتد اذا هو يميل الى جانب ميلاً يبلغ من القوة أن حركته هذه توهم من يراها أنه يوشك أن يسقط ، ولكنه ما يلبث أن ينتصب من جديد فى الخطوة التالية ليميل على الجانب الآخر ميلاً قوياً فلا تكاد الزاوية التى تتشكل بين قامة جسمه وأرض الغرفة تزيد على خمس وأربعين درجة •

وكان وجهه يعبر عن جدٍ قوى ، وكان يرقص بإيمان صادق واقتناع كامل يشير دهشة الجميع •

وهذا راقص آخر كانت حملته من الشراب كاملة منذ بداية السهرة فى أغلب الظن ، فلذلك نام قرب سيدته فأصبحت المسكينة مضطرة أن ترقص وحدها • وهذا موظف شاب يرقص الفتاة ذات

الوشاح الأزرق فيكرر في رقصه حركة بعينها لا تتغير ، لاعتقاده طبعاً بأنها حركة فكهة جداً تبعث على الضحك وتثير المرح : انه يظل وراء سيدته ، يمسك بوشاحها ويظل يطبع عليه عشرات القبل ، والسيدة لا تلقي بالاً الى هذا الاحترام المتكرر ، وتمضي تتابع رقصها في أبهة وجمال .

ولم يخلف طالب الطب وعده ، فها هو ذا يرقص منفرداً ، رافعاً ساقه في الهواء ، مجذباً اليه بذلك اعجاب الحفل كله .

خلاصة الأمر أن الجو قد زال منه التكلف وتحرر من الحرج .
وأثرت الحمرة تأثيراً سخيّاً على ايفان ايلتش فأخذ يتسم . الا أنه أحس بشك مرير يتسلل الى نفسه على حين فجأة . ان تلك السهولة التي كان يتمتعها من أعماق قلبه حين أخذ الضيوف يتراجعون أمامه ، ان تلك السهولة قد انقلبت الآن الى عدم تخرج والى زوال كلفة .

ويا له من اسراف في عدم التخرج يا رب ! هذه على سبيل المثال سيدة ترتدى ثوباً من مخمل أزرق لا شك أنه مستعار ، قد عقدت ثوبها بدبوس على نحو يجعله أشبه بالسروال .

انها كليوباترا سيمينوفنا تلك نفسها التي قال الطالب عنها ان المرء يستطيع أن يجازف معها بكل شيء .

حدث الجنرال نفسه مساءً بمض الاستياء متسائلاً : « كيف حدث هذا كله ؟ كانوا منذ قليل يتقهقرون ويتراجعون وها هم الآن يتحررون ويتحللون ! » .

ان هذا التغير في الموقف وهذا التبدل في الوضع ، ان هذه السهولة اللطيفة التي كانت تنوق اليها نفسه توقاً شديداً ، ان هذا كله يبدو له الآن غريباً غريبة عظيمة ومهدداً تهديداً كبيراً . حتى ليكاد يرى

الجنرال فيه نذير أحداث أخطر من ذلك كثيراً • لكأن هؤلاء الناس جميعاً قد نسوا حتى وجوده !•

ومع ذلك ، رغم الشك القاتل الذي أخذ يجتاح نفس ايفان ايلتش شيئاً فشيئاً ، فقد كان ايفان ايلتش يضحك ويصفق •

وكان أكيم بتروفتش يتسهم باحترام ، مقتدياً برئيسه دون أن يخطر بباله أن قلب صاحب السعادة قد تسلك اليه شعور جديد يعكر صفوه ويسمم نفسه •

— أحسنت جداً أيها الفتى ! انك تجيد الرقص أيما اجادة !
كذلك صرخ الجنرال متجهماً بالكلام الى الطالب الذي كان يمر حيثنذ بجانبه •

فما كان من الراقص الا أن التفت الى صاحب السعادة فجأة فجعد خده تجعيدة عجيبة وقرب وجهه من وجهه وأطلق أمام أنفه صيحة فرحة يقلد بها صياح ديك •

هنا طفح الكيل! وما هو ذا ايفان ايلتش ينتصب واقفاً لهذه المزاحة الجريئة ! وانطلق الناس جميعاً يضحكون ضحكاً صاخباً لأن الطالب قد أحسن تقليد صياح الديك حقاً ، عدا أن تجعيدة خده كانت فوق ما يمكن وصفه ! •••

وفيما كان الجنرال غارقاً في ذهوله وهو ما يزال واقفاً ، وصل بسلدونيموف مع أمه ليعلنا للجنرال أن العشاء جاهز •

قالت العجوز وهي تتخنى :

— هب لنا هذا الشرف العظيم ، وهو أن تشاركنا وجبتنا المتواضعة !•••

ثأناً ايقان ايلتش يقول :

- حقاً لا أدرى ... حقاً لا أدرى .. أنا لم أجيء لهذا ...
أنا كنت أهمُّ أن أنصرف .

وكان الجنرال قد آلى على نفسه فعلاً أنه لن يمكث دقيقة أخرى
واحدة . حتى لقد تناول قبعته بيده . ولكن ... لكن القدر كان هناك
... وها هو ذا ايقان ايلتش ... يبقى ... وبعد دقيقة كان الجنرال
يقود الموكب الذاهب الى الوليمة وقد أحاط به بسلدونيموف والمعجوز
الطيبة . أجلس الجنرال فى مكان الشرف من المائدة ، ووضعت أمامه
زجاجة شمبانيا جديدة .

وبحركة خاطفة سرعان ما وجدها الجنرال نفسه غريبة جداً تناول
زجاجة فودكا وصب لنفسه منها كأساً . واذ أنه لم يذق الفودكا حتى
تلك اللحظة ، فانه ما ان شرب كأساً حتى شعر باحساس سريع غريب
فى آن واحد : خيّل اليه انه يتدحرج من أعلى جبل ، وأحس بأنه
يهبط ، فأراد أن يتشبث بشئ ما ، ولكنه اضطر أن يعترف لنفسه بأن من
المستحيل عليه أن يفعل ذلك !

أصبحت حالة الجنرال تزداد غرابة وشذوذاً شيئاً بعد شيء . الله
وحده يعلم ما الذى صار اليه فى مدى ساعة ! كان حين دخل الى المنزل
يمد ذراعيه لا الى مرعوسيه وحدهم بل الى الانسانية كلها ان صح
التعير ! وها هى ذى جميع آلام قلبه وتباريح نفسه تضطره بعد
ساعة واحدة الى أن يكره بسلدونيموف ، وأن يلغنه هو وعروسه
وزواجه . ثم ان هذا الكره كان يبدو متبادلاً : قرأ الجنرال ذلك فى
عينى بسلدونيموف . ألم تكن نظرة الموظف المسكين تقول : « شيطان
يأخذك يا جنرال الشؤم ، يا جنرال النحس ! » .

ورغم هذه العداوة الواضحة كل الوضوح ، كان ايفان ايلتش يؤثر أن يقطع يده على أن يعترف لا علانية فحسب بل في سره أيضاً ، بأن سلوكه كان فيه شيء من غباء فعلاً ... ان لحظة مؤاخذه النفس لم تكن قد حانت بعض ! ...

ولكنه كان يشعر بانقباض في صدره ... كان يشعر بألم في قلبه ... ويتمنى لو يندفع الى الهواء الطلق ، لو يخلد الى شيء من الراحة .

ان ايفان ايلتش الذي كان في قرارة نفسه رجلاً طيباً شهماً يعلم حق العلم أنه كان عليه أن ينصرف منذ مدة طويلة ... لا أن ينصرف فحسب بل أن يولى هارباً بأقصى سرعة ! ذلك أنه كان يحس أن الواقع يختلف عما صورته له أحلامه حين كان واقفاً على الرصيف .

أخذ ايفان ايلتش يؤتب نفسه قائلاً وهو يرشف جرعة من شراب ويزدرد لقمة من طعام : « لماذا جئت الى هنا ؟ أنا ما جئت لأكل وأشرب ،

وشيثاً فشيثاً وصل الجنرال الى مرحلة الانكار التام والنفي الكامل ... تسلفت السخرية الى نفسه في رفق وهدوء ... وأصبح العمل البطولي المزعوم يبدو له الآن سخيفاً مضحكاً ... وأصبح آخر الأمر لا يعرف لماذا جاء الى هذا المنزل ! ...

كان عليه أن يخرج ولكن كيف ؟

ما عصاهم يقولون في هذا كله ؟ ان ألسنة السوء ستدعى غداً أنه يقوم بجولات في أماكن مشبوهة ! .

ووسوس له الشك : ماذا يقال غداً ؟ « ذلك أن كل شيء لا بد أن يُعرف ؟ ما الذي سيقله ستيفان نيكيفوروفتش ، وسيمن ايفانوفتش ، وموظفو المكاتب ، ورواد الصالونات ، وآل شمبل وآل شوبين ؟ » .

وحدث الجنرال نفسه قائلاً : « لا أستطيع ان أنصرف مع ذلك قبل أن أشرح لهؤلاء الناس جميعاً لماذا أتيت . لا أستطيع أن أنصرف قبل أن أبيض لهم اللثام عن الغاية الأخلاقية التي استهدفها من زيارتي . . . » ولكن متى توافي اللحظة المؤثرة المناسبة ؟

وتابع المسكين اجترار أفكاره : « انهم لا يشعرون نحوى حتى بشيء من الاحترام ! لماذا تراهم يضحكون ؟ » انهم لا يتخرجون أى تخرج حتى لكأنهم لا قلوب لهم ! « لظالما ساورنى الشك فى الجيل الجديد فقلت انه لا قلب له ! « ومع ذلك يجب ان لا أبقي هنا مهما يحدث من أمر ! « ولكن من يدرى ؟ ها هم أولاد قد اجتمعوا على المائدة ، ربما استطعت أن أكلهم فى أمور حيوية ، ربما استطعت أن أحدثهم عن الإصلاحات ، ربما استطعت أن أحدثهم عن عظمة روسيا فى المستقبل . . . أأكون من المستحيل حقاً أن أنفخ فى نفوسهم شيئاً من حماسة ؟ لعل الفرصة لم تضع كلها بعد . . . ولكن من يدرى ؟ هل يجب أن تجرى الأمور حقاً على هذا النحو ؟ ثم من أين أبدأ ؟ كيف أجتذب انتباههم ؟ كيف أسر قلوبهم ؟ ماذا يجب أن أقول ؟ ما الذى ينبغى أن ألقه من كلام ؟ « طاشن صوابى يا رب ! ضاع عقلى ! ماذا يريدون منى ؟ ما الذى يرغبون فيه ؟ انى لأرى ضحكاتهم المكثومة ! أتراهم يستهزئون بى يا رب ؟ ولكن ما الذى أريده أنا ؟ لماذا أنا هنا ؟ لماذا أنا هنا ؟ لماذا لا أنصرف ؟ « . . . »

هكذا كان يفكر الجنرال بينما كان شعورٌ بالخرى عميق ساحق

يجتاح قلبه شيئاً بعد شيء .

وفى أثناء ذلك كانت الاحداث التى لا ترحم تتابع مجراها •

ما ان انقضى ربع ساعة على جلوس الحفل الى المائدة حتى سيطرت على فكر الجنرال فجأة فكرة رهية ••• لقد أدرك المسكين ادراكاً تاماً أن السكر قد أخذ به كل مأخذه ليس سكره الآن هو ذلك الثمل الخفيف الضاحك الذى كان مسيطراً عليه منذ قليل ، وانما هو سكر كامل حاسم لا برة منه ! وليس سبب هذا السكر الا ذلك القدح اللعين من الفودكا الذى تجرعه بعد الشمباتيا ففعل فعله فى نفسه فوراً •

ان ضعفاً غريباً يهده الآن هداً ، وان وهناً شديداً يدمره الآن تدميراً ! انه يلاحظ ذلك ويحسه • وما هو ذا عرق بارد يتقاطر على جبينه كجبات اللؤلؤ ! صحيح أن شجاعته كانت تزداد أثناء ذلك ، ولكن ضميره ما ينفك يعذبه عذاباً شديداً ، وما يبرح يصيح قائلاً له : « هذا شر ! هذا سوء ! بل هذا غير لائق البتة ! » •

وهو يحس تارة أن خواطره الرجراجة المترنجة لا تستطيع أن تثبت على نقطة وأن تتركز على فكرة ، وهو تارة أخرى يشعر أن كيانه نفسه يزدوج ازدواجاً فكأنه اثنان لا واحد •

هو من جهة أولى يشعر بالشجاعة وبالرغبة فى الانتصار وبارادة تحطيم العقبات وتدمير الحواجز وبالتثقة الكاملة المستميتة بأنه ما يزال يستطيع أن يبلغ غايته ويحقق هدفه • وهو من جهة ثانية يشعر بألم شديد يحز فى نفسه وبوقفات مفاجئة تقطع نبضات قلبه !•••

وفوق هذا كله كان يعذبه ذلك السؤال الرهيب الذى يتردد بلا مهادة : كيف سينتهى هذا الأمر كله ؟ وما الذى سيحدث غداً ؟

غداً ••• غداً ••• ان « غداً » هذا لا يبرح فكره !

قبل ذلك بقليل كان الجنرال قد تراءى له أن بين المدعويين خصوصاً
يناصبون العداة • ولقد أراد عندئذ أن يبعد هذه الشبهة وأن يزيل ذلك
الشك قائلاً لنفسه : « لعل ذلك يرجع الى أنني كنت نملاً بعض الثمل
حين وصلت » •

ولكن ما أشد ما يشعر به الآن من هول ودوع بعد أن جعلته
الأدلة الواضحة التي أمدته بها ملاحظاته ، يوقن من أنه محاط بأعداء
ألداء ! •

فكان يتساءل وقد امتلأ قلبه كمداً وكرهاً : « ولماذا ؟ لماذا هذا
كله ؟ » •

وكان يجلس الى المائدة نحو من ثلاثين شخصاً قد أخذ السكر من
بعضهم كل مأخذ أيضاً • أما المدعويون الآخرون فكانوا منطلقين على
سجيتهم انطلاقاً يدعو الى النفور والاشمئزاز ، فهم يصرخون صراخاً
شديداً ، وهم يتكلمون معاً في آن واحد ، وهم يقرعون الكؤوس بعضاً
ببعض في شرب الأنخاب ، وهم يقذفون السيدات بكرات من الخبز • •
ومنذ بداية المأدبة كان شخص كرهه مشبوه يرتدى ردتجوتاً
متسخة قد سقطت تحت المائدة ولبث هنالك لا يتحرك • وهذا شخص آخر
تراوده نفسه في كل لحظة أن يرتقى المائدة ويتجول بين الأطباق ليلقي
خطاباً ، فيحول الضابط بينه وبين ذلك بشدة من حافة رداثة •

ورغم أن الطاهي الذي أعد العشاء قد تخرج من منزل عظيم من
العظماء فإن قائمة الطعام لم يكن فيها كثير من تناسق : شرائح من لحم
مجمد ، ولسان بقر مع بطاطس ، وأضلاع مع الباسلاء ، ثم اوزة هي
الطبق المختار وتاج المائدة ، وعصيدة هي الحلوى التي تختتم بها وجبة
العشاء •

أما الشراب فبيرة وفودكا ونيذ وزجاجة شمبانيا وضعت أمام الجنرال وخصَّ بها دون غيره فهي تضطره الى أن يصب منها دون أن ينسى آكيم بتروفتش الذى كان قبل ذلك يخدمه فى بجوحة وسخاء ، ثم أصبح الآن لا يتجرأ أن يبادر الى ذلك . وكانت أصحاب المدعوين الذين هم من الطبقة الثانية خمرة من نيذ البوقاز .

وكانت المائدة نفسها تتألف من عدد من موائد صغيرة متعددة الأنواع قد صُفَّ بعضها الى جانب بعض ؛ وكان هنالك مائدة خضراء تكمل عددها ؛ وكان هذا كله مفروشاً بأغطية متنوعة الأشكال مختلفة الألوان .

لم تشأ أم يسلدونيموف أن تجلس ، وذلك بحجة رغبته فى العناية بخدمة الضيوف . ولكن ها هو ذا وجه امرأة مكفهر عابس لم يسبق للجنرال أن لاحظته قبل ذلك يظهر الآن على حين فجأة : انها امرأة ترتدى ثوباً من حرير يضرب لونه الى حمرة ، وعلى خدها ضماد . انها أم العروس ، استطاعت أخيراً أن تنتصر على الكره الذى تحمله لحماية ابنتها ، فقررت أن تبارح نخبأها وأن تجيء الى الصالون بمناسبة العشاء .

ان هذه السيدة التى كانت تنظر الى الجنرال بهيئة نصفها شر ونصفها مكر ، كان يبدو عليها أنها تخشى أن لا تُقدَّم الى الضيف الذى جاء بالمصادفة والذى كان من جهته لا يرتاح الى هيئتها ويشعر نحوها بشئ من الريبة . على أن السيدة ماميفيوف لم تكن الشخص الوحيد الذى يشير الشبهة والريبة فى نفس الجنرال : ان هنالك أفراداً آخرين كان الجنرال ينفر منهم ويشك فيهم ويشعر أمامهم بمخاوف واضحة . ولعله لم يكن مخطئاً . ذلك أن جميع هؤلاء الناس كان يبدو عليهم أنهم

يكيّدون لصاحب السعادة ويدبرون مؤامرة عليه • ولقد انتهى الجنرال
فعلاً الى ادراك ذلك اثناء العشاء !•

كان هنالك على وجه الخصوص سيدٌ له لحية صغيرة وله هيئة كهنية
رسام بوهيمي • ان هذا السيد قد التفت نحو جاره مراراً اثناء العشاء
وتتمم في أذنه بكلام ، وثمة شخص آخر لعله طالب كان يبدو مشبوهاً
كذلك رغم أنه نمل تماماً •

أما طالب الطب الذي كان يتقن تقليد صراخ الحيوانات ذلك الاتقان
كله ، فلقد كان في الواقع لا يوحى الا بقليل من الثقة ، وكذلك الضابط
الذي كان ايفان ايلتش في لحظة من اللحظات قد عقد عليه آخر الآمال
وا أسفاه !

على أن أوضح كرمٍ انما كان يُقرأ في وجه محرر جريدة
«جوروفشكا» : ان طريقتَه في التهالك على كرسِيّه ، وان نظرتَه الزاخرة
بمعاني الزهو والصلف والتحدى والاستفزاز ، وان ما يصطنعه من عدم
التحرج وقلة الاكتراث ، ان ذلك كله كان يثير في نفس الجنرال هولاً
ورعباً •

فرغم أن المدعويين الآخرين لا يبدو عليهم أنهم يقيمون وزناً كبيراً
لهذا الرجل (الذي يجب أن نذكر مستطزدين أنه لم يستطع أن يتشر
في المحلة المذكورة الا أربعة أبيات من الشعر) ، فان الجنرال لم يكن
مطمئناً من ناحية هذا الرجل أي اطمئنان •

لذلك حين سقطت كرة من الحيز كانت تستهدف الجنرال طبعاً ،
حين سقطت هذه الكرة قرب الجنرال ، اعتقد الجنرال اعتقاداً جازماً
قاطعاً أن محرر المجلة هو الذي سمع لنفسه بهذه المزاحة الثقيلة •
في وسعكم أن تفهموا اذن بسهولة ويسر أن ما ذكرناه الآن عن

جماعة الحفل لا بد أن يكون قد أثر في مزاج الجنرال تأثيراً سيئاً
يُوصف له •

ثم ان ملاحظة جديدة لاحظها الجنرال قد أثرت فيه تأثيراً خاصاً :
لقد أحس إيفان ايلتش فجأة أن لسانه يزداد ثقلاً وكثافة ، حتى لقد
أصبح يشعر بشيء من الصعوبة والعناء في نطق الكلمات • لذلك اضطر
أن يصمت رغم رغبته في أن يقول أشياء كثيرة • يُضاف الى هذا أنه
أصبح ينسى نفسه في بعض اللحظات على حين فجأة ، فاذا هو يأخذ
يضحك لا يدري لماذا ! على أن هذه الحالة النفسية الأخيرة ما لبثت أن
زالت بعد كأس جديد من الشمبانيا شربها دون شعور ، فكان من نتائجها
رأساً أنه أصبح يرغب في البكاء رغبة لا سبيل الى مخالفتها •

فما لبث الجنرال ، وقد استبد به انفعال من أشد الانفعالات قوةً
وعنفاً ، أن رجع الى ذلك الحب الكبير العظيم الذي كان يلف به الوجود
بأسره ، حتى بسلدونيموف ، بل لقد امتدت هذه العاطفة الى أبعد من
ذلك أيضاً ، فلم تستثن حتى محرر مجلة « جوروفشكا » !

أصبح إيفان ايلتش مستعداً لأن يعانق جميع البشر ، وأصبح
پرغب رغبة قوية عنيفة في أن ينسى الاسماء ، وأن يُحلّ السلام
والوثام ! ولم يرضه هذا ، بل صار يحترق شوقاً الى أن يفتح نفسه لضيوف
بسلدونيموف ، فيُطلع هؤلاء الناس جميعاً على مدى نبل قلبه وقوة
مواهبه ، ويظهرهم على ما يستطيع أن يقدمه للوطن ، هو رجل الدولة
المرموق ، من خدمات عظيمة •

وكان الجنرال الذي امتلأت نفسه توقاً الى الكلام لا يريد أن يغفل
التحدث عن قدرته على تسلية السيدات واضحاكهن ، لا ولا أن يغفل
التحدث عن حبه للتقدم خاصة • وكان يتهاى ، في هذه المناسبة نفسها ،
لأن يكشف عن ميله الى التواضع مع من هم دونه ، وحتى مع أولئك

الذين يشغلون أدنى مراتب السلم الاجتماعي ؛ وكان ينوى فى ختام خطابه أن يذكر بواغت مجيئه الى منزل بسلدونيموف وشربه الشمبانيا مكرماً بحضوره حفلة زفاف مروهسه الفقير .

« الحقيقة ، الحقيقة المقدسة وحدها ! ... بالصدق انما سأصل الى اقناعهم ! سوف يصدقوننى . أنا على يقين من ذلك ! مهما ينظروا الى نظرة العداوة ، فلن يلبثوا أن يملثوا كئوسهم ويشربوا نخبى متى أفصحت لهم عن كل ما أشعر به . وبعد ذلك ، سيحطم الضابط كأسه فوق مهمازه ، على تلك العادة القديمة المعروفة فى الجيش ؛ ومن الجائز أن يأخذوا جميعاً عندئذ بالهتاف : مرحى ! مرحى ! ولن يسوءنى أن يرغبوا فى حملى على الأكتاف كما يُحمل المنتصرون !... وسأطبع قبلةً أبوية على جبين العروس ، قبلةً لن تخلو من متعة فى الواقع . يخيل الى أيضاً أن أكيم بتروفتش رجل طيب جداً ، محبٌ حقاً ! وانى لعلى يقين من أن بسلدونيموف نفسه سيصبح فى المستقبل رجلاً لائقاً (وانا يعوزه الآن شيء من آداب رجال المجتمع الراقى) . قد لا يكون جميع هؤلاء المدعوين الذين ينتمون الى الجيل الجديد ، قد لا يكونون متحليين بما أرجوه لهم من رفاقة انشعور ولطف الحس ورقة القلب ، ولكنهم سوف يفهموننى . سأحدثهم عن دور روسيا بين الدول الأوروبية الكبرى ، وسأحدثهم عن مشكلة الفلاحين أيضاً ، بطبيعة الحال . سوف يسمعون لى ويصفون الى كلامى ، وسوف أخرج من هذه السهرة بالظفر والمجد ! ... »

ان هذه الأحلام كلها كانت لذينة ، غير أن الشيء الذى لم يكن لذيداً مثلها هو ما اكتشفه ايفان ايلتش على غير توقع منه : لقد اكتشف أنه أصبح لا يستطيع التحكم بلبابه ، فلعبه يسيل من فمه غزيراً . كان الجنرال قد أصبح يرشق من فمه لعاباً ، لا يدرى لماذا ولا يدرى كيف !

وقد لاحظ ذلك حين اتفق له أن رشَّ بلعابه خدَّ آكيم بتروفتش الذى منعه الاحترام من أن يسمح خده ، فلبث على حاله ينتظر فرصة موآية من أجل أن يفصل ! فلما رآه ايفان ايلتش على هذه الحال تناول منشفةً وأخذ يدلك وجنة مرؤوسه المبللة باذلاً فى ذلك عنايةً لا حدود لها ، ثم سرعان ما بدا له هذا الفعل غيباً حتى لقد أدعشه أن يفعله •

وكان آكيم بتروفتش قد شرب هو أيضاً وساعات حاله واضطربت نفسه ، حتى لقد أدرك ايفان ايلتش أن المسكين ، على اصغائه مدة ربع ساعة الى هذيانات رئيسه ، كان يبدو خائفاً مذموراً كأنه يخشى وقوع خطرٍ وشيك •

فلما لاحظ الجنرال ذلك التفت نحو بسلدونيموف الذى كان جالساً بقربه يطمئ عقه ويميل برأسه الى جانب ويصفى مقطبَ الجبين عابسَ الهيئة ، ولكن يبدو عليه أنه يراقب أمراً ما ! تُرى من ذا يراقب ؟ وماذا يراقب ؟

لم يكن الجنرال قد لاحظ فى وضع الضيوف شيئاً غير مألوف ، فاذا هو يدرك الآن على حين فجأة أن الأنظار متجهة اليه متركزة عليه ، حتى ان بعض المدعوين كان يتأمله ضاحكاً فى الخفاء • ولكن أغرب ما فى الأمر هو أن ايفان ايلتش ، بدلاً من أن يظهر عليه الامتيا ، بلع جرعةً جديدة من الشمبانيا ، ثم لم يلبث أن بدأ يتكلم بصوت عالٍ فقال :

— قلت الآن لآكيم بتروفتش ... قلت لآكيم بتروفتش ان روسيا ... نعم ... روسيا ... الخلاصة ... أتم تفهمون ماذا أريد أن أقول ان روسيا تجتاز .. أنا مقتنع بهذا ... اقتناعاً عميقاً ... تجتاز مرحلة نزعة انسانية ...

— نزعة انسانية !

كذلك صاح يقول أحدهم في آخر المائدة •

- نر ... نر !

- مز ... مز !

أمسك ايفان ايلتش عن الكلام • ووقف بسلدونيموف يتفحص الحضور بنظرة قاسية ليكتشف صانع الفوضى • وهزّ أكيم بتروفتش رأسه مشفقاً كأنما ليخجل أولئك الذين يثبون الاضطراب ويحدثون البلبلة • وقد لاحظ الجنرال تلك الصيحات السخيفة فلزم الصمت بضع لحظات على حالٍ هي أقرب ما تكون الى حال شهيد معذب •

ثم لم يلبث أن استأنف كلامه فقال بنوع من العناد :

- النزعة الانسانية ! لقد قلت هذا بعينه منذ قليل لستيفان

نيكوفوروفتش ... نعم قلت له ... ان النهضة ان صح التعبير ...

عاد الصوت يصيح من أقصى المائدة :

- صاحب السعادة •

- ماذا تريد ؟

كذلك سأل ايفان ايلتش وهو يحاول أن يتعرف الشخص الذي

يناديه ، فردد الصوت يقول :

- لا شيء ، لا شيء البتة يا صاحب السعادة • أكمل كلامك ...

أكمل كلامك من فضلك ...

شعر ايفان ايلتش بهزة جديدة تعجاز كيانه كله فواصل كلامه

يقول :

- ان النهضة ... ان صح التعبير ... في هذه الأمور كلها ...

صاح الصوت مرة أخرى ينادى :

- يا صاحب السعادة !

- ماذا تريد ؟

- صباح الخير •

في هذه المرة لم يستطع ايفان ايلتش أن يحتمل أكثر مما احتمل
فقطع خطابه وأخذ يحدّق الى الرجل الذي يسبب الفوضى ويخل
بالنظام •

هو شاب في ريعان الشباب لا يشك أنه سكران • انه منذ مدة
لا يزيد على أن يصرخ ، وقد كسر كأساً وصحنين زاعماً بالحجة والدليل
أن هذه عادة لا بد منها ولا غنى عنها في كل زفافٍ يحترم نفسه •
وحين التفت ايفان ايلتش نحوه كان الضابط قد أخذ من جهته يؤنبه
تأنيباً قاسياً ويعنفه تعنيفاً شديداً :

- ما هذا الزعيق والنهيق ؟ هل تريد أن نخرجك مطروداً ؟

ولكن الشاب العابت المتهالك على كرسيه ظل يصيح قائلاً :

- ليس هذا الكلام موجهاً اليك يا صاحب السعادة • لم أقصدك
أنت يا صاحب السعادة • أكمل كلامك من فضلك ... انتى أصنى
اليك ... وانتى سعيد جداً بالسماع لك ... أكمل ... أكمل !
تحتى وثنائى ! ...

همس بسلدونيموف يقول :

- صبى سكران •

قال الجنرال :

- أرى أنه سكران ، ولكن ...

وحاول الضابط أن يشرح :

- انتى أقحمل بعض تبعه هذا الذنب يا صاحب السعادة • فقد
رويت له منذ قليل نادرة مضحكة عن ملازم في كيتينا كان أثناء أحاديثه

مع رؤسائه يستعمل أساليب لا شك أن هذا الصبي يريد تقليدها • كان ذلك المسكين كلما خاطبه رئيسٌ بكلمة يجيب قائلاً : « تجيتى وتائى » . وبسبب ذلك انما صُرف من الخدمة منذ عشر سنين •

— ماذا كان ذلك الملازم ؟

— هو ملازم من كيتتى يا صاحب السعادة ! كان ذلك الجواب الذى يردده بلا انقطاع فكرة ثابتة فى رأسه ، ولازمة لا تبرح ذهنه • أخذوا يؤنبونه فى أول الأمر ، ثم أخذوا يجسونه بعد ذلك • وكان الرئيس يحسد فى معاملته الى وسائل أبوية شارحاً له أن أساليبه هذه ليست لاثقة فكان المسكين لا يزيد على أن يجيب بقوله : « تجيتى وتائى ! تجيتى وتائى ! » كانت حالته عجيبة توجب الحزن وتبث على الأسى حقاً ! فلقد كان ضابطاً جميلاً ، لا يقل طول قامته عن مترين ! أرادوا أن يحيلوه الى مجلس حربى ، ولكنهم اكتشفوا آخر الأمر أنه مجنون تماماً •

قال صاحب السعادة :

— هذه كلها صيانيات • أنا من جهتى مستعد لأن أعفو وأصنع •••

واصل الضابط كلامه :

— حتى ان الطب قد اهتم بأمره وشغل به •

— هل شرّحوه ؟

— عفوك يا صاحب السعادة ••• لقد كان ذلك الملازم حياً •

طفق جميع الضيوف يضحكون متفهين ، حتى أولئك الذين لم

يقولوا كلمة واحدة من قبل •

استمر غضب ايفان ايلتشى وصرخ يقول بصوت واضح مجلجل لم

يبق فيه أثر من جمجمة أو غنمة :

— أيها السادة ، أيها السادة ، ما زلت قادراً على أن أعرف أن
الأحياء لا يُشرَّحون ! كل ما هنالك أنني ظننت أن الضابط قد بارح
هذا العالم ... أقصد أنه مات ... أعني ... أريد أن أقول ... أريد
أن أقول انكم لا تحبوني .. ومع ذلك فأنا ... من جهتي ... أجبكم
جميعاً ... نعم أنا أحب بورفير ... أقول لكم هذا رغم أنني أذلُّ
بذلك نفسي ...

وفي تلك اللحظة اندلقت من فم إيفان ايلتش دفقة ضخمة من لعاب
فسقطت على أبرز موضع من غطاء المائدة فهوى عليها بسلدونيموف
بمنشفته يحاول مسحها ولكن هذه البلية الأخيرة صعبت الجنرال تماماً
فخارت قواه وصاح يقول وهو في ذروة الكمد والكرب واليأس :
— هذا كبير أيها السادة ! ...

وعاد بسلدونيموف يقول :

— انه رجل سكران يا صاحب السعادة •

قال الجنرال :

— بورفير ، أنني أرى أنكم ... أنكم جميعاً ... أنني
قولوا لي ماذا فعلت حتى هان شأني وانخفضت منزلتي أمامكم •
قال الجنرال ذلك بصوت تكسّره شهقات بكاء لا يكاد يستطيع
كظمها •

فانطلقت أصوات فيها شفقة واحترام تحاول أن تواسيه وأن
تعزّيه :

— صاحب السعادة ! صاحب السعادة ! اسمع يا صاحب السعادة ! ..

— أخطبك أنت يا بورفير ... قل له ... أنا انما جئت ... لكن
جئت الى هذه الحفلة ... لقد كان لي هدف ... كنت أرمي الى التشجيع

... كنت أريد أن تشعروا ... قل لى هل هان شأنى فى نظر كم ؟ هل
ذلت نفسى !

خيم صمت كصمت الموت ! كيف يسود مثل هذا الصمت أمام
سؤال قاطع جازم الى هذا الحد ؟ أمر لا يصدق !...

تساءل الجنرال : « فما الذى يجب قوله اذن فى لحظة كهذه
للحظة ؟ » ولكن الضيوف كانوا لا يزيدون على أن ينظر بعضهم الى
بعض . أما آكيم بترفش فلا هو حى ولا هو بالميت ، وأما بسلدونيموف
فهو من شدة هلمه قد انعقد لسانه حتى أصبح كالأخرس ، وهو لا يبرح
يردد فى ذهنه السؤال الذى يحاصره منذ مدة : « ما عسى ينالنى
فى الغد ؟ » .

وفى تلك اللحظة انما نهض محرر جريدة «جوروفشكا» الذى لبث
منذ مدة طويلة صامتاً عابساً ، نهض عند أقصى المائدة مشتعل النظر
بنار متأججة ، والتفت نحو ايفان ايلتش ، وصاح يقول بصوت مرعد
كأنه مكلف بالاجابة باسم الحضور جميعاً :

— نعم أنت هين الشأن منحنط المنزلة فى نظرنا ! وها أنت ذا
حسرت القناع عن وجهك وظهرت على حقيقتك أيها الرجعى ، أيها
الرجعى .

ثم كرر قوله :

— رجعى ! رجعى !...

جمعهم ايفان ايلتش وقد بلغ ذروة الفيض والحنق يقول :

— أيها الشاب ، هل تعلم من ذا تخاطب ؟

فأجابه الآخر :

— أخاطبك أنت ! ثم اننى لست بشاب يا سيد ! أنت انما جئت الى
هنا لتمثل مسرحية بشعة ولتلمس شعبية كاذبة !

صرخ ايفان ايلتش :

— بسلدونيموف !... بسلدونيموف !... ما هذا كله ؟...
ما هذا كله ؟...

ولكن بسلدونيموف وقد استبد به ذعر رهيب واهل فظيع لبث
جامداً لا يتحرك ولا يدرى ماذا يصنع ! وخيم على الضيوف صمت
كصمت الموت . كانوا هم أيضاً كالمصعوقين ، الا الفنان والطالب ، فقد
أخذا يصفقان ويصيحان :

— مرحى !... مرحى !...

واشتدت عزيمة الصحفي بهذا التأييد على ضالته ، فاستمر يقول
مرعداً :

— نعم لقد جئت تعرض علينا نزعك الانسانية فلم تزد على أن
خرّبت فرحنا الفقير ! وأترعت جوفك بالشمباتا دون أن يخطر ببالك
المبلغ الباهظ الذى يدفعه ثمناً لهذه الحمرة موظف لا يزيد مرتبه على
عشرة روبلات فى الشهر ! بل اننى لأعتقد فى قرارة نفسى أنك واحد
من أولئك الرؤساء الذين يشبهون ولاية الفرس فى الزمان القديم ،
ويسمون الى اللحظة بنساء مرؤوسيههم الشابات ! بل أكثر من ذلك أننى
على يقين من أنك واحد من أنصار الرشوة !... نعم نعم ... هذا
أنت يا سيد !...

حشرج ايفان ايلتش يقول :

— بسلدونيموف !... بسلدونيموف !...

كان ايفان ايلتش قد بلغ ذروة الكرب والقنوط ، فهو يمد ذراعيه

الى الموظف الصغير المسكين ضارعاً ، ويشعر بكل كلمة من كلمات
الصحفي طعنة خنجر تنفذ في قلبه .

قال بسلدونيموف يحسم الأمر بصوت أصبح قوياً على حين فحاة :
- حالاً يا صاحب السعادة ، حالاً ! لا تخف ...

قال ذلك وانقضَّ على معكَّر صفو الحفلة فأمسك بتلابيه وأبعده
عن المائدة بقوة وعنف . ما كان لأحد أن يتصور قط أن رجلاً هزيراً
مثل بسلدونيموف يملك قوة جسمية كبيرة الى هذا الحد .

على أن تفسير هذه المعجزة أمر سهل فلقد كان الصحفي سكران
كل السكر ، على حين أن بسلدونيموف لم يكن قد أصاب شيئاً من
شراب . وانتهى الحادث ببضع لكلمات أنزلها بسلدونيموف على ظهر
الصحفي الذي خرج من الباب وغاب وهو يزار قاتلاً من قيل
التوديع :

- أتم جميعاً جناء حقراء ! سأعرف كيف أشهر بكم في مجلة
«جوروفشكاه» ! ...

وقام الجمع كله قومة رجل واحد ، وصاح بسلدونيموف وأمه
وعدد من الضيوف يقولون :

- صاحب السعادة ... صاحب السعادة ...

وها هم يحيطون الآن بالجنرال ويقولون له مواسين :

- هدى نفسك يا صاحب السعادة !

ولكن السيد برانسكى كان قد أخذ يبكى منتحباً ويقول :

- لا ، لا لقد تدمرت ... أنا انما جئت الى هنا ... كنت أريد

... ان صح التعبير ... أن أبارككم ... ولهذا ...

وكانت نظرة الجنرال تتبع تهرب أحلامه وتشتتها ، وما هي الا

لحظة حتى تهاوى على كرسيه ماداً يديه على المائدة مسقطاً رأسه فوقها
مغرقًا وجهه فى طبق الحلوى •

نحسب أننا لا حاجة بنا الى وصف حالة الذعر والانشداد التى
استبدت بالضيوف بعد تلك اللحظة شيئاً فشيئاً •

ونهض الجنرال لينصرف ، ولكنه لم يلبث أن ترنح وتعثرت قدمه
بقدم الكرسي ، فسقط على أرض الغرفة متمدداً ، وأخذ يشخر
وينخر •••

ذلك ما يحدث عامة لأولئك الذين لم يألفوا الشراب : يحتفظون
بوعيمهم الى آخر لحظة ، ثم اذا هم يسقطون مهدمين على حين فجأة •

ظل ايفان ايلتش راقداً على الأرض متشياً عليه ، وأمامه يقف
بسلدونيموف واضعاً يديه فى شعره الباهت وقد أوشك أن يموت غمماً
وقلقاً • وأخذ الضيوف ينادرون الغرفة واحداً اثر واحد ، وكل منهم
يعلق على الحادث على شاكلته • وكانت الساعة هى الثالثة صباحاً •

كانت أحوال بسلدونيموف على درجة كافية من السوء قبل ذلك ،
دون أن يكون فى حاجة الى أن يرى الأمور تجرى على هذا النحو
مجرى أسوأ • ان الحياة القديمة التى عاشها المسكين لا يمكن أن تقاس
بوضعه الراهن رغم أن وضعه الراهن ليس باللامع كثيراً •

ولنتنزه فرصة تمدد ايفان ايلتش على أرض الغرفة ، وحيرة
بسلدونيموف الذى استولى عليه الكمد واليأس وأخذ يشد شعر رأسه ،
لنتنزه هذه الفرصة فقطع قصتنا برهةً وجيزة ونلقى على شخصية
العريس الحزين لمحة سريعة •

لقد جاء بسلدونيموف من مقاطعة فى الأقاليم كان أبوه يعمل فيها بأحد المكاتب . وقد مات الأب حين أوْشك أن يحال الى المحاكمة .
 فبعد أن ظل الشاب سنة كاملة يتسكع بمدينة بطرسبرج فى البؤس والفقر والشقاء ، استطاع أن يحصل أخيراً على هذه الوظيفة براتب قدره عشرة روبلات فى الشهر ، فأحس عندئذ أنه بُعث بعثاً جديداً ، وأصبح انساناً آخر . حدث هذا منذ أقل من خمسة أشهر .

ولم يكن فى العالم الاّ شخصان من أسرة بسلدونيموف : هو وأمه التى تركت الريف بعد وفاة زوجها فى السجن . لقد جاءت الى العاصمة لتلحق بابنها ، وأخذ الاثنان منذ ذلك اليوم يكافحان كفاحاً مريراً حتى لا يموتا من البرد وحتى يحصلوا فى القليل النادر على طعام لا يكاد يسد الرمق ، حتى اذا حصل الابن على تلك الوظيفة استطاع أن يستأجر غرفة مؤثثة ، وأخذت الأم منذ ذلك الحين تعاطى غسل الثياب لبعض الزبائن الذين يكلفونها بهذا العمل من حين الى حين ، بينما أخذ بورفير يستمتع فى سبيل توفير بعض المدخرات الزهيدة بغية أن يشتري لنفسه معطفاً رسمياً وحذاءين .

ما أشد ما تحمل المسكين من آلام فى مكتبه ، حيث كان رؤساؤه يتحرشون به فى كل لحظة ليسألوه منذ متى لم يستحم ! وما أكثر ما كانت تذيع فى حقه الأقاويل وتروج الشائعات ! كان يُقال مثلاً ان القمل قد اتخذ من بطن ياقه قميصه أعشاشاً له !

ولكن بسلدونيموف كان صلب الارادة قوى الشكيمة ! هو صموت هادئ لم يصب من التعليم الا حظاً ضئيلاً جداً ؟ ولم يكد يسمعه أحد متكلماً فى يوم من الأيام . أترأه كان يفكر فى أمر ما ؟ أترأه كان يرسم خططاً أو ينشئ نظريات ؟ أترأه كان يحلم بمثل أعلى غير ملموس ؟ ما من أحد كان يستطيع أن يجيب عن هذه الأسئلة .

كل ما نعلمه أن رغبته الفريزية اللاشعورية في الوصول الى هدفه
وفي الخروج من الحفرة كانت أشبه بعناد النملة التي تحاول أن تعيد بناء
بيتها كلما هدمه أحد .

الخلاصة أن الرجل كان امرأً يتقيد بالنظام ويراعى دقائق الأمور
ويحب أن يقبع في بيته لا يبارحه . وكان جينه يحمل علامة مستقبله .
فاذا نظرت اليه قرأت في جبهته الصلابة والعناد والاصرار وسائر المزايا
التي تدل على أنه سيفلح في شق طريقه ، وسينى بيته حجراً حجراً ،
حتى لقد يستطيع أن يدخر شيئاً من مال ! وكانت أمه هي الانسان
الوحيد على وجه الأرض الذي يحيطه بعاطفته . كانت الأم تحب ابنها
أكثر مما تحب أى شيء في هذا العالم . هي امرأة قاسية الطبع ناشطة
الهمة تحب العمل ولا تعرف التعب ، وكانت في معاملته طيبة رقيقة
شفوقاً . وكان يمكن أن يعيش الاثنان على هذه الحال في غرفتهما المؤتة
خمس سنين أو ستاً الى أن يتغير حالهما ويتحسن وضعهما ، لولا أن
تعرفا الى رجل يسمى ماميفروف هو موظف محال الى التقاعد كان في
الماضى مرابطاً . ان هذا الرجل الذي سبق أن عاش وعمل في الريف
حيث أحسن اليه أبو بسلدونيموف فأحسن بأنه مدين له بفضل ، قد
أحيل منذ مدة قصيرة الى التقاعد ، واستقر مع أسرته في بطرسبرج .
وكان الرجل يملك مالا ، وان لم يكن ثرياً . . . ولكنه كان يبدو في
يسر وبجوحة . ليس في العالم أحد ، حتى ولا امرأته أو بنتاه ، يعرف
مبلغ المال الذي ادخره هذا الموظف المعجوز .

وكان يحب الشراب ، وكان عنيد الرأي مستبد الطبع (ناهيك عن
المرض الذي كان يفتك بجسمه) وكانت احدى ابنتيه متزوجة قيدا له
فجأة أن يزوج بسلدونيموف الابنة الصغرى . كان يقول :

— لقد عرفت أباه . كان أبوه رجلاً شهماً ، وان ابنه ليشبهه .

وإذا كان يفرض سلطته ويملي إرادته على الجميع فقد تم كل شيء
لى ما أحب واشتهى •

وكان سلوك العجوز مامفروف سلوكاً عجيباً : كان يقضى وقته
كله جالساً فى مقعد ، ويظل يشرب خلال أيام بكاملها رغم أنه قد فقد
استعمال مساقيه وأصبح كسيحاً • وكان لا ينفك يصب على من حوله
الاهانات تلو الاهانات ، ويمطرهم بهاجر القول وفلحش المزاح •

ان هذا الانسان القاسى المشاحن المناكد ، كان دائماً فى حاجة الى
شخص يضطهده ويسومه سوء العذاب ، فمن أجل أن يرضى هذا الهوى
كان يُعيل فى منزله عدة قريبات له : أختاً ممراساً مشاكسة ، وامرأتين
هما عمتان لزوجته ، شريرتين ثرثارتين ، وعمّة عجوزة عرجاء شديدة
الشراسة •

ومع ذلك لم تكفه هذه العشرة ، فكان يؤوى امرأة طفيلية أخرى
هى عجوز ألمانية أصبحت روبية ، وهى تتم بموهبة نافعة جداً قوية
كثيراً : فقد كانت تقص حكايات « ألف ليلة وليلة » ببراعة فائقة •

وكانت أكبر لذة يشعر بها العجوز هى أن يسىء معاملة هذه
العصبة من النساء الشقيات البائسات ، وأن يرشقهن بكلمات نابية فضلة
غليلة ، دون أن تستطيع احداهن أن تحجيه بشيء فى يومٍ من الأيام ،
حتى ولا زوجته التى ولدت وهى تعاني أوجاعاً فى الأضراس •

كان مامفروف يدبر مكائد ويحيك مؤامرات ويتكر دسائس
وينشر نمام ويذيع أقاويل ، فيجرّس هاته النسوة بعضهن على بعض ،
وكان فرحه يبلغ الذروة حين يأخذ يتأمل المشاجرات التى أثارها
بينهن •

وقد سرّ مزيداً من السرور حين مات زوج ابنته الكبرى ،

الضابط الفقير ، فاضطرت الأرملة المسكينة أن تلجأ الى منزل أبيها مع أولادها الثلاثة . ولئن كان المعجوز يكره الأطفال فى الواقع ، فان وجود هؤلاء الأولاد الثلاثة قد زاد عدد الضحايا الذين يستطيع أن يتسلى بتعذيبهم كل يوم .

هذا الرهط كله من النساء الشريرات والأولاد المراضين كان يتكدس فى المنزل الصغير المبني من خشب . وكان الجلاد المعجوز يسيطر سيطرة تامة على هذا العالم كله الذى لا يتاح له أن يأكل كلما جاع : كان الكسبح بخيلاً ، وكان يحسب ما ينفقه قرشاً قرشاً ، رغم أنه لا يحرم نفسه من الشراب . وكان أفراد هذا الرهط لا ينامون أيضاً ، لأن المعجوز كثيراً ما يستبد به الأرق فلا بد له فى كل لحظة من أحدٍ يسليته ويساعده على تزجية الوقت .

الحلاصة أن أهل المنزل ، باستثناء سيّده ، كانوا جميعاً يعانون ألوان العذاب ويشكون من سوء الحظ ويلعنون ظلم الأقدار .

وفى ذلك الحين انما شامت مصادفة خبيثة ماكرة أن تتسلى باتمام لقاء بين بسلدونيموف وماميفروف . لقد أعجب المعجوز الشاذ بطول أنف الشاب ، وأعجب بهيئته التى تشبه هيئة كلب خاضع ذليل .

كانت ابنته الصغرى ، وهى فتاة ضعيفة الجسم قليلة البشاشة ، قد بلغت السابعة عشرة من عمرها منذ برهة قصيرة ؛ ورغم أنها اختلفت بعض الوقت الى مدرسة ألمانية مغمورة ، فانها لم تحصل الاً قدراً ضئيلاً من المعرفة ، ولم تصب الاً حظاً يسيراً من العلم . وحين خرجت من المدرسة مصابةً بفقر الدم مهياةً لمرض السل ، استأنفت حياتها فى جحيم هذا المنزل حيث تهددها عصا الأب وتسمم نفسها النمام والأقاويل وأنواع التجسس وصنوف التخرص . لم يكن لها فى يوم من الأيام

صديقات ، ولا برهنت فى يوم من الأيام على أنها ذات ذكاء ، ولكنها تشتهى منذ مدة طويلة أن تتزوج • ورغم انها صمدت حزيمة أمام جميع الناس ، فلقد كانت تتصدى لأمها ولسائر النساء الطفليات اللواتى يعشن فى هذا المنزل ، فتبرهن بذلك على أنها هى أيضاً شريرة مشاجرة ، مناكدة كبعوضة • وكانت لذتها هى أن توزع القرصات واللكمات على أولاد أختها ، وأن تنهى بأيسر ما يرتكبونه من أخطاء وما يقترفونه من سرقات صغيرة لشيء من سكر أو خبز ، فكان ذلك يوقع بينها وبين أختها حرباً دائماً •

وقد تولى الأب بنفسه أن يعرض على بسلدونيموف ابنته ، فطلب الفتى أن يمهله المعجوز بضعة أيام للتفكير ، رغم فقره الشديد ؛ وأخذ يتشاور مع أمه مدة طويلة ، تردداً خلالها كثيراً • على أن العرض كان لا يخلو من جوانب مغرية : فإن مهر الفتاة منزلٌ ان كان عتيقاً فما يزال صالحاً للسكنى ، هذا عدا اربعمائة روبل هى مبلغ لو أراد الفتى أن يجمعه من مدخراته الطفيفة لاحتاج الى سنين عديدة •

كان المعجوز يصيح سائلاً فى تعجب :

— أتسألونى لماذا أَسْكُن فى منزلى رجلاً ؟ فاعلموا اذن أن هاته الأنثى جميعاً قد أخذت تثير فى نفسى الاشتزاز ! اننى أريد أن أصبح محسناً الى بسلدونيموف أيضاً ، بغية أن يخضع لارادتى • ولكننى أفعل ذلك خاصةً من أجل أن أزعج الفسائين الكريهة التى تعارض هذا الزواج وتريد أن تمنعه • اننى أحب أن أناكدهنَّ وأن أغيظهن ! هذا هو الأمر ! أما أنت يا بورفير ، فيجب أن تعدنى ، متى صارت ابنتى زوجتك ، بأن تعرف كيف تضربها ضرباً مبرحاً بعضاً سأعطيك اياها • ان فيها ، منذ وُلدت ، سبعة شياطين لا بدَّ من طردها مهما كلف الأمر ! ومن أجل ذلك سأهيب لك هراوة ضخمة مناسبة !

وقبل الزفاف بثمانية أيام أقام بسلدونيموف وأمه في منزل المعجوز بعد أن اغتسلا وارتديا ثياباً جديدة وامتلا أحذية جديدة • وها هو ذا المعجوز الذى أصبح يرعاهما ويحميهما لأنه يحب المشاكسة ولأن سائر أفراد الأسرة كانوا يكرهون هذين الدخيلين ، ها هو ذا يدفع مبلغاً من المال للاحتفال بالزواج ، حتى لقد بلغ اعجابه بأم بسلدونيموف أنه كان لا يجرؤ أن يهينها أو أن يشتمها • أما الخطيب فقد اضطر قبل زواجه بثمانية أيام أن يرقص أمامه رقصة القوزاق •

فلما انتهت الرقصة قال له حموه :

— كفى ! فانما أردت أن أعرف أنك لا تعصى إرادتى وأنتك تخضع
لشيتى •

وكان المبلغ الذى دفعه ماميفروف لاقامة الحفلة ضئيلاً جداً فى الواقع ، ولكن المعجوز فى مقابل ذلك قد دعا الى الحفلة جميع الأقارب والمعارف •

أما بسلدونيموف فلم يدع إلا شخصين : صديقه محرر « جوروفشكا » ، وأكيم بتروفتش رئيس مكتبه ، الضيف المرموق • وكان الخطيب المسكين لا يجهل أن خطيبته تميل الى الضابط ، وتكره الزوج الذى فرض عليها كرهاً صادقاً • ولكنه كان يحتمل كل شيء ، لارتباطه بالوعد الذى قطعه على نفسه لأمه •

وقد حفل يوم الزواج من أوله الى آخره بالصرخات والشتائم يطلقها المعجوز الذى سكر منذ الصباح •

وحين اقترب المساء التجأت الأسرة كلها الى الغرف البعيدة التى.

تملؤها رائحة موبوءة كريهة • أما الغرف الواقعة في واجهة المنزل فقد أعدت للموائد والرقص • وفي نحو الساعة الحادية عشرة نام الميجوز فهدأ غضب أم العروس قليلاً ، وأصبح مزاجها محتملاً مقبولاً ، فخرجت من حجرتهما ، ومضت تنضم الى الطاعمين على مائدة العشاء •

ولكن وصول ايفان ايلتش كان قد قلب الأمور كلها رأساً على عقب •

اضطربت السيدة ماميفروف أشد الاضطراب وغضبت أشد الغضب لأنهم لم ينبشوها بزيارة الجنرال • ورغم أن صهرها قد أكد لها أن صاحب السعادة قد وصل فجأة على غير توقع وبدون دعوة ، فانها لم تشأ أن تصدق شيئاً وأصررت على تكذيب صهرها في عناد غبي أبلي •

وكانت قضية الشمبانيا قضية كبرى : كانت أم بسلدونيموف لا تملك الا روبلاً واحداً • أما الرئيس فقد أصبح لا يملك الا كويكاً • لذلك اضطرب الشاب المسكين أن يمضى ضارعاً الى حماته أن تعطيه ثمن زجاجة واحدة في أول الأمر وثمان زجاجة ثانية بعد ذلك ، باسماً لها الفوائد التي سوف يجنيها من ذلك في وظيفته • ولكن الحماة لم تستجب لرجائه الا بعد أن بلغت من اغلاظ القول له أنه أخذ يرتعش غضباً مكظوماً ، وأنه ارتضى على السرير المخصص لباهجه الزوجية المقبلة عدة مرات وهو يشد شعره فينتف منه خصلاً •

آه لو علم ايفان ايلتش كم كان ثمن هاتين الزجاجتين من شامبانيا جاكسون اللتين شربهما في السهرة !

ولكن ما أشد ما اجتاحت بسلدونيموف من هول ورعب حين رأى الأمر ينتهى هذه النهاية التي لم تكن في الحسبان ! كان ينتظر ليلة زاخرة بالصرخات والملامات تطلقها أسرة بكاملها من الأغبياء ، وكان

رأسه قد ألم به صداع سلفاً ، وكانت عيناه قد غشيتهما ظلمات • ثم
ها هو ذا مضطرب أن يمضي في الساعة الثالثة من الصباح باحثاً عن طبيب
وعن مركبة فضمة تنقل الموظف الكبير الى منزله ، لأن شخصية خطيرة
الشأن عالية القدر الى هذا الحد لا يمكن أن تركب عربة شعبية ، كما
تدركون ذلك حق الادراك •

ولكن أين له بالمال يستأجر به مركبة ؟ ان السيدة ماميفروف
العجوز التي أحقتها وأغاضها أن الجنرال لم يخاطبها بكلمة واحدة طوال
السهرة قد رفضت رفضاً قاطعاً أن تعطيه شيئاً من المال ، وأعلنت له أنها
لا تملك كوبكاً واحداً ، ولعلها كانت صادقة فيما زعمته على كل حال ! •
فأين يبحث عن مال ؟ أين يجد المال ؟ أليس في هذا ما يدعو الى
شد شعره ؟

بينما كانوا يرفعون الأطباق عن الموائد ويرتبون المنزل بعض
الترتيب ، نُقل ايفان ايلتش الى كنية منجدة بجلد ، فأُرقد عليها •
وكان بسلدونيموف المسكين يركض أثناء ذلك من غرفة الى غرفة
باحثاً عن بعض النقود ! حاول أن يقترض من الخادmates ، ولكن محاولاته
هذه لم تجده نفعا ، وجازف فالتمس قرضاً من آكيم بتروفتش الذي
بقى في البيت بعد انصراف سائر المدعوين ، ولكن رئيس المكتب ، رغم
أنه رجل طيب القلب شهم يحب خدمة الناس ويهب الى نجاتهم ،
اضطرب واحترار واربتك من هذا الطلب الذي لم يكن يتوقعه وأخذ
يجمعهم بأعذار غير مفهومة قائلاً :
- في يوم آخر ... ما كنت لأقول شيء ... كان يسرنى أن ...
أما الآن ... فأرجو أن تعذرني ...

وتناول رئيس المكتب طاقته المصنوعة من فراء ، وولى هارباً !

وكان الشاب الذى تكلم أثناء السهرة عن « تفسير الأحلام » قد لبث فى المنزل هو أيضاً بعد انصراف الآخرين ، يشارك فى المصيبة التى نزلت على آل بسلدونيموف ، ويتمنى صادقاً أن يستطيع تقديم خدمة ماء وقرر الثلاثة ، الأم وبسلدونيموف والشاب ، قرروا بعد التشاور أن لا يزعجوا طبيباً ، ورأوا أن من الأفضل أن ينقل المريض الى منزله بسرعة •

وبانتظار ذلك أضعف المريض بالوسائل المتاحة : كمادات ماء بارد على الصدغين ، جليد على الجمجمة ، الخ ••• كان ذلك هو الدور الذى قامت به أم بسلدونيموف ، أما الشاب فقد انطلق راكضاً يبحث عن عربة •

ولكن العربات كانت قد أوت الى مراتبها ، فمن الصعب فى مثل هذه الساعة العثور على أية مركبة ، فاضطر الشاب أن يذهب الى الضواحي ليوقف حوزياً من نومه • وتمت المساومة بينه وبين الخوذى • ان أجرة العربة لا يمكن أن تقل فى مثل هذه الظروف عن خمسة روبلات ومع ذلك تم الاتفاق أخيراً على أجرة قدرها ثلاثة روبلات •

ولكن حين وصل الشاب فى نحو الساعة الرابعة من الصباح الى منزل آل بسلدونيموف ، كان الابن وأمه قد غييرا رأيهما منذ مدة طويلة • لقد كان واضحاً أن ايفان ايلتش لا يمكن نقله : انه يشن أتيناً متصلاً ويتخبط على مرقده بغير انقطاع •

تساءل بسلدونيموف وقد خارت قواه وبارحته شجاعته : « ما الذى سنصير اليه ؟ » •

ما العمل ؟••• هذا سؤال جديد يقوم : اذا كان ينبغي أن يبقى

المريض هنا فإين يوضع ؟ ان المنزل كله ليس فيه الا سريران : الأول ينام عليه ماميفروف وزوجته ؟ والثاني مخصص للعروسين وهو سرير جميل من خشب الجوز الملمع قد اشترى حديثاً .
أما سكان المنزل الآخرون فانهم ينامون أرضاً على ألحفة عتيقة كريهة الرائحة محدودة العدد . وقد يمكن الحصول على لحاف منها عند الاقتضاء ، ولكن أين يمكن فرشته لأرقاد المريض عليه ؟

كان لا يمكن وضع مضجع الجنرال الا فى الصالون ، لأنه أبعد الحجرات عن مفادة الأسرة ، ولأن له مدخلاً خاصاً . ولكن على أى شىء يوضع اللحاف ؟ أیوضع على كراسى ؟ ذلك مستحيل : ان مرقداً كهذا المرقد يصلح فى أكثر تقدير لطلاب من المدارس الثانوية جاموا لقضاء يومى السبت والأحد عند أسرهم . أما شخصية كشخصية ايفان ايلتش فلا يمكن أن ترضى به . وقد رفض بسلدونيموف حتى أن يتصور هذا الأمر وأن يناقش هذه الفكرة . فلم يبق اذن الا حل واحد هو أن يُنقل الموظف العظيم الى سرير العرس المنسوب فى غرفة صغيرة قرب قاعة الطعام .

كان على هذا السرير ، المشتري حديثاً كما ذكرنا ، فرائش جديد وأربع مخدات ذات أعطية وردية اللون مزدانة بتخاريم ؟ وكانت تظلل السرير مظلة مثبتة بدبابيس مذهبة . الخلاصة أن السرير قطعة أثاث لا عيب فيها ولا مأخذ عليها ! والمدعوون الذين مروا جميعاً بتلك الحجرة قد أثنوا على ترتيب هذا المجمع ثناءً كثيراً .

والعروس ، رغم ما تحمله لعريستها من كره واحتقار ، لم يقتنها أن تتسلل الى الترفقة خلصةً عدة مرات لتأملها معجبة ، فما كان أشد غضبها اذن حين علمت أن سرير العرس سينام عليه ويوسخه مريض يشبه أن يكون مصاباً بالكوليرا من شدة القيء والاسهال !...

وسرعان ما انضمت أمها إليها تدافع عنها ، وتشر الشتائم ، وتهدد بأن تقول لزوجها المحترم كل شيء ، وأن تطلعه على كل ما جرى . ولكن بسلدونيموف ظل صامداً لا يتثنى عن عزمه ، فأرقد ايفان ايلتش في الغرفة الصغيرة ، وأصبح على العروسين أن يرضيا بسرير اخترع اختراعاً في غرفة الطعام برصاً عدد من الكراسي بعضها الى جانب بعض .

وقد انفجرت العروس الشابكة منتجة ، ولكنها لم تجرؤ أن تدخل في تمرد صريح وعصيان ظاهر ، لأنها كانت لا تجهل وجود عصا أبيها ، ولأنها كانت تعلم أن أباهما لن يفوته في الغد أن يطلب تقريراً مفصلاً عن أحداث السهرة . وكان يعزيبها على كل حال أن السرير قد زُيّن بغطاء جميل وردى اللون وبوسائد مزدانة بتقاريم .

في تلك اللحظة وصل الشاب أخيراً مع العربة ، فلما علم أنهم أصبحوا في غير حاجة إليها اصفر وجهه اصفراراً شديداً . لقد وقع كل شيء على رأسه هو الذي لم يملك طوال طوال حياته عشرين كوبكاً ، اذ احترف له سنلدونيموف بأنه ليس معه شيء من مال البتة ! ولم تجده المشاجرات مع الخوذي نفماً . كان الخوذي يريد أن يدفع له أجره ، وأخذ يطرق الباب طرقة شديداً . لا أدري على وجه الدقة كيف انتهى هذا الأمر . ولكنني سمعت أن الشاب ظل سجين العربة مدة ، ثم مضى بها الى ضاحية بيسكى ، حيث كان يأمل العثور على طالب من أصدقائه ربما استطاع أن يقرضه مبلغاً صغيراً .

وكانت الساعة هي الخامسة من الصباح حين اختلى العروسان أخيراً .

وتطلعت العجوز المسكينة ، السيدة بسلدونيموف ، بالسهر على المريض ، فتمددت فوق خرقة بالية ، والتحفت فروتها الهزيلة . ولم

تستطع أن تام طبعاً ، لأنها كانت تُضطر الى النهوض في كل لحظة بسبب الاسهال الشديد الذى انتاب ايفان ايلتش . ان السيدة بسلدونيموف امرأة كريمة الخلق قوية الجسم ، وقد خلعت عن الموظف العظيم ملبسه ، وأرقدته على السرير ، وراحت تعامله كأنه ابنها ، ولم تنقطع طوال الليل عن الركض من الغرفة الى الدهليز ومن الدهليز الى الغرفة . على أن مصائب تلك الليلة لم تقف عند هذا الحد !... .

ما ان انقضت عشر دقائق على حبس العروسين في غرفتهما حتى سُمعت صرخة حادة ليست صرخة فرحة بل مذعورة ، ثم سرعان ما دوت ضجة رهبة هي قرعة وطقعة وضوضاء كراسى تهاوى على الأرض ، فما هي الا لحظة حتى هرعن الى غرفة العروسين جمهرة من النساء تعول وتولول مرتدية أنواعاً شتى من قمصان النوم : هن أم العروس الشابة ، وأختها الكبرى التى اسرعت تاركة أولادها المرضى ، وعماتهن الثلاث حتى المرجاء منهن ؛ ووصلت الطباخة أيضاً تبعها الألمانية المجوز التى كانت مهنتها قصص حكايات « الف ليلة وليلة » . ان هذه الألمانية المجوز قد أخذ منها فراشها الذى هو أحسن فراش في المنزل كله والذى كان كل ما تملك من حطام الدنيا ؛ ومع ذلك جاءت الآن بغير حقد ولا ضغينة . ان جميع هاته النساء المحترمات اللواتى يتربصن منذ ربع ساعة عند قفل الباب ، كان يلتهمهن فضول خبيث شرير .

وفجأة أشعل أحد نوراً ، فاذا بمنظر ليس في الحسبان يعرض الآن للأبصار : ان الكراسى المتلاصقة لم تستطع أن تحمل وزن العروسين مجتمعين فتهاوت وسقط اللحاف على الأرض . وما هي ذى العروس

تبكى وتغلى غضباً ، وتشعر أنها قد أهيت حقاً ، وما هو ذا بسلدونيموف قد تحطمت نفسه تماماً ، فجمد على وضع مجرم فوجىء متلبساً بالجرم . وهو لا يحاول حتى أن يردّ على هذا الموقف بشيء ، فكأنه لا يشعر بأصوات الصراخ والمويل التي أخذت تصب عليه .

واجتذبت هذه الجلبة أمّ بسلدونيموف أخيراً . ولكن الحماة هي التي كانت لها الغلبة في هذه المرة . لقد صُعقت الحماة ، وخرجت عن طورها ، فأخذت تصبّ على بسلدونيموف ملامات غريبة ظالمة في آنٍ واحد : « أى زوج أنت ؟ لأى شيء تصلح بئذ هذا ؟ الخ » . ثم أمسكت يدها ابتها وجرتّها الى غرفتها وهي تعد بأن تقصّ على الأب الأسباب التي دعته الى أن تتصرف هذا التصرف قائلة ان الأب لا بد أن يغضب أشد الغضب . وتبعتها بقية الجمع ، وهي تهرز رأسها وتطلق الأهات حزناً وكنداً ، فبقى بسلدونيموف وحيداً مع أمّه التي راحت تحاول أن تواسيه وتمزيه ، ولكنه لم يلبث أن صرفها . وما كان لأنواع التعزيات أن تسرّي عنه وأن تخفف كربه على كل مال ا . . .

ومضى الى الكنبه غارقاً في تأملات كالحلة حزينة . ولبت على هذه الحال مدة طويلة حافى القدمين عارى الجسم إلا من بعض الملابس الداخلية التي لا بد منها ولا غنى عنها . وأخذت الأفكار والخواطر تتصادم في رأسه المسكين . وكان في بعض اللحظات يلتقي بصره عرضاً بالفرقة التي كان جمهور الرافضين المسعور يتخطب فيها منذ ساعات قليلة ، والتي ما تزال مشبعة براحة التبغ . ان أعقاب السجائر وأغلفة السكاكر ما تزال تفتش الأرض الرطبة القذرة . وكان حطام سرير العرس والكراسي المنقلبة تمثل في نظر الشاب المسكين بطلان الآمال والأحلام في هذه الحياة الدنيا كلها !

لبث على هذه الحال أكثر من ساعة . ان رأسه يميع بصور ثقيلة

وتهلويل مرهقة • من ذلك أنه كان يتساءل : ما الذى ينتظره فى المكتب؟
 كان يدرك حق الإدراك أن عليه أن يبدل الدائرة التى يعمل فيها • ذلك
 أنه لا يستطيع بعد الذى حدث فى هذه الليلة أن يبقى فى مكتب الجترال.
 وطافت برأسه ذكرى مايفروف فأزعجته أيضاً : ترى أن يحمله
 حموه على أن يرقص رقصة القوزاق لا شئ الا أن يقتنع بطواعيته ؟
 ثم ألمت برأسه تلك الفكرة الرهيبة ، وهى أن حماه لم يتقدم حتى
 الآن إلا خمسين روبلاً أنفقها هو كلها ثم لم يبق حموه بعد ذلك قط
 على ذكر الأربعمئة روبل الأخرى من المهر • كما أن بسلدونيموف لم
 يمتلك المنزل أيضاً • ثم فكر بسلدونيموف فى أمراته التى تركه منذ
 بركة فى أخرج لحظة من لحظات حياته • وتراعى للمسكين ذلك الضابط
 الذى كان يركع أمام زوجه • ان بسلدونيموف قد لاحظ ذلك فى
 حينه ، فشعر بغضب اضطر أن يكظمه • وفكر أخيراً فى الشياطين
 السبعة التى تسكن جسم امرأته الشابة ، على ما أكدّه أبوها ، والتى
 لا بد له من طردها بالصنا التى أعدها العجوز مايفروف لهذا الغرض •
 لا شك أن بسلدونيموف كان يعتقد أنه قادرٌ على احتمال كثيرٍ
 من الابهانات والاساءات وأنواع الأذى • ولكن ألم يكن القدر مسرفاً فى
 القسوة عليه والظلم له حين أرهقه هذا الارهاق فجأةً كأنما ليهدم آخر
 قواء مزيداً من التهديم وليجهز عليه اجهازاً كاملاً ؟

هكذا راح بسلدونيموف يتعذب ويجتر آمه ومصائبه بينما كانت
 السمعة الذائبة تُحَضِر على المائدة • ان الضوء الضعيف الكابى
 الذى كان يسقط على وجه الشاب المهجور الحزين من جانب ، كان
 يرسم على الجدار صورة جسم ضخم ، معقوف الأنف ، طويل الرقبة ،
 على رأسه خصلتان من الشعر كأنهما قرنان • وهبّت عليه طراوة الصباح فارتعش وارتجف • ونهض متجههم

النفس مكدود الجسم خائر القوة ومضى الى اللحاف المكتوم بين الكراسي
المنقلبة فاستلقى عليه دون أن يصلح شيئاً من الفوضى ، وحتى دون أن
يضع تحت رأسه وسادة • وما لبث أن اجتاحه نومٌ ثقيلٌ كالرصاص ،
فغاب عن الدنيا وهو يحس باحساس من حكم عليه بالاعدام •

ومن جهةٍ أخرى ، بماذا نستطيع أن نشبه الليلة التي قضاها ايفان
ايلتش على سرير العرس الذي كان معداً للمسكين بسلدونيموف
وعروسه ؟

ان آلام الرأس واندفاعات التقيؤ ونوباتٍ أخرى أشد ازعاجاً لم
تقطع عن اراحته طوال الوقت • لقد كان في جحيم من العذاب • وكانت
ومضات الوعي التي تومض في رأسه من حين الى حين تكشف له عن
هوةٍ من الهول والروع ، وتريه مناظر مظلمةً كريهة تبلغ من البشاعة
أن بقاءه غائباً عن الوعي كان خيراً له من القطة فليته لا يبق أبداً ! • •
على أن كل شيء كان يختلط في ذهنه ويتداخل ويتشابك • ومع ذلك
كان يتعرف أمّ بسلدونيموف • كان يسمع أقوالها المشجعة وكلماتها
المواسية :

— تحمل قليلاً يا عزيزى ! تحمل يا أخى ! سينقضى هذا كله ! •

كان يتعرفها دون أن يفهم مع ذلك لماذا تقوم هذه المرأة عليه ولماذا
تسهر بجانبه •

وكانت أشباحٌ غريبة وأطيافٌ عجيبة تنبجس في خياله بدون
انقطاع : كان سيمن ايفانوفتش يتراءى له في أكثر الأحيان حتى اذا
أسرع ينعم النظر فيه بمزيد من الانتباه رأى أنف بسلدونيموف تم
تراءى له الفنان والضابط والمرأة المضمدة الحُد يرقصون أمامه رقصةً
محتمة عنيفة •

غير أن ما كان يحييّرهُ أكثر من أى شيء آخر انما هو الحلقة
 المذهبة فى سماء السرير فوق رأسه : كان المريض رغم أنه يرى هذه
 الحلقة رؤية واضحة متميزة تسطع فى الضوء المهتز الصادر عن الشمعة
 الذائبة ، لا يستطيع أن يدرك ماهو هذا الشيء الغريب المعلق فى الأعلى ،
 ولا يعرف ما عمله هنالك ! وقد سأل السيدة العجوز مراراً ، ولكن
 أغلب الظن أنه كان لا يفصح فى سؤاله بوضوح كافٍ ، لأن العجوز لم
 تفلح فى أن تفهمه قط !... وحين اقترب الصبح انقطعت نوبات القىء
 والاسهال فنام بغير أحلام ساعة كاملة !... .

فلما استيقظ واعياً كل الوعي ، شعر بألمٍ حادٍ فى رأسه وبذواق
 غثيان فى فمه ، وأحسّ بلسانه كأنه خرقة بالية .

هبّ منتصباً على سريرهِ ، وألقى حوالبه نظراتٍ مدهوشة . وكان
 الضوء الشاحب الذى يخترق شقوق المصاريع عند طلوع النهار ، يهتز
 ويتراقص على الجدار . لا بد أن الساعة لم تكن بعيدة عن الساعة .

حتى اذا أدرك فى آخر الأمر ادراكاً واضحاً ما جرى ، وتذكر
 جميع الأحداث التى ازدانت بها مأدبة العشاء ، وتذكر عمله البطولى
 المخفق ، والخطاب الذى ألقاه على المائدة ، وتصوّر بكل ما أمكنه من
 وضوحٍ وجلاء النتائج التى نجمت عن اقتحامته الباسلة ، ورأى أخيراً
 الحالة التى صار إليها مضجع عرس مروعته المسكين ، شعر عندئذ
 فقط ، بالعار والحزى يجتاحان نفسه ، وبالهول والروع يستبدان به ،
 فاذا هو يطلق صرخةً من أعماق صدره ، ويفطى وجهه بيديه ، ويهوى
 ساقطاً بين الوسائد . ثم اذا هو بعد لحظة واحدة يشب فينزل عن السرير .
 وعلى أحد الكراسى رأى ثيابه مرتبة مطويةً منظفةً بالفرشاة ، فأسرع
 يرتديها وهو يلقي على ماحوله نظراتٍ زائفة . وفوق كرسى آخر على
 مقربةٍ منه كان يرقد فراؤه وقبعته وقفازاه الأصفران ، فسرعان ما خطر

بإله أن يولى هارباً على الفور • ولكن ها هو ذا الباب يُفتح ، وها هي ذى
العجوز بسلدونيموف تدخل حاملةً بين ذراعيها طشتاً من فخار ، وعلى
كتفها منشفةً نظيفة • وضعت السيدة بسلدونيموف الطشت على منضدة
الزينة وألزمت المريض بأن يفصل وجهه دون أن تكثر من الكلام
قائلةً له :

— هلمَّ يا عزيزى ! لا يمكنك أن تخرج من هنا دون أن تفصل
وجهك ! •••

أدرك ايفان ايلتش أنه اذا كان هنالك انسانٌ ليس عليه أن يحمرَّ
أمامه خجلاً ، فهو هذه العجوز الطيبة • وهكذا غسل وجهه ، فحسر
بشئ من الاتعاش •

ان الجنرال سيظل زمناً طويلاً ، أثناء الساعات العصية من الحياة ،
أثناء الساعات التى يعاود الانسان فيها تأنيب الضمير ، سيظل يتذكر
هذا الجو الذى أحاط به عند استيقاظه : ابريق الحزف ؛ الطشت الذى
يملؤه ماءً بارد وتسبح فيه قطع من جليد ؛ الصابونة البيضاء المفلقة
بورق وردي اللون ، التى يساوى ثمنها نحو خمسة عشر كوبكاً والتى
لا شك أنها اشترت للعروسين فاضطر أن يكون هو أول من
يستعملها ؛ العجوز الطيبة وهى تحمل المنشفة على كتفها اليسرى •

أنعش الماء البارد ذهنه وأيقظ فكره • وتناول الجنرال المنشفة
فجفف وجهه ثم أخذ قبعة وألقى على كتفيه فراه ثم اندفع يخرج الى
الدلهيز حتى دون أن يشكر مرضته • اجتاز المطبخ الذى كانت تموء
فيه قطرة ، فلما رآته الطباخة التى كانت ما تزال مندسةً فى مضجعتها ،
اتصبت لتلقى عليه نظرة استطلاع غريبة • ووصل أخيراً الى الشارع ،
فنادى عربةً كانت عندئذ مارة ، ووثب الى داخلها بسرعة وقوة •

كان الصباح بارداً ، وكان ضبابٌ ضاربٌ الى صفرة يحجب
النازل . رفع ايفان ايلتش ياقة معطفه يخفى بها وجهه : كان يقدّر أن
جميع الناس يتعرفونه ويأخذون عليه سلوكه ...

خلال ثمانية أيام لم يخرج الجنرال من منزله ولم يذهب الى
مكتبه . لقد كان مريضاً ، كان مريضاً في نفسه أكثر مما كان مريضاً
في جسمه . عانى في هذا الأسبوع عذاباً من عذاب جهنم : لا شك أن
آلامه هذه قد حُسبت له في الآخرة !

في بعض اللحظات ، كان يخطر بباله أن يدخل الدير ، ويشرد
خياله أحياناً فاذا هو يسمع أناشيد معذوبة كأنها تخرج من سرايب تحت
الأرض ، واذا هو يرى قبراً محفوراً ، ويرى الحياة في حجرة ضيقة
منزلة في المناسك داخل الغابات . ولكنه ما يلبث أن يهز هذه الأشباح ،
فيترف لنفسه بأن هذه الأحلام كلها لم تكن الا مبالغات مرضية ،
فسرعان ما يشعر من ذلك بخجل وعار .

وفي مراتٍ أخرى ، كانت تعتريه نوبات حسرات ولوعات . كان
يعتقد عندئذٍ أن حياته قد أخفقت . فاذا صحا ذهنه بعد ذلك قليلاً
طفق يقاوم سيطرة هذه الهواجس على نفسه ، ويحاول أن يطرد تلك
الذكريات البغيضة .

ثم تعود صورٌ أخرى تخطر في ذهنه من جديد : فاعساهم يقولون
عنه حين يرجع الى المكتب ؟ ألن تضطهده وتمدّبه دمدماتٌ ساخرة
متهمكة طول سنة بكاملها ، بل خلال عشر سنين ، بل مدى حياته
بأسرها ؟

وكانت هذه الفكرة تجعله جباناً رعيدياً ، فاذا هو مستعدٌ لأن

يذهب الى سيمن ايفانوفتش يسأله الصفح والعفو والمغفرة ويتهل اليه بعد ذلك أن لا يجرمه من صداقته • أما هو فلا يحاول أن يبرىء نفسه وانما هو يتهمها ولا يجد أى عذر يغفر له ، بل هو يزداد هبوطاً في هاوية الشعور بالعار والخبيل من نفسه •

وكان يخطر بباله أحياناً أن يقدم استقالته من وظيفته معتزلاً حياة الناس الذين أراد أن يقف حياته على خدمتهم • وكان قد قرر على كل حال أن يغير حلقة أصدقائه ومعارفه بغية أن يمتحو من نفوسهم حتى ذكراه • ولكنه سرعان ما رأى أن هذا الحل الأخير حل غبي ، وسرعان ما قال لنفسه ان الشدة الكبيرة في معاملة مرموسيه كقيلة بأن تطفىء ذكرى هذه القضية آخر الأمر ، فما يبقى منها في الأذهان أثر ، وكان من شأن هذه الفكرة أن وهبت له أملاً وبشت فيه قوة •

وأخيراً بعد ثمانية أيام قضاها في الآلم وشكوك ، أصبح لا يطبق احتمال هذا القلق الذى يشيمه المجهول في نفس الانسان ، فاذا هو يذهب في ذات صباح الى مكتبه •

وقبل ذلك ، أثناء مكوثه في المنزل ، كان قد حاول ألف مرة أن يتصور عودته هذه الى المكتب ، فكان يملكه الرعب مما يتوقع أن يسمعه من دمدومات مشبوهة وأن يراه من وجوه استطالت رغم اصطناعها قلة الاكثرا كذباً وزيفاً ، وأن يلمحه من ابتسامات مقتلة سوف تتلقاه بالتحية •

فما كان أشد دهشته حين لم يبصر من هذا كله شيئاً البتة ! استقبله الموظفون بكثير من الاحترام وحيوة منحني انحناء شديداً ، وكانوا جميعاً جادين كل الجدد منهمكين في عملهم كل الانهماك •

امتلاً قلب الجنرال فرحاً ومضى الى غرفته الخاصة وشرع يصرف

الأعمال فوراً بكل ما تقتضيه رتبته العالية من وقارٍ وجدٍ وفخامة •
أصغى إلى تقارير واستمع لشروح وأملى قرارات ، فكان يشعر أثناء ذلك
أنه لم يسبق له في يوم من الأيام أن اتخذ قرارات تبلغ من الذكاء
ما بلغت القرارات التي اتخذها في هذا الصباح • وقد لاحظ أن الموظفين
قد سُرُّوا بعودته وأنهم يحترمونه وأنهم يخاطبونه بكثيرٍ من التعظيم
والتبجيل • والحق أنه ما كان لأحد أن يكشف في سلوكهم شيئاً مهما
يبلغ من سرعة التأذى وشدة الحساسية • كان كل شيء يجري مجرى
رائعاً •

واستقبل الجنرالُ أخيراً أكيم بتروفتش الذي جاء يحمل كدسة
كبيرةً من الأوراق ، ففرص ظهوره قلبَ إيفان ايلتش ، ولكن ذلك لم
يدم إلا لحظةً قصيرة • وعمل الجنرال مع مدير مكتبه ، وكلمه في جد ،
وأشار عليه بإجراءات شتى • والأمر الوحيد الذي لاحظته هو أنه كان
يحرص برغبةٍ في تحاشي نظرة مرعوسه وأن مرعوسه يحاول هو أيضاً
أن يتقى نظراته بغير انقطاع •

فلما انتهى الموظف المجوز من عمله جمع أوراقه وهمّ
بالانصراف • لكنه تلبث قليلاً ، وقال يخاطب الجنرال بصوتٍ أجش :

— هنالك طلبٌ أخير : ان الموظف بسلدونيموف يلتمس نقله إلى
مكتبٍ آخر ... وقد تفضل صاحب السعادة سيمن ايفانوفتش فوعدهم
بوظيفة • وهو لذلك يتمنى أن تتكرم عليه يا صاحب السعادة بموافقتك
على ذلك •

قال إيفان ايلتش :

— آآآ يطلب استبدال الوظيفة !

وشعر الجنرال بأن قلبه يتخفف من حملٍ ثَقِيلٍ • ورفع عينيه الى
آكيم بتروفتش فالتقت نظرنا الرجلين لأول مرة •

وأضاف الجنرال يقول :

— طيب ! من جهتي ••• سأحاول أن ••• أنا مستعدٌ لمنحه
موافقتى !•••

كان واضحاً أن آكيم بتروفتش أصبح لا ينشد الآن الا شيئاً
واحداً هو أن يهرب بأقصى سرعة ، ولكن ايفان ايلتش أصبح يريد أن
يظهر نبل نفسه وسمو طبيعه ، ولعله يريد خاصة أن يوضح الموقف
توضيحاً حاسماً •

فرشق الموظفَ العجوزَ بنظرةٍ ملأى بدلالةٍ عميقة وقال له :
— أكَدْ باسمي لصاحبك بسلدونيموف أنني لا أريد به شراً •••
أننى لا أحقد عليه البتة !••• بالعكس : أنا مستعدٌ لأن أنس الماضى •••
لأن أنسى كل شيء ••• كل شيء !•••

ولكن أثر هذا الكلام فى آكيم بتروفتش اختلف كل الاختلاف
عما كان يقترضه ايفان ايلتش : فان آكيم بتروفتش الذى كان يبدو حتى
ذلك الحين رجلاً عاقلاً رصيناً قد استحال الآن الى انسانٍ أبْله كل
البلاهة فهو بدلاً من أن يصنى الى كلام الجنرال هادئاً ، احمر وجهه
على حين فجأة احمراراً لا يتصوره الخيال ، وراح يطرر رئيسه
بتحياتٍ صغيرةٍ متعاقبةٍ يمكن أن توصف بأنها غير لائقة ، وطلق يسير
الى وراءٍ بخبطٍ متقهقرةٍ محاولاً أن يبلغ الباب ليخرج • كان احترامه
هذا كله يعبر عن رغبة فى الاختفاء تحت الأرض ، أو قل فى الوصول
الى مكتبه والاتجاء اليه والاعتصام به •

فلما أصبح ايفان ايلتش وحيداً نهض عن مكانه وقد اعتراه
اضطراب لا يقاوم ، ونظر الى نفسه في المرآة فلم يكده يتعرف وجهه •

— لا ! ليس هناك الا الشدة ، الشدة ، الشدة ! •••

كذلك دمدم يقول على غير وعى تقريباً •

واجتاحت وجهه حمرة مفاجئة • ان شعوراً بالحزى والعار يرهق
نفسه ، وان ضيقاً ثقيلاً ييحم على صدره ويشنّج جسمه كله ، ضيقاً
أقوى من الضيق الذى استبد به طيلة أيام مرضه الثمانية •

قال لنفسه وهو يتهالك على كرسيه :

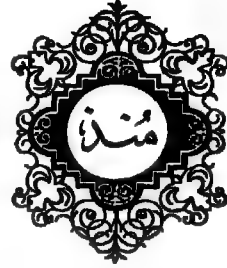
— لم أحسن التصرف •

ذكريات شتاء
عن مشاعر صيف
١٨٦٣

« ذكريات شتاء عن مشاعر صيف » ، ظهرت في
مجلة « الزمان » سنة ١٨٦٣ ؛ فاما الفصول ١ ،
٢ ، ٣ ، ٤ ففي عدد شهر شباط (فبراير) ، واما
الفصول ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ففي عدد شهر آذار (مارس)

الفصل الأول

مقدمة



أشهر عدة ، توحون الى ، يا أصدقائي ، بأن
أصف لكم أخيراً ما أحسست به في البلاد
الأجنبية ، وما تركته تلك البلاد في نفسي من
آثار ؟ توحون الى بذلك دون أن يخطر ببالكم
أن هذا الطلب يزجني في طريق مسدودة غير نافذة . فما عساني أكتب
أو أحكي من أمور جديدة مجهولة ؟ مَنْ منا ، نحن معشر الروس ،
أعنى أولئك الذين يقرأون الصحف والمجلات على الأقل ، لا يعرف
أوروبا أكثر مما يعرف روسيا مرتين في أقل تقدير . أقول مرتين من
باب التأدب ، ولو قلت عشر مرات لكنت أصدق . وعدا هذه الاعتبارات
العامة ، فانكم تعلمون حق العلم أنني لا أملك ما أقصه وما أصفه على
نحو منظم ، لأنني لم أر شيئا من الأشياء على نحو منظم ، لأنني لم يتسع
وقتي لأن أنعم النظر فيما رأيت . لقد زرت برلين ، ودرسدن ،
وفسبادن ، وبادن بادن ، وكولونيا ، وباريس ، ولندن ، ولوسرن ،
وجنيف ، وجنوه ، وفلورنسا ، وميلانو ، والبندقية ، وفيينا ؛ حتى لقد
زرت بعض الأماكن مرتين . وهذه الجولة كلها قد أتممتها في شهرين
ونصف شهر تماما . فهل يستطيع المرء أن يدرس الأمور كما ينبغي أن
تدرس حين يقوم بجولة كهذه الجولة في غضون شهرين ونصف

شهر ؟ تذكرون أنني رسمت مسار رحلتى قبل أن أغادر بطرسبرج •
 لم يسبق لى أن سافرت الى الخارج قبل ذلك قط : كنت أحلم بذلك منذ
 طفولتى الأولى ، حين كنت أصغى ، فاعرّ الفم ، ممتلئ القلب حماساً
 وهولاً ، أثناء ليالى الشتاء الطويلة ، لجهلى بالقراءة ، الى أبوى وهما
 يقرءان قبل النوم روايات مسز رادكليف * التى كانت تسلمنى بعد ذلك
 الى أحلام ثقيلة وكوايس رهية • واذا أنني لم أستطع أن أفلت أخيراً
 الا وقد بلغت الأربعين من عمري ، فقد أردت طبعاً أن أرى كل ما يمكننى
 أن أراه ، بل وأن أرى كل شىء ، كل شىء على الاطلاق ، رغم أن الزمن
 محدود • يُضاف الى ذلك أنني كنت عاجزاً عجزاً كاملاً عن اختيار
 الأماكن بهدوء وغير مبالاة ! رباه ! لشد ما كنت أمنئ نفسى بهذه
 الرحلة ! كنت أقول لنفسي : « هبنى لم أنعم النظر فى كل شىء تفصيلاً ،
 فسأكون قد طفت بكل مكان ، وسأستمد من ذلك رؤية اجمالية ،
 سأحظى من ذلك باطلالة من فوق . سأرى بلاد « العجائب المقدسة » *
 دفعة واحدة ، بنظرة تشبه نظرة الطائر من علياء السماء ، أو تشبه نظرة
 الانسان يتطلع الى أرض الميعاد من على ذروة جبل • أى سوف أشعر
 باحساس جديد ، قوى ، رائع •

والآن ، بعد أن رجعت الى منزلى ، هل تعلمون ما الذى يحزنى
 أكثر مما يحزنى أى شىء آخر ، حين أتذكر أسفارى الصيفية تلك ؟
 ليس الذى يحزنى أكثر مما يحزنى أى شىء آخر هو أن رؤيتى للأمور
 كانت رؤية سطحية ، بل اننى زرت كل مكان ، الا روما • ومهما يكن
 من أمر ، فلعلنى لو ذهبت الى روما لفاتنى البابا ••• الخلاصة أنني أشعر
 بظماً محرق الى الأشياء الجديدة ، وتغير الأماكن ، والمشاعر الكلية المركبة
 الاجمالية • فماذا تنتظرون منى بعد مثل الاعترافات ؟ ماذا أقص وماذا
 أصف ؟ أمانظرَ يراها رجل يطل من أعلى طائراً كمصفور ؟ ألا انكم

ستكونون أول من يقول لى اننى كنت مسرفاً فى التحليق أثناء الرؤية •
ثم اننى امرؤ يعد نفسه شديد التعلق بالدقة فى الصدق حتى من حيث
أنه سائح • وإذا شرعت فى أن أصف لكم ولو منظراً أطل عليه من فوق ،
فلا بد لى أن أكذب حتماً ، ولا بد لى أن أكذب لا من حيث أننى سائح ،
بل لهذا السبب البسيط وهو أننى يستحيل علىّ فى الوضع الذى أنا فيه
الا أن أكذب • ألا ترون معى هذا الرأى ؟

ان مدينة برلين ، مثلاً ، قد تركت فى نفسى أثراً بالغ الحموضة
ولم أمكث فيها الا أربعاً وعشرين ساعة • اننى أشعر الآن بأثنى آثم فى
حق برلين : لست أجرؤ أن أزعم أنها تخلف فى النفس أثراً حامضاً
ولو قلت انها تخلف فى النفس أثراً « حامضاً عذبا » لكان ذلك أصدق
فى أحسن تقدير • فما مبعث خطئى الحتمى ذاك ؟ مبعثه أننى ، وأنا
مريضٌ أعانى آلاماً فى الكبد ، قد لبثت يومين كاملين أرتج فى حافلة
القطار بين منظر الأمطار والضباب الى أن وصلت برلين ، فلما بلغت
شاحب الوجه مخلف الأعضاء محطّم الجسم لاحظت أن هذه المدينة تشبه
سان بطرسبرج شبةً عجيباً : فالشوارع الممدودة هنا هى نفس الشوارع
الممدودة هناك ، والروائح هى نفس الروائح ، و وكذلك سائر
وجوه الشبه الأخرى ! قلت لنفسى : « رباه ! أكان يستحق هذا منى أن
أضنى جسمى فى القطار يومين كاملين فى سبيل أن أرى ما أنا هارب
منه ؟ » • حتى شارع أشجار اليزفون * لم يعجبني ، مع أن ساكن برلين
مستعد لأن يضحى فى سبيل المحافظة عليه بأعز ما يملك ، وربما ضحى
فى سبيله بالدستور • هذا الى أن هيئات أهل برلين ، من أولهم الى
آخرهم ، كانت جميعها هيئات ألمانية تبلغ من ألمانيتها أننى زهدت فى مشاهدة
صور الجدران التى رسمها كالباخ * (يا للهول !) وأسرت أهرب الى

درسدن مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بأن عليّ أن أعود على الألمانى أولاً ، والا كان يصعب عليّ جداً أن أحتمله فى جمهور .

وفى درسدن أسأت الى الألمانية أنفسهن : لقد بدا لى ، منذ وطئت قدمى الشارع ، أن نساء درسدن هنّ أدعى ما فى العالم الى الاشتزاز ، وأن شاعر الحب نفسه ، فزيفلود كريستوفسكى * ، وهو أكثر الشعراء الروس اقتناعاً وطرباً ، لا بد أن يطيش هنا صوابه فإذا هو يشك فى رسالته الشعرية . وسرعان ما شعرت طبعاً أننى انما أقول سخفياً ، لأن هذا الشاعر لا يمكن أن يشك فى رسالته بحال من الأحوال . وما انقضت ساعتان حتى فسّرت لنفسى كل شيء : فأننى حين عدت الى غرفتى بالفندق فمددت لسانى أمام المرأة ، اقتنعت بأن رأى فى نساء درسدن ليس الا تعجيباً رديئاً واساءة بالغة . لقد كان لسانى أصفر اللون تغشاه طبقة من ... فقلت لنفسى : « رباه ! أيمكن أن يكون الانسان ، وهو ملك الكون ، رهناً بحالة كبده الى هذا الحد ! يا للشقاء ! ... »

ثم مضيت الى كولونيا ممتلئاً بهذه الأفكار التى تعزى النفس . واعترف لكم بأننى كنت أتوقع من الكاتدرائية أشياء كثيرة . لقد رسمت هذه الكاتدرائية بكثير من التقديس والتبجيل فى شبابه ، أيام كنت أدرس هندسة العمارة * . وحين مررت بمدينة كولونيا ثانية أثناء عودتى الى باريس ، فرأيت الكاتدرائية مرةً أخرى ، أردت أن « أجثو على ركبتى أمامها » مستغفراً ايها أنسى لم أدرك جمالها فوراً فى المرة الأولى ، تماماً كما فعل كارامازين * حين ركع أمام شلال نهر الراين . ان كاتدرائية كولونيا لم تعجبنى حين رأيته لأول مرة . قلت لنفسى حينذاك : « هى داتيللا لا أكثر ... ما هى الا داتيللا ... ما أشبهها بلعبة من لعب الأطفال ! .. ما أشبهها بضاغطة ورق طولها مائتا ذراع ! .. » حكم

شبه كل الشبه بالحكم الذى كان أجدادنا يصدرونه فى حق بوشكين حين يقولون : « ان فى نظمه اسرافاً فى السهولة • انه تموزه الرفعة وينقصه السمو ! » •

أحسب أن هناك ظرفين قد كان لهما تأثير فى ذلك الحكم الأول . فاما الطرف الأول فهو ماء الكولونيا • لقد كان مصنع جان مارى فارينا قرب الكاتدرائية • وأياً كان الفندق الذى أنت فيه ، وأياً كان الزواج الذى أنت عليه ، وأية كانت براعتك فى الهروب من أعدائك ومن جان مارى فارينا ، فإن بائيه لا يفوتهم أن يكتشفوا المكان الذى اعتصمت به ولجأت اليه ، وأن يبادروك بقولهم : « حياتك أو ماء الكولونيا • لا أستطيع أن أقول جازماً انهم كانوا ينطقون بهذه الكلمات نفسها : « حياتك أو ماء الكولونيا ! » ولكن من يدري ؟ جازر جداً أنهم كانوا يقولون ذلك بعينه • وعلى كل حال فانتى أتذكر أن الأمر كان هماً يحاصر نفسى فى كل لحظة • وأما السبب الثانى للحق الذى استولى علىّ فهو الجسر الجديد فى مدينة كولونيا • هو فى الحقيقة جسر رائع ، والمدينة كلها تفتخر به ، ولافتخارها ما يبرره فى الواقع ، ولكن هذا الافتخار كان يبدو لى مسرفاً مفرطاً • فسرعان ما أغضبني هذا طبعاً • ثم ان محصل الرسوم على ذلك الجسر الرائع ما كان له أن يحصل منى الرسوم (رغم أنها رسوم عادلة والحق يقال) كمن يفرض علىّ غرامة لمخالفة ارتكبتها أو جنحة قارفتها • لقد أحسست أن هذا الألماني متفطرس متجبر • قلت لنفسى : « لا شك أنه حزر أنتى أجنبى وأنتى روسى » كانت عيناه على الأقل تشبهان أن تقولاً : « هل ترى جسرنا أيها الروسى المسكين ؟ ألا فاعلم أنك لست الا دويذة حقيرة بالقياس اليه ، وبالقياس الى أى ألماني ، اذ ليس فى بلادك جسر يشبه هذا الجسر » • اعترفوا أن هذا أمر مزعج يثير الأعصاب ويستفز النفس • صحيح أن الألماني

لم ينطق بهذه الجملة ، ولعلها لم تخطر له على بال • ولكن ذلك لا يعني كثيراً • فانما المهم أنني بلغت عندئذ من الثقة بأنه يريد أن يقولها أنني غضبت غضباً شديداً • قلت لنفسي : • يا له من وقع ! نحن أيضاً قد اخترعنا السماور ، ولدينا مجلات ، ونصنع بضائع للضباط • نحن • الخلاصة أنني زعلت في غير داع الى زعل ، وتزودت بزجاجة من ماء الكولونيا (لم أستطع من شرائها فكأكا) ، وسافرت فوراً الى باريس آملاً أن يكون الفرنسيون أكثر لباقة وكياسة ، وأن أجد فيهم مما يشوقني ويشير اهتمامي أكثر مما وجدت من ذلك لدى الألمان •

فاحكموا الآن على الأمر بأنفسكم : لو قد سيطرت على نفسي وتحكمت بعواطفى ، فقضيت ثمانية أيام في برلين ، ومثلها في درسدن ، وقضيت ثلاثة أيام في كولونيا أو يومين على الأقل ، اذن لنظرت حمماً بعين أخرى الى الأشياء نفسها مرة ثانية فثالثة ، ولكوَّنت عن هذه الأشياء فكرة أسلم ورأياً أصدق • كان يمكن لشعاع من شمس ، لشعاع بسيط من شمس ، أن يحدث أثراً كبيراً وأن يكون له شأن خطير : لو كانت أشعة الشمس تغمر كاتدرائية كولونيا أثناء زيارتي الأولى لها في ذلك الصباح القاتم الممطر ، كما كانت تغمرها أثناء زيارتي الثانية ، لرأيت ذلك المبنى رؤية تختلف عن رؤيتي الأولى التى أيقظت فى نفسى افراطاً فى التعصب الوطنى • على أن هذا ليس معناه أن رداة الطقس وحدها تولد العاطفة الوطنية • هكذا ترون يا أصدقائي أنه يستحيل على المرء فى غضون شهرين ونصف شهر أن يدرس جميع الأشياء على نحو مناسب • فلا يمكننى اذن أن أمدكم بمعلومات دقيقة كل الدقة صحيحة كل الصحة • ولسوف أجدنى مضطراً فى بعض الأحيان الى أن أكذب أيضاً •••

ولكن هاتم تستوقفوننى هنا قائلين : « لا حاجة بنا فى هذه المرة الى معلومات دقيقة صحيحة • ولو شئنا لوجدنا هذه المعلومات فى دليل رايخارد » • وانما ينبغى لكل مسافر أن ينشد الصدق لا الحقيقة المطلقة ، وذلك أمر يفوته فى جميع الأحيان تقريباً • ينبغى له أن لا يخشى البوح بأى شئ • عن مشاعره وانطباعاته ومغامراته ، ولو كانت لا تجلب له مجداً كبيراً • ينبغى له أن لا يستشير بعض السلطات ليكون له عندها شأن ومنزلة • ان كل ما نرغب فيه هو أن تعبّر لنا عن مشاعرك وانطباعاتك شريطة أن تكون صادقة •

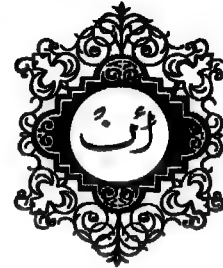
آ ••• أتم تريدون اذن ثرثرة لا أكثر ، أتم تطالبون لمحات سريعة ، وانطباعات شخصية عابرة • فليكن لكم ما تشاءون • سوف أعود الى دفترى الذى دوّنت فيه بعض الملاحظات • ولكننى أرجوكم أن تتذكروا أن جزءاً كبيراً مما سأكتبه قد يشتمل على أخطاء • لا كل ما سأكتبه طبعاً • فمن المستحيل مثلاً أن يخطئ المرء فى وقائع ثابتة مثل «نوتردام دوبارى» ، ومرفص «مايل» • وهذه الواقعة الأخيرة خاصة يشهد بها جميع الروس الذين كتبوا عن باريس ، بحيث يكاد يستحيل وضعها موضع الشك • لفلنى غير مخطئ فى هذا • ومع ذلك لا أتحمل تبعاً كاملة صارمة • ذلك أنه يقال انه يستحيل على المرء أن يذهب الى روما دون أن يرى كنيسة القديس بطرس • ومع ذلك فقد ذهبت أنا الى لندن دون أن أرى كنيسة القديس بولس • يميناً اننى لم أرها ! صحيح أن هناك فرقاً بين كنيسة القديس بطرس وكنيسة القديس بولس • ومع ذلك فان اغفال رؤية كنيسة القديس بطرس ليست أقل بعداً عن اللباقة من اغفال رؤية كنيسة القديس بولس •

تلكم هى مغامرتى الأولى التى تشرفنى كثيراً • الحق اننى لمحت

كنيسة القديس بولس من على مسافة نحو كيلومتر ، أثناء زهابي الى
باتونفيل • ولكنني أغفلت زيارتها من فرط ما كنت فيه من عجلة •
ولكن ... بالناسبة ! ... اعلموا أنني لم أقصر على الطواف
السريع وعلى رؤية جميع الأنبياء كرؤية الطائر (ليس يعني قولنا
« كرؤية الطائر » رؤية « من فوق » ، فذلك اصطلاح من اصطلاحات
هندسة العمارة كما تعلمون) • لقد عثت في باريس شهراً كاملاً
الا ثمانية أيام قضيتها في لندن • فسأحدثكم اذن عن باريس ، لأنني
رأيتها خيراً مما رأيت كاتدرائية القديس بولس ، وخيراً مما رأيت
سيدات درسدن • فهلموا معي اذن الى باريس •

الفصل الثاني

في القطار



• الفرنسي محروم من العقل ، ولو أوتى عقلاً
 لعدّ ذلك أكبر شقاء يصيبه ،• ان هذه الجملة قد
 كتبها منذ القرن الماضي فونفيزين* • والله وحده
 يعلم كم كان فرحاً مرحاً حين كتبها • انى
 لأراهن على أن قلبه كانت تدغدغه لذة كبيرة حين دبجت يراعه هذه
 العبارة • ومن يدري ؟ لعلنا جميعاً ، بعد فونفيزين ، خلال ثلاثة أجيال
 أو أربعة ، لا نقرأ هذه العبارة الا ونشعر بشيء من متعة • ان جميع
 الاقوال الطريفة التى من هذا النوع والتي يتهجم فيها قائلوها على الأجانب
 ما تزال تشتمل حتى الآن ، في نظرنا ، نحن معشر الروس ، على فتنةٍ
 لا سبيل الى مقاومتها ، فتنة خفية طبعاً نشعر بها على غير علم منا في بعض
 الأحيان • ان فى هذا نوعاً من السأر لماضٍ مؤسف • ولئن كانت هذه
 العاطفة مؤسفة هى أيضاً فأتنى لعلى يقين من أنها قائمة في نفس كل
 واحد منا • صحيح أننا نظهر شيئاً من الاستياء والغضب اذا نحن وصمنا
 بها ، وأتينا نفعل هذا صادقين مخلصين • ومع ذلك فأنا أعتقد أن
 بيلنسكى* نفسه كان بهذا المعنى من المتعصين للسلافية في قرارة نفسه •
 منذ خمسة عشر عاماً ، أيام كنت أتردد الى ندوة بيلنسكى ، أذكر

أن أفراد تلك الندوة جميعاً كانوا ينحسرون احتراماً للغرب ، أعنى لفرنسا بوجه خاص ، مع تقدس يبلغ حد الغرابة . كانت فرنسا أيامئذ على « الموضة » : وكان ذلك في عام ١٨٤٦ ؟ كانوا لا يكتفون بعبادة أسماء جورج صاند وبرودون وغيرهما ، ولا يكتفون باحترام اسماء لوى بلان ولودرو رولان وأمثالهما ؟ بل كانوا كذلك يعظمون أشدّ التعظيم اشخاصاً لا قيمة لهم ولا شأن ، أشخاصاً هم نمار جافة يابسة ، أشخاصاً لم يلبثوا أن انهاروا ولم يصمدوا منذ وضعوا فى موضع الامتحان . فمن هؤلاء أيضاً كانوا ينتظرون أموراً عظيمة فى مرحلة الزندقة المتسمة بطابع النزعة الانسانية الطالعة فى ذلك الأوان . وكانوا يتهامسون عن بعضهم فيما بينهم باحترام كبير . . . ثم ماذا ؟ ثم لم ألتق خلال حياتي كلها برجل أشد اندفاعاً فى تعلقه بروسيته مثل بيلنسكى ، رغم أن تساداييف * كان قد انفجر فى كثير من الحنق والبراعة وفى كثير من العماوة أحياناً ، يشهرّ بكثير من خصائصنا القومية ، ويحتقر فى أغلب الظن كل ما هو روسى . ان هناك وقائع معينة وذكريات محدّدة تحملنى على اصدار هذا الحكم واطلاق هذا الرأى . ومن يدرى ؟ لعل الجملة التى قالها فونفيزين لم تصدم بيلنسكى نفسه كثيراً فى بعض الأحيان . هناك لحظات لا يجب فيها المرء الوصاية ولا يرضى بها ولو كانت وصاية نبيلة مشروعة . أوه ! لا تحسبوا أن محبة الانسان وطنه تضى أن يحمل على الأجانب ، وأنتى من هذا الرأى . . . يؤسفنى أن الوقت لا يتسع لى الآن من أجل أن أفصح عما بنفسى بمزيد من الوضوح . . .

بالمناسبة : لعلكم ستظنون أننى بدلاً من أن أحدثكم عن باريس ، أندفع فى الكلام على الأدب الروسى ، وأكتب مقالة فى النقد ، أليس كذلك ؟ ولكن لا . . . فانما حدث هذا عرضاً . . .

واذا رجعت الى دفتر مذكراتى ، وجدت أننى الآن فى القطار ،

وانتى أستعد غداً لاجتياز الحدود فى آيدتكونن * ، أى أنهياً لمائة شعورى
الأول بأننى فى بلد أجنبى ، وأن قلبى يرتعش فى بعض اللحظات •
أخيراً سأرى اذن أوروبا ، أنا الذى ظللت طوال أربعين عاماً على وجه
التقريب ، أحلم بها فى غير طائل ، منذ السادسة عشرة من عمري ، أحلم
بها جاداً كل الجدة ، مهتماً كل الاهتمام ، مثل بيلوبياكيين * الذى أجرى
نكرا سوف على لسانه هذا البيت من الشعر :

احب ان اهرب الى سويسرا

دون أن أستطيع تحقيق هذا الحلم • هأنذا اذن فى الطريق الى
« بلاد المعجائب المقدسة » التى طالما تهمتت تحرقاً الى زيارتها ، وظللت
ثابتاً على ايمانى بها •

اتنى ليتفق لى أحياناً أن أتساءل حتى وأنا فى هذا القطار نفسه :
« نحن روس حقاً يا رب ؟ نحن روس حقاً ؟ لماذا تحدث فينا أوروبا
هذه الفتنة كلها ولماذا تستهوننا هذا الاستهواء كله ، أياً كنا ؟ » وحين
أقول كلمة « نحن » ، فليست أقصد أولئك الذين لبثوا هنالك فحسب ،
أولئك الروس البسطاء الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً ، أولئك الروس
الذين لا نعددهم نحن الذين يبلغ عددها مائة ألف ، لا نعددهم حتى الآن
شيئاً مذكوراً ، وما تزال صحفنا الساخرة العميقة تستهزئ بهم وتهكم
عليهم ، لأن هؤلاء الناس الطيبين لا يحلقون لحامهم • لا ، فانما أنا أتكلم
عن صفوتنا المتأخرة المرموقة ! ذلك أن كل ما نملكه تقريباً من تطور
فى ميدان العلم والفن والحضارة والانسانية انما يأتيها من هناك ، من
« بلاد المعجائب المقدسة » ! ذلك أن حياتنا كلها ، منذ نعومة أظفارنا ،
انما تشكلت على النمط الأوروبى ! كيف يمكن لأحد منا أن يقاوم هذا
التأثير ، وأن لا يستجيب لهذا النداء ، وأن يصمد أمام هذا الضغط ؟
كيف لم تتحول بعد الى أوروبيين تماماً ؟ أغلب ظنى أن هناك أمراً

يسلم به جميع الناس ، بعضهم على فرح وابتهاج وبعضهم على أسف وحسرة ، وهو أننا لم نتضح بعد النضج الذي يؤهلنا لهذا التحول . على أن هذه قضية أخرى . حسبى أن أقرر هذه الواقعة وهى أننا لم نتحول ذلك التحول رغم المؤثرات التى تبلغ هذا المبلغ من القوة التى لا سبيل الى مقاومتها . اننى عاجز عن فهم هذا الأمر ، وتعليل هذه الواقعة . ذلك أن مريبتنا وحاضنتنا ومرضعاتنا لسن هن اللواتى حلن بيننا وبين هذا التحول . انه لمن المحزون والمضحك حقاً أن نقدر أننا ربما ماكان ليظهر فينا شاعرنا بوشكين لولا آرينا روديونوفنا * ، مربية بوشكين ! رب قائل يقول : هذا باطل ! ولكن ما قولكم اذا لم يكن باطلاً فى واقع الأمر ! ان كثيراً من الأطفال الروس يؤخذون الآن الى فرنسا لتربيتهم . فماعسى يحدث لو أخذ الى فرنسا بوشكين آخر تعوزه هنالك مربية مثل آرينا روديونوفنا ، وتعوزه اللغة الروسية منذ المهد ؟ ومع ذلك فأى روسى كان بوشكين ! لقد استطاع هذا الشاعر الذى كان أبوه سيداً من السادة ، استطاع أن يدرك نفس بوجاتشيف * وأن ينفذ الى روحه فى عصر لم يكن فيه أحد قد نفذ الى أى موضع . لقد استطاع هذا الارستقراطى أن يتحد بشخصية بيلكين * . لقد استطاع بقوة فنه أن ينفصل عن بيئته وأن يدينها جهاراً فى قصته الشعرية «أوجنين» * من وجهة النظر القومية . ذلك أنه كان نبياً وكان رائداً . هل يمكن حقاً أن يكون ثمة علاقة كيميائية بين فكر الانسان وتراب الوطن ، وأن يكون الانسلاخ عن تراب الوطن مستحيلاً ، فما ان ينسلخ المرء عنه ويتحرر منه حتى يرتد اليه ؟ الحقيقة أن عقيدة التعلق بالسلافية لم تهبط علينا من السماء . ورغم أن هذه العقيدة قد تجسدت بعد ذلك فى الغرائب التى تعلق بها أهل موسكو ، فان أساس هذه العقيدة أوسع من الصيغة الموسكوفية . ولعل لها فى بعض القلوب جذوراً أعمق كثيراً مما يتراعى لأول نظرة . وهذا

يصدق على أهل موسكو أنفسهم • ما أصعب أن ينصح المرء عن نفسه
افصاحاً واضحاً من أول وهلة ولو أمام نفسه ! رب أجيال ثلاثة لا تكفى
لتوضيح فكرة تبلغ هذا المبلغ من الحياة والقوة ، فإذا النهاية تختلف في
بعض الأحيان اختلافاً تاماً عن البداية ...

ان جميع هذه الأفكار الشاردة ، التي كان الضجر والفراغ هما
اللذان أوحيا الىّ ببعضها ، قد لاحقتني وطاردتني رغم ارادتي وأنا في
القطار على عتبة أوروبا ... على المرء أن يكون صريحاً ! ان الأشخاص
الوحيدين الذين يفكرون في مثل هذه الموضوعات في بلادنا ما يزالون
حتى الآن هم الأشخاص الذين لا عمل لهم ! آه ما أشد الضجر والسأم
للذين يستوليان على الانسان حين يكون في القطار عاطلاً عن العمل !
ان هذا الفراغ يثير من الضجر والسأم في النفس مثل الذي تثيره منهما
حياة الفراغ في بلادنا الطيبة روسيا • فرغم أن المرء في القطار يُنقل
ويُعتنى به ويدلّل بحيث لا يبقى له ما يشتهي ويتمناه ، فان هناك قلماً
يظل يلاحقه ، لا شيء الا لأنه لا يعمل شيئاً ، ولأنه يُعتنى به كثيراً ،
ولأنه ليس عليه الا ينتظر الوصول • يميناً لقد أوشكت أن أتمنى في
بعض اللحظات أن أتب من القطار فأخذَ أركض الى جانبه قرب القاطرة !
كنت أقول لنفسى : « ألا فليكن هذا أسوأ وأتكنى ، ألا فلا أحب لأتنى لم
أتمود الركض ، ألا فلا أضلّ الطريق ، ألا فلا أبذل جهداً لا فائدة منه
ولا نفع فيه ! ولكننى في مقابل ذلك سوف أسير بنفسى ، سوف أسير
بوسائلى أنا ، سوف أكون قد وجدت عملاً يشغلنى ... وإذا حدث
صدام ، فعلى الأقل لن أبقى مكتوف اليدين أدفع حياتى ثمناً لأخطاء
غيرى »

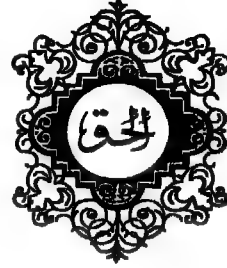
لا يعلم الله ما يخطر ببالك أحياناً في ساعات الفراغ : ...
وفي أثناء ذلك كان الليل يهبط • فاشتعلت الأضواء • وكان أمامى

شخصان متقدمان فى السن من ملاكى الأيطان ، لهما وجهان لطيفان
 محبين . كانا ذاهبين الى معرض لندن* لقضاء بضعة أيام بعد أن تركا
 أسرتهما فى المنزل . وعلى يمينى كان يجلس رجل روسى هو موظف فى
 مؤسسة تجارية بلندن منذ عشر سنين . لقد قضى خمسة عشر يوماً فى سان
 بطرسبرج لقضاء بعض الأعمال ، وكان يبدو عليه أنه تخلص من آلام
 الحنين الى الوطن تخلصاً تاماً . وعلى يسارى كان يجلس انجليزى فح ،
 أحمر اللون ، مفروق الثسمر على طريقة الانجليز ، رصين رصانة
 لا يهزها شئ . انه طوال السفرة لم يبادل أى واحد منا كلمة واحدة
 بأى لغة من اللغات . ولبت من أول النهار الى آخره مكباً على القراءة
 فى كتاب مطبوع بأحرف صغيرة دقيقة لا يطبقها إلا الانجليز وحدهم ، بل
 هم يطرونها ويثنون عليها . حتى اذا صارت الساعة الى العاشرة خلع
 حذاءيه واتعل خفين : أغلب الظن أنه يفعل ذلك طول حياته ولا يريد
 أن يغير فى القطار شيئاً من عاداته . وما لبت الجميع أن نغسوا وناموا :
 ان طلقات الصفارة ولهثات القاطرة تحض على النوم . وأخذت أنا أفكر ،
 فلا أدري كيف قادتنى تأملاتى الى هذه الفكرة : « أن الفرنسى محروم
 من العقل ، ، وهى العبارة التى استهللت بها هذا الفصل .

ولكن هل تعلمون أتنى أشتهى كثيراً ، بانتظار الوصول الى
 باريس ، أن أنقل اليكم الحواطر التى راودتنى فى القطار ؟ نعم أشتهى
 أن أنقل اليكم تلك الحواطر ، هكذا ، من قبيل الانسانية . « لقد مللت
 كثيراً فى القطار ، والآآن جاء دوركم ، . ولما كان من الضرورى أن أراعى
 بقية القراء ، فسأجمع تلك الحواطر كلها فى فصل مستقل أجعل عنوانه
 « أمور نافلة ، . لئن كان على الكاتب أن يدارى قراءه ، فمن الممكن أن
 يفعل ذلك مع أصدقائه بمزيد من الفروسية .

الفصل الثالث

أمور نافلة تماماً



أن تلك الحواطر لم تكن أفكاراً بل كانت تأملات ، كانت تصورات تجري على غير هدى ، بل وكانت أحلام يقظة ، في هذا الموضوع وفي ذاك ، وفي غير موضوع أكثر الأحيان . رجعت أولاً الى الماضي وفكرت في الرجل الذي أصدر ذلك الرأي المتجمل في عقل الفرنسيين ، فكرت فيه فجأةً بمناسبة رأيه هذا . لقد كان ذلك الرجل في زمانه من كبار اللبراليين ، وقد ظل طوال حياته يرتدى رداءً على الزىّ انفرنسي ، لا يعلم الا الله لماذا ، وكان يحمل باروداً ، ويضع على جنبه سيفاً قاطعاً ، ليدل على أنه من سلالة فرسان (رغم أنه لم يكن في روسيا فرسان في يوم من الأيام) ، وليدافع عن شرفه الشخصي في حجرة المدخل من منزل بوتيومكين . ومع ذلك فانه ما ان وضع أنفه في الخارج حتى تدّ بباريس باسم جميع نصوص التوراة ، وحتى قرر أن « الفرنسي محروم من العقل ولو أوتي عقلاً لعدّ ذلك أكبر شقاء يصيبه » . بالمناسبة : لقد تظنون أنني ذكرت السيف القاطع ورداء المخمل من قبيل مؤاخذه فونفيزين ، أليس كذلك ؟ فلا يذهبن بكم الظن الى هذا . ان فونفيزين لم يكن في وسعه أن يرتدى قفطاناً روسياً ، فحتى في زماننا هذا هناك أشخاص أرادوا أن يكونوا روساً بل وأن يختلطوا

وسيقول شخص آخر : « - رحماك ! ما هذا الذى تقصه علينا .
لقد كان موضوع الحديث باريس ، فما انتقلت هذا الى الكلام عن عقوبة
الجلد ؟ ما هى العلاقة بين الأمرين ؟

وسيضيف ثالث قوله : « ثم انك قد أعلنت أنك عرفت هذا كله
منذ قليل ، وأنت انما قمت برحلتك فى الصيف الماضى ، فكيف أن أمكن
أن يدور عليه تفكيرك حينذاك فى القطار ؟ » .

جوابى على هذا السؤال هو أن تلك مشكلة حقاً . ولكن اسمحوا
لى : هذه ذكريات شتاء عن مشاعر صيف . لذلك تسلفت اليها واندست
فيها مشاعر شتاء . يضاف الى هذا أننى ، حين كان يقترب بى القطار من
أيدتكون ، كنت أفكر - ما زلت أتذكر هذا - كنت أفكر فى كل
تراثنا القومى الذى أبرحه الى أوروبا ، فكان بعض أحلامي يدور على
هذه الأمور . وكنت أفكر فى هذا الموضوع بالذات : بأية طريقة أثرت
فينا أوروبا فى عصور مختلفة محاولة أن تفرض علينا حضارتها دائماً ؟
الى أى مدى تحضرنا ؟ ما عدد الذين أصبحوا منا متحضرين ؟ والآن
أدرك أننا نضى أن ذلك كله كان نافلاً . ثم اننى قد أنبأتكم من قبل أن
هذا الفصل كله نافل لا لزوم له ولا حاجة اليه . بالنسبة : الى أين
وصلت من حديثى ؟ ها ... نعم ... كنت أتكلم عن الرداء على الزى
الفرسى !

طيب ! ان أحد أولئك الذين كانوا يرتدون الرداء الفرنسى قد
كتب حينذاك مسرحية « البريجادير » . كانت هذه المسرحية فى زمانها
شيئاً رائعاً أحدث أثراً خارقاً : « مت يا دنيس ، فلن تكتب شيئاً خيراً من
هذا ، » كذلك صاح يقول بوتومكين* نفسه . لقد أخرج الجميع من
خدرهم وكسلهم . تساءلت مواصلاً تأمل على ما يريد لى خيالى : « هل
يمكن أن يكون الناس منذ ذلك العصر قد سئموا القعود عن العمل ،

بالشعب ، فلم يرتدوا قفطاناً وانما خاطوا لأنفسهم رداءً باليه يكاد يشبه الرداء الذى يلبسه على المسرح ، فى الأوبرات الروسية الشعبية ، أبطال اسمهم أوسلاد ، مأخوذون بحبيبتهم اللواتى يُسمَّين لودميلا ويضعن على رموسهن كوكوشنيك* . لا ، لا ، ان الزى الفرنسى كان يفهمه الشعب فى ذلك الزمان أكثر مما يفهم ذلك الرداء ، فالشعب يقول : « هذا سيد من الأشراف فليس يُعقل أن يرتدى قفطاناً » . وقد سمعت فى الآونة الأخيرة عن أحد مالكي الأفيان أنه أراد أيضاً أن يتحد بالشعب ، فارتدى هو أيضاً « اللباس الروسى »* ليحضر اجتماعات المجالس الإقليمية فكان الفلاحون حين يرونه يقول بعضهم لبعض : « ما مجيء هذا الرجل المتكرر إلينا ؟ » . ذلك رجل من مالكي الأفيان لم يتحد بالشعب .

قال لى شخص آخر فى ذات يوم : « - لن أتنازل أى تنازل . سأخلق لحيتى عامداً وسأرتدى الرداء الأوروبى اذا لزم الأمر . سأصنع التشدد . سأكون السيد ، سأكون بخيلاً جيسوباً ، حتى لقد أعمد الى الظلم والسلب والاعتصاب عند الاقتضاء . فيزدادون احتراماً لى . وانما المهم ، كما تعلم ، أن يوحى المرء باحترامه دفعةً واحدة » .

قلت لنفسى : « - لكأنهم يستعدون لقتال أجانب . ما هذه الا نصيحة حرب » .

وقال لى ثالث ، وهو شخص محبب والحق يقال : « - سوف أسجل نفسى فى جمعية قروية ، ولكن ما عسى يحدث اذا صدر من مجلس الجمعية حكم بتوقيع عقوبة الجلد على^٢ ؟ » .

أردت أن أجيبه قائلاً : « - هب هذا حدث (ولكننى امتنعت عن الكلام جيناً . لماذا نخشى أن نعبّر عن آرائنا فى بعض الأحيان) ... هب هذا حدث ... هبهم جلدوه ... فما قيمة ذلك ؟ ان أمثال هذه

الحوادث الاليمة يطلق عليها أساتذة فلسفة الفن وعلم الجمال اسم « عنصر الفاجعة أو المأساة فى الحياة » . ذلك كل شئ . فهل يجب على المرء ، لهذا السبب وحده ، أن يعيش منعزلاً عن جميع الناس ؟ لا . . . فأنما ينبغى للمرء أن يعيش مع جميع البشر بغير استثناء أو أن يعتزل اعتزالاً كاملاً . ان نساءً ضعيفات وأطفالاً صفاراً قد قاسوا فى أمكنة أخرى أهوالاً أشد .

لو قلت لمحدثى ذلك الكلام لكان يمكن أن يصيح قائلاً : « - رجلك ! ما حديثك هذا عن النساء الضعيفات والأطفال الصفار ! ان الجمعية يمكن أن تحكم على بالجلد بدون تعقل ، بدون سبب آخر غير توغل بقرة صغيرة فى بستان شخص آخر ، كأن الأمر قضية من قضايا الدولة !

« - لا شك أن هذا سخف . القضية نفسها سخيفة ، تبعث على النفور وتشير الاشتمزاز ، حتى أن الحديث غير لائق . بارك الله فيهم : ألا فليضربوا جميعاً ! أنا لا شأن لى بالأمر ! » .

ولكننى من جهتى أراهن بكل ما تريدون على أن هذا الرجل الذى يناقشنى ويعارض آرائى ما كان ليتلقى جلدة واحدة حتى ولو أمكن أن يصدر ذلك الحكم عليه . لأن المجلس سيقول بلسان رئيسه : « سنفرض عليه غرامة مالية أيها الأخوة ، لأنه سيد من السادة النبلاء حتى فى هذه الحالة ؟ ولا كذلك نحن ، فنحن أناس ان كان لنا قفا فمن أجل أن نجلد بالسوط » ، كما نرى ذلك فى كتاب شتدرين « صور من الأرياف » * .

لا شك أن أحداً سيصيح قائلاً عند قراءة هذا الكلام : « - انه رجى التفكير ! انه من أنصار عقوبة الجلد ! » . أؤكد لكم أن أحداً سيستخرج من كلامى أتنى أنادى بعقوبة الجلد وأطريها وأتنى عليها) .

وضجروا من السير مربوطين بأزمة يقودهم بها غيرهم ؟ لا أقصد
الأزمة الفرنسية وحدها حينذاك ، وأحرص على أن أضيف أننا ، بسبب
طيب سريرتنا وسذاجة قلوبنا ، شعب سريع التصديق الى أبعد الحدود .
مثال ذلك أن نكون جميعاً قاعدين عن العمل ، فإذا خيل إلينا على حين
فجأة أن أحداً قد قال شيئاً أو فعل شيئاً ، وأن فكرنا الشخصى ينكشف
ويتجلى ، وأن شاغلاً يعرض لنا وعملاً يمثل أماننا ، اندفنا واثقين وثبة
رجل واحد ، مقتنعين بأن الأمور ستسير وأن هذه هى البداية . تمر
ذبابة فتحسبها فيلاً . ماذا تريدون ؟ ان مرد ذلك الى قلة الخبرة
والتجربة بحكم الشباب ، والى الجوع فوق ذلك . لقد بدأ هذا ، على
مقياس صغير طبعاً ، من قبل « البريجادير » ، وما يزال مستمراً حتى
هذه الساعة : وجدنا عملاً يشغلنا فأخذنا نصوت من فرط الحماسة .
ان الصراخ الطويل والحماسة الشديدة هما الشيء الرئيسى عندنا .
ولكننا بعد سنتين تفرق وتبعثر خافضى الرموس . ولكننا لا نكل أبداً ،
ولو كان علينا أن نستأنف مائة مرة .

أما الأزمة الأخرى فقد كان هنالك فى عهد فونفيزين ما يشبه
الاجماع على احترامها وتقديسها ، وكان الناس يجدون هذه الوصاية
فاتنة أخاذة . صحيح أن الريايين هم فى أيامنا هذه أيضاً قلة ضئيلة .
فان حزبنا التقدمى كله متعلق أشد التعلق بهذه الأزمة الأجنبية . ولكن
الايمان بأية أزمة أيامذاك قد بلغ من شدة الحماسة والامتداد أن المرء
يُدْهش كيف لم تنقل الجبال من أماكنها ، وكيف أن روائى آلاون وذرى
بارجولوفو وأطواد فالدى قد بقيت فى مواضعها . صحيح أن شاعراً من
شعراء ذلك العصر قد قال * :

يقف على الجبال فتتشق الجبال
ويرمى الأبراج بيده فتجتاز السحاب

ولكن ذلك لم يكن فى اغلب الظن الا مجازاً •

وبهذه المناسبة يا أصدقائى : لاحظوا أتنى لا أتكلّم الا عن الأدب •
فمن خلال الأدب انما أريد أن أدرس الأثر الحسن الذى أحدثته أوروبا
فى وطننا شيئاً فشيئاً • حين يفكر المرء فى الكتب التى كانت تُطبع وتُقرأ
حينذاك (قبل « مسرحية البريجادير » وفى زمانها) ، فانه لا يستطيع أن
يحمى نفسه من شيء من الاقتتان والزهو • ان عندنا الآن كاتباً من أبرز
الكتاب ، هو زينة عصرنا ، يسمى كوزما بروتكوف * • ان العيب الوحيد
فى هذا الكتاب هو تواضعه الذى لا سبيل الى فهمه : انه لم يطبع حتى
الآن « أعماله الكاملة » • لقد نشر هذا الكتاب ، منذ بعض الوقت ،
فى ركن « المتوعات » من مجلة « المعاصر » عملاً أدبياً عنوانه « دفتر
جدى » • تصورو ما عسى يكتبه هذا الجلد الذى عاصر كاترين ، وبلغ
من العمر سبعين عاماً ، وكان على جانب عظيم من السمنة والبداة ،
وطاف العالم ، وشهد استقبالات البلاط ، وحارب فى أوتشاكوف ، فلما
رجع الى أراضيه بعد ذلك كله أخذ يستعرض ذكرياته ! ان المادة
لا بد أن تكون شائقة : ما أكثر الأشياء التى رآها كاتب ذلك الدفتر !
فانظروا مع ذلك الى نوادر كالنوادر التالية هى كل ما ضمه دفتره •

جواب فكه للفارس موتبازون : فى ذات يوم ، بحضور الملك ،
اتجهت امرأة شابة جميلة جداً ، اتجهت بالكلام الى الفارس موتبازون
فسألته : « قل لى يا سيدى : أيهما مرتبط بالآخر ، أالكلب بالذنب أم الذنب
بالكلب ؟ » فأجابها الفارس ، وكان حاضر البديهة سريع الرد ، أجابها
قائلاً : « لا يُحظر على أحد يا سيدتى أن يمسك الكلب من ذنبه أو من
رأسه ، • وقد 'سّر' الملك بهذه الاجابة سروراً عظيماً ، فلم يقنه أن
يأمر لصاحبها بمكافأة •

قد تظنون أنني أضللکم مازحاً ، وأن هذه خزعة من الخزعات ، وأن شيئاً من هذا لم يحدث في يوم من الأيام ! ولكنني أحلف لكم أنني أنا نفسي ، في طفولتي ، حين كان عمري عشر سنين ، قد قرأت كتاباً من عهد كاترين ، تُروى فيه النادرة التالية ، فحفظتها يومئذ على ظهر القلب من شدة افتتاني بها ، ثم لم أنسها بعد ذلك قط .

جواب فكه للفارس رووان : تعرفون أن رائحة فم الفارس رووان كانت كريهة جداً . ففي ذات مرة ، بينما كان الأمير دي كوندية ينهض ، قال الأمير للفارس : ابتعد أيها الفارس ، لأن رائحة فمك كريهة جداً ، فسرعان ما أجابه الفارس بقوله : « هذه الرائحة ليست مني يا مولاي ، بل منك أنت ، لأنك نهضت » .

تخيلوا هذا المالك من مالكي الأتيان : انه محارب قديم (وربما كان فاقداً أحد أعضائه) يختم حياته قرب امرأته العجوز ، بين ذرية كبيرة العدد ، وخدم أكبر عدداً من ذلك أيضاً ، ويذهب في كل يوم من أيام السبت الى حمامات البخار فيظل يتعرق الى أن يغشى عليه . انه ، وقد وضع على عينيه نظارتين ضخمتين ، يروى أمثال هذه النوادر متلذذاً ، ويعدها حقيقة صافية ، ويكاد يحسبها واجباً من واجبات الخدمة . وما كان أقوى الايمان الساذج ، السائد حينذاك ، بأن أمثال هذه الأقاصيص أو الأنباء الأوروبية لاثقة ومفيدة ! تعرفون أن رائحة فم الفارس رووان كانت كريهة جداً . . . من ذا الذي يعرف ذلك ؟ في أي ركن بعيد من أركان اقليم تامبوف يهتم أحد بهذا ؟ ولكن الرجل الطيب لم يعبأ بأسئلة تبلغ هذا المبلغ من التجرؤ والتجاسر . انه يعتقد ، مؤمناً ايمان الأطفال ، بأن هذه « المجموعة من الأقوال الظريفة » معروفة في البلاط ، وهذا حسبه ! نعم ، صحيح أننا كنا في ذلك العهد تمثل أوروبا بسهولة ، من الناحية المادية طبعاً . ولكن الأمور

لم تكن تتم من الناحية الروحية بتغير اللجوء الى السياط . كان الناس يلبسون جوارب من حرير ، ويضعون على رموسهم باروكات شعر ، ويحملون على جنوبهم أسيافاً ، فيصبحون أوروبين بشن بخس . ولكن لا شيء يكون في الواقع قد تغير : فان أجدادنا ، بعد أن يدعوا فارس رووان وشأنه (وكانوا لا يعرفون عنه الا أن رائحة فمه كريهة) ، وبعد أن يخلعوا نظاراتهم الضخمة ، كانوا يسيثون معاملة خدمهم ، ويسرفون في فرض سلطانهم على أهلهم ، واذا أبدى الجار شيئاً من غلظة جروء الى الاسطبل وأخذوا يضربونه ضرباً مبرحاً ، بنا هم يزحفون على بطونهم أمام من هم أعلى منهم شأنًا وأرفع مقاماً . وكان الفلاح نفسه يفضل هذا . كانوا لا يحترقونه بمقدار ما يحترقونه الآن ، وكانوا لا يزدرون عاداته بمقدار ما يزدرونها الآن ، كانوا يصرفونه أكثر مما يعرفونه الآن ، لم يكونوا أجانب عنه بمقدار ما هم أجانب عنه الآن . أما عن اصطناع التماي والعظمة في معاملته ، فكيف كان يمكن أن يفعل سيد من الأشراف غير ذلك ؟ ألم يكن هذا دوره ؟ لقد كان أولئك السادة أقرب الى قلوب أبناء الشعب من سادة هذا الزمان ؟ رغم أنهم كانوا يضربونهم حتى الموت ، ذلك أنهم كانوا يشبهونهم أكثر مما يشبهونهم الآن . الخلاصة أن أولئك الملأ جميعاً كانوا أناساً بسطاء جفاة : كانوا لا يواربون ، فهم يتهبون ، ويضربون ، ويسرقون ، وينذلون ، في رقة وحنان ، ويعيشون حياة هادئة رضية في :

انحلال ساذج طيب السريوة *

بل اننى لأعتقد أن أولئك الأجداد الطيبين لم يكونوا سذجاً الى ذلك الحد ، حتى فيما يتعلق بأمثال رووان وموتبازون .
لهم كانوا في قرارة أنفسهم ريايين متمردين على جميع تلك

التأثيرات الأوروبية الآتية من أعلى • فتلك الملابس التكرية كلها ، وتلك الأردية على الزى الفرنسى كلها ، وتلك الأكمام والباروكات والسيوف ، وتلك السيقان اليسرى المجبوسة فى جوارب من حرير ، وأولئك الجنود الذين يضعون على رؤوسهم شعراً مستعاراً ويضعون على أحيذتهم مسماة على الطريقة الألمانية ، ذلك كله انما كان فى رأى خداعاً كبيراً ومكرأ ذليلاً ، حتى ان الشعب كان فى بعض الأحيان يلاحظ ذلك ويفهمه • لا شك فى أن المرء يمكن أن يكون مشاكساً ومخادعاً وبريجاديراً مع بقائه مقتنماً اقتناعاً تاماً بأن فارس رووان هو • أَلطف اللطف • • ولكن ذلك لم يكن يزعج أحداً : فأُمُشال جفوزديلون يظلمون يضربون كما كانوا يضربون ، وفرسان رووان منا يكادون يُجَلدون فى الاسطبل من قبل بوتيومكين ومنافسيه ، وأضراب موتبازون يسرقون الأحياء والأموات ؛ والأيدى التى تزينها الأكمام والأقدام التى تلبس جوارب الحرير تظل تُنزل اللطمات والركلات على الرقاب واللكى ، وحاملوا ألقاب المركز بيتنا يهرعون خفافاً الى استقبالات البلاط

مضحكين باقية رقابهم فى شجاعة *

الخلاصة أن أوروبا تلك كلها قد تلامت عندنا بسهولة مدهشة ، ابتداءً من سان بطرسبرج المدينة العجيبة التى لها تاريخ هو أغرب من تاريخ أية مدينة على وجه الأرض •

ولكن الأمر الآن لم يبق كما كان ، وقد انتصفت سان بطرسبرج لنفسها • ها نحن قد أصبحنا أوروبيين تماماً • الآن أصبح جفوزديلوف نفسه يبرهن على كياسة حين يكون عليه أن يضرب • انه يراعى قواعد اللباقة ، ويستحيل الى • بورجوازى • فرنسى ، ولن يلبث أن يؤيد بالنصوص ضرورة تجارة الرقيق ، كما يفعل أمريكى من الولايات

الجنوبية • والتأييد بالنصوص يهاجر الآن من الولايات المتحدة الى أوروبا • قلت لنفسي : « متى وصلت الى هناك فسأرى الأمر بعيني • فليس الخبر كالبيان ، وليس يتعلم الانسان من الكتب ما يراه بعينه » •

بالمثاسبية : هناك كلمة أخيرة عن جفوزديلوف : لماذا يُسند فونفيزين أبرز جملة من جمل مسرحيته « البريجادير » ، لماذا يُسند هذه الجملة لا الى صوفيا الناطقة بلسان الميول النيلة والنزعات الانسانية ، بل الى تلك المرأة الفية ، زوجة البريجادير التي يرسم لها هو نفسه صورة تبلغ من القياء والرجية أن جميع الكلمات والسخافات التي تقولها تبدو كأنها ليست صادرة عنها بل عن شخص مخفي وراءها ؟ ومع ذلك نرى المؤلف ، حين وجب قول الحقيقة ، لا يكل أمر القيام بهذه المهمة الى صوفيا بل الى امرأة البريجادير هذه • لقد جعل من هذه المرأة لا امرأة غبية بلهاء ، بل امرأة خيثة شريرة • ومع ذلك يبدو أنه كان يخشى بل يرى أن من المستحيل ، من الناحية الفنية ، أن تخرج عبارة كهذه العبارة من فم آنسة أُنحكت تربيتها وتنشئتها ، واعتقد أن الأقرب الى الطبيعة أن تنطق هذه الجملة مخلوقة بلهاء • هذا أمر شائق جداً ، لا شيء الا لأن هذا الكلام قد كُتب بدون أية نية خاصة أو فكرة ميتة ، وإنما كتب ببراعة وبسذاجة ، بل ولعله كتب عن سهو وغفلة • تقول زوجة البريجادير لصوفيا :

« ... كان في السرية الأولى من كيتيتا نقيب اسمه جفوزديلوف . وكانت امرأته شابة ولطيفة • ففي بعض الأحيان ، أثناء توبة غضب ، ولا سيما اذا سكر ، كان يضربها ضرباً مبرحاً - هل تصدقين يا عزيزتي ؟ - بلا أى سبب • طبعاً ... ذلك أمر لا يفنيها ، ولكننا كما نبكى حين ننظر اليها » •

صوفيا : « رحماك يا سيدتى ، كفى عن رواية أمور تهم
الانسانية » •

زوجة البريجادير : « أرايت يا عزيزتى الطيبة ؟ أنت لا تريدين
أن تسمعى عن هذا الضرب المبرح سماعاً ، فكيف كانت زوجة النقيب
تحتله عذاباً فى جسمها ؟ » •

هكذا نرى امرأة بسيطة تُفحم فتاة متحذقة رفيعة التربية رفيعة
ال عاطفة • ذلك عند فونفيزين جواب سريع مدهش ، وليس لديه ما هو
أقرب منه الى الصدق ، وأدنى الى الانسانية ... وأبعد عن التوقع •
وما أكثر ما يوجد حتى الآن من هؤلاء التقديمين بين رسلنا المتدفعين الذين
تفتنهم عاطفتهم الرقيقة ! ولكن أعجب ما فى الأمر أن أمثال جفوزديلوف
ما يزالون يضربون نساءهم ، وربما كانوا يضربونهم بمزيد من الهمة
والنشاط والحماسة أيضاً • يميناً ان هذا لهو الواقع ! يقال ان الناس فى
الماضى كانوا يمارسون هذه العادة من قِبل الذوق ، من قِبل التعلق •
« فمن أحسن الحب أحسن القصاص » ؟ حتى ان النساء ، فيما يقال ،
كان يُقلقهن أن لا يُضربن : فما لم يكن ضرب لا يكون حب • ولكن
ذلك كله فطرى ، بدائى ، أولى • •

ولكن هذا قد تطور أيضاً • ان جفوزديلوف يضرب الآن من باب
التقيد بالمبدأ تقريباً ، ولأنه غبى أيضاً ، أى لأنه رجل من رجال العهد
البائد يجهل العادات الجديدة • ان العادات الجديدة تسبح تدبر الأمر على
نحو أفضل دون اللجوء الى الضرب • واذا كنت لا أفيض فى الكلام على
جفوزديلوف ، فلأن الكتاب ما يزالون يكتبون عنه عبارات زاحرة
بالعمق والروح الانسانية ، ويبلغون من ذلك حدّاً اضجار الجمهور
وبعث السأم والملل فى نفوس الناس • ورغم جميع المقالات ، فان
جفوزديلوف فيه من الحيوية ما يكاد يجعله خالداً • نعم ، انه حى

معافى ، ومثل شعبان • هو الآن تنقصه ذراع وساق ؛ وهو ، مثل الكابتن كوشكين ، « قد سفع دمه ان صح التعبير ، • ومنذ زمن طويل كفت زوجته عن أن تكون « شابة ولطيفة ، • لقد شاخت • ان وجهها الحاسف الشاحب تخذذه التجاعيد ويفضنه الألم • ولكن يكفى أن يمرض زوجها اللفظ حتى تلازمه فما تفارقه ، وحتى تقضى ليلاً طوالاً مساهرة لا يغمض لها جفن ، وحتى تواسيه وتعزيه وتشد أزره وتسكب بسببه دموعاً سخينة كاوية ، وحتى تناديه بقولها : يا فارسى اللطيف ، ياصقرى الساطع ، يا قائد الجميل ، • صحيح أن هذا يصدم المرء من جهة • ولكن عاشت المرأة الروسية من جهة أخرى ! ليس فى عالمنا الروسى شيء أفضل من حبها ، ليس فيه شيء أفضل من هذا الحب الزاخر برحة لا نهاية لها ولا حدود • أليس هذا صحيحاً ؟ لا سيما وأن جنفوزديلوف لا يضرب الآن زوجته دائماً قبل أن يشرب • فهو يراعى قواعد الكياسة ، حتى لقد يقول لها فى بعض الأحيان كلمة طيبة • لقد شعر فى شيخوخته بأنه لا يستطيع الاستئناء عنها • انه حيسوب ، انه « بورجوازى » ، واذا اتفق أن كان ما يزال يضربها ، فانه لا يضربها الا وهو سكران ، أو حين يستبد به الضجر فتستيقظ فيه العادة القديمة • وهذا تقدم ، تقدم يعزى المرء ، شتم أم أبيتم ! •••

نعم ، نحن الآن متعزّون تماماً ، متعزّون بأنفسنا • هل يضيرنا أن ننظر حولنا فلا نرى أن كل شيء لامع كثيراً حتى الآن ؟ اتنا فى مقابل ذلك نبلغ من الكمال ومن التمدن والتحضّر ومن كوتنا أوروبين أن الشعب يشعر بشيان حين ينظر إلينا • ان الشعب ينظر إلينا الآن نظراته الى أجناب ، ولا يفهم شيئاً من أقوالنا ، ومن كتبنا ، ومن أفكارنا ••• وذلك كله تقدم • هو تقدم ، شتم أم أبيتم • ونحن الآن نحترق الشعب والمبادئ الشعبية احتقاراً يبلغ من العمق أننا نحس باشمئزاز لم يكن

معروفاً قبل اليوم حتى فى عهد أصحابنا موتبازون ورووان - وذلك تقدم آخر . وفى مقابل هذا ، ما أعظم ثقنا التمدنية ، وما أشد القطع والجزم والحسم فى اجابتنا عن أخطر المسائل من فوق : « لا شعب ولا أرض . ما القومية الا نظام معين من أنظمة الضرائب . النفس صفحة بيضاء ، النفس شمع تستطيع أن تصنع منه على الفور انساناً حقيقياً مقدوداً . على غرار المثال الشامل . يكفى أن تستعمل ثمرات الحضارة الأوروبية والمدنية الأوروبية وأن تقرأ كتابين أو ثلاثة . . . وفى مقابل ذلك ، ما أعظم هدونا وما أعظم أبهتنا فى هذا الهدوء ! ذلك أننا لا نشك فى شئ ، فقد خللنا جميع المسائل . ما أشد ما شعرنا به من اكتفاء بالنفس هادى . حين جلدنا تورجنيف ، مثلاً ، الذى تجرأ أن يشك فىنا ، ولم يكتف بشخصياتنا ذات الفخامة والجلال ، ورفض أن يتخذها مثلاً أعلى ، وأراد أن يسمى الى ما هو أفضل . . . الى ما هو أفضل منا . . . يا رب السماء ! هل على وجه الأرض كلها أناس أحسن منا وأبعد عن الخطأ وأكثر عصمة من الزلل ؟ وقد أُنْبهنا وقرعناه أيضاً بسبب شخصية بارازوف* ، الانسان القلق المغموم (دلالة على أنه ذو قلب كبير) ، رغم كل نزعة العدمية . حتى لقد جلدنا تورجنيف بسبب شخصية المرأة كوكشينا* ، هذه القملة التقدمية التى استخرجها تورجنيف من الواقع الروسى ليظهرنا عليها ويرينا اياها . ثم اتهمناه أيضاً بأنه يعادى تحرير المرأة . فهذا كله تقدم . . . هو تقدم ، شتم أم أبيتيم ! نحن الآن ننظر الى الشعب من فوق ، ونشعر بزهو كزهو عريف فى الجيش ، كزهو فارس من الفرسان المرتزقة الذين يعملون فى جيش بلاد أخرى ويحسبون أنهم يحملون اليها المدنية والحضارة . انه لمنظر يسر الانسان أن يراه : نضع أيدينا على خواصرنا ، ونلقى نظرة تحد واستفزاز ، ونمثل دور مصارعى الثيران ونقول باصقين : « ماذا

تستطيع أن تعلمنا أيها الموجيك (الفلاح) الشعبي الأخرق ؟ ان المعنى
الرجعى ليس فى حقيقة الأمر شيئاً آخر غير قاعدة الضرائب ا ، ، ألا
انه لا يحسن بنا أن نستسلم للأوهام !...

آ ... بالناسبة ... لنفرض ، لحظة ، يا أصدقائى ، أتنى قد
ختمت رحلتى وأتنى عدت الى روسيا . دعونى أقص عليكم قصة
صغيرة . فى ذات مرة ، هذا الشتاء ، تناولت جريدة من الجرائد . انها
من أكثر الجرائد تقديمية . فاذا أنا أقم على خبر من موسكو . العنوان :
« من بقايا الهمجية أيضاً » (أو شيء من هذا القيل . العنوان حى جداً
على كل حال . يؤسفنى أن الجريدة ليست تحت بصرى) . ففى ذلك
المقال يروى أنه فى صباح من أصباح الحريف وقعت الأنظار على عربية
تركبها امرأة من الحاطبات ، سكرى ، تلبس ثياباً مزركشة ، وتزين
بأشرطة ملونة ، ويصدهج صوتها بالفناء . والحوذى سكران أيضاً ،
يلبس هو الآخر ثياباً مزركشة ، ويدندن أغنية . والحصان نفسه مزين
مجمّل كذلك . ولكننى لا أدرى أهو سكران أم لا . أغلب الظن أنه
سكران . والحاطبة تحمل صرّة كانت ذاهبة لرضها على أهل العروس
بعد ليلة الزفاف ، وكانت سعيدة بطبيعة الحال . ومعروف أن الصرّة تضم
اللباس الخفيف الذى اعتاد الناس فى الطبقات الشعبية الدنيا أن يظهروا
عليه أهل العروس غداة الزفاف . وكان الناس يضحكون من منظر
الحاطبة : كان ذلك موضوع مزاح وتندر . والجريدة تستهجن هذه
الهمجية الفظيعة وتستكرها استكراً شديداً ، وتعدها « بقية » من بقايا
الماضى ما تزال موجودة رغم أنواع التقدم التى حققتها الحضارة !
لا أكنتمكم يا سادتى أتنى انفجرت ضاحكاً . لا يذهبن بكم الظن الى
أتنى أدافع عن أكل لحم البشر ، وعن اللباس الخفيف ، وعن الحجب ،
وما الى ذلك . فهذا كله شر ، هذا كله ابتعاد عن الحشمة ، هذا كله

شنوذ غريب ، على الطريقة السلافية . . . أنا أعرف هذه الحقيقة ، أنا موافق على صدق رأيكم ، رغم أنه مما لا شك فيه أن ذلك كله كان يمارس بدون سوء نية ، بل وكان يمارس تكريماً للعروس وتمجيذاً لها ، كان يُمارس بقلب سليم وبساطة تامة ، لجهل الناس بأن هناك عادات أفضل ، عادات أكرم وأليق ، عادات أقرب إلى المدينة الأوروبية . لا ، وإنما إنا ضحكنا لشيء آخر . لقد تذكرت ، على حين فجأة ، سيداتنا ومتاجر النوفوته . صحيح أن سيداتنا التمدنات أصبحن لا يرسلن إلى أهلن ألبسة خفيفة . ولكن إذا أردن أن يوصين بشوبٍ مثلاً ، فما أبرع فنهن وما أكبر حذقهن في وضع شيء من القطن في مواضع معينة من ثوبهن الأوروبي الفاتن ! لماذا القطن ؟ هو طبعاً للأناقة ، للجمال ، من أجل أن يظهرن . . . وليس هذا كل شيء . ان بناتهن ، هذه المخلوقات البريئة اللواتي هنَّ في السابعة عشرة من العمر ، ما ان يتخرجن من المدرسة الثانوية ، حتى يعرفن القطن أيضاً ، وحتى يعرفن قائده ، ويعرفن أين يجب أن يوضع ، ويعرفن الهدف الذي يستعمل هذا كله من أجله . . . قلت لنفسي وأنا أضحك : « هل هذا الاهتمام كله وهذا الاحتفال كله ، وهذه العناية كلها بتدوير الجسم بالقطن ، هل هذا كله أقرب إلى الطهر والأخلاق والمعة من ذلك اللباس الشقي الذي يُرسَل إلى الأهل على ثقة بريئة واقتناع ساذج بأن في هذا التصرف حكمة وأخلاقاً ؟ » .

صدقوا ، يا أصحابي ، أنني لن استطرد استطراداً طويلاً لأبيّن أن هذه المدينة ليست هي التطور ، بل وأنها في الأزمنة الأخيرة قد كانت في أوروبا عائقاً يعوق كل تطور بالسوط والسجن . لن أبيّن أن الناس لدينا يخلطون خلطاً فاحشاً بين هذه المدينة وبين قوانين التطور السليم الواقعي ، وأن هذه المدينة قد أصبحت في الغرب نفسه مدانة منذ زمن

طويل ، وأن أصحاب الأملاك وحدهم هم أنصارها انقاذاً لأموالهم ، رغم أن جميع الناس هنالك يملكون أو يتوقون الى أن يملكوا • لا ولن أبين أن النفس الانسانية ليست صفحة بيضاء أو عجيبة يمكن أن تشكل منها انساناً نموذجاً ، وأن ذلك يتطلب الطبيعة أولاً ، والعلم ثانياً ، ويتطلب بعد ذلك حياة مستقلة لا تعوقها عوائق ، حياة قريبة من الأرض ، ويتطلب ايمان الأمة بقواها القومية الخاصة • لا ولن أزعج أتنى أجهل أن التقدميين بيننا (ولكن لا جميعهم بل بعضهم) لا يستحسنون وضع القطن في أبواب النساء وانما هم يستهجنونه استهجانهم الحجب الخفيفة • لا • • • فان كل ما أريد أن أقوله هو ما يلي : ان مقالة الجريدة لم تستكر الحجب ولم تلغها بلهجة بريئة ، انها لم تقتصر على أن تقول ان هذا همجية ، وانما كان واضحاً أنها تندد بالهمجية الشعبية ، القومية ، البدائية ، التي تتنافى تنافياً فاضحاً مع الحضارة الأوروبية التي أخذت بها طبقاتنا الراقية • ان مقالة تلك الجريدة تنطرس وتظاهر بأنها تجهل أن النقاد المعتاة أنفسهم ربما كانوا أسوأ ألف مرة ، وأتأ لم نزد على أن أحللتنا محل بعض الأوهام والمخازي أوهاماً ومخازي أخرى أبشع وأردأ • كان لا يبدو أن المقالة تلاحظ ما لدينا نحن من أوهام سخيفة وعيوب مخزية كثيرة • لماذا ننظر الى الشعب هذه النظرية المتعالية ، لماذا ننظر الى الشعب من فوق ، واضعين أيدينا في خواصرنا على أوضاع مصارعي الثيران ؟ ان ثقة المرء بأنه معصوم من الزلزل وبأن تشهيره وتنديده ونقده أمور مشروعة ، ان هذه الثقة فيها كثير من الغفظة • ليست هذه الثقة الا استخفافاً بالشعب وازدراءً له ، أو هي أخيراً تعظيم أعشى دليل للأشكال الأوروبية من المدنية ، وفي ذلك فظاظة أدهى •

وفيم الاحاح ؟ ان المرء يلتقى كل يوم بألوف الوقائع المماثلة • فانغفروا الى أتنى صدعت رموسكم بسررد هذه القصة القصيرة •

ثم انتهى أتبه عن هدى • نعم • ذلك ناشئ عن أنتى ففرت من الأجداد الى الأحفاد ففراً مسرفاً فى السرعة • وهناك فواصل • تذكروا تشاتسكى* • ليس تشاتسكى سلفاً مكرراً على سذاجة • وليس خلفاً مغروراً يمثل دور مصارع الثيران منفصلاً عن كل ماعدا • ان تشاتسكى نموذج خاص جداً بروسيا الأوروبية • نموذج جذاب متحمس شفيق يدعو دائماً لروسيا الأوروبية • وللاأرض • ولكنه مع ذلك يسافر الى أوروبا حين يريد أن يلتبس

• ملاذاً للعاطفة الجريحة المهانة •

هو • باختصار • نموذج لا فائدة منه البتة فى هذه الأيام • ولكنه كان فى الماضى مفيداً جداً • انه رجل ينشئ عبارات ويدبج جملاً • يلقى أحاديث ويقول خطباً • ولكنه يفعل ذلك كله صادقاً مخلصاً • ويقظه أنه لا فائدة منه ولا نفع له • انه ينبعث فى الجبل الجديد • ونحن نؤمن بالقوى القتية • ونؤمن بأنه سيعود الى الظهور قريباً • ولكنه لن يعود عودة رجل شديد الحمياً مندفع العاطفة • كما فى حفلة فاموسوف الراقصة • وانما سيعود عودة متنصر فخور قوى رقيق محب • وسيترف عدا ذلك بأن ملاذ العاطفة الجريحة المهانة ليس فى أوروبا • بل قد يكون تحت أنفه • سوف يجد مهمة يقوم بها • وسوف يشرع فى تحقيق هذه المهمة • وبهذه المناسبة : أنا على يقين من أن عندنا الآن شيئاً آخر غير أولئك « السامودور »* •

أنا واثق • أنا أدعى الانسان الجديد قد وُلد • • • ولكننا ستحدث عن هذا الأمر مرةً أخرى • وانما أريد أن أقول كلمتين آخرين عن تشاتسكى • ان هناك نقطة واحدة تربكنى وتحيرنى • لقد كان تشاتسكى رجلاً على جانب عظيم من الذكاء • فكيف أمكن أن

لا يجد مثل هذا الرجل عملاً يقوم به ؟ ذلك أنه لا هو ولا أضرابه قد وجدوا عملاً يقومون به خلال جيلين أو ثلاثة أجيال • تلك واقعة ، ولا اعتراض على واقعة • ولكن يخيّل إلى أنّ في امكاننا أن نطرح سؤالاً من باب حب الاطلاع • اننى لا أفهم أن لا يستطيع انسان ذكى ، فى أى وقت من الأوقات ، وأية كانت الظروف ، أن يجد عملاً يقوم به • يقال ان هذه النقطة محل خلاف • ولكننى فى قرارة قلبى لا أصدّق هذا الكلام • ان الانسان يملك الذكاء من أجل أن يبلغ ما يريد بلوغه • اذا كنت لا تستطيع أن تقطع فراسخ ، فاقطع مائة خطوة على الأقل ، فذلك يظل أفضل من أن لا تقطع شيئاً البتة ، ان ذلك يقربك من الهدف • فاذا اصررت على أن تصل الى الهدف بخطوة واحدة ، لم يكن ذلك ذكاءً فى رأيى ، حتى ليمكن أن يوصف بأنه وصولية • ان العمل لا يحلونا • انما لم تعود أن تسير خطوة خطوة • الأفضل عندنا أن نصل الى الهدف بخطوة واحدة أو نصير الى ما صار اليه ريجولوس • تلکم هى الوصولية فى رأيى • على أن تشاتسكى قد أحسن صنعا حين انسحب الى أوروبا • ولقد كان فى وسعه أن ينتظر قليلاً وأن يمضى لا الى الغرب بل الى الشرق • ولكن الناس فى بلادنا يحبون الغرب ، وهم جميعاً يمشون الى الغرب متى اضطروا الى التطرف • وأنا أيضاً أذهب الى الغرب • • ولكن شأنى شأن آخر ، • لقد رأيتهم جميعاً هناك • ليس يحصى عددهم • وكأنهم جميعاً ينشدون • ملاذاً للمأظفة الجريحة المهانة • • أو هم على الأقل ينشدون شيئاً ما • فى أوانٍ لاحق على أوان حفلة فاموسوف الراقصة ، تكاثر جيل تشاتسكى من الجنسين فى الغرب تكاثر رمل البحر • وليس أمثال تشاتسكى بالوحيدى : لقد ترك الجميع موسكو الى الغرب • ما أكثر أمثال ريتلوف* هناك الآن ، وما أكثر أمثال سكالوزوبوف ، الذين تركوا الخدمة وأرسلوا الى مدن المياه المعدنية باعتبارهم كسحاء ! ان

باتاليا ومتريفنا وزوجها أعضاء دائمون هناك • وفي كل سنة تُنقل الى هناك الكوتيسة خلستوفا • جميع هؤلاء السادة قد ضاقوا ذرعاً حتى بموسكو • مولتساليين وحده ليس موجوداً : لقد دبّر أمره بطريقة أخرى وبقي في مكانه ، ناذراً نفسه للبلاد ، للوطن ••• يستحيل عليك أن تقاربه الآن ، انه لن يرضى الآن أن يستقبل فاموسوف في حجرة المدخل من منزله : « هما جاران في الريف : والناس في المدينة لا تحييهما » • ان مولتساليين منهمك في الأعمال ، وقد وجد عمله • هو الآن في بطرسبرج ••• وقد نجح • « انه يعرف روسيا ، وروسيا تعرفه » * • نعم ، انها تعرفه جيداً ، وستظل تذكره زمناً طويلاً • حتى انه في هذه الأيام أصبح لا يلتزم الصمت • بالعكس : انه يتكلم بنير انقطاع • ما على الناس الا أن يسحبوا السلم بعده •

ولكن حسبنا ما قلناه عنه • لقد ذكرت أنهم جميعاً ينشدون في أوروبا ملاذاً يهدىء نفوسهم ، ولقد أظن حقاً أن حالهم هناك أحسن • ولكن ما أشد القلق الذي يراه المرء في وجوههم ! ••• يا لهم من تضاء ما أقوى الاضطراب الدائم المستمر في نفوسهم ، وما أكثر ما يتحركون تحركاً مرضياً مغموماً مهموماً ! ••• هأت ذا تراهم يسيرون ممسكين الدليل بأيديهم ، ويسارعون في كل مدينة الى مشاهدة طرائفها كأنهم يقومون بواجب ، كأنهم ما يزالون في خدمة وطنهم • انهم لا يغفلون قصراً ذا ثلاث نوافذ ، ما دام مذكوراً في الدليل ، ولا يغفلون داراً من دور البلدية تذكّر بمنزل عادي من منازل موسكو أو بطرسبرج • انهم يقفون متأملين أمام لوحات روبنس التي تصوّر نساء عاريات ، ويعدونها آلهة الجمال الثلاث في أساطير الاغريق ، لأن الدليل يأمر بذلك • وهم يهرعون الى مادونا سان سيكست ويلبثون أمامها على حالة انتظار مبهور : سيحدث شيء ما ، سيخرج أحد من تحت البلاط فيدد قلقهم الغامض

وسأهمهم الشديد • ثم ينصرفون مدهوشين من أن شيئاً من ذلك لم يحدث • ان حالتهم لا تشبه حالة الاستطلاع النافع الآلى ، حالة السائحين الانجليز الذين ينظرون فى الدليل أكثر مما ينظرون الى الطرائف ، ولا يتوقعون شيئاً مدهشاً ، وانما هم يقتصرون على التأكد من أن الشيء الذى يروونه موصوف فى الدليل على هذا النحو حقاً ، ويقتصرون على التأكد من علوه أو وزنه • لا • • • ان استطلاعنا نحن استطلاع عجيب ، استطلاع عصبى ، حار ، غنيف ، عدا أنه مقتنع سلفاً بأنه لن يحدث شيء قط ، الى أن تمر ذبابة طبعاً ، فمتى مرت ذبابة عاد يستيقظ • • • لست أتحدث الآن الا عن الأشخاص الذين أوتوا فكراً • أما الآخرون فلا داعى الى الاهتمام بهم : أسأل الله أن يحمى الجميع • لا ولا أنا أتحدث عن أولئك الذين استقر بهم المقام فى الغرب ، فسوا لغتهم ، وأخذوا يصيخون بأسماعهم الى أقوال الكهنة الكاثوليك •

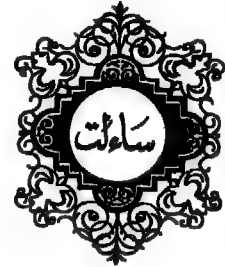
مهما يكن من أمر ، فاليكم ما يمكن أن يقال عن جملة الناس : اتنا متى اجتزنا الحدود أصبحنا نشبه شجراً عجيباً تلك الكلاب الصغيرة البائسة التى تركض باحثة عن أصحابها • ولكن لعلكم تحسبون أننى أسخر ، وأننى أتهم أحداً : « فى هذه اللحظة ، بينما • • • الخ • • • فقد أصبحتم فى الخارج ! المشكلة الزراعية تُطرح ، وأتم الآن فى الخارج ! الخ الخ ! ، لا ، لا ، لا ، اننى لا أتهم أحداً البتة ! ومن أنا حتى أتهم ؟ أتهم بماذا وأتهم من ؟ » تكون سعاداء لو عملنا شيئاً ، ولكن لا يوجد شيء نعمله ؟ واذا وُجد شيء فانه يُعمل بدوننا • الأماكن مشغولة ، ولا أمل فى شغور أماكن • فعلام نحشر أنفسنا حيث لا نطلب منا ذلك ؟ • • ذلكم هو الانهزام • وكفى الآن • اتنا نعرف هذا الانهزام على ظهر القلب •

ولكن أُراني أندفع وأتجسس ! أين اتسع وقتي لأن أرى روسيين
في الخارج ؟ ذلك أننا ما زلنا على الحدود ... اللهم الا أن نكون قد
اجتزناها ؟ نعم اجتزناها حتى لقد تتجاوزنا برلين ودرسدن وكولونيا •
الحق أنني ما زلت في القطار • ولكن أماننا محطة آيدتكونن •
واركولين • ثم ندخل فرنسا • وباريس • باريس التي كنت أريد الكلام
عنها ثم نسيتهما ؟ لقد أسرفت في التأمل في أوروبا الروسية • هذا شيء
يقتفر للمرء حين يكون ذاهباً بنفسه لزيارة أوروبا الحقيقية • ولكن علام
الاستغفار ؟ ان هذا الفصل الذي كتبته زائد نافل •

الفصل الرابع

أُمُورٌ غَيْرُ نَافِلَةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَسَافِرِينَ

حل نهائي لهذا السؤال : « هل الفرنسي محروم من العقل حقاً ؟ »



نفسى قائلاً وأنا أنظر الى أربعة مسافرين
فرنسيين ركبوا القطار منذ قليل : « غريب ...
لماذا يكون الفرنسي محروماً من العقل ؟ » ان
هؤلاء المسافرين الذى ركبوا القطار منذ هنيهة هم
أوائل من لقيت من الفرنسيين على أرض وطنهم ، عدا رجال الجمرک الذين
تركناهم منذ قليل فى اركولين . لقد كان رجال الجمرک لطافاً مهذبين
جداً ، برهنوا على سرعة فى انجاز العمل ، وقد عدت أركب القطار مسروراً
كل السرور يبدأيتى فى فرنسا . حتى محطة اركولين ، لم تكن حجرتنا
بالقطار ، وهى حجرة تسع لثمانية أشخاص ، لم تكن تضم الا اثنين هما
أنا ورجل سويسرى ، بسيط متواضع ، متوسط السن ، محدث بارع لم
أقطع عن الثروة معه خلال ساعتين . وها قد أصبحنا الآن ستة ،
فما كان أشد دهشتى حين رأيت صاحبى السويسرى يصمت فجأة حين
ركب الرفاق الجدد ، فأصبح لا ينطق بكلمة . أردت أن استأنف حديثنا
السابق ، ولكنه أسرع يقطع الحديث محاذراً ، وأجابنى اجابة من يريد
التهرب من الكلام ، وذلك بلهجة جافة توشك أن تكون خشنة ، ثم التفت

نحو النافذة يتأمل منظر الطبيعة • وما هي الا دقيقة حتى أخرج من جيبه دليله الألماني فاستغرق في قراءته • فتركته وشأنه ، وانصرفت باهتمامى صامتاً الى رفاقنا الجدد • انهم أناس يثيرون الاستغراب • كانت أيديهم فارغة ، فهم لا يشبهون المسافرين فى شيء • ليس معهم صرة واحدة وليس فى ملابسهم ما يدل أيسر دلالة على أنهم سائحون • كانوا جميعاً يرتدون رديجوتات متهترئة رثة كالتى نراها على أتباع الضباط من الجنود أو حتى على خدم سادة من الريف ، ولكنها أفضل منها قليلاً • وكانت قمصانهم وسخة ، وكذلك كرافاتهم ذات الألوان الصارخة • وكانت تحيط بضيق واحد منهم بقية مندبل حريرى من تلك المناديل التى لا تترك قط فتتشرب رطلاً من الدهن بعد التصاقها بجسم صاحبها مدة خمسة عشر عاماً • وكان لكمي هذا الشخص نفسه زرفان من زائف الماس بحجم بندقة • على أن وضعهم جسماً كان فيه شيء من غطرسة • وهم يظهرون فى سن واحدة - حوالى خمسة وثلاثين عاماً - كما أنهم يتشابهون كثيراً رغم اختلاف وجوههم ، فكل منهم مشدود السحنة ، ولكل منهم لحية صغيرة تحت الشفة السفلى • ان المرء يلاحظ أن هؤلاء الناس قد عانوا أحوالاً متقلبة كثيرة ، فاكسبوا الى الأبد هيئة جادة لكنها شرسة • وقد بدا لى أيضاً أنهم يعرف بعضهم بعضاً ، ولكنى لا أتذكر أنهم تبادلوا كلمة واحدة ! وكانوا يتظاهرون بأنهم لا يلاحظوننا أنا والسويسرى ، فانما هم ينظرون من خلال النافذة باصرار متصل ، ويصفرون فى أثناء ذلك باهمال وقلة اكتراث • أشعلت سيجارة ، وأخذت أتهم النظر فيهم وأتساءل : « أى نوع من الناس يمكن أن يكون هؤلاء ؟ لا هم عمال ولا هم بورجوازيون • أتراهم عسكريين متحالفين على التقاعد ، أو شيئاً من هذا القليل ؟ • على أن أمرهم لم يكن يغبني كثيراً • وما هي الا عشر دقائق حتى نزلوا واحداً بعد آخر فى أول محطة تالية •

وأغلق الباب واستأنف القطار سيره ! ان الؤقات قصيرة جداً على هذا الخط ، لا تدوم الا دقيقتين أو ثلاث دقائق فى أكثر تقدير • والقطار يجرى بسرعة رائعة حقاً •

وما ان صرنا وحيدىن حتى أسرع السويسرى يطوى كتابه ويضعه جانباً ، ويرمقنى بنظرة ارتياح وقد ظهر عليه أنه يرغب فى استئناف الحديث •

قلت وأنا أتأمله مستطلعاً :

— لم يبق هؤلاء السادة مدة طويلة •

فقال :

— ليست المسافة التى يجب عليهم أن يقطعوها طويلة : من محطة

الى المحطة التى تليها •

— أأنت تعرفهم ؟

— هم ؟ انهم من رجال الشرطة •••

فسألته مدهوشاً :

— كيف ؟ من رجال الشرطة ؟ أية شرطة ؟

— لاحظتُ فعلاً منذ قليل أنك لم تحزور ذلك •

سألته وأنا ما أزال أرفض أن أصدقَه :

— أيمكن أن يكونوا جواسيس حقاً ؟

— نعم • ومن أجلنا انما ركبوا القطار •

— أأنت واثق من ذلك ؟

— لا يخالجنى فى هذا أدنى شك • سبق أن قطعت هذه المسافة

مراراً • وقد أشير لهم الينا فى الجمرك أثناء النظر فى جوازات السفر ،

وذكرت لهم أسماؤنا ، النخ • فركبوا ليرافقونا •

- ولكن فيم يرافقتونا وقد رأونا وانتهى الأمر • ألم تقل انهم قد أشير لهم الينا فلاحظونا ؟

- نعم ، وذُكرت لهم أسماؤنا • ولكن ذلك لا يكفي • وهم الآن قد دققوا النظر فينا تفصيلاً : الوجه ، الملابس ، حقيبة السفر ، مظهرنا كله • لقد لاحظوا حتى أزرار أكمامنا • وأنت قد أخرجت علبة سيجاراتك ، فلم يفتهم أن يلاحظوها • الخلاصة ... لقد لاحظوا وسجلوا في ذاكرتهم أكبر عدد ممكن من التفاصيل • فمتى اتفق أن تهت في باريس أو غيرت اسمك (اذا كنت مشبوهاً) ساعدت هذه التفاصيل الى الاهتداء اليك أو القبض عليك • لقد أرسلت هذه التفاصيل بريقاً الى باريس • وهناك يُحتفظ بها للطوارئ • هذا الى أن أصحاب الفنادق مجبرون على أن يسجلوا أدق الصفات الخاصة ، المتصلة بالأجانب الذين ينزلون فنادقهم •

سألته مرةً أخرى وأنا ما أزال ذاهلاً بعض الذهول :

- ولكن لماذا كان عددهم أربعة ؟

- أوه ! انهم هنا كثير ! لعل عدد الأجانب في هذه المرة لم يكن كبيراً ، فلولا ذلك لتوزعوا على عربات القطار •

- ولكن لا حظ أنهم لم يتأملونا البتة ، وانما كانوا ينظرون الى الخارج من خلال النافذة •

- لا تخف ... لقد دققوا في كل شيء ... ومن أجلنا انما

ركبوا القطار •

قلت أحدث نفسي : « هيء هيء ! ويقولون » ان الفرنسي محروم من العقل ! » • انتى لأخجل أن أعترف بذلك • لقد نظرت الى السويسرى خلصة وأنا في شك من أمره :

« ألا يمكن أن تكون متواطئاً معهم يا رفيق ، ألا يمكن أن يكون غرضك تضليلي ؟ » ، ذلك ما خطر ببالي ، ولكنه لم يخطر ببالي الا لحظة قصيرة ، أؤكد لكم ... وكان هذا الخاطر سخيلاً غير معقول . ولكن ما حيلتي ؟ ان المرء يفكر رغباً عنه .

لم يخدعني السويسري . ففي الفندق الذي نزلته سرعان ما سُجِّلَت صفاتي تفصيلاً ، ثم أُرسلت الى من يجب ارسالها اليه . وفي وسعك أن تستنتج من شدة التدقيق في ملاحظة صفاتك بغية تسجيلها ، أن حياتك كلها في الفندق بعد ذلك ، وسائر ما ستقوم به من أعمال وما ستخطوه من خطوات مهما يكن يسيراً ، سوف يلاحظ وسوف يسجّل على نحو دقيق . على أنني لم أضايق كثيراً في أول فندق نزلته ، فقد سُجِّلَت صفاتي دون أن أقول كلمة واحدة ، عدا الاجابات الخطية عن الأسئلة التي يتضمنها دفتر السجل ، وقد دوّنتها بنفسى : الهوية ، البلد الذي وصلت منه ، هدف الرحلة ، الخ . ولكن ، في الفندق الثاني الذي نزلته بعد ثمانية أيام قضيتها بانجلترا ، حين لم أجد غرفة في « فندق كوكبير » ، عمد صاحب الفندق الى طريقة أصرح كثيراً . كان هذا الفندق الثاني يسمى « فندق الأباطرة » ، ويتصف جوه بأنه عائلي من جميع النواحي . كان أصحابه انسانيين طيبين حقاً ، وهما رجل وزوجته متقدمان في السن ، يفيضان لطفاً وذوقاً في معاملة نزلاء الفندق ، ففي المساء من يوم وصولي رجعتى صاحبة الفندق ، حين لقيتني في الدهليز ، أن أدخل الى المكتب . وكان زوجها هناك . ولكن كان واضحاً أنها هي التي تتولى ادارة الفندق . بدأت تقول بلطف وأدب :

— معذرة يا سيدى ، ولكن لا بد لنا من تسجيل بيان عنك .
قلت :

- البيان عندكم ... فقد أعطيتكم جواز سفرى •
- نعم ، ولكن ... ما هى صفتك ؟
- صفتى ؟ هذا أمر غامض طالما ساءنى • ولكن ما عساي أكتب ؟
- مسافر ؟ ان كلمة مسافر تعوزها الدقة ... أأكتب كلمة « أديب » ؟
- انهم لن يقيموا لى عندئذ أى وزن ، ولن يولونى أى اعتبار •
- قالت صاحبة الفندق :
- أوثر لك أن تكتب أنك « مالك أطيان » ، ما رأيك ؟ هذا أفضل •
- فقال زوجها مؤيداً ومجيداً :
- نعم نعم ، هذا أفضل •
- والآن ما هى الغاية من مجيئك الى باريس ؟
- السياحة طبعاً !
- هم ... نعم ... « مشاهدة باريس » • اسمع لى ياسيدى ،
- ما طول قامتك ؟
- طول قامتى ؟
- كم طولك ؟
- أنا متوسط الطول كما ترى ؟
- طبعاً يا سيدى ، ولكننى أريد أن أعرف طولك على نحو أدق ••
- كذلك قالت السيدة ، ثم أضافت مرتبكة بعض الارتباك وهى تسأل
- زوجها بنظرتها :

- أظن ...

فقال زوجها حاسماً وقد حدّد طولى بالنظر :

- أظن أن طولك « كذا وكذا » .

سألت :

- ولكن ما حاجتكم الى معرفة هذا ؟

فأجابت السيدة :

- أوه ! هذا ضرر ... و ... رى !

قالت ذلك مشددة على هذه الكلمة بينما هى تسجل طول قامتى فى

الدفتري . ثم سألتنى :

- والآن يا سيدى ، شعرك ؟ هو أشقر ، أميل الى أن يكون فاتحاً

... مقصوص كالفرشاة

وسجلت أوصاف الشعر . ثم تابعت تقول وهى تضع القلم وتنهض

وتقترب منى فى تودد ولطف :

- اسمح لى يا سيدى ... هل لك أن تسير معى خطوتين نحو

النافذة . يجب أن أفحص الآن لون غينيك . هم ... هما فاتحتان ! ..

وسألت زوجها بنظراتها . كان واضحاً أنهما يحب كل منهما

الأخر .

قال الرجل بلهجة جادة :

- أميل الى تكوننا شهابين .

- صحيح ...

وبغمة من عينيه دلّ زوجته على شيء فوق حاجبيّ ، فأدركت فوراً ما يقصد • ان في جيني ندبة ، وهو يريد أن تسجل امرأته هذه العلامة الفارقة •

قلت للسيدة بعد أن انتهى فحصي :

- اسمحي لي بسؤال يا سيدتي : هل صحيح أنهم يطلبون منكم هذا التدقيق كله ؟

قالت :

- أوه ! يا سيدى ! هذا « ضرر » و « » رى ، •

وقال زوجها بعدها كأن كلامه رجع الصدى ، قال بلهجة ذات دلالة :

- سيدى ! •••

قلت :

- ولكنى لم 'أسأل فى فندق « كوكير » ، أى سؤال •

قالت السيدة بحماسة :

- مستحيل ، والا نالهم من ذلك أذى • لعلهم فحصوك صامتين ، ولكنهم فحصوك حتماً ما فى ذلك ريب • أما نحن فنعامل نزلاء فندقنا معاملةً أصرح ، تعاملهم معاملة أقرباء • ستسرّ منا • سوف ترى •••

قال الرجل مؤيداً فى أبهة :

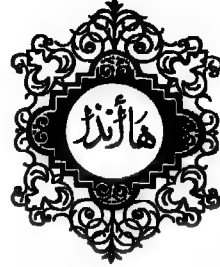
- أوه ! سيدى ! •••

وعبر وجهه عن رقة توشك أن تكون عاطفة خان •

انهما زوجان شريفان جداً ، لطيفان جداً ، على الأقل اذا صدق
ما عرفته فيهما بعد ذلك • غير أن كلمة « ضر • • • و • • • رى » لم
تُلفظ بلهجة فيها اعتذار أو فيها تلطيف • بالعكس : لقد كانت تحمل
معنى الضرورة المطلقة وتوشك أن تطابق قناعتها الشخصية •
اذن ، هأنا ذا في باريس •

الفصل الخامس

بعد



اذن في باريس!... لا تحسبوا مع ذلك أنني سأحدثكم كثيراً عن هذه المدينة . ذلك أنني أقدر أنكم قد شبعتم قراءة عنها باللغة الروسية . ثم انكم قد ذهبت إليها بأنفسكم ، فلا شك أنكم لاحظتموها خيراً مما لاحظتها أنا . فأنا في الخارج لا أطبق أن أقوم بزيارة المدينة التي أزورها مستهدياً بالدليل ، كمسافرٍ ملزم بواجب . لهذا أغفل في بعض الأماكن أشياء من المخجل أن لا أراها . وهذا ما حدث لي بباريس . لن أحدثكم عن شيء من ذلك ، ولكن اعلموا أنني وجدت لمدينة باريس تعريفاً ، وأنتي زيتتها بنعت ما أزال أعتبها به : انها أكثر مدن الأرض تجملاً بالأخلاق والفضيلة . يا له من نظام ! يا لها من حكمة ! يا لها من علاقات محددة وطيدة ! ان كل شيء في باريس مضمون ومرتب سلفاً . ان كل الناس فيها مسرورون سعداء كل السعادة ، حتى لقد انتهى بهم الأمر ، من حسن نيتهم وصدق عزيمتهم ، الى الاقتناع بأنهم كذلك حقاً وهم مكتفون بهذا مقتصرون عليه لا يريدون شيئاً عدا أتم لا يريدون أن تصدقوا أنهم مكتفون بذلك مقتصرون عليه . أتم تزعمون أنني أبالغ ، وأن ما أقوله هو من باب التشنيع الحاقد الذي يدفع اليه التعصب الوطني ، ولا يمكن أن يكون صحيحاً . ولكنني نهتكم منذ البداية ، يا أصدقائي ، الى أنني قد أكذب

فأسرف في الكذب • فلا تنزعجوا اذن • ولعلكم تعلمون أيضاً أتنى اذا كذبت فليس ينفي ذلك اقتناعى بأتنى لا أكذب • وحسبى هذا الكلام •• واتركوا ذراعىً طليقتين فلا تفلوهُما •

نعم ، باريس مدينة مدهشة • ويا له من ترف ! ويا لها أنواعا من الرخاء يتمتع بها أولئك الذين يحق لهم أن يتمتعوا بها ! ومرةً أخرى ، يا له من نظام ! يا له من ركود فى النظام ان صح التعبير ! اتنى أعود دائماً الى الكلام على النظام ، على الترتيب • حقاً ، ان باريس لن تلبث أن تصبح مدينة جامعية ألمانية صغيرة، متجمدة على الهدوء والسكينة، كمدينة هايدلبرج مثلاً • انها تجنح نحو هذا ، وتجه اليه • ألا يمكن أن توجد هايدلبرج أخرى ضخمة الأبعاد ! ويا لها من أنظمة ! افهموا عنى : أنا لا أتكلم الآن عن أنظمة خارجية ، وهى يسيرة (نسبياً بطبيعة الحال) ، وانما أتكلم عن ذلك التنظيم الضخم ، الداخلى ، الممنوى ، الذى يصدر عن النفس ، عن الروح • ان باريس تضيق وتقلُّ ، طواعيةً ، عن حب : انها تقلص بعاطفة ، بحنان • ما أكبر الفرق بينها وبين لندن مثلاً !

لم أقص فى لندن الا ثمانية أيام ؟ فيا لها من لوحات واسعة ذات بروز ، يا لها من مستويات مضيئة أصيلة واضحة ، تلك التى انحفرت ذكراها فى نفسى ! ان كل شىء فى لندن ضخم ، ان كل شىء فيها حاد قاطع فى أصالته ! حتى لقد يخطئ ظن المرء فى هذه الأصالة • ان كل نقيض ، مهما يكن بارزاً ، يتلاءم فى لندن مع نقيضه ، فاذا النقيضان ينسجمان فى عناد ، ويتناقضان دون أن ينفى أحدهما الآخر • يبدو أن كل نقيض يؤكد وجوده الخاص باصرار ، دون أن يلوح أن أحد النقيضين يضايق الآخر أو يزعجه • ومع ذلك ففى لندن أيضاً يتلاحق ذلك الصراع العارم نفسه ، ذلك الصراع القوى الذى أصبح منذ الآن

متأصلاً قديماً ، أغنى الصراع المستميت بين المبدأ الفردى الذى يشترك فيه الغرب كله وبين ضرورة التلاؤم كيفما اتفق ، أغنى ضرورة قيام جماعة متماسكة على أى نحو من الأنحاء ، وانتظام المجموع فى مجتمع يشبه أن يكون بيوت النمل ، بل والتحول الى مجتمع نمل ، ولكن على شرط طبعاً ، هو شرط أن يلتهم الأعضاء بعضهم بعضاً ، والا أصبحوا من أكلة لحوم البشر ! على أننا من هذه الناحية نلاحظ نفس ما نلاحظه فى باريس . نلاحظ ذلك الجهد المستميت نفسه فى سبيل الاكتفاء بالحالة الراهنة والاقصار عليها ، واستئصال المرء من نفسه جميع الرغبات وجميع الآمال ، وأن يلعن مستقبله الذى ربما كان روّاد التقدم أنفسهم لا يؤمنون به كثيراً ، وأن يعبد « بعل » . ومع ذلك لا تدعوا لهذا الأسلوب الرفيع أن يقتكم : ان هذا كله لا يلاحظ على حالة الوعى الا لدى التقدمين الواعين . ولكن المرء يلاحظه على حالة اللاوعى ، على حالة اللاشعور ، على الحالة الفريزية ، فى الوظائف الحياتية لدى الجمهور بأجمعه . فالبورجوازي الباريسى مثلاً يكاد يكون مقتنعاً اقتناعاً واعياً بأنه ليس فى الامكان ابداع مما كان ، وأن كل شئ فى هذا العالم على خير ما يرام ، حتى لقد يضربك اذا أنت شككت فى ذلك ، لأنه رغم ثقته ما تزال نراوده مخاوف . ولئن كان الأمر على هذا النحو فى لندن ، فما أكبر الفرق رغم كل شئ : يا لها من لوحات واسعة ، مرهقة ، هنالك ! ما أكبر الفرق ، حتى من ناحية المظهر الخارجى ، بين باريس ولندن ، هذه المدينة المنهمكة نهاراً وليلاً ، الواسعة كالبحر ، مع هذه الضجة التى لا تنقطع ، وقرقعة الآلات المستمرة ، وهذه السكك الحديدية التى تمر فوق المنازل (وتحت المنازل قريباً) ، وهذه المبادرة الجريئة الجسور ، وهذه الفوضى الظاهرية التى هى فى حقيقة الأمر النظام' البورجوازي وقد بلغ أوجه ، وهذا النهر التسمم ، نهر التاميز ،

وهذا الهواء المشبع بالفحم ، وهذه الميادين والحدائق الرائعة ، وهذه الأحياء الكالحة ، كحى هوايتشابيل وسكانه أنصاف العراة الشربيين الساغبين ، و « المدينة » بملايينها وتجاريتها الشاملة ، و « قصر الكريستال » و « المعرض » ...

نعم ، ان « المعرض » فخم • تحسّون أن قوة رهيبة قد جمعت هنا ذلك الجمهور الذى لا يحصى عدده ، والذى جاء من جميع أنحاء العالم فالتقى قطعاً واحداً • تشعرون بأن نتيجة قد تحققت ، تشعرون بالانتصار ، بالظفر • حتى لقد تأخذون تخافون لا أدرى من أى شىء ! مهما تملكوا من الاستقلال ، فان الخوف يحتاج نفوسكم ! أليس هذا هو بلوغ المثل الأعلى حقاً ، أليس هو النهاية والحائمة ؟ أليس هذا هو «القطع الواحد» فى الواقع ؟ ألا يجب على المرء أن يسلم بهذا على أنه الحقيقة الكلية ، وأن يصمت الى الأبد ؟ ان ذلك كله ليلغ من الفخامة والجلال والأبهة والافتخار والانتصار أنكم تأخذون تشعرون بفكركم مضغوطاً مثقلاً • تنظرون الى هذه المثات من الألوف ، الى هذه الملايين من البشر الذين جاءت بهم الى هذا المكان من جميع أركان العالم فكرة وحيدة ، فازدحموا فيه هادئين عنيدين صامتين فى هذا القصر الفخم ، فتشعرون عندئذ أن شيئاً ما قد تحقق تحقيقاً نهائياً • هذه لوحة من التوراة ، هذه صورة من بابل ، هذه نبوة رؤيا يوحنا تتحقق أمام أبصارنا • تشعرون أنكم فى حاجة الى قدرة هائلة على المقاومة والانكار والنفى حتى لا تخضعوا ، حتى لا تستسلموا لذلك الشعور ، حتى لا تنحوا أمام الواقع وتعبدوا «بعلى» • أى حتى لا تحسبوا أن هذا الواقع هو المثل الأعلى ...

قد تقولون لى : « ولكن هذا الكلام سخيف ؟ انه نمرة المرض ، انه نتيجة تعب الأعصاب ، انه ناشئ عن الفلو والمبالغة • ما من أحد يتوقف على هذا ، وما من أحد يعده مثلاً أعلى • ثم ان الجوع والعبودية

ليس فيهما ما يجذب ، وهما يحضنان أكثر من أى شيء آخر على الإنكار
والجحود ، ويولدان الشك والريب • أما الهواة الشعبون الذين يتزهون
نشداناً للتمتة ، ففي وسعهم طبعاً أن يؤلفوا لوحات من رؤيا يوحنا ،
وأن يفرّجوا عن أنفسهم وأن يسلبوا أعصابهم مضحين كل حادثة من
الحوادث ، باحثين فيها عما يثير في نفوسهم احساسات قوية • • • •

سوف أجيكم عندئذ قائلاً : « طيب • لنسلم بأننى قد فتنت
بالديكور • ولكن لو رأيتم زهو الفكر القوى الذى خلق هذا الديكور
الضخم الفخم ، لو رأيتم ثقته واعتزازه باتصاذه وظفريه ، لارتجتم من
غطرسته ومن عناده ومن عماوته ، ولارتجتم اسفاً على أولئك الذين
يخلقون فوقهم ويسيطرون عليهم ويتحكمون فيهم هذا الفكر المتعالى المتكبر •
فأمام هذا الصلف الواسع الكبير ، أمام هذا الفكر المتسلط ، أمام هذا
الانتصار الحاسم الذى تحققه ابداعاته ، تنهاوى النفس الساذجة أحياناً ،
وتنزل ، وتخضع ، وتنشد الخلاص والسلامة فى خمرة « الجين » وفى
الدعارة والفحش والمجون ، وتأخذ تؤمن بأن هذه الحالة مشروعة • ان
الظاهرة واضحة ، فالجمهور يصاب بالشلل ويصبح عاطلاً عن الحركة ،
أو هو ، اذا خضع للرؤية ، ينشد الخلاص والسلامة فى مذهب
كالمرمونية ، متجهين الروح كالحلح النفس قد ضربت عليه اللعنة • وفى
لندن يستطيع المرء أن يلاحظ الجمهور بحجوم وبينة لا توجد فى أى
مكان آخر •

قبل لى مثلاً ان نصف مليون من العمال والعاملات مع أولادهم
يتشرون فى أرجاء المدينة كلها ، أيام السبت مساءً ، كبحر متلاطم
الأمواج ؟ وهم يؤثرون أن يتجمعوا فى بعض الأحياء خاصة يحتفلون
فيها بعيد السبت حتى الساعة الخامسة من الصباح ، أى يفرطون فى الأكل
والسكر كالبهاائم لسائر الأسبوع • هكذا يبدد هذا الجمهور مدخراته

التي حصلها خلال أيام طويلة بعمل شاق وجهد كبير . ان دكاكين
 الجزارين وحوائيت الأطعمة والمأكّل التي تسطع فيها أنوار الغاز تسكب
 في الشوارع أمواجاً من ضياء . كأن المرء يشهد حفلة رقص أقيمت
 لهؤلاء الزوج البيض . الشعب يتزاحم في الحانات ، وفي الشوارع .
 الناس يأكلون ويشربون حيث يوجدون . محلات شرب البيرة مزدانة
 كأنها قصور . الحشد سكران ، ولكن سكره خالٍ من الفرح والمرح .
 انه متجهم ، ثقل ، صامت صمتاً عجيباً غريباً . ولا ينقطع هذا الصمت
 المريب الا من حين الى حين ، تقطعه شتائم ولكلمات دامية تملأ نفسك
 حزناً . ان الجميع يسرعون الى السكر حتى يفقدوا الوعي . والنساء
 لا يتخلفن في هذا عن أزواجهن ، بل يسكرن معهم . والأولاد يركضون
 ويسمون بين أهلهم هنا وهناك : في ليلة كهذه الليلة ، في الساعة الثانية
 من الصباح ، ضللت طريقي ، فضربت في الشوارع زمناً طويلاً بين هذه
 الجمهرة التي لا يحصى عددها من الشعب المتجهم العابس ، سائلاً عن
 الطريق بالاشارات تقريباً ، لأنني لا أعرف من اللغة الانجليزية كلمة
 واحدة . واهتديت الى طريقي ، غير أن الشعور الذي خلفه في نفسي
 ما رأيته من مشاهد ظل يلاحقني طوال أيام ثلاثة . الشعب واحد طبعاً
 في كل مكان ، ولكن اللوحة هنا تبلغ من الفخامة والشدة أنك تشعر أنك
 كنت في الماضي تخيل تخيلاً لا أكثر . أنت هنا لا ترى حتى الشعب ،
 وانما ترى الخيال المطرد المنتظم المذعن المشجّع . وأنت تشعر حين تتأمل
 هؤلاء النبوذيين أنه سيمضي زمن طويل قبل أن تتحقق النبوءة بالنسبة
 اليهم ، وانه سينقضي زمن طويل أيضاً قبل أن يعطيهم أحد لا أغصان
 نخيل ولا ثياباً بيضاء ، وأنهم الى أن يحين ذلك الحين سيظلون يتهلون الى
 عرش الرب قائلين : « الى متى أيها الرب ؟ »* . هم أنفسهم يعرفون هذا
 فهم بانتظار ذلك ينتمون من المجتمع بالانتماء الى ملل سرية : كلمة

المورمونين ، أو ملة الارتعاش أو غيرها من ملل الاشراق • اتنا نندهش من هذه الغباوة فى أن يصبح المرء ارتعاشياً أو اشراقياً ، ولا يخطر ببالنا أن ذلك انما هو رفض لصيقتنا الاجتماعية ، رفض عنيد لا شعورى ، رفض غريزى يهدف منه صاحبه الى انقاذ نفسه بأى ثمن ، رفض يدخل فيه اشمئزاز منا وكره لنا • ان هذه الملايين من البشر المهجورين المطرودين من وليمة الحياة ، يتزاحمون ويتصادمون فى ظلمات الأقيسة التى دفعهم اليها اخوتهم الكبار ، فهم يقرعون بالتمس باباً ما ، ويبحثون عن مخرج ما ، حتى لا يختنقوا فى الكهف المظلم • هذه محاولة أخيرة يائسة مستميتة فى سبيل أن يكونوا عصبية على حدة ، فى سبيل أن ينفصلوا عن كل شيء ، ولو عن ائشكل الانسانى ، شريطة أن يعيشوا على ما يشاء لهم هواهم ، وأن لا يكونوا معا •••

ورأيت فى لندن جمهوراً آخر شبيهاً بهذه الحجوم • هذا ديكور آخر فى نوعه • ان من زار انجلترا قد ذهب الى هايماركت مرة واحدة على الأقل • ان هايماركت هو الحى الذى تتجمع المومسات فى بعض شوارعها ألقاً • الشوارع مضادة بمصابيح غاز ، ليس لدينا فكرة عنها فى بلادنا • وعند كل خطوة تخطوها تطالعك مقام رائعة تزدان بمرايا كثيرة وأثاث مذهب ، ففى هذه المقاهى يجتمع الناس واليهما يلجئون وبها يتصمون • من الصعب على المرء أن يختلط بهذا الجمهور • ان تركيبة غريب • فيه نساء عجائز ، وفيه صبايا ذوات جمال تقف أمامه مبهوراً • ليس فى العالم كله نموذج امرأت يبلغ مبلغ جمال المرأة الانجليزية • والجمهور المتراص يتجول بصعوبة ومشقة • الأرضة لا تكفيه فهو يخرق أرض الشارع • جميع هاته النساء يحرقهن ظمأ شديداً الى غنيمة ، وهن يحاولن اغراء أول قادم بوقاحة واستهتار لا يصدن عن ذلك أى خجل • الملابس الفاخرة والزينات الباهرة تجاورها ثياب تكاد تكون أسملاً رثة

وخرقاً بالية • وهذا التناقض نفسه قائم بين الأعمار • كل شيء مختلط •
 انك تجد في هذا الجمهور العجيب رجلاً مشرداً سكران ، كما تجد
 فيه ثرياً من الأثرياء يحمل لقباً من أرفع الألقاب • وتسمع شتائم
 ومشاجرات ونداءات ، كما تسمع همساً يدعوك من فتاة ما تزال
 خجولة • وما أروع الجمال الذي يقع عليه بصرك في بعض الأحيان !
 لكن هذه الوجوه مستعارة من كتاب صور ! أذكر أنني دخلت الى
 كازينو • كانت الموسيقى تصدح ، وكان الناس يرقصون • وكان هنالك
 حشد كبير • الديكور رائع فخم • ولكن الانجليز يظلمون عابسين حتى
 حين يلهون ويتسلون • انهم يرقصون في جد ، بل انهم يرقصون في مثل
 التجهم ، فكأنهم يحركون أقدامهم بالخطوات اللازمة قياساً بواجب •
 لاحظت في الشرفة فتاة ، فاذا أنا أتجمد مذهولاً • لم أر في حياتي جمالاً
 أمثل من هذا الجمال • كانت جالسة الى مائدة مع فتى يبدو أنه جنتلمان
 ثرى أكثر مما يبدو أنه واحد من الذين اعتادوا ارتياد الكازينو • أثراه
 يلتقي بها بعد غياب طويل ؟ اثراهما اتفاقاً على موعد للقاء في هذا المكان ؟
 كان لا يكلمها الا قليلاً ، وعلى نحو متقطع ، فكأن في رأس كل منهما
 مشاغل أخرى وهموماً أخرى • كانت هي أيضاً شديدة الحزن • ان
 قسماتها دقيقة وملامحها لطيفة • وان نظرتها الرائعة التي فيها شيء من
 عزة وخيلاء تكشف عن كآبة خفية ، عن تفكير وقلق لا أدري ما هما !
 أغلب الظن أنها مصابة بالسل • لا بد أنها أعلى من هذه الجمهرة من النساء
 الشقيات : والا فعمّ يمكن أن يعبر الوجه الانساني ؟ ومع ذلك كانت تشرب
 هنالك خمر «الجين» ، وقد دفع الفتى ثمن الخمرة • وأخيراً نهض الفتى
 فصافحها وافترق الاثنان • وخرج الفتى من الكازينو ، أما هي فمضت
 تغيب في تلك الجمهرة من النساء الساعيات الى المال ، مضت تغيب بينهن
 وقد اصطبغ خداهما الشاحبان ببقع حمراء من تأثير الشراب •

وفى هايماركت رأيت أمهات يقدن بناتهن ليتاجرن بهن • صيات
فى الثانية عشرة من أعمارهن يمسكن ذراعك ويسألنك أن تبصرن •
أذكر أنتى رأيت فى الجمهور بنيةً عمرها ست سنين فى أكثر تقدير ،
بنيةً ترتدى أسمالاً ممزقة ، وهى وسخة حافية القدمين شاحبة شحوب
المرض محطمة • ان المرء يرى بقعاً زرقاً فى جسمها من خلال أسمالها
الممزقة • كانت تسير كالعائبة عن نفسها ، دون أن تحت خطاها ، لا يدرى
الا الله لماذا تسير بين هذا الحشد من الناس • أتراها كانت جائعة ؟ لم يكن
يتنبه اليها أحد • ولكن الشيء الذى خطف بصرى أكثر من أى شيء
آخر هو أن هيئتها كانت تدل على حزن عظيم وكرب شديد وبأس هائل
لا يملك المرء حين يراه إلا أن يقول انه لأمر شاذ مؤلم أن يقع بصر الانسان
على مخلوقة صغيرة أثقلت منذ الآن بكل هذا العذاب وأحاطت بها كل
هذه اللعنة • كان تهز رأسها الأشعث كأنما لتناقش أحداً ، وتباعد يديها
الصغيرتين ، وتحركهما بإشارات شتى ثم تصفق احدهما بالأخرى
وتشدهما الى صدرها العارى • رجعت الى وراء وأعطيتهما قطعة نقدية
قدرها ستة بنسات ، فتناولتهما ونظرت الى محدة فى عيني بدهشة
خائفة ، ثم ولّت هاربة يخطى سريعة كأنها تخشى أن استرد منها المال •
نعم ، ان المرء ليرى هنا أموراً غريبة •

وفى مرة أخرى ، استوقفتنى ليلاً بين هذا الجمهور من النساء
الضائعات والرجال الفجرة امرأة كانت تسير خبيثة الخطى بين الأمواج
المضطربة من البشر • كانت ترتدى ثياباً سوداء ، وعلى رأسها قبعة تكاد
تخفى وجهها • لم أستطع كثيراً أن أنفـرس فيها وأن أفحصها ، ولست
أتذكر الا نظرتها الثابتة • قالت لى ، بلغة فرنسية رديئة ، بضع كلمات
لم أفهمها ، ودسّت فى يدي ورقة ، ثم ابتعدت بسرعة • وقفت أمام
واجهة مضادة هى واجهة أحد المقاهى ، ونظرت فى الورقة : هى ورقة

صغيرة مربعة طُبعت على احدى زواياها هذه الجملة : « هل تصدق هذا ؟ » وطُبعت على ظهرها ، باللغة الفرنسية أيضاً ، هذه العبارة : « أنا البعث والحياة » وبضعة أسطرٍ أخرى من ذلك النص . لا بد لكم أن توافقوني على أن في هذا جدةً وغرابةً . ولقد ذكر لي بعد ذلك في شرح هذا الأمر أن هذه هي الدعاية الكاثوليكية تتسلل الى كل مكان مصرّةً غبيدة لا تتعب . وفي ائشارع توزّع تارةً أوراقٌ من هذا النوع ، وتارةً منشورات تضم مختارات من الانجيل والتوراة . يوزعونها عليك مجاناً ، يجبرونك على أخذها ، يدسّونها في يدك دساً . والقائون بأمر هذه الدعاية كثيرون من الجنسين ، لا يُحصى عددهم ! . وهذه الدعاية محسوبة بمهارة وبراعة . هذا كاهن كاثوليكي يكتشف بنفسه أسرةً معوزة هي أسرة عامل من العمال ، فاذا هو يتسلل اليها ، فيجد بين أفرادها ، مثلاً ، مريضاً راقداً على حصيرة فوق الأرض الرطبة ، تحيط به امرأةٌ هي في أكثر الأحيان ثملة ، وأولادٌ هدّهم البرد والجوع . فيأخذ الكاهن . الكاثوليكي يطعم الأسرة كلها ويكسوها ويدفئها ، ويأخذ يعالج المريض ويشترى له أدوية ، ثم ينتهي بأن يُدخل أفراد الأسرة في الديانة الكاثوليكية . على أنه يحدث في بعض الأحيان ، بعد شفاء المريض ، أن يُطرد الكاهن بلكمات وشتائم . ولا يتعب الكاهن ، ولا يكل ولا يمل ، وانما هو يمضي الى أسرة أخرى . وقد يطرد ؛ ولكنه يجتمل كل شيء ، ولا بد أن يظفر أخيراً بادخال أحد في الكاثوليكية . ان الكاهن الانجليكاني لا يزور الفقراء . والفقراء لا يدخلون الكنيسة ، لأنهم لا يملكون ما يدفعون به ثمن أماكنهم فيها . وارتباط الرجل بالمرأة كثيراً ما يكون في صفوف العمال وفي صفوف المعوزين بوجه عام ، ارتباطاً غير شرعي ، لأن الزواج يكلف نفقات باهظة . بالنسبة : ان كثيراً من هؤلاء الأزواج يضربون نساءهم ضرباً

رهيباً ، وقد يصيبونهم من شدة الضرب بعاهات ، والأداة التي يستعملونها في ضربهم هي مجرفة الحطب خاصة • هذه هي أداة الضرب عندهم . الجرائد على الأقل ، في زوايا المشاجرات العائليّة التي تقع فيها اصابات بالغة ويحدث فيها قتل ، تذكر مجرفة الحطب هذه دائماً • أما أولاد هذه الأسر ، فما ان يشبوا عن الطوق ، حتى يمضوا الى الشارع ، ويختلطوا بالجمهور ، ثم لا يعودون بعد ذلك الى ذويهم قط •

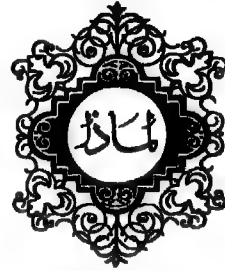
ان الكهنة والأساقفة الانجليكانيين متكبرون وأغنياء • انهم يعيشون حياة ثرية ويسمنون في هدوء كامل ودعة تامة • وهم أناس أدياء مثقفون جداً ، مقتنون اقتناعاً عميقاً بعلوم مكاتهم وبحقهم في أن يغلوا بأخلاق وادعة مطمئة ، وبأن يسمنوا ويعيشوا للأغنياء • هذه ديانة الذين يملكون ، هي كذلك صراحةً بغير قناع • في هذا منطق وصراحة على الأقل • ولأساتذة الدين هؤلاء ، المقتنعين الى حد البلاهة ، تسليه طريقة يزجون بها الوقت : ألا وهي الارساليات أى البعثات الدينيّة • انهم يجوبون الأرض ، فيعثرون في آخر افريقيا على فرد يدخلونه في دينهم ، وينسون ملايين الهمج في لندن ، لأن هؤلاء لا يملكون ما يدفعونه لهم • ولكن الانجليز الأغنياء ، وعجول الذهب في هذه البلاد بوجه عام ، متدينون الى أقصى حدود التدين على طريقتهم الخاصة ، العابسة المتجهمّة • ان الشعراء الانجليز يحبون منذ عهد بعيد أن يتغنوا بيوت الكهنة في الريف ، تظللها أشجار السنديان والدردار التي عمرها مئات الأعوام ، وأن يمدحوا زوجات القسس وبناتهن الشقراوات ذوات العيون الزرق والجمال الأمثل .

ولكن ما ان ينقضى الليل ويرجع النهار حتى ترى ذلك الفكر المتجهم المتكبر يسيطر على المدينة الواسعة سيطرة صارمة من جديد • فلا هو يتذكر ما جرى خلال الليل ، ولا هو يرى ما يجري حوله أثناء النهار • ان « بل » يحكم ولا يطلب حتى الخضوع ، لأنه واثق منه

سلفاً • ان ثقته بنفسه لا حدود لها • انه بروحه المتكبرة المحترقة الباردة ، يبدل صدقات منظمة لا لشيء الا أن يتخلص ويرتاح • حتى اذا بذل تلك الصدقات لم يكن فى امكان أى شيء أن يززع طمأنينته • ان « بعل » لا يخفى بعيداً عنه ، كما يحدث فى باريس مثلاً ، بعض المظاهر الغريبة المريبة المخيفة من الحياة • فلا فقر الجمهور ولا عذابه ولا دمدماته ولا تخبله ، لا شيء من هذا كله يعكر هدوءه أو يوقظ فيه قلقاً • انه يسمح لهذه المظاهر المريبة المشثومة أن توجد الى جانبه ، على يمينه ويساره ، فى وضع النهار ، يسمح لها بذلك فى ازدياد واحتقار • هو لا يحاول خائفاً كالباريسى ، أن يوهم نفسه ، وأن يعزى نفسه ، وأن يزعم لنفسه أن كل شيء يجرى على ما يرام • هو لا يخفى الفقراء ، كما فى باريس ، مخافة أن يعكر الفقراء صفو نومه وأن يقلقوه • الباريسى يحب كالنعامة أن يخفى رأسه فى الرمل حتى لا يرى الصيادين الذين يهمون أن يدركوه • فى باريس ... ولكنى لست بباريس الآن ... ما هذا الخلط ؟ متى يا رب أعتاد التزام الترتيب والنظام فيما أقول من كلام ؟ ...

الفصل السادس

مجلس في البرجوازي



يتقلص هنا كل شيء ، لماذا يريد الناس هنا أن
يصغروا ، أن يضيقوا ، أن يمحووا : « أنا لا وجود
لى البتة ، لقد اختبأت ، اعبّر من فضلك ،
لا يبدو عليك أنك تلاحظنى ، مرثوا ، مرثوا

» - ولكن عمّن تتكلم ؟ من الذى يتقلص ويتضيق ؟

» - البرجوازي طبعاً •

» رحماك ! ان البرجوازي ملك ، انه كل شيء - « هو الدولة

الثالثة ، « هو كل شيء - أفندعى بعد ذلك أنه يتقلص ويتضيق ؟! » •

نعم ، ولكن لماذا اختبأ فى الأرض ذلك الاختباء تحت حكم
الامبراطور نابوليون ؟ لماذا نسى ، فى مجلس النواب ، ذلك الأسلوب
الرفيع الذى كان يجب فى الماضى حباً جداً ؟ لماذا لا يريد أن لا يتذكر
شيئاً ، لماذا يهز كفيه حين يذكره أحد بالزمان الماضى ؟ لماذا يكشف
فكره وتكشف نظراته وأقواله عن القلق فوراً متى تجرأ آخرون أن
يتنموا أمامه شيئاً من الأشياء ؟ لماذا يرتعش ، حين يطيش هو نفسه فيعرب
عن رغبة ما ، ثم يأخذ بالتقلص ؟ « ما هذا الذى خطر ببالى يا رب ؟ » •
كذلك هو يتساءل ، ثم يحاول بعدئذ عامداً واعياً ، خلال مدة طويلة ،

أن يكفّر عن سلوكه بحماسة وطاعته ؟ لماذا تدل هيئته على أنه يقول :
 « اليوم سأتاجر قليلاً في دكانى ، وغداً ، بمسونة الله ، وربما بعد غدٍ
 اذا وهب لى الله هذه النعمة ... ؟ المهم أن أجمع شيئاً من المال بأقصى
 سرعة !... ومن بعدى الطوفان ، ... لماذا يخفى جميع الفقراء فى مكان
 ما ويؤكد أن ليس ثمة فقراء ؟ لماذا يكتفى بالأدب الرسمى ؟ لماذا يريد
 الى هذا الحد أن يقتنع بأن جرائمه طاهرة لا يمكن أن يداخلها الفساد ؟
 لماذا يقبل أن يعطى الجواسيس مالاَ كثيراً ، لماذا لا يجبرو أن ينسب
 بحرف عن غزوة المكسيك ؟ لماذا يمثّل جميع عشاق الزوجات فى صورة
 صعايك لا يملكون منزلة ولا ينعمون بحماية ، فهم باثون فى محلات
 تجارية ، أو هم رسّامون ، وهم أناس مساكين فقراء على كل حال ؟ لماذا
 يحلم بأن جميع الزوجات « وفيات » الى أقصى حدود الوفاء ، وبأن
 القدر ينضج طعامها على لهب الفضيلة ، وبأن تصفيف الشعر هو أحسن
 مظهر يمكن تخيله ؟ أما عن تصفيف الشعر فذلك أمر مفروغ منه ،
 متفق عليه ضمناً . لقد تقرر من تلقاء نفسه . ورغم أن الشوارع الكبرى
 تبتازها فى كل لحظة مركبات مسدلة الستائر ، ورغم أن فى كل مكان
 مأوى لجميع الملذات الأساسية ، ورغم أن زينات « الحليّات » تكلف حتى
 فى أحيان كثيرة نفقات تفوق الموارد التى يمكن أن يفترضها الأزواج ،
 فإن ذلك قد صدر فيه قرار موقّع ، فماذا تريدون أكثر من هذا ؟

ولكن لماذا كان الأمر على هذا النحو ؟ كيف لا : لو لم يكن الأمر
 على هذا النحو فلربما ظنّ أن المثل الأعلى لم يتحقق ، وأن باريس ليست
 الفردوس الأرضى تماماً ، وأنه ما يزال هنالك شيء ناقص يمتنى المرء
 تحقيقه ، وأن البورجوازي نفسه ليس راضياً كل الرضى اذن عن النظام
 الذى يدافع عنه ويفرضه على الجميع ، وأن فى المجتمع شقوقاً يجب
 اصلاحها وصدوعاً يجب رابها . ذلكم هو السبب فى أن البورجوازي

يضع حبراً على قلوب حذائه حتى لا يلاحظها أحد ، لا سمح الله ! ولكن « الحليلات » يشترين مربيات لذينة ويلبسن قفازات جميلة ، بحيث أن السيدات الروسيات في بطرسبرج البعيدة يحسدهنَّ حشداً شديداً حتى لتصيهنَّ من ذلك الحسد ثوبات عصية • ان الحليلات هنا يكشفن عن أفخاذهن ويشمرن أثوابهن برشاقة في الشوارع الكبرى ، فماذا تريدون أكثر من هذا لتحقيق السعادة الكاملة ؟ ذلكم هو السبب في أن عنوان رواية كهذا العنوان « الزوجة والنزوح وعشيق الزوجة »* أصبح مستحيلاً في الظروف الحالية ، ذلك أن عشاق الزوجات لم يبق لهم وجود ولا يمكن أن يكون لهم وجود • وهبهم وجدوا في باريس بعدد جبات رمل البحر (ولعلهم أكثر من ذلك عدداً) ، فانهم مع ذلك ليس لهم وجود ، ولا يمكن أن يكون لهم وجود ، لأن الفضيلة تسطع في كل مكان ، ويجب أن يساهم كل شيء في سطوع الفضيلة • لو رأيت حديقة « الباليه رويال » في المساء حتى الساعة الحادية عشرة ، فلا بد أن يرق قلبك وأن تشعر بمواطف الحنان الى درجة ذرف الدموع • انك تشاهد أزواجاً لا يحصى عددهم يتزعمون هنالك متأبطين أذرع حليلاتهم • وأولادهم يلعبون من حولهم لعباً لطيفاً • ونوافير الماء تخرُ خريراً جميلاً وتدفقها الرتيب يحدث في النفس احساسات هائلة وادعة ساكنة متصلة ، احساسات من نوع الاحساسات التي تستيقظ في نفسك بمدينة هايدلبرج • وليست هذه النافورة بالنافورة الوحيدة التي تخر مياهها خريراً جميلاً على هذا النحو في باريس: ان باريس نوافير كثيرة، وفي كل مكان تطلت هذه المناظر نفسها ، فيتهيج قلبك •

ان الحاجة الى الفضيلة هي في باريس حاجة لا تنطفئ ولا تخمد • والفرنسي الآن جاد رصين ، بل ان عواطف الحنان تغزو قلبه في كثير من الأحيان • لذلك لا أفهم لماذا ما يزال يخشى شيئاً ما الى هذا الحد من

الحشية ، رغم « المجد العسكري » الذي يزدهر في فرنسا ويكلف « جاك بونوم » نفقات باهظة الى هذه الدرجة • والباريسي يحب الأعمال • ولكن كأنه ، حين يتاجر فيقشر جلدك في حانوته ، لا يفعل ذلك في سبيل المنفعة وحدها ، كما كان يحدث في الماضي ، وإنما هو يفعل ذلك من أجل الفضيلة وباسم ضرورة مقدسة • ان جمع ثروة كبيرة وامتلاك أكبر عدد ممكن من الأشياء قد أصبحا القانون الرئيسى للأخلاق ، أصبحا ديانة الباريسى • لئن صحَّ أن الأمر كان على هذا النحو دائماً ، فلقد صار الآن مبدأً مقدساً • كان الناس في الماضي يحبون المال ويحبون أشياء أخرى غير المال ، بحيث كان يستطيع انسان محروم من الثراء أن يتوقع شيئاً من الاعتبار والاحترام • أما الآن فلا !... فإذا شئت الآن أن يكون لك في نظر الناس اعتبار ، فلا بد أن تجمع ثروة وأن تكسب أكبر عدد ممكن من الأشياء • والا لم يكن يكن في وسعك أن تطمع في أن يحترمك الناس ، بل ولم يكن في وسعك أن تطمع في أن تحترم نفسك أيضاً • ان الباريسى يعد نفسه أقل من « لا شيء » حين تكون جيوبه خالية ، وذلك عن وعى دقيق واقتناع عميق • الناس يتسامحون معك تسامحاً مدهشاً شريطة أن تملك مالاً • ليس سقراط الفقير الا رجلاً أبله وثرثراً مفسداً ، يُحترم على خشبة المسرح في أكثر تقدير ، لأن البورجوازي ما يزال يحب أن يحترم الفضيلة على خشبة المسرح •

عجيب أمر هذا البورجوازي : ينادى بأن المال هو الفضيلة القسوى وهو واجب الانسانية ، ولكنه يظل مع ذلك يتظاهر بالمواظف النبيلة • ان لجميع الفرنسيين هيئةً نبيلةً نبلاً مدهشاً • في نفس اللحظة التي يعتمد فيها أردأ فرنسى الى أن يبيعت أباه بعشرين فلساً ، مضيقاً الى أبيه شيئاً آخر من تلقاء نفسه ، تراه يظهر لك بمظهر يبلغ من النبل أنك تقف أمامه مكتوف الأيدي • ادخل الى مخزن لتشتري بعض الأشياء :

ان أصغر مستخدم يرهقك بنبله الذى لا يوصف • وهؤلاء المستخدمون هم الذين يُتخذون نموذجاً لمثلينا فى « مسرح ميشيل » • انك تشعر أمام هذا المستخدم بأنك مذنب فى حقّه • لقد جئت لتشتري أشياء بعشرة فرنكات مثلاً ، فإذا هو يستقبلك كما لو كان يستقبل اللورد دوفونشير • انك تشعر عندئذ بعذاب حاد فى ضميرك ، وتود لو تسارع فتشرح له أنك لست اللورد دوفونشير ، وانما أنت مسافر بسيط جئت تشتري أشياء بعشرة فرنكات • ولكن الشاب الرائع المظهر ، الذى ينعم بنبل روحى لا يوصف ، والذى تصيح مستعداً أمامه لأن تحقر نفسك (من شدة نبيله !) ، ولكن هذا الشاب يأخذ يعرض لك بضائع قيمتها عشرة آلاف فرنك • فى مثل لمح البصر سرعة ، تراه يراكم البضائع على البسطة لتراها • فإذا تصورت العناء الذى سيلقاه المسكين فى إعادة طي هذه البضائع بعد انصرافك ، العناء الذى سيلقاه هو جرانديزون أو ألسينياد أو مونموراسى ، بعد انصرافك أنت ، أنت الذى تجرأت رغم عقوق مظهرك وكثرة ردائلك وعيوبك ، أن تزجج من أجل عشرة فرنكات حقيرة ، سيداً عظيماً مثله ، أقول اذا تصورت ما سيلقاه من عناء ، أخذت ، رغم ارادتك ، تحقر نفسك أمام البسطة ، وندمت على ما فعلت ، ولعنت الحظ الذى جعل جييك خالياً الا من مائة فرنك • ولكن الشاب يلف لك البضاعة التى اشتريتها بمائتك الحقيرة ، يلفها لفاً كريماً ، ويففر لك ما أحدثته فى المخزن من اضطراب وازعاج ، فإذا أنت تسارع الى الخروج والغياب عن بصره • حتى اذا عدت الى بيتك ، ذهلت من أنك اشتريت بمائة فرنك بدلاً من عشرة • كم من مرة ، وأنا أمر بالشوارع الكبرى أو بشارع فيفين ، حيث توجد مخازن كبرى كثيرة لبيع الأقمشة والملابس ، قلت بينى وبين نفسى : « لو أتبع للسيدات الروميات أن يدخلن هنا وأن ، ... غير أن ما سيعقب ذلك انما يعرفه ناظرو الأملاك

وأصحاب الأطنان فى أوريل وتامبوف حق المعرفة • ان الروسى يعشق أن يظهر فى المخازن أن لديه مالاً وفيراً • وهناك فى مقابل ذلك برودة كبرودة الانجليزيات اللواتى لا يكفينهن أنهن لا يستحين من أن يشر لهن آدونيس أو جيوم تل أصناف البضائع على البسطة ، وأن يقلب لهن المخزن رأساً على عقب ، بل يزدن على ذلك أن يأخذن يسوومن فى الأسعار ، يا للهول ! ، فى سبيل عشرة فرنكات • ولكن جيوم تل لا يقف مكتوف الأيدى ، بل يثار لنفسه ، فاذا هو يبيع الشال الذى سعره ألف وخمسمائة فرنك ، اذا هو يبيعه للسيدة الانجليزية باثنى عشر ألف فرنك ، وهو يتم هذه الصفقة على نحو يجعلها تخرج من المخزن راضية مفتونة •

ومع ذلك فان البورجوازي يحب النبل الهائل جداً شديداً • هو فى المسرح يريد أن تعرض عليه شخصيات مبرأة من المنفعة • ان على جوستاف أن يسلم ببريق نبله وحده ، حتى لترى البورجوازي يذرف الدموع عندئذ من فرط الحنان • وليس يمكنه ، بدون هذا النبل ، أن ينال هادى البال • أما أن يبيع باثنى عشر ألف فرنك ما قيمته ألف وخمسمائة ، فذلك أمر ينبغي أن يعد حتى واجباً : لقد فعله البورجوازي بدافع الفضيلة • ان السرقة فعل سيء مقزز ، ترسل صاحبها الى السجن • والبورجوازي ، المتسامح فى شئون كثيرة ، لا يغفر لك أن تسرق ، ولو كان عليك أن تموت جوعاً أنت وأولادك • أما اذا سرقت بدافع الفضيلة ••• آه ••• فان لك عندئذ كل المغفرة • ذلك أنك تريد اذن أن « تجنى ثروة » وأن تحصل على أشياء كثيرة ، أى أنك تقوم بالواجب الذى تمليه الطبيعة والانسانية • هذا هو السبب فى أن القانون يميز تمييزاً واضحاً كل الواضوح بين السرقة التى تدفع اليها دوافع دينية ، كأن تسرق فى سبيل الحصول على قطعة خبز ، وبين السرقة التى تنشأ

عن فضيلة عليا - فهذه السرقة الأخيرة محمية ، والناس يشجعونها ، ولها نظام راسخ وطيد متين •

وأخيراً - هأنذا أعود الى أسئلتى - لماذا يبدو على البورجوازي أنه ما يزال يخاف من شيء ما ، كأنه لا يشعر براحة ؟ من ذا الذى لعله يزعجه ويصدّع رأسه ؟ أهم الذين ينمقون الكلام ويدبجون العبارات ؟ ألا انه ليرسل هؤلاء جميعاً الى الشيطان بركلة من قدمه ! هل حجج العقل المحض هي التي تصدّع رأسه ؟ ألا أن العقل قد انهزم أمام الواقع • ثم ان أعقل العقلاء وأعلم العلماء قد أخذوا هم أنفسهم يقولون ان العقل المحض لا وجود له ، وان المنطق المجرد لا ينطبق على الانسانية ، وان هناك عقلاً لزيد وعقلاً لعمرو وعقلاً لخالد (جان ، بير ، جوستاف) ، أما العقل المحض فلم يوجد فى يوم من الأيام ، وانه اختراع خطأ من اختراعات القرن الثامن عشر • من ذا يخافون ؟ أيخافون العمال ؟ ألا ان العمال أيضاً هم جميعاً مالكون ، فى قرارة أنفسهم : ان مثلهم الأعلى الوحيد هو أن يصبحوا مالكين ، هو أن يجمعوا أكبر مقدار ممكن • تلکم هي طبيعتهم ، والطبيعة لا تكتسب بالمجان ، وانما هي ثمرة تطور وتربية على مدى قرون • ان أخلاق الأمة لا تتحول بسهولة • ان التخلص من العادات الموغلة فى القدم ، الداخلة فى اللحم ، المخالطة للدم ، أمر صعب • أيخافون اذن من المزارعين ؟ ولكن المزارعين الفرنسيين مالكون كبار • انهم أثقل المالكين ، أى هم المثل الأعلى ، هم أكمل وأحسن مثل أعلى يمكن تخيله • أهم يخافون من الشيوعيون ؟ من الاشتراكيين أخيراً ؟ ولكن هذا الحزب قد أصيب فى زمانه باخفاق كبير ، والبورجوازي يحتقره فى قرارة نفسه • هو يحتقره ، ولكنه يخشاه فى الوقت نفسه • نعم ، ذلك هو الحزب الذى يخشاه البورجوازي حتى الآن • ولكن مالذى يخشاه منه فى حقيقة الأمر ؟ ألم يتنبأ القس سيس ، فى كتيبه الشهير ،

بأن البورجوازي سوف يصبح كل شيء ؟ « ما الحالة الثالثة ؟ لا شيء .
 ماذا يجب أن تكون ؟ كل شيء » . ولقد جاءت الأحداث مصدقة
 لما تنبأ به . ان أقواله هي ، بين جميع الأقوال التي قلت في ذلك
 العصر ، الأقوال الوحيدة التي تحققت . وهي الأقوال الوحيدة التي
 بقيت .

ولكن البورجوازي ما يزال يشعر بشكوك ، رغم أن كل ما قيل
 بعد سيس قد أجهض وزال كفقاعات صابون . لقد نودى بعدد مثلاً
 بهذا الشعار : الحرية ، المساواة ، الأخوة . عظيم ! فما هي الحرية
 المقصودة ؟ ان الحرية تساوى في نظر جميع الناس أن يفعلوا كل ما يحلو
 لهم ، في حدود القانون . متى يستطيع المرء أن يفعل كل ما يحلو له ؟
 حين يملك مليوناً . هل تهب الحرية مليوناً لجميع الناس ؟ لا ، طبعاً !
 ما انسان بدون مليون ؟ ان الانسان الذي لا يملك مليوناً ليس ذلك الذي
 يفعل كل ما يحلو له ، وانما هو الانسان الذي يفعل به كل ما يُراد .
 ماذا ينشأ عن ذلك ؟ ينشأ عن ذلك أنه ، عدا الحرية ، هناك المساواة ،
 أو قل لمزيد من الدقة والوضوح : هناك المساواة أمام القانون . وكل
 ما نستطيع أن نقوله عن هذه المساواة أمام القانون هو أن كل فرنسي ، على
 النحو الذي تُطبّق عليه المساواة الآن ، يستطيع بل يجب عليه أن يعدها
 اهانة شخصية . ماذا بقي من الشعار ؟ الأخوة . ولكن هذا البند هو
 أخص البنود ، وعلينا أن نعترف بأنه ما يزال يشكّل ، في الغرب ، حجر
 العثرة الكبرى .

ان الغربي يفهم الأخوة على أنها قوة كبيرة محرّكة للانسانية ،
 دون أن يخطر بباله أنه ليس بالمستطاع أخذها من أي مكان اذا هي لم
 توجد في الواقع . فما العمل ؟ يجب خلق الأخوة مهما كلف الأمر .

ولكن خلق الاخوة مستحيل ، فلاخوة تخلق نفسها بنفسها ، وتوجد في الطبيعة ، ويتم الحصول عليها في الطبيعة • ونحن نرى في الطبيعة الفرنسيه ، وفي الطبيعة انغريه على وجه العموم ، ان الاخوة انما يوجد في مكانها المبدأ الفردى ، مبدأ تعزيز المحافظة على الذات ، مبدأ النشاط الشخصى ، مبدأ تقرير الفرد مصيره في « ذاته » الخاصة ، مبدأ تعارض هذه الذات مع الطبيعة كلها والمجتمع كله من حيث هي عنصر مستقل متميز يساوى تماماً ويعادل كلَّ ما يوجد في خارجه • ولا يمكن أن تنشأ الأخوة عن تعارض كهذا التعارض • لماذا ؟ لأنه في الأخوة ، في الأخوة الحقة ، ليست الشخصية المتميزة ، ليست « الذات » هي التي يجب أن تفرض حقها في المساواة وفي التعادل على كل « ما عداها » ، بل ان « ما عداها » هذا هو الذى ينبغي له أن يجيء من تلقاء نفسه الى هذه الشخصية المطالبة بحق ، أن يجيء الى هذه الذات المتميزة ، فيعترف لها ، دون أن تطلب هي ذلك ، بأنها مساوية ومعادلة في الحقوق له ، أى لكل « ما عداها » مما هو موجود • وأكثر من ذلك أن هذه الشخصية التي تنور وتطالب ينبغي لها قبل كل شيء أن تضحي بكل ذاتها للمجتمع • لا يقتصر واجبها على أن لا تطلب بحقها ، وانما ينبغي لها أيضاً أن تتنازل عن هذا الحق للمجتمع بدون أى شرط • ولكن الشخصية القربية لم تألف هذه الطريقة في التصرف : انها تطلب في كثير من القوة والصرامة ، تطلب بحقوقها ، تطلب بالانقسام - وليس يؤدي هذا الى الأخوة • صحيح أن الانبعاث الذى يغير النفوس ممكن • ولكن هذا الانبعاث يتطلب ألوف السنين ، لأن هذه المعاني لا بد أن تنفذ الى اللحم والدم قبل أن تصبح واقعاً • لعلكم قائلون لى : فهل يجب على الانسان أن يكون مجرداً من الشخصية اذن حتى يكون سعيداً ؟ أهذا هو الخلاص ؟ ولكننى أقول : بالعكس ، فليس المطلوب أن يتجرد

الانسان من الشخصية ، وانما المطلوب تقيض هذا ، المطلوب أن يصبح شخصية ، وأن يصبح شخصية الى درجة من الشدة تفوق الدرجة التي وصل اليها تكون الشخصية في الغرب الآن . ألا فافهموا عنى حق الفهم : ان التضحية الارادية ، التضحية الواعية وعياً تاماً ، لا المفروضة فرضاً ، هذه التضحية التي يضحي الانسان فيها بوجوده كله في سبيل المجموع ، هي التي تدل في رأيي على نحو الشخصية الى الحد الأقصى ، وعلى قوة الشخصية قوةً عليا ، وعلى الدرجة القصوى من تحكم الانسان بنفسه وحرية ارادته . لأن يضحي المرء بحياته طوعاً في سبيل جميع الناس ، لأن يصعد التل الذي نُصب عليه الصليب ، لأن يعتلي كومة الحطب التي سيُحرق عليها ، فذلك لا يكون ممكناً الا كانت الشخصية قد نمت الى أقصى درجة من النمو . ان الشخصية النامية نمواً قوياً ، المقتنعة اقتناعاً كاملاً بحقها في الحياة ، الشخصية التي لا تخاف على نفسها من شيء ، لا يمكن أن تذّر ذاتها لشيء غير أن تهب نفسها للجميع ، بغية أن يكون سائر الناس شخصيات مستقلة سعيدة مثلها . ذلكم هو قانون الطبيعة . ان الانسان السويّ محمول على هذا مدفوع اليه . ومع ذلك قرب شعرة ضئيلة ، رب شعرة ضئيلة جداً تخزّب الآلة اذا هي اندست فيها . سأشرح ما أريد أن أقوله : انه لمؤذٍ جداً في هذه المناسبة أن يجري المرء أقل حساب في سبيل الحصول على منفعة شخصية . مثال : هبني أنذر نفسي للمجتمع وأضحى بنفسى في سبيل المجتمع . ان هذه التضحية يجب أن تكون كاملة ، وأن تكون حاسمة ، يجب أن لا يخالطها أى تفكير في فائدة ، يجب أن لا أقدر أن المجتمع سيكافئني على ذلك بأن يضع نفسه تحت تصرفي . يجب على المرء أن يضحي بنفسه تضحية تامة دون أى أمل في ثواب ، ودون أن يدفع أحد فداءً . فكيف السبيل الى هذا ؟ ان ذلك يذكر بقصة الدب الأبيض الذي يحاول المرء أن لا يتذكره

قط • فلو حاولتم ، على سبيل التجربة ، نسيان هذا الحيوان لرأيتم أن الملعون ما ينفك يوافي ذاكرتكم فى كل لحظة • فماذا فعل اذن ؟ ان من المستحيل أن نفعل هذا الأمر ، وانما « ينبغى لهذا الأمر أن يفعل من تلقاء ذاته ، وأن يكون موجوداً فى الطبيعة » ، منقوشاً نقشاً لاشعورياً فى نفس أمة بأسرها ، أى يجب باختصار أن يوجد مبدأ أخوة ، أن يوجد مبدأ حب : يجب أن نحب • يجب أن نصبو بالغيرة والفطرة الى الأخوة ، والى المشاركة الجماعية ، والى الوفاق ، رغم الآلام التى عانتها الأمة قروناً طويلة ، ورغم الغلظة الهمجية المتأصلة ، والجهل الشديد الراسخ ، رغم السودية القديمة والغزوات الأجنبية • وبعبارة واحدة : يجب أن تكون الحاجة الى الصلة الأخوية فطرية فى الانسان ، أو مكتسبة منذ الأزل • فما عسى تكون هذه الأخوة اذا نحن أردنا أن نترجمها الى لغة معقولة واعية ؟ انما تكون هذه الأخوة فى أن تأتى كل شخصية متميزة ، أن تأتى الى المجتمع بدون أى اكراه وبدون أية منفعة لها ، فنقول لهذا المجتمع : « ان الاتحاد وحده يصنع قوتنا ، فخذنى كلى اذا كنت فى حاجة الىّ ، ولا تمأبى حين تضع قوانىك ، وليس عليك أن تدارينى ، فانى أتنازل لك عن جميع حقوقى وأضع نفسى تحت تصرفك • ان السعادة القصوى عندى هى أن أضحى لك بكل شئ ، دون أن يلحقك من ذلك أى ضرر • سوف أفنى نفسى ، وأذوب رابطة الجأش ، شريطة أن تزدهر أنت وأن تبقى » • • • غير أن على المجتمع أن يقول لها من جهته : « انك تعطينا كثيراً • وما تعطينا اياه لا يحق لنا أن نرفضه ، لأنك تقولين أنت نفسك ان فى هذا سعادتك ، ولكن ما حيلتنا اذا كنا من جهتنا نغذب أنفسنا فى سبيل سعادتك • خذى منا كل شئ • أيضاً • وبكل ما نملك من قوة سوف نحاول دائماً أن نملكى الحد الأقصى من الحرية الشخصية ومن الاستقلال • لم يبق هناك أعداء

تخافين منهم الآن ، لا البشر ولا الطبيعة • نحن جميعاً ندافع عنك ، نحن جميعاً نكفل لك الأمن والسلامة ، سنجهد في سبيلك بدون انقطاع ، لأننا جميعاً أخوة ؛ نحن جميعاً أخوتك ، نحن كثيرون وأقوياء • كونى هادئة كل الهدوء واثقة كل الثقة ؛ لا تخشى شيئاً ، واعتمدى علينا •

وبعد ذلك طبعاً لا يكون هنالك شيء يجب اقتسامه ، وانما يُقَسَّم كل شيء من تلقاء نفسه • « أحبوا بعضكم بعضاً • وجميع هذه الأشياء ستوهب لكم زيادة » * •

يا لها من مثالية فى الواقع يا أصدقائى ! ان كل شيء مبنى على العاطفة ، على الطبيعة ، لا على العقل • وهذا يُعدُّ حتى نوعاً من المذلة للعقل • فما رأيكم ؟ أمى مثالية أم لا ؟

واليكم ضربة أخرى : ما الذى يستطيع أن يفعله الاشتراكى اذا لم يوجد لدى الغربى مبدأ الأخوة ، وانما وُجد لديه المبدأ الفردى ، الشخصى ، الذى ينزل بغير انقطاع ، ويطالب بحقوقه مشهراً سيفه ؟ ان الاشتراكى اذ يرى أن الأخوة غير موجودة ، يأخذ ينادى بها ، ويدعو اليها • فهو لفقدان الأخوة يريد أن يخلق الأخوة ، أن يبعث الأخوة • فمن أجل أن نطبخ يخنة بلحم الأرنب ، لا بد لنا أولاً من أرنب • ولكن الأرنب غير موجود ، أعنى أنه لا وجود لطبيعة مؤهلة للأخوة ، لا وجود لطبيعة تؤمن بالأخوة وترنو اليها من تلقاء نفسها ! حتى اذا يش الاشتراكى من الأمر أخذ يبني ويعرّف المجتمع المقبل ، حاسباً بالوزن والكيل • وها هو ذا يعتمد على مبدأ المنفعة ، فيشرح ويعلم ويعرض المنافع التى تتحقق فى ذلك المجتمع ، والفائدة التى يجنيها كل فرد • انه يوضح دور وتطلعات كل شخص • انه يحصى الخيرات الأرضية سلفاً ، ويحسب مقدار استحقاق كل واحد لها ، ومقدار ما يجب على كل واحد أن يضحى به منها طوعاً فى مقابل ذلك • فإى أخوة يمكن

أن توجد هنا اذا كنا نقسم هذه الخيرات منذ البداية ونحدد ما يستحقه كل واحد . ثم لقد وضعت الصيغة : « كل واحد للجميع ، والجميع لكل واحد » * . لا يمكن أن يتصور المرء صيغة أفضل من هذه الصيغة طبعاً ، لا سيما وأنها مستمدة من كتاب يعرفه الجميع . ولكن هذا نفر من الناس قد أخذوا بتطبيق هذه الصيغة ، فما هي الا ستة أشهر حتى عمد الاخوة الى احالة مؤسس المجتمع ، كايه ، الى المحاكمة . ولقد حاول أنصار مذهب فورييه ، فيما يقال ، حاولوا بآخر ما بقى معهم ، وهو مبلغ تسعمائة ألف فرنك ، أن ينشئوا جماعة اشتراكية . ولم تؤد المحاولة الى أية نتيجة . صحيح أنه أمر جميل أخذ أن يعيش الناس على أساس من العقل ان لم يكن على أساس من الأخوة . بتعبير آخر : انه لشيء حسن أن يحميك الجميع وأن لا يطالبوك الا بالعمل والوفاق . ولكن هنا ينبجس لغز من جديد : يبدو أنهم يهبون لانسان جميع الضمانات الممكنة ، فيتعهدون باطعامه وبتأمين عمله ، طالبين في مقابل ذلك ، من أجل المصلحة المشتركة والخير العام ، أن يتنازل عن جزء يسير من حريته الشخصية . فماذا لو لم يشأ هذا الانسان أن يعيش في هذه الشروط ؟ ان افتقاده حتى هذا الجزء اليسير من حريته يشق على نفسه . هو يتخيل ، لغائه ، أن هذا حبس ، وأن من الأفضل له أن يعيش على ما يريد له هواء حرراً كل الحرية . ولكنه في الحرية يضرب ، ولا يجد عملاً ، ويموت جوعاً ، ولا ينعم بأى استقلال . ومع ذلك يظن هذا الانسان العجيب أن الحرية أفضل . والاشتراكي لا يملك عندئذ الا أن يستاء ، وأن يعده انساناً أبله ، شخصاً متخلف العقل لا يدرك مصلحته الشخصية نفسها . وهو يضرب له عندئذ مثلاً بالنملة المحرومة من النطق ، يضرب له مثلاً بنملة هزيلة ، قائلاً له انها أذكى منه ، لأن كل

شيء في قرية النمل منظم ، فأفراد النمل جميعاً شبعة سيدة ، وكل فرد من أفراد النمل يعرف عمله ، وما أوسع الشقة بين الانسان وقرية النمل !

وبتعبير آخر : اذا كانت الاشتراكية ممكنة ، فليس ذلك في فرنسا حتماً .

وعندئذ تنادي الاشتراكية بالصيغة التالية ، كآخر مورد تلجأ اليه :
« اما الحرية والمساواة والأخوة ، واما الموت ، ولا جدوى من المناقشة في هذه الحالة . ويتنصر البورجوازي انتصاراً نهائياً . »

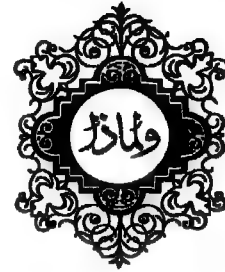
ولكن لئن انتصر البورجوازي ، فان صيغة سيس لم تتحقق اذن تحققاً حرفياً دقيقاً . سيس يقول : ان البورجوازي كل شيء . فلماذا يشعر البورجوازي اذن بانزعاج ، لماذا يتقلص ، ماذا يخشى ؟ الجميع تراجعوا ، الجميع انهزموا أمامه . قبل ذلك ، في عهد لويس فيليب مثلاً ، لم يكن البورجوازي مرتبكاً هذا الارتباك ، وجلاً هذا الوجل ، مع أنه كان يحكم منذ ذلك الحين . ولكنه كان ما يزال يكافح ويناضل ، وكان يحس أن له أعداء ، أعداء انتصر عليهم منذ أيام حزيران (يونيه) * بالبندقية والحربة . حتى اذا انتهت المعركة لاحظ البورجوازي أنه وحده على الأرض ، وأنه ليس هناك من هو أحسن منه ، وأنه المثل الأعلى ، وأنه أصبح بعد الآن في غير حاجة الى أن يؤكد هذه الحقيقة التي لا سبيل الى جحودها ، وأن كل ما بقى عليه أن يعمل هو أن يصطنع وضعا مهيباً وجلالاً هادئاً أمام العالم بأجمعه في مظهر الجمال الأقصى ، وجميع أنواع الكمال . هذا موقف مربك ، شتم أم لم تشاءوا . ولقد اتهم نابوليون الثالث من الارتباك والخرج . جاء نابوليون الثالث كالهابط من

السماء ان صح التعبير ، جاء مخرجاً وحيداً من المصاعب ، جاء امكانية
وحيدة حينذاك • وعندئذ ازدهر حال البورجوازي ولكنه يدفع ثمن
هذا الازدهار وهذا الرخاء غالياً ، فهو يخشى كل شيء ، لا لسبب الا لأنه
وصل الى كل شيء • فمتى وصل المرء الى كل شيء ، أصبح يخاف أن
يفقد كل شيء • يترقب على هذا يا أصدقائي أن المرء تزداد خشيته بمقدار
ما يزداد ازدهاره ورخاؤه •

لا تضحكوا ، أرجوكم • فاني أسأل أخيراً هذا السؤال : ما هو
البورجوازي الآن ؟

الفصل السابع

تمهيد ما تقدم



يوجد « بين البورجوازيين نفوس كنفوس العبيد بهذا القدر الكبير » ، وذلك رغم مظهرهم الذي يبلغ ذلك المبلغ كله من النبالة ؟ رحماك ! لا تتهمنى ، لا تصرخوا قائلين ان هذا الكلام غلو ومبالغة ، وانه نعمة وتجنر ، وانه ثمرة الفيرة والحسد . الفيرة من أى شىء ، والحسد على أى شىء ؟ ان بين البورجوازيين خدماً كثيرين ، هذا كل ما فى الأمر ، أقوله ببساطة . ان العبودية تحتاج طبيعة البورجوازي مزيداً من الاجتياح وتتحول الى فضيلة من الفضائل يوماً بعد يوم . وتلكم نتيجة طبيعية وحتمية لما صارت اليه الأحوال الآن . والطبيعة ، الطبيعة خاصة ، تساهم فى هذا . لن أمضى الى حد الادعاء ، مثلاً ، أن التحسس الفطرى يسيطر لدى البورجوازي . أى خليل نبيل القلب نبلاً مثالياً لا يسارع الى أن يبيع رسائل صديقه وأن يشى بها لزوجها فى سبيل عشرة آلاف فرنك ، اللهم الا أن يكون قد فرغ من جمع ثروة ؟ ربما كنت أبالغ ، ولكن ربما كان قولى يستند الى وقائع محدّدة معينة . والفرنسى يعشق أن يكون مرموقاً فى نظر السلطة الحاكمة ، وأن يبرهن أمامها على عبوديته ، ولو على نحو مبرأ من المنفعة ، ولو دون أن ينتظر مكافأة مباشرة ، بل مكافأة تحسب له ديناً ، وتقيد له

فى حسابہ الجارى ان صح التعبير • تذكروا جميع أولئك الساعين الى المناصب مثلاً عند حدوث تلك التغيرات الكثيرة فى أنظمة الحكم بفرنسا • تذكروا مكائدهم ومؤامراتهم ، تذكروا مجاملاتهم المفرطة التى لا يرون داعياً حتى الى اخفائها ، تذكروا قصيدةً للشاعر باربيه فى هذا الموضوع . فى ذات يوم تناولت وأنا فى المقهى جريدة اليوم الثالث من تموز (يوليو) • فوقع بصرى على رسالة من مدينة فيشي • كان الامبراطور يقيم هنالك أيامئذ ، وكذلك البلاط طبعاً • وجرت جولات على ظهور الجياد ونزهات • فهذا هو مراسل الجريدة يصف ذلك كله ، فيبدأ كلامه بما يلى :

« عندنا هنا كوكبة من ألمع الفرسان • ولا شك أنكم حرزتم على الفور من هو ألمع هؤلاء الفرسان • ان صاحب الجلالة يتروّض كل يوم بصحبة حاشيته ، الخ ، الخ ، الخ ، . . . »

ان المرء يفهم أن يكون المراسل متحمساً للمزايا اللامعة التى يمتاز بها امبراطوره • ففى وسعه أن يطرى فكره وعقله وسداد آرائه وكمال صفاته ، الخ • ومن المستحيل على المرء ازاء هذه الحماسة أن يصمه بالرياء • فلو وصمته بالرياء لكان فى وسعه أن يجيبك قائلاً : « هذا اقتاعى » ، كما يفعل بعض صحفيينا المعاصرين • لاحظوا جيداً أنه مكفول مأمون : ان عنده ما يرد به عليكم ليسكتكم ويفحكم • وفى طبيعة ذلك حرية الاعتقاد والرأى ، وهى الحرية الأساسية • ولكن ما الذى يمكن أن يجيبكم به فى هذه الحالة ؟ انه لا يقيم أى وزن لقوانين الطبيعة ، انه يدوس بقدمه كل معقولة ، وذلك لهدف يريد • ولكن هل يجعله هذا الهدف على حق ؟ ان احداً لن يصدقه ، والفارس نفسه لن يقرأ هذه الورقة حتماً ، وهبْ قرأها فهل المراسل الذى كتب هذه الرسالة الصحفية ، وهل الجريدة التى نشرتها ، وهل مدير هذه الجريدة ،

هل هؤلاء جميعاً يمكن أن يبلغوا من الغباء مبلغاً لا يدركون معه أن العاهل ليس في حاجة كبيرة الى أن يُشتهر بأنه أول فارس في فرنسا ، ولا يدركون معه أن العاهل يقف على عتبة الشيخوخة ، وأنه لا يعوّل كثيراً على تلك الشهرة ، ولن يصدّق حتماً أنه أول فارس في فرنسا ولو أكدوا له ذلك ، لأنه رجل ذكي جداً فيما يقال ؟ ولكن لا ... ان هناك حساباً آخر . صحيح أن ما كتبه المراسل غير معقول ، وأنه سخف مضحك ، وأن الامبراطور لن يولى هذه المقالة الصغيرة الا ابتسامة فيها ازدراء . ولكن ، في مقابل ذلك ، سيكون تحت بصره مثال للخضوع الأعمى والعبودية التي ليس لها حدود . هي عبودية سخيفة غير معقولة ، صحيح ، ولكنها عبودية ، وذلك هو الشيء الأساسي .

فاحكموا الآن : لو لم يكن هذا مطابقاً لروح الأمة ، لو كان مثل هذا التملق لا يُعدّ ممكناً وعادياً ومن طبيعة الأشياء تماماً ، أفكان يمكن أن تُنشر تلك الرسالة ؟ في أى بلد آخر من بلاد العالم تسف الصحافة الى هذا الدرك ، وتبرهن على مثل هذا الصغار ؟ ولئن قلت : روح الأمة ، فلأن هذه الميول ليست ميول جريدة واحدة ، بل هي ميول أكبر الجرائد ، الا اثنتين أو ثلاثاً تحتفظ ببقية استقلال .

وُجدت في ذات يوم صيفاً على مائدة . كان ذلك في ايطاليا والحق يقال ، غير أن المائدة ضمت عدداً كبيراً من الفرنسيين . وكان الحديث يجري على غاريبالدي . كان جميع الناس يتحدثون عن غاريبالدي في ذلك الأوان . كان ذلك قبل حدوث ما حدث في آسبرومونت بخمسة عشر يوماً * . وكان الحاضرون يتكلمون بالغاز طبعاً ، فبعضهم يصمتون ولا يريدون أن يدوا آراءهم ، وبعضهم يهزون رؤوسهم . وكانوا على وجه العموم يرون أن غاريبالدي قد تورط في مغامرة محفوفة بالمخاطر ، بل وفي مغامرة طائشة تنافي العقل والحكمة . ومع ذلك كانوا يعبرون

عن هذا الرأي بتحفظات ، لان غاريبالدى رجل يبلغ من علو الشأن أن ما يعده الناس تهورا يبدو فيه هو عقلاً • وشيئاً فشيئاً انتقل الحديث الى الكلام على شخصية غاريبالدى • فأخذوا يحصون مزاياه • فكان الحكم أميل الى اطراء هذا البطل الايطالى •

وها هو ذا رجل فرنسى فى نحو الثلاثين من عمره ، مهيب المنظر لطيف المظهر منطبع الهيئة بتلك النبالة الحارقة التى تفجؤك لدى الفرنسيين الى حد الوقاحة ، ها هو ذا يقول بصوت عال :

— هنالك شئ يدهشنى فى غاريبالدى • نعم ، أعترف بذلك ، هنالك واقعة أذهلتنى فيه •

التفت جميع الحضور طبعاً نحو المتحدث باهتمام مستطلعين • لا بد للصفة الجديدة المكتشفة فى غاريبالدى أن تثير اهتمام الجميع • وتابع الفرنسى كلامه يقول :

— سنة ١٨٩٠ ، تمتع غاريبالدى خلال بعض الوقت فى مدينة نابولى بسلطة غير محدودة ولا رقابة عليها * • فكان فى يده مبلغ عشرين مليوناً من أموال الدولة ! ولم يكن عليه أن يقدم كشف حساب لأحد ! كان يملك أن يأخذ هذا المال لنفسه ، وأن يتصرف فيه على ما يشاء له هواء ، دون أن يخشى أية مطالبة • فبدلاً من أن يأخذ شيئاً لنفسه ردّ المال كله الى الحكومة حتى آخر قرش • ذلك أمر لا يكاد يصدقه العقل !

وكانت عيننا المتحدث تسطمان سطوعاً قوياً أثناء كلامه عن هذه العشرين مليوناً •

من الممكن طبعاً أن يقصى المرء كل ما يشاء أن يقصه عن غاريبالدى • أما أن يوازن بينه وبين أولئك الناس الذين يسطون على أموال الدولة ، فذلك أمر لا يستطيعه الا فرنسى • وما أكبر السداجة والبسطة اللتين

ظهرتا عليه وهو ينطق بهذا الكلام ! ان المرء يغفر للسذاجة كل شيء طبعاً ، يغفر لها حتى فقدان الاحساس الحقيقي بالشرف والامانة . ولكنى لم أملك وأنا أتأمل الشخص الذى يعبت هذا العبث ويمزج هذا المزاج وهو يتذكر مبلغ العشرين ميلوناً ، الا أن أقول بينى وبين نفسى :

« هيه ، هيه ، أيها الرجل الشهم الشجاع ! ماذا لو كنت ممسكة بالدفة عندئذ فى مكان غاربالدى ! ... »

سئولون لى اننى ظالم مرة أخرى ، فهذه حالات خاصة ، وأمثلة فردية ؟ وسئولون لى ان فى بلادنا حالات كهذه الحالات ، وليس من حقى أن أعمم هذا التعميم . أنا لا أتكلم عن جميع الفرنسيين طبعاً . فالتبالة التى لا توصف موجودة فى كل مكان . ولعلنا رأينا فى بلادنا ما هو شر من ذلك أيضاً . ولكن لماذا يجطلون من هذا فضيلة ؟ هل تريدون أن أفصح لكم عن رأى ؟ قد يكون أحد الناس ندلاً دون أن يفقد الاحساس بالشرف . وهناك طائفة كبيرة من ناس شرفاء ، لكنهم فى مقابل ذلك فقدوا الاحساس بالشرف ، فهم لذلك يرتكبون أعمالاً دنيئة ، دون أن يعلموا انهم يتصرفون بدافع الفضيلة . فالقئة الأولى أقس من الثانية طبعاً ، ولكن القئة الثانية أجدر بالاحتقار شتم أم أبيتهم . ان مثل هذا التعليم للفضائل هو عرض من أعراض المرض فى حياة أمة . أما ما قلموه عن الحالات الخاصة فلست أريد أن أناقشكم فيه . هل تتألف الأمة الا من حالات خاصة ؟ أصحيح هذا أم غير صحيح ؟

لا بل اليكم رأى . لعلنى قد أخطأت أيضاً وجافيت الصواب حين زعمت أن البورجوازي يتقلص ، وأنه ما يزال يخشى شيئاً ما . صحيح أنه ينفضب وأنه يشعر بمخاوف . ولكن اذا وضعنا قائمة بالأمور وجدنا أن البورجوازي يزدهر ازدهاراً كاملاً . ورغم أنه يفضل هو نفسه فيكرر قائلاً لنفسه فى كل لحظة ان كل شيء يجرى على ما يرام ،

فإن ذلك لا يفسد ما يبدو عليه في الظاهر من ثقة • أكثر من ذلك : انه حتى في قرارة ضميره واثق من نفسه الى أبعد حدود الثقة حين يحتاج •

كيف يجتمع هذا كله في نفسه ؟ كيف يتصالح هذا كله في نفسه ؟ ذلك سؤال يلقيه الآن حقاً • ولكن هذا هو الواقع • هكذا هي الأمور • ليس البورجوازي على وجه العموم بالغبي ، فكره قصير جداً ، كأنه جزء من فكر • انه يملك مثونة ضخمة من الأفكار الجاهزة ، كمثونة الحطب التي نديرها للشواء البارد ؛ وهو يسوّل جداً على أن يعيش بها ألف سنة اذا لزم الأمر • ولكن ماذا أقول ؟ ان البورجوازي قلماً يتكلم عن ألف عام ، اللهم الا حين يستسلم للفصاحة والبلاغة في أكثر تقدير • والقول المأثور « من بعدى الطوفان ، مطبّق في أحيان أكثر •

وما أقل اكرانه بكل شيء ، وما أشد اهتمامه بالترهات الباطلة ! ضمنى مجتمع بباريس في منزل كان يرتاده عندئذ عدد كبير من الناس • كان يبدو على الجميع أنهم يخشون أن يعالجوا أى موضوع يخرج عن المؤلف ، وأن يتحدثوا ، بدلاً من حديثهم في الترهات ، أن يتحدثوا في مسائل عامة لها شأن اجتماعي • في رأى أن الخوف من الجواسيس لم يكن له دخل في موقفهم هذا • كل ما في الأمر أنهم جميعاً قد فقدوا القدرة على أن يفكروا وأن يتكلموا في أمور جدية • وكان هناك من جهة أخرى أناس اهتموا كثيراً بانطباعاتي عن باريس ، فأخذوا يستطلعون مدى اعجابي بها ، ودهشتي منها ، وانسحابي تحت وطأتها ، وانعدامي بتأثير روعتها • ان الفرنسي ما يزال يعتقد أنه قادر روحياً على أن يسحق وعلى أن يُعدم • ذلك أيضاً عرض من أعراض مرض يبعث على الضحك • واني لأتذكر على وجه الخصوص شيخاً قصيراً رائماً قد محضته عاطفة صادقة • كان ينظر الىّ محدقاً ويسألني عن رأيي في باريس ، فيشعر بحزن حين لا يرى أن حماستي لباريس

شديدة • كان وجهه الطيب يعبر عندئذ عن ألم حقيقي ، لست أبالغ •
أوه ! عزيزى • ••• ر ! انك لن تستطيع فى يوم من الأيام أن تجرد أى
فرنسى ، أعنى أى بارسى (ذلك أن جميع الفرنسيين بارسيون فى
حقيقة الأمر) ، من فكرة أنه أول انسان على وجه الكرة الأرضية •
وهو ، من جهة أخرى ، لا يعرف من الكرة الأرضية الا قليلاً جداً
باستثناء بارسى ، ولا يحرص على أن يعرفها أى حرص •

على ان الخاصة التى تميّز الفرنسى أكثر مما تميّزه أية خاصة
أخرى انما هى البلاغة أو الفصاحة • ان حب بلاغة اللسان وحسن البيان
لا ينطفىء أواره فى نفس الفرنسى ولا يزداد بتقدم السنين الا تأججاً •
وددت لو أعرف متى بدأ حب بلاغة اللسان وحسن البيان هذا فى فرنسا •
لا شك أنه قد اتسع اتساعاً كبيراً فى عهد لويس الرابع عشر • من
الأمر البارز أن كل شيء فى فرنسا يرجع تاريخه الى عهد لويس
الرابع عشر • غير أن ما هو أبرز من ذلك أن كل شيء يرجع تاريخه
فى أوروبا كلها أيضاً الى عهد لويس الرابع عشر • اننى لا أصل الى فهم
قوة الاغراء والفتنة فى هذا الملك ! ذلك أنه لا يفوق كثيراً سائر الملوك
الذين سبقوه • لأنه كان أول من قال : « الدولة هى أنا » ؟ لقد نالت هذه
الكلمة اعجاباً ضخماً وانتشرت فى أوروبا كلها • أظن أن هذا وحده
قد جعله شهيراً • حتى فى بلادنا عرفها الناس بسرعة مذهشة • لقد كان
هذا الملك ، لويس الرابع عشر ، قومياً الى أبعد حد ، يمثل الروح
الفرنسية كل التمثيل ، بحيث أننى لا أفهم حتى كيف أمكن أن تحدث
فى فرنسا جميع تلك « الشيعونات » * ••• فى آخر ذلك القرن نفسه •
وقد عاد الناس بعد جنون متكرر الى الروح القديمة • انهم يميلون اليها
ويتجهون نحوها • ولكن بلاغة اللسان ••• آ ••• بلاغة اللسان •••
هى حجر عثرة بالنسبة الى الباريسى • ان الباريسى مستعد لأن ينسى من

الماضى كل شيء ، كل شيء تماماً ؟ مستعد لأن يُجرى أحاديث معقولة الى أبعد حد ، وأن يكون من أطوع التلاميذ وأكثرهم جدّاً واجتهاداً . ولكن بلاغة اللسان ، بلاغة اللسان وحدها لا يمكن حتى الآن أن تحمى من ذاكرته . انه يشترك الى بلاغة اللسان ، ويصبو اليها ويتلف عليها . انه يتذكر تير ، وجيزو ، وأوديلون بارو ؟ ويقول لنفسه أحياناً وهو يتهدد « كانوا بلغاء في ذلك الزمان » ، ثم يطرق واجماً مفكراً . وقد أدرك نابوليون الثالث هذه الحقيقة ، فسرعان ما قرر أن على جاك بونوم أن لا يطرق واجماً مفكراً ، وسرعان ما عمل على اصلاح حال البلاغة . ومن أجل هذا يحتفظون في « الهيئة التشريعية » بستة نواب لبرالين ، أى ستة نواب قد يكونون أناساً لا يمكن افسادهم ، ومع ذلك فان عددهم ستة ، ولم يكونوا الا ستة ، ولن يكونوا الا ستة . لن يزيد عددهم ولن ينقص ، اطمئنوا ! ان هذا يبدو معقداً جداً من أول نظرة . ولكن الأمر أبسط من ذلك كثيراً في الواقع ، وهو يتم بواسطة « الاقتراع العام » . صحيح أن جميع الاجراءات المناسبة تُتخذ من أجل منهم من الافاضة في الكلام كثيراً . ولكنهم يُسمح لهم بأن يثرنوا . في كل سنة ، تناقش في الوقت المناسب ، المسائل السياسية الهامة ، فتأثر الباريسي تأثراً ناعماً ، وتهتز نفسه اهتزازاً رقيقاً . هو يعلم أنه سيسمع كلاماً فصيحاً ، وسينعم بلغة بليغة ، فينتهج بذلك ويقبض . صحيح أنه لا يجهل أن كل شيء سيقصر على طوفان من الكلمات التي لن تؤدي الى أية نتيجة . ولكنه سعيد بذلك . وهو نفسه أول من يجد هذا كله معقولاً جداً . وان خطب بعض هؤلاء الأعضاء الستة تتمتع بشعبية خاصة . والعضو مستعد دائماً لأن يسهب في الخطابة ليسلّي الجمهور . شيء غريب : انه مقتنع هو نفسه بأن خطبه لن تؤدي الى شيء ، وأن الأمر

كله لا يعدو أن يكون مزاحمة ، أو لعبة بريئة ، أو حفلة مرح . ومع ذلك فهو يتكلم ، يتكلم عدة سنين متتالية ، ويحسن الكلام ، حتى يشعر بلذة قوية . وزملاؤه يتهللون طرباً عند سماعه . « انه يحسن الكلام ! » .

والرئيس يطرب ، وفرنسا كلها تطرب . ولكن العضو ينهى خطابه ، فاذا بمربي هؤلاء الأطفال الطبعين المهدئين ينهض هو أيضاً ، فيعلن أن « الانشاء » الذي دبجته يراعة العضو عن الموضوع المطروح ، وهو :

« شروق الشمس » ، قد أجاد العضو المحترم معالجته وبخسه ، واننا « أعجبنا بموهبة الخطيب المحترم ، وبآرائه وبما تدل عليه هذه الآراء من سلوك ممتاز ، وأتينا جميعاً قد أخذنا وقتنا . . . ولكن رغم أن العضو المحترم جدير حقاً بمكافأة على حسن السلوك والجد والاجتهاد ، فإن خطاب العضو المحترم ، يا أيها السادة ، هو بسبب اعتبارات عليا عديم القيمة لا يساوى شيئاً . أمل ، أيها السادة ، أن تكونوا على اتفاق معي في الرأي » . وهو في تلك اللحظة يلتفت الى أعضاء المجلس وتقسو نظراته ، فاذا بالأعضاء الذين كانوا يتهللون طرباً منذ قليل ، يصفقون للمربي بحماسة عارمة ، ولكن هذا لا يمنهم من أن يضافحوا زميلهم اللبرالي مهثين ، وأن يشكروا له ما أتاحه لهم من متعة ، وأن يرجوه تكرار هذه المتعة في المرة القادمة ، باذن من المربي . ويوافق المربي على ذلك هاشأً باشأً . ويخرج كاتب موضوع « شروق الشمس » معتزاً بما أصاب من توفيق وحقق من نجاح ؟ ويعود الأعضاء الى أسرهم وهم يتلمظون ؟ ومن شدة فرحهم يقومون عند المساء بنزهة في « الباليه رويال » متأبطين أذرع حلياتهم ، مصغين الى خرير المياه المتدفقة من نوافير الماء التي ترطّب الجو ، بينما يصرح المربي لفرنسا كلها ، بعد أن يكون قد كتب تقريراً لمن يجب أن يكتب له التقرير ، يصرح لفرنسا كلها أن كل شيء يجري على خير حال .

ويحدث من جهة أخرى فى بعض الأحيان ، متى كان الأمر أمر قضايا أهم ، أن يعمدوا الى اللبسة الكبرى ، فيؤتى الى احدى الجلسات بالأمير نابوليون نفسه * ، فيأخذ الأمير نابوليون فجأة بالمعارضة ، فيجزع جميع هؤلاء التلاميذ الصغار ، يسود الفصل صمت مهيب . يمثل الأمير دور اللبرالى . الأمير ليس على اتفاق مع الحكومة . هو يرى كيت وكيت . الأمير ينتقد الحكومة . انه ، باختصار ، يقول ما كان يمكن أن يقوله (فيما يُفترض) هؤلاء الأولاد اللطاف ، لو ترك المعلم الفصل لحظة من اللحظات . يقوله هو أيضاً باعتدال طبعاً . ولكن هذا الاقتراض باطل ، لأن جميع هؤلاء الأولاد اللطاف يملفون من حسن الأدب وكمال التهذيب أنهم لا يتحركون ولو غاب المعلم أسبوعاً كاملاً . حتى اذا انتهى الأمير نابوليون من كلامه ، نهض المعلم وأعلن فى مهابة وفخامة أن موضوع « الانشاء » ، وهو : « شروق الشمس » ، قد عولج من قبل الخطيب معالجة كاملة وبُحث بحثاً ممتازاً . لقد أعجبنا بموهبة الأمير ، وبآرائه التى عبّر عنها تمييزاً بليغاً ، وبالفضائل التى يتحلى بها . . . فنحن مستعدون لأن نهدى اليه جائزة المواظبة وحسن الاجتهاد ، ولكن . . . الخ (راجع ما سبق) . فيصفق جميع تلاميذ الفصل طبعاً ، بحماسة تبلغ حد الجنون . ويعاد الأمير الى بيته . ويترك التلاميذ المؤدبون المدرسة ، كقديسين صغار ، ويتزهون فى المساء مع حليلاتهم فى « الباليه رويال » ، منصتين الى تدفق المياه من النوافير التى ترطب مياهها الجو ، الخ ، الخ . . . أى ، باختصار ، يسود نظام مدهش .

فى مرة من المرات ، ضللنا طريقنا فى « قاعة الخطى الثائثة » من قصر العدل ، فبدلاً من أن نصل الى محكمة التأديب وصلنا الى المحكمة المدنية . كان هناك محام مجعّد الشعر يرتدى ثوب الحمامة والقطنسوة ، وكان المحامى بسبيل القاء مرافعة ، فكان ينشر لآلىء من البلاغة والفصاحة ،

وكان جمهور المستمعين يرتعشون حماسةً • ان صمتاً دينياً يرين على
الجو • دخلنا سائرين على رءوس أصابع الأقدام • كانت القضية التي
يترافع فيها المحامي قضية ميراث • وكان عدد من الرهبان داخلين في
القضية • ان الآباء الروحانيين يدخلون الآن في بعض القضايا كل لحظة ،
ولا سيما في قضايا الموارث • ذُكرت وقائع فاضحة مقرزة • ولكن
الجمهور صامت لا يظهر استياءً من الفضائح ، لأن الرهبان قد نالوا
سلطة كبيرة ، والبورجوازي رجل فاضل الى أبعد حد • ان الآباء
الروحانيين يشاركون مزيداً من المشاركة كل يوم في الرأي القائل بأن
رأس مال يملكه المرء خير من جميع الأرباح التي تراود خياله ، وخير
من البلاغة نفسها ، وأنه يكفي المرء أن يجمع مالا حتى يكون قوياً ،
على حين أن البلاغة ••• البلاغة وحدها ••• عاجزة عن أن تكفل
نجاحاً • ولكنهم مخطئون قليلاً في هذه الحالة الأخيرة في رأيي • صحيح
أن امتلاك رأس مال أمرٌ يجب أن لا يستخف به ، ولكن المرء يستطيع
أن يحصل من الرجل الفرنسي على أشياء كثيرة بالبلاغة • والحليسات
خاصةً يخضعن لسلطان الآباء الروحانيين ، بل انهن يخضعن الآن لهذا
السلطان أكثر مما كنَّ يخضعن له في الماضي • ومن الجائز جداً أن
يلتفت البورجوازي الى هذه الناحية أيضاً • أظهرت المحاكمة كيف أن
الآباء الروحانيين قد استطاعوا بضغط بارع خاذق (انهم علماء في هذا
الباب) ، خلال أعوام ، أن يخدعوا سيدة لطيفة غنية جداً ، حتى اذا
استقرت في دير من الأديرة بفضل حيلهم ومكائدهم راحوا يرهبونها
الى أن أصبحت من ذلك مريضة ، وصارت توافيها نوبات عصبية ، وكل
ذلك انما فعله أولئك الآباء الروحانيون محسوباً حساباً دقيقاً ، وفلوه
بتدرج ماهر بارع • وأخيراً ، بعد أن جعلوها شبه بلهاء ، خيّلوا اليها
أنها تأثم اثماً كبيراً أمام الله اذا هي رأت أبويها ، ثم أبعادوا جميع أفراد

أسرتها شيئاً بعد شيء . « حتى ابنة أختها ، التي تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ، والتي هي ملاك من ملائكة الطهارة والبراءة ، والتي كانت تحب خالتها أكثر مما تحب أى شيء في هذا العالم ، أصبحت لا تجرؤ أن تدخل حجرة خالتها العزيزة التي تحبها أكثر من أى شيء في هذا العالم ، وأصبحت الحالة لا تستطيع ، بعد مكائد غامضة مريبة ، أن تطيع قبلةً على « جينها العذراوى ، الذى يستقر فيه الملاك الأبيض ، ملاك الطهارة والبراءة » باختصار ، كان الأسلوب كله يجرى هذا المجرى : أسلوب معجز ! كان المحامى يتהלل طرباً ويطير فرحاً لاجادته الكلام هذه الاجادة ، وكان رئيس المحكمة والحاضرون يتهللون طرباً ويطيرون فرحاً كذلك . هكذا فقد الآباء الروحانيون قضيتهم بسبب البلاغة وحدها . ولكن الآباء الروحانيين لا يرضون أن يُجندلوا : لئن خسروا قضية ، انهم ليربحون خمس عشرة قضية .

سألت طالباً شاباً كان بين الحضور المحترمين :

— من هذا المحامى ؟

كان في المحكمة عدد غفير من الطلاب ، وكانت تبدو عليهم جميعاً مظاهر الجلد والاهتمام .

نظر الى الطالب مدهوشاً . ثم أجابنى أخيراً وقد ظهرت في وجهه معانى اشتاق فيه احتقار أخجلنى ، أجابنى بقوله :

— جـول فافر * .

هكذا أتيت لي أن أعرف زهرات البلاغة الفرنسية ، وأن أقع على هذه البلاغة الفرنسية في منبعها الرئيسى ان صح التعبير .

ولكن هذه المنابع كثيرة لا يُحصى عددها . ان البورجوازي مُشبعٌ بالبلاغة حتى أطراف أظافره . ذهبنا ذات يوم الى الباتيون

لنرى العظماء • ذهبنا فى ساعة ليست هى ساعة الزيارة فدفننا فرنكيين اثنين • نهض أحد مشوِّهى الحرب فتناول المفاتيح وقادنا الى آقيية الكيسة • فكان أتنا الطريق ما يزال يتكلم كما يتكلم سائر الناس ، على شئ من الغمغمة بسبب فقدانه أسنانه • ولكن ما ان صرنا فى الآقية ، حتى أخذ يتدفق فى الكلام منذ وقفنا أمام أول ضريح :

— « هنا يرقد فولتير ، فولتير ، تلك البقرية العظمى من عبقرات فرنسا الجميلة • لقد اجتث الأوهام ، وهدمَّ الجهل ، وصارع شيطان الظلام ، وأمسك شعلة الضياء • بلغ فى تراجيدياته ذروة الروعة ، رغم أن فرنسا كانت تملك قبله شاعرها كورنى » •

واضح أن الرجل كان يلقي درساً يحفظه على ظهر القلب • ان أحداً قد كتب له هذه العبارات الطويلة على ورقة ، فحفظها ليردها الى آخر حياته • حتى لقد كان وجهه المعجوز يشرق رضى وسروراً وفرحاً منذ أن بدأ يتلو أمامنا عباراته الجميلة تلك •

وتابع كلامه قائلاً وهو يقترب من ضريح آخر :
— « هنا يرقد جان جاك روسو ، جان جاك روسو رجل الطبيعة والحقيقة » * •

شعرت فجأة برغبة فى أن أضحك • ان كل شئ يمكن جعله بالأسلوب النيل الرفيع تافهاً مبتذلاً • ولكن كان واضحاً أن المعجوز المسكين لم يكن أثناء كلامه عن « الطبيعة والحقيقة » يفهم من الأمر شيئاً •

قلت له :

— شئ غريب : ان أحد هذين الرجلين كان يصف الآخر طوال حياته بأنه كاذب وشريد ، بينما كان الثانى يصف الأول بأنه غبى لا أكثر ، ثم ها هما الآن يرقدان جنباً الى جنب •

أراد المسكين أن يجيب ، فقال :

— مسيو ، مسيو ...

ولكنه سرعان ما صمت وقادنا بسرعة الى ضريح آخر .

وقال بصوت مرعد من جديد :

— هنا يرقد « لان » ، المارشال لان ، وهو واحد من أعظم الأبطال الذين أنجبتهم فرنسا ، وما أكثر ما أنجبت فرنسا من أبطال ! .. لم يكن ماريشالاً عظيماً فحسب ، لم يكن أبرع قادة الامبراطور فحسب ، بل كان ينعم الى ذلك بشراء طائل . وكان صديق ...

قلت رغبةً في اختصار خطابه :

— نعم ، كان صديق نابوليون ...

فقاطعتي الرجل قائلاً ببلهجة تنم عن شيء من الاستياء :

— مسيو ... مسيو ... ذعني أتمم كلامي .

— تكلم ، تكلم ، أنا مصغ اليك .

— بل كان ينعم الى ذلك بشراء طائل ، وكان صديق الامبراطور .
ما من أحد بين جميع ماريشالات الامبراطور حظي بأن يكون صديق
الامبراطور . المارشال « لان » وحده استحق هذا الشرف . وحين
سقط في ساحة الوغى في سبيل وطنه ...

— نعم ، نعم ، تحطمت ساقاه بقنبلة ...

صاح الرجل يقول بصوت يوشك أن يعبر عن شكاة وضراعة :

— مسيو ، مسيو ... دع لي أن أتكلم أنا ... ربما كنت تعرف

هذا كله ... ولكن دع لي أن أتكلم أنا أيضاً !

كان هذا الانسان العجيب يحترق شوقاً الى أن يتكلم ، رغم أننا
نعرف جميعاً كل ما سيرويه •

استأنف يقول :

- وحين سقط في ساحة الوغى في سبيل وطنه تأثر الامبراطور
تأثراً شديداً ، وبكى حزناً على فقده ، و •••

لم أستطع أن أمتنع عن الكلام ، فقلت مكملًا :

- وجاء يودّعه •••••

ولكننى سرعان ما شعرت بخطئى ، حتى لقد خجلت •

قال الشيخ متوسلاً متضرعاً ، وهو يحدجنى بنظرة عتب رقيق
ويهز رأسه الأثيب :

- مسيو ، مسيو ••• أنا أعلم ••• أنا على يقين من أنكم تعرفون
هذا كله ، وربما كنتم تعرفونه خيراً مما أعرفه • ولكنكم اخترتمونى من
تلقاء أنفسكم دليلاً لكم • فإتركونى أتكلم • لن يطول كلامى الآن •••
اذن تأثر الامبراطور تأثراً شديداً ، وبكى حزناً على فقده (بكى حيث
لا ينفع بكاء وا أسفاه !) ، كما تأثر وحزن الجيش كله ، وكما تأثرت
وحزنت فرنسا كلها ، ودنا الامبراطور من سرير المحتضر ، فخفف
حضوره هذا آلام القائد الذى لم يلبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة على مرأى
من الامبراطور تقريباً •

ثم أضاف الرجل يقول بنظرة لوم وعتب :

- انتهى كلامى يا سيدى •

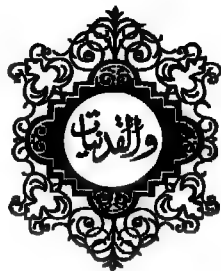
وانتقل الى مكان آخر • وأردف يقول وهو يومئ برأسه الى قبور
أخرى توجد على مقربة منا :

- وهذه مقبرة أخرى ... انها تضم رفات عدد من أعضاء مجلس
الشيوخ ...

قال ذلك بلمهجة تدل على قلة الاكثراث . لقد استفد بلاغته كلها
في الكلام على فولتير وجان جاك روسو والماريشال « لان » .
كان ذلك مثلاً مباشراً ، مثاراً شعياً ان صح التعبير ، على حب
البلاغة لدى الفرنسيين . أصبح أن جميع هذه الخطب التي ألقاها
خطباء المجلس الوطني ومجلس الثورة والنوادي ، والتي كان يشارك
فيها الشعب مشاركة تكاد تكون مباشرة والتي كانت تعيد تربية الشعب
تربيةً جديدة ، أصبح أن هذه الخطب لم تترك في الشعب الا أثراً
واحداً : حب البلاغة للبلاغة ؟

الفصل الثامن

حبیبی وغزالی



القرينات تزدهر حالهن ويعلو شأنهن كما سبق
 أن قلت • بالمناسبة : سوف تسألونني لماذا أقول
 القرينات بدلاً من أن أقول الزوجات ؟ السبب
 هو الأسلوب الرفيع يا سادتي ! ان البورجوازي
 يقول دائماً : « قريتى » ، حين يتكلم بأسلوب رفيع نبيل • ورغم أن
 الناس فى الطبقات الاجتماعية الأخرى ، كما فى كل مكان ، يقولون :
 الزوجة ، فان من الأفضل أن تتبع الروح القومية لدى الأكثرية ، وأن
 تتبع البيان الرفيع • ذلك أقرب الى ابراز خصائص المجتمع الذى تتحدث
 عنه • على أن هناك تسميات أخرى • فحين يريد البورجوازي أن يصطنع
 العاطفة أو أن يخون زوجته فانه يخاطبها دائماً بقوله : « يا غزالتى » •
 وكذلك فان الزوجة التى لها عشيق تخاطب زوجها البورجوازي العزيز
 بقولها « يا حبیبى » حين تستبد بها نوبة فرح رقيق ، وهذا أمر يرضى
 عنه البورجوازي كثيراً من جهته • ان كلمتى « حبیبى » و « غزالتى »
 رائجتان مزدهرتان الآن أكثر من أى وقت مضى ! واذا صرفنا النظر عن
 أن « حبیبى » و « غزالتى » ، المتفق (ضمناً على وجه التقريب) على
 أنهما يمثلان الفضيلة والوفاق وطهارة الحب فى عصرنا المعذب هذا ، على

نقيض رأى أولئك الأوغاد الشيوعيين انكريهين ، اذا صرفنا النظر عن هذا ، فان « حيبى » يصبح أكثر ليونة وأشد طواعية وسهولة من الناحية الزوجية سنة بعد سنة . انه يدرك أن جميع أنواع التوبخ الشديد والتقريع القاسى ، وجميع صنوف الاحتياط والحذر ، عاجزة عن أن تصد « غزالتى » ، وأن الباريسية انما خلقت للمسيق ، وأن الزوج لا حيلة له فى أن يتحاشى أن يكون له قرنان . فهو لذلك يصمت . ولكنه انما يصمت قبل أن يجمع مبلغاً كبيراً وأن يقتنى أشياء كثيرة . حتى اذا توافر له هذا الشرطان ، أعنى المبلغ الكبير والأشياء الكثيرة ، فان « حيبى » يصبح أكثر تشدداً ، لأنه يأخذ يحترم نفسه احتراماً كبيراً ويقدر نفسه قدراً عظيماً . وعندئذ انما يأخذ ينظر الى جوستاف بعين أخرى ، لا سيما اذا كان جوستاف وغداً من الأوغاد .

نستطيع أن نقول على وجه العموم ان الباريسى الذى يملك ايراداً ولو ضئيلاً ، انما يبحث ، حين يرغب فى الزواج ، عن خطيبة مناسبة من الناحية المالية . أكثر من ذلك أنهم يضعون كشفاً بالايرادات فى أول الأمر ، فاذا كانت ايرادات كل من الطرفين مكافئة لايرادات الآخر تم الزواج . فاذا فرضنا مثلاً أن رأس مال الخطيبة أكبر ولو قليلاً من رأس مال الخطيب رُفض الخطيب ، وجرى البحث عن رجل أنسب . يضاف الى ذلك أن الزواج القائم على الحب يصبح مستحيلاً أكثر فأكثر ، حتى ليكاد يعد زواجاً غير لائق . ولما يخرج أحد على هذه القاعدة الحكيمة أو يخل بها ، أعنى قاعدة التساوى المطلق بين محتويات جيب كل من الخطيبين واتحاد رأس مال كل منهما برأس مال الآخر ، او قولوا على الأقل ان الاخلال بهذه القاعدة أندر هنا منه فى أى مكان آخر . ان البورجوازى قد نظمَ التمتع برأس مال زوجته لمصلحته . وذلك هو السبب فى أنه مستعد لأن يفضى فى مناسبات كثيرة جداً عن المغامرات

التي تقوم بها « غزالتى » ، ولأن لا يلاحظ بعض الأشياء التي تسوء ملاحظتها ، والا فلو تم الانفصال بينه وبين زوجته لكان من الممكن أن تثار قضية المال الذي دفعته الزوجة مهرآ . وإذا ظهرت على « غزالتى » فى بعض الأحيان أنافة فوق مستوى موارد الأسرة فإن « حيسى » يفضى عن ذلك ، لأن « غزالتى » ستطالبه من أجل زيتنها بمبالغ أقل ، وستكون أكثر اراحة له وأقل ازعاجآ . واذ كان الزواج اتحاد رأس مال برأس مال الى حد بعيد ، واذ كانت العاطفة المتبادلة ليس لها شأن كبير ، فإن « حيسى » لا يكره أن يتطلع الى غزالات أخرى غير غزالاته . لذلك كان الأفضل أن لا يضايق أحد الزوجين صاحبه . وبهذا يسود الأسرة وفاق أعظم ، ويتبادل الزوجان ألقاباً أرق وأجمل . ثم ان « حيسى » قد عرف كيف يضمن الأمور لنفسه . ان مفوض الشرطة فى خدمته دائماً ، وذلك وفقاً للقوانين التي منحها هو لنفسه . فيستطيع ، فى أسوأ الأحوال ، اذا هو فاجأ العشيقين « متلبسين بالجرم » ، أن يقتلها دون أن تقع عليه أية مسئولية . و « غزالتى » تعرف هذا ولا ترى فيه ضيراً . ان وصاية طويلة الأمد قد شكلت « غزالتى » على صورة معينة ، فهي لا تنذر ، ولا تحلم (كما فى بعض البلاد الهمجية المضحكة) أن تتعلم فى الجامعة مثلاً ، وأن يكون لها مناصب فى النوادى أو مقاعد بين النواب . انها تؤثر أن تظل فى وضعها الطليق الحر الراحن ، كطائر الكنارى . انهم يزئنونها ، ويلبسونها أجمل اللؤلؤ ، ويقودونها الى النزهات . وهى ترقص ، وتقضم سكاكر ، وهى تستقبل فى الظاهر كما تستقبل ملكة ، والرجل فى الظاهر جاث عند قدميها . ان هذا الشكل من العلاقات قد رتب ترتيباً موفقاً مناسباً فى آن واحد . هذه علاقات تسيطر عليها روح الفروسية ، فماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ لن ينتزعوا من المرأة عشيقها جوستاف ، وهى لا تنوq الى أهداف سامية نبيلة فى الحياة ، النخ . وانها فى حقيقة الأمر رأسمالية ومقترة كزوجها .

حتى اذا انقضى عهد طائر الكنارى ، أى حين تصل الزوجة الى
النقطة التى يستحيل عليها عندها أن تخون زوجها ، وأن تظن نفسها طائر
كنارى ، حين يبدو لها أن العثور على جوستاف جديد أمر يستحيل أن
يتخيله أحرّ خيال وأطوع خيال ، فان « غزالتي » تبدل عندئذ تبديلاً
مفاجئاً موسفاً . وداعاً عهد الغندرة والغنج والدلال والترين والفرح !
انها تصبح فى كثير من الأحيان حادة الطبع ، مقترّة ، ترتاد الكنائس ،
تدّخر المال مع زوجها ؛ ان نوعاً من الاستهتار يغزوها من كل صوب .
وعندئذ تظهر السامة ، والحسرة ، والفراش الفضة ، وغرور الحياة ،
والأحاديث البذيئة . حتى أن بعض النساء يهملن أنفسهن حينذاك .
غير أن هناك حالات أكثر ابهاجاً بطبيعة الحال . وصحيح أن أمثال هذه
العلاقات الاجتماعية موجودة فى كل مكان ، ولكن ... هى هنا أقرب
الى طبيعة الأمور ، هى هنا أكثر أصالةً وعفوية ، هى هنا أشد وأقوى ،
هى هنا قومية أكثر مما هى كذلك فى أى مكان آخر . هنا منبع وبذرة
ذلك الشكل البورجوازي للمجتمع ، ذلك الشكل الذى يسود العالم كله
الآن على صور تقليدٍ مستمر ودائم للأمة الكبرى .

نعم ، ان « غزالتي » ملكة فى الظاهر . ان من الصعب على المرء
أن يتصور ما تحاط به فى كل مكان من أدب لطيف ورعاية مزعجة ،
فى المجتمع والشارع . ويبلغ هذا كله من شدة الرهافة ، ويبلغ أحياناً
من فرط البشاعة أن النفس المستقيمة الصادقة لا يمكن أن تطيقه . ذلك
أن المخادعة الواضحة فى هذا الرياء السافر لا بد أن تسوءها حتى أعماق
القلب . ولكن « غزالتي » نفسها مخادعةٌ كبرى ... فهى لا تطلب
شيئاً آخر غير المخادعة والغش ... انها تؤثر المكر دائماً على الأساليب
المستقيمة التى ليس فيها لف ولا دوران ولا التواء : ذلك فى رأى

أضمن ، فهو يدع للعب مجالاً أكبر . واللعب ، فى نظرى « غزالتى »
يفوق كل شئ ؟! اللعب والمكر هما فى المقام الأول .

وفى مقابل ذلك ، انظر الى ملابسها ، انظر كيف تخطر فى الشارع!
ان « غزالتى » تحب الأوضاع المصنوعة المتكلفة الحالية من كل ما هو
طبيعى . ولكن هذا أيضاً يثير الاعجاب ، ولا سيما اعجاب الفاسدين ،
الفاسقين بعض الفسق ، الذين فقدوا حب الجمال الفنى النضر الطبيعى .
و « غزالتى » ليست الا على خط ضئيل جداً من النمو . ان لها دماغ
عصفور وقلب عصفور . ولكن ما أرشقها فى مقابل ذلك . ان لديها
مخزناً زاخراً بالأسلحة المصطنعة ، فما ان تستول عليك حتى تتبعها كما
تتبع شيئاً جديداً لاذع النكهة . يندر أن تكون جميلة . حتى أن وجهها
يتسم بالحُبث والشر . ولكن أى بأس فى هذا ؟ ان فى هذا الوجه
حركة وبشراً ، وهو يجيد اصطناع العاطفة وافتعال الطبيعة اجادة تبلغ
درجة الكمال . ربما لم تكن هذه المحاكاة للطبيعة هى التى تعجبك فيها ،
ولكن الذى يعجبك فيها هو حسن تدبرها للأمر . ان فيها هو الذى
يفتتك . وفى أكثر الأحيان يكون التظاهر بالحُب مساوياً للحُب الحقيقى
فى نظر الباريسى ، حتى لقد يرضيه التظاهر بالحُب ارضاءً أكبر .
هناك طريقة شرقية فى النظر الى الأمور تظهر مزيداً من الظهور فى
باريس يوماً بعد يوم : ان غادات الكاميليا تروج « موضتهن » أكثر فأكثر .
« خذى المال ، وأجيدى الخداع ، أى برهنى عليه أو تظاهرى به . »
ذلك ما يُطلبُ منهن . ولا يكاد يطلب أحد من « قريته » أكثر من
هذا ، أو هو يكتفى به على الأقل . لذلك يُقبل العشيق جوستاف
بتسامح ضمنى . زد على ذلك أن البورجوازي يعرف أن « غزالتى »
ستتذر حياتها كلها لمصالحه حين تدلف الى الشيخوخة ، وأنها ستكون
نعمَ العون له على كثر المال وجمع الثراء . وهى تعينه حتى أثناء

شبابها • فهي فى بعض الأحيان تتولى تجارةً بكاملها وتجذب الزبائن ،
أى تكون ساعده الأيمن وتكون فى محل البائع الأول • فكيف لا يغفر
والحالة هذه أن يكون لها خليل اسمه جوستاف ؟ المرأة فى الشارع
لا تمس • ما من أحد يسئ إليها • جميع الناس يقدّمونها على أنفسهم ،
خلافًا لما يجرى فى بلادنا روسيا حيث لا تستطيع امرأة ، اللهم الا أن
تكون عجوزاً ، لا تستطيع أن تخطو فى الشارع خطوتين دون أن يحملق
فيها دون جوانٌ ما ، ويعرض عليها التعارف •

على أن الشكل العادى المألوف للعلاقات بين «حبيبي» و «غزالي» ،
رغم امكان وجود عشيق اسمه جوستاف ، هو شكل لطيف جداً ، حتى
لقد يكون ساذجاً فى كثير من الأحيان • ولقد فاجئنى هذا الأمر بوجه
عام : يكاد يكون جميع الأجانب أسذج كثيراً من الروس • يصعب شرح
هذا بمزيد من التفصيل : وانما ينبغى للمرء أن يلاحظه بنفسه • « ان
الروسي ريتاب ساخر » : هذا ما يقوله عنا الفرنسيون • وهو حق •
نحن أكثر استخفافاً ، نحن أقل تعلقاً بترائنا ، حتى اننا لا نحب هذا
الثراث ، أو نحن على الأقل لا نحترمه الى الدرجة القصوى من
الاحترام ، دون ان نعرف ما هو الأمر • نحن ننخرط فى اهتمامات
أوروبية ، مشتركة بين الانسانية جمعاء ، اهتمامات لا تخص أى أمة
بعينها ، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا نعالج كل شيء ببرود أكبر وفنور
أشد ، كأننا نحن نعالج هذا الشيء من باب القيام بواجب من الواجبات ،
ونعالجه معالجة فيها استقلال أكبر وانفصال أشد على كل حال • ولكن
قلنعد الى الموضوع الذى كنا بصدده • ان « حبيبي » ساذج الى أقصى
حدود السذاجة فى بعض الأحيان • انه حين يتزده مثلاً حول نوافير
المياه يأخذ يحدث « غزالي » فيشرح لها لماذا يرتفع الماء من النافورة
عمودياً ••• انه يشرح لها قوانين الطبيعة ، ويشعر فى حضورها بالعزة

الوطنية والكبرياء القومية من جمال غابة بولونيا ، ومن جمال الاضاءة ،
ومن روعة تراقص « المياه الكبرى » في حدائق قصر فرساي ، ومن
انتصارات الامبراطور نابوليون ، ومن « المجد الحربي » . وهو يجد لذة
كبيرة حين يراها تصفى اليه مستطلعة ، ويجد سعادة عظيمة وفئة كبرى
حين يلاحظ أنها متهجة مفتبطة . وان أمكر « غزالة » تبرهن لزوجها
على عاطفة رقيقة وحنان كبير ، لا تظاهراً وتصنعاً ، فان حنانها خالص
لوجه الحنان مبرأ من المنفعة رغم القرنين اللذين حملته اياهما على رأسه .
لست أطمع طبعاً ، كما فعل الشيطان « لوساج » أن أزيح أسطح المنازل .
وانما أنا أروي ما خطف بصري فاستطعت أن ألاحظه . تقول لك
« الغزالة » فلانة : « ان زوجي لم ير البحر حتى الآن » ، ويعبر صوتها
عندئذ عن شفقة ساذجة صادقة . معنى قولها أن زوجها لم يذهب بعد
الى برست أو الى بولوني ليرى البحر .

يجب أن نعرف أن للبورجوازي حاجات شديدة السباجة
والبراءة ، عظيمة الجذ والحظورة ، حاجات كادت تصبح عادة عامة . مثال
ذلك أن له ، عدا الحاجة الى جمع المال والحاجة الى البلاغة ، حاجتين
اثنتين مشروعيتين جداً ، كرستهما العادة ، فهو ينظر اليهما نظرة جادة
تكاد تشتمل على كثير من التأثير والعاطفة . فأما الحاجة الأولى فهي « أن
يرى البحر » . يمكن البورجوازي في باريس طوال حياته احياناً
بسبب انشغاله بالتجارة ، فلا يرى البحر . لماذا يجب عليه أن يرى
البحر ؟ هو نفسه لا يعرف جواباً عن هذا السؤال ، ولكن رغبته في رؤية
البحر رغبة حارة عنيفة قوية جامحة . ومع ذلك تراه يرجئ السفر من
سنة الى سنة ، بسبب أعماله . وهو يحزن من ذلك حزناً شديداً ،
وتشاطر زوجته حزنه . ان العاطفة تلعب هنا دوراً كبيراً على وجه
العموم ، وأنا أقدر هذا وأحترمه . وأخيراً يفلح في أن يجد الوقت

والمال ، فيعد عدته ويهيئ نفسه ويمضي « يرى البحر » بضعة أيام .
 فإذا عاد من رحلته راح يروي مشاعره وانطباعاته بكثير من الحرارة
 والحماسة ، لزوجته وأقربائه وأصدقائه ، ويظل يتذكر بكثير من السرور
 والسعادة ، طوال حياته ، أنه رأى البحر .

وأما الحاجة الثانية المشروعة التي لا تقل عن الأولى قوة وغنى
 لدى البورجوازي ، فهي أن « يتقلب على العشب » . ان الباريسي ، متى
 خرج من مدينته ، يحب كثيراً أن يتمدد على العشب ، بل انه يرى ذلك
 واجباً من الواجبات التي تقع على عاتقه ، فهو يقوم بهذا الواجب بوقار
 ومهابة ، شاعراً أنه بذلك يتواصل « مع الطبيعة » ، ويجب كذلك أن يراه
 الناس ويلاحظوه وهو على هذه الحال . ويمكننا أن نقول بوجه عام ان
 الباريسي سرعان ما يحس حين يخرج من المدينة أن من واجبه أن يصبح
 أكثر انطلاقة وأقل تخرجاً وتقيداً ، وأشد فرحاً ومرحاً ، بل وأعظم
 جرأة وجسارة ، أي أن يبدو أبعد عن التصنع وأقرب الى الطبيعة . انه
 يريد أن يصبح « انسان الطبيعة والحقيقة » . ألم يظهر « حب الطبيعة »
 لدى البورجوازي منذ أيام جان جاك روسو ؟ على أن البورجوازي
 لا يحقق هاتين الحاجتين كثيراً – أعني رؤية البحر والتدحرج على
 العشب – الا بعد أن يكون قد جمع ثروة ، أي بعد أن يكون قد أخذ
 يقدر نفسه ويحترم نفسه . ثم أن « التدحرج على العشب » يكون أمتع
 وألذ كثيراً حين يقوم به البورجوازي على أرض هو صاحبها ، على أرض
 اشتراها بما ادخر من مال . والبورجوازي على وجه العموم ، حين
 ينسحب من حلبة الأعمال ، يحب أن يملك أرضاً ، بل وأن يكون له
 منزله وحديقته وسياجه ودجاجاته وبقرته . وهو ما ينفك يردد لنفسه
 ولضيفه قوله : « شجرتي » ، « جداري » ، ويظل على هذه الحال الى
 آخر أيام حياته . فالتقلب على العشب انما يحلو للبورجوازي اذن حين

تكون الأرض أَرْضَهُ • ومن أجل أن يقوم بهذا الواجب نراه ينشئ أمام منزله مرجاً • وقد رُوى لى أن الحشيش رفض أن ينبت عند أحد البورجوازيين فى المكان الذى حدّده لانشاء المرج • فرغم جميع ما بذله البورجوازى من نشاط فى زرع حشيش جاء به من موضع آخر ، وفى سقاية هذا الحشيش والعناية به فان الحشيش كان ما يلبث أن ينوى ويموت • تلك كانت طبيعة الأرض أمام المنزل • فما كان من الرجل الا أن اشترى حشيشاً صناعياً • ذهب خصيصاً الى باريس فأوصى على بساط مستدير من حشيش صناعى ، قطره عدة أمتار ، حتى اذا صار البساط عنده أخذ يمدّه كل يوم بعد الظهيرة على الأرض ليتوهم أنه عشب فيرضى حاجته المشروعة الى القلب على العشب • ليس بعيداً عن بورجوازى ما يزال ثملاً من امتلاك أرض اقتناها بحق ، ليس بعيداً عنه أن يتصرف هذا التصرف ، وليس فى عمله ذلك شئ غير معقول من الناحية النفسية •

ولكن فلتتكلم قليلاً عن جوستاف • ان جوستاف شبيه طبعاً بالبورجوازى ، فهو بائع أو تاجر أو موظف أو « أديب » أو ضابط • هو « حييى » نفسه ، لكنه عازب • وليس هذا هو الأمر الهام على كل حال ، وانما الأمر الهام زينة جوستاف ووضعه الراهن وهيئته وهندامه • ان الصورة المثلى للعشيق جوستاف تختلف باختلاف الزوجات ، وهو يظهر على المسرح دائماً فى الصورة التى هو عليها فى المجتمع • ان البورجوازى يحب التمثيلات الهزلية (الفودفيل) ، ولكنه يحب الميلودراما أكثر من ذلك أيضاً • فالمرحبة الهزلية البسيطة المرحبة - وهى الاتساج الفنى الوحيد الذى يستحيل نقل غراسه من أرض الى أرض ، ويستحيل نباته فى غير موطنه ، ويستحيل أن يعيش فى غير المكان الذى وُلد فيه ، أى باريس - أقول ان المسرحية الهزلية هذه

لا تُعجب البورجوازي اعجاباً كاملاً تاماً ، وإن كانت ترضيه وتملّقه .
 انه يعدها من السفاسف . انه ينشد الروعة ، ينشد « النبل الذي
 لا يوصف » ، ينشد الحساسية . والميلودراما تضم ذلك كله . الميلودراما
 شيء لا غنى للباريسي عنه . وستبقى الميلودراما ما بقي البورجوازي .
 شيء غريب : ان المسرحية الهزلية نفسها يصيها الآن تغير وتحول .
 فرغم أنها ما تزال مرحلة مضحكة ، فان عنصراً آخر هو الوعظ الأخلاقي
 يتسلل اليها ويندس فيها شيئاً بعد شيء . ان البورجوازي يحب الوعظ
 الأخلاقي في كل لحظة ، من أجله ومن أجل « غزائه » . ذلك في نظره
 واجب مقدس ، ذلك في نظره شيء جنوهرى . وما دام البورجوازي
 يسيطر الآن بلا حدود ، ما دام هو القوة ، وما دام كتاب المسرحيات
 الهزلية والميلودرامات خاضعين دائماً للقوة ، تستعبدهم ويتملقونها ، لذلك
 نرى البورجوازي يتصرّع رغم أن الضحك يدور عليه وأن السخرية
 تناوله ؛ ولذلك نرى المسرحية تعلن له في النهاية أن كل شيء يجري
 على ما يرام . لا بد أن هذه النسب تطمئن البورجوازي كثيراً . ان كل
 من يستبد به الجبن فلا يكون مقتنعاً بأن عمله ناجح ، يحس بحاجة أليمة
 الى أن يخدع نفسه بالوهم ، الى أن يعزى نفسه ، الى أن يهدى روعه .
 حتى لقد يأخذ يصدّق البشائر . والأمر على هذا النحو هنا في الميلودراما
 تظهر على المسرح صفات كريمة . وقدوات رائعة . ليس هذا هزلاً .
 انه انتصار مؤثر لكل ما يحبه « حيبى » كثيراً . ان « حيبى » يحترم
 خاصة الهدوء السياسى وحق الانسان فى أن يجمع المال لينظم بيته على
 أهدأ نحو ممكن . فهذا هو اتجاه الميلودراما الحالية ؛ وان طبع جوستاف
 يناسب هذا الاتجاه . فمن النظر الى جوستاف نستطيع دائماً أن نتحقق
 من المثل الأعلى للنبل العظيم فى نظر « حيبى » ، فى لحظة معينة * .

كان جوستاف ، فى الزمان الماضى ، البعيد ، يظهر على المسرح

شاعراً أو رسّاماً أو عبقرية مجهولة مغبونة مظلومة هي ضحية الاضطهاد .
كان جوستاف يناضل ويكافح فى نيل ، وكانت المسرحية تنتهى دائماً
بأن نرى الفيكوتيسية ، المفتونة به سرّاً رغم أنها تقابله بقلة المبالاة وعدم
الاكترات ، تزوجه اليتيمة التى هي وصية عليها ، أقصد الفتاة القاصر
سيسيل التى لا تملك قرشاً واحداً ولكن يتضح فجأة أنها غنية غنى
عظيماً . كان جوستاف فى العادة يتمرد ويرفض المال . ولكن ها هو ذا
عمله يتوّج فى « الصالون » بالنجاح . ها هم أولاء ثلاثة أثرياء
مضحكون يظهرون فجأة عنده فيمرض كل واحد منهم عليه مائة ألف
فرنك ثمناً للوحة مقبلة يرسمها . ويسخر منهم جوستاف باحتقار ،
ويلعن بيأس مر ان البشر جميعاً أوغاد لا يستحقون ريشته ، وأنه لن
يهب الفن ، الفن المقدس ، لأناس تافهين لا يعرفون قدر الفن ، أناس
ظلموا يجهلون عبقريته حتى الآن . ولكن ها هي ذى الفيكوتيسية تظهر
تعلن له أن سيسيل تموت حباً به وأن عليه اذن أن يرسم لوحات .
عندئذ يحزر جوستاف أن الفيكوتيسية ، التى كانت قبل ذلك عدوته
والتي كانت مساعياها هى التى جعلت لوحاته تُرفض فى « الصالون » ،
يحزر أنها تحبه سرّاً ، وانها انما كانت تنتقم بدافع الغيرة . ويقبل
جوستاف المال من الأثرياء الثلاثة طبعاً ، بعد أن يكون قد شتمهم
وأهانهم ، وذلك أمر يُسرُّون هم منه ويظلمون مفتونين به ؛ ثم يهرع
الى عند سيسيل فيقبل أن يأخذ المليون الذى تملكه ، ويفخر للفيكوتيسية
التي تعتزل الحياة بعد ذلك فى أطيانها . هكذا يتزوج جوستاف زواجا
شرعياً ، ويأخذ ينبج ذرية ، ويرتدى صدره أنيقة وقبعة جميلة ، ويتنزه
فى المساء مع « غزالته » قرب نوافير المياه التى ترطب الجو والتي لا بد أن
يذكره خيريرها الهادى بما تنصف به سعادته على هذه الأرض من دوام
وبقاء ، وصلابة ومثانة ، وهدوء وسكينة .

وبدلاً من أن يكون جوستاف مستخدماً في محل تجارى ، يحدث أحياناً أن يكون يتيماً مضطهداً تساء معاملته ، ولكن روحه تفيض « نبلاً لا يوصف » • وفجأة يُكتشف أنه ليس يتيماً ، وانما هو الابن الشرعى للثرى الكبير روتشيلد ، وها هى ذى الملايين تهوى اليه وتساقط عليه * • ويرفضها جوستاف بأنفة وشمم وابعاء • لماذا ؟ لأن البلاغة توجب ذلك • عندئذ تظهر مدام بوبريه ، زوجة صاحب البنك الذى يعمل جوستاف مستخدماً عنده ، وهى مولعة بحبه • ها هى ذى تعلن له أن سيسيل تموت من شدة حبها له ، وأن عليه أن يمضى اليها لانقاذها • فيحزر جوستاف أن مدام بوبريه تحبه ، فيأخذ الملايين ، وبعد أن يشتم ويهين جميع الناس بأسوأ الكلام ، لأنه لا يوجد فى الانسانية كلها نبل عظيم كنبه ، يمضى الى سيسيل ويتزوجها • وتسعج زوجة صاحب البنك الى أطيانها • لقد انتصر بوبريه ، لأن زوجته التى كادت تسقط ، ما تزال عفة طاهرة الذيل • وينجب جوستاف ذرية ، ويمضى يتنزه فى المساء قرب نوافير المياه التى ترطب الجو والتى لا بد أن يذكره خيرها الهادى .. الخ الخ.

كذلك كان الأمر فى الماضى • أما الآن فان النبل العظيم « الذى لا يوصف » انما يمثله فى أكثر الأحيان ضابط من سلاح الهندسة أو غيره ، يحمل وسام صليب الشرف طبعاً ، وهو وسام « دفع ثمنه من دمه » • بالمناسبة : ان هذا الشريط الذى يزدان به صدر صاحب الوسام قد أصبح لا يُحتمل ولا يطاق • ان من يحمل هذا الوسام يبلغ من الغرور أنك لا تكاد تستطيع أن تقاربه أو أن تكلمه أو أن تصحبه فى سفر أو فى مسرح ، أو أن تصادفه فى مطعم • انه يزدريك ويحتقرك علانية بوقاحة ، حتى ليكاد يبصق فى وجهك • انه يلهث ويختنق تكبراً وصلفاً وزهواً ، حتى لتشم من ذلك بشيان ، ويزيد افراز الصفراء فى جسمك ، وتضطر الى الاستغاثة بطبيب • ولكن الفرنسيين يحبون هذا

كثيراً • ومن الأمور البارزة أيضاً أن مسيو بويريه قد أصبح المسرح يهتم به اهتماماً شديداً مفراطاً أو قل على الأقل ان المسرح قد أصبح يهتم به الآن اهتماماً أوضح من اهتمامه به في الماضي • ان مسيو بويريه قد جمع مالاً كثيراً بطبيعة الحال ، واقتنى أشياء كثيرة • هو صريح ، بسيط • عاداته البورجوازية وصفته الزوجية تجعله مضحكا بعض الشيء ، ولكنه طيب مستقيم رفيع النفس نبيل « نبلاً لا يوصف » في ذلك المشهد من المسرحية ، الذي يتألم فيه ألماً شديداً من شبهة خيانة « غزالته » له • ومع ذلك فهو يقرر أن يغفر لها بكرم وسخاء • سوف يُكتشف طبعاً أنها طاهرة كحمامة ، وأن كل ما فعلته هو أنها لعبت قليلاً ، هو أنها شُغفت بجوستاف بعض الشغف ، ولكن « حبيبي » الذي ترهقها عظمة نفسه هو أعزُّ عندها من كل شيء • أما سيسيل فهي ، كما في السابق ، فقيرة لا تملك قرشاً واحداً ، ولكن ذلك لا يكون الا في المشهد الأول من المسرحية ، ثم تملك بعد ذلك مليوناً • وجوستاف نبيل النفس ذو أنفة وكبرياء ، كما هو دائماً ، ولكنه أكثر غطرسة ، لأنه عسكري • وهو يحرص على وسامه أكثر من حرصه على أي شيء آخر ، يحرص على هذا الوسام الذي « دفع ثمنه من دمه » ، ويحرص كذلك على سيف أبيه ، ولا ينفك يتحدث عن هذا السيف قائلاً « سيف أبي » • انه يتكلم عن هذا السيف بمناسبة وبغير مناسبة ، حتى لقد لا تفهم عمّ يتكلم وماذا يريد أن يقول • وهو يشتم ، ويصق ، ولكن الجميع يحيونه ، بينما المشاهدون يكونون ويصفقون (يكون فعلاً) • وهو لا يملك قرشاً واحداً بطبيعة الحال : ذلك شرط لا بد منه • ومدام بويريه مولّته بحبه طبعاً • وكذلك سيسيل • ولكنه لا يفتن الى حب سيسيل ولا يخطر له هذا الحب على بال • وتظل سيسيل تحترق حباً خلال خمسة فصول من المسرحية • وأخيراً يتساقط ثلج أو شيء من هذا

القييل • وتريد سيسيل أن ترمى نفسها من النافذة • ولكن يدوئى
 فى الخارج انفجاران • ويدخل جوستاف الى المسرح ببطء ، ممتنع
 الوجه مصوب اليد • ان الشريط « الذى دفع جوستاف ثمنه من دمه »
 يلتصق على معطفه • لقد عوقب الشخص الذى اذاع الوشايات عن سيسيل
 وأغواها • وينسى جوستاف أخيراً أن سيسيل تحبه ، وأن هذه كلها
 مكائد من مدام بوبريه • ولكن مدام بوبريه صفراء الوجه مذعورة •
 ويحذر جوستاف أنها تحبه • ويدوئى انفجار جديد • أغلب الظن أن
 بوبريه قد انتحرت ياساً وقنوطاً • وتطلق مدام بوبريه صرخة وتهرع نحو
 الباب ، ولكن بوبريه يظهر بنفسه وقد حمل ثعلباً مقتولاً أو حيواناً آخر
 ما • لقد لُقِّنَ الدرس ، وظهرت العبرة • ان « غزالتي » لن تتساه
 فى يوم من الأيام • وها هى ذى ترمى على عنق « حبيبي » الذى يغفر
 كل شيء • ولكن يتضح فجأة أن سيسيل تملك مليوناً ، فيثور جوستاف
 من جديد • انه لا يريد أن يتزوج • وها هو ذا يصطنع أوضاعاً ويلفظ
 شتائم • لا بد حتماً من أن يصطنع جوستاف أوضاعاً ومن أن يحترق
 المليون • والا لم يغفر له البورجوازي قط ، ولما كان هنالك فدر كافٍ
 من « النبل العظيم الذى لا يوصف » • رحماك ! لا يذهبن بكم الظن
 الى أن البورجوازي يتناقص • لا تقلقوا : ان المليون لن يفلت من
 الزوجين السعيدين • انه لا غنى عنه ، وهو يظهر دائماً فى الحاتمة
 مكافأة على الفضيلة • ان البورجوازي يظل وفيّاً لنفسه • وينتهى
 جوستاف الى قبول المليون وسيسيل • وبعد ذلك تبدأ النزعات التى لا بد
 منها قرب التوافير ، ونرى القبعات الجميلة ، ونسمع خرير المياه ، النخ ،
 النخ • هكذا تنتصر العواطف الحساسة ، ولا سيما « النبل العظيم الذى

لا يوصف « ، ويتنصر بوبريه ، ويتنصر المليون خاصة » ، ينتصر في صورة قدر محتم ، في صورة قانون من قوانين الطبيعة يرجع اليه كل الشرف والمجد والاحترام ، النخ النخ • ويخرج « حبيبي » و « غزالي » من المسرح مفتونين وقد هدأت نفساهما وتعزّت روحاهما • ويرافقهما جوستاف ، وفيما هو يساعد « غزالي » على ركوب العربة ، يقبل يدها الصغيرة خلسة ! • • • ليس في الامكان أبدع مما كان • • • كل شيء ، في هذا العالم الذي هو أحسن عالم ، يجري على أحسن نحو •

التمسك

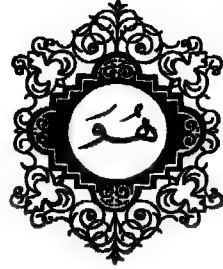
١٨٦٥

التمساح (Krocodil) ظهرت في مجلة
« العصر » التي أصدرها دوستويسكي ، العدد
الثاني من سنة ١٨٦٥ ، ولم تكتمل بسبب
احتجاب هذه المجلة •

حادثة خارقة

او القصة الحقيقية التي تروى كيف أن سيداً
متقدماً في السن محترماً جداً قد ابتلعه، وهو حي،
تمساح « الممر » ، وما الذى نشأ عن ذلك •

لا مبير ؟ أين لا مبير ؟ هل رأيت
لا مبير ؟



اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني (يناير)
سنة ألف وثمانمائة وخمسة وستين ، فى الساعة
الثانية عشرة والنصف ظهراً • فى تلك الساعة
من ذلك اليوم انما شعرت ايلينا ايفانوفنا (زوجة
ايفان ماتفتش ، صديقى العالم الذى أستطيع أن أقول عنه ايضاً انه
صاحبى ورفيقى كما أنه قريبى فى الوقت نفسه) برغبة مفاجئة فى أن
نرى التمساح الذى كان يُعرض فى « المر » * .

وقد اتفق أن كان ايفان ماتفتش حراً فى ذلك اليوم نفسه ، لأنه
كان قد حصل على اجازة ؛ حتى لقد كان فى جيبه تذكرة سفر الى الخارج
بالقطار ، وكان يريد أن يقوم بهذه الرحلة لأنه يشتهي أن يرى أشياء
جديدة ، لا لأنه يريد العلاج من مرض • ولم يعارض أية معارضة
فى ارضاء حب الاطلاع الشديد الذى استبد بنفس امرأته ، لأنه كان
يشاطرهما حب الاطلاع هذا فى حقيقة الأمر •

قال بلهجة راضية :

— هذه فكرة رائعة ! هلمى نَرَ التمساح • فى الوقت الذى
نستمد فيه للقيام برحلة الى الخارج ، لا يكون من غير المستحسن أن نطلع
منذ الآن فى بلادنا نفسها على السكان الأصليين لتلك البلاد •

قال ذلك ، وقدم ذراعه لامرأته ، فاتجه الاثنان نحو « المر » •

وقد شاركهما هذه التزهة بصفتي صديقاً للأسرة ، وعملاً بعادة ألفناها
فلم نخرج عليها ولا تخلفنا عنها •

لم أرَ ايفان ماتفتش ، فى يوم من الأيام ، مشرق المزاج مرح
النفس ، كما رأيته فى ظهر ذلك اليوم الذى لا سبيل الى نسيانه •
آه ! ... اتنا لا نقرأ المستقبل ، ولا نعلم الغيب !

ما ان دخل ايفان ماتفتش « المر » حتى شعر بنشوة عظيمة
وأحس باعجاب شديد حين رأى عظمة المكان ، فلما وصل الى حيث كان
يُعرض التمساح الذى جئ به الى العاصمة ، أظهر رغبة فى أن يدفع
الخمسة وعشرين كوبكاً التى هى ثمن تذكرة دخولى أنا ، وذلك أمر لم
يسبق أن فعله قبل هذا اليوم قط •

فلما صرنا فى انقاعة الصغيرة التى يُعرض فيها التمساح لاحظنا أن
القاعة لا تضم التمساح فحسب ، بل تضم كذلك بغاوات من نوع
« الكاكاتوس » ، وعدداً من القروء فى قفص موضوع فى آخر القاعة •
وقرب المدخل ، على طول الجدار الأيسر ، كان يوجد حوض كبير من
التوتياء تغطيه شبكة من أسلاك الحديد ويحتوى قليلاً من الماء • فكان
هذا الحوض مسكناً لتمساح كبير قد رقد فيه جامداً لا يتحرك أكثر
مما تتحرك صقالة خشبية ، وكأنه قد فقد جميع قواه الطبيعية منذ أصبح
يعيش فى جونا الرطب الذى لا يناسب الأجانب البتة •

ان لقاءنا الأول هذا بال مخلوق العجيب لم يثر أنفسنا ، ولم يهز
اهتمامنا •

قالت ايلينا ايفانوفنا بلهجة ممطوطة تعبر عن خيبة الأمل :
- أهذا هو التمساح ؟ اتنى لم أكن أتخيله فى هذه الصورة !
أغلب الظن أنها كانت تحسب التمساح جواهر ماس • وكان

صاحب التمساح ، وهو رجل ألماني ، قد جاء يقف أمامنا وينظر إلينا
في زهو وعُجْب وكبرياء .

همس ايفان ماتفتش في أذني يقول :

- من حقه أن يشعر بكبرياء ، لأنه يعرف أنه الوحيد الذي يعرض
على الناس تمساحاً في روسيا .

فمزوت هذا الملاحظة التافهة الى ما كان عليه صديقي من اشتراق
المزاج ومرح النفس ، لأن طبعه في العادة أميل الى الحسد والغيرة .
- لا يظهر على تمساحك هذا أنه حي .

كذلك عادت تقول ايلينا ايفانوفنا التي ساءتها ثقة صاحب التمساح
بنفسه ، وجرائته ووقاحته في النظر الى غيره . وقد قالت له هذه العبارة
وهي توجه اليه ابتسامة لطيفة رقيقة ، أملاً منها في أن تخفف من غلوائه
وأن تكسر من حدة وقاحته ، وتلك وسيلة مألوقة لدى النساء .
فأجابها الرجل بلغة روسية مكسّرة تكسيراً رهيباً :

- عفوك يا سيدتي !

ثم أسرع يرفع شبكة الأسلاك الحديدية ، وأخذ يشاكس التمساح
بعضاً كانت في يده . فمن أجل أن يظهر التمساح أنه حي ، حرك
قدميه وذيله قليلاً ، ورفع بوزه ، وأخرج صوتاً يشبه أن يكون زفرة
طويلة .

فقال الألماني برفق وقد بدا عليه ما يبدو على امرئ أرضي
غروره :

- طيب طيب ، لا تزعل يا كارلشن !

ودمدت ايلينا ايفانوفنا تقول فى غنج ودلال :

— ما أخبته ، هذا التمساح ! لقد أخافنى ! لقد أخافنى ! أنا واقعة
بأتى سآراه فى المنام •

قال الألمانى ملاطفاً :

— لن يستطيع أن يعضك فى المنام يا سيدتى !

ثم أخذ يضحك ، ولكن ضحكه لم يجد صدى •

قالت ايلينا ايفانوفنا تخاطبى وحدى :

— هيّا بنا نرَ القروء يا سيميون سيموفتش • اتنى أحب القروء
كثيراً • أنا أعبد القروء • وها هنا قروء لطيفة جداً • أما هذا التمساح
فهو رهيب !

صاح ايفان ماتفتشس يقول لها وهو يتمايل ويظهر أمامها جماله :

— لا تخشى شيئاً يا عزيزتى • ان هذا الساكن الوستان من سكان
مملكة الفراغة لن يلحق بنا أى أذى !

وبقى ايفان ماتفتشس قرب حوض الماء • ثم لم يلبث أن أخذ يدغدغ
منخرى التمساح بطرف قفازه بغية أن يحمله على أن يزفر زفيراً
صاحباً ، كما اعترف لنا بذلك فيما بعد •

وسار صاحب التمساح وراء ايلينا ايفانوفنا يتبعها نحو قفص
القروء • أليست ايلينا ايفانوفنا سيدة ؟؟؟ هكذا جرى كل شيء اذن
على خير ما يرام ، ولم يكن فى وسع أحد أن يتنبأ بوقوع أى حادث •

افتتت ايلينا ايفانوفنا بالقروء ، وأولتها كل اتباعها ووقفت عليها
كل اهتمامها • وكانت تطلق صرخات صغيرة فرحة ، وتظاهر بأنها

لا ترى التمساح ، وتسلى باكتشاف مشابهاة بين هذا أو ذاك من هذه الحيوانات وبين فلان أو فلان من أصدقائها ومعارفها . وكنت أبتهج بذلك معها ، لأن تلك المشابهات كانت واضحة بارزة دائماً . أما الألماني فانه لم يعرف هل كان يجب عليه أن يضحك أو أن لا يضحك ، ولكنه أصبح عابس الهيئة كالح المزاج آخر الأمر .

وفى تلك اللحظة بعينها دوَّت فى القاعة صرخة رهيبة ، بل صرخة يمكن أن أصفها بأنها خارقة للطبيعة . واذ لم أعرف كيف أفكر ولا ماذا أقدر ، فقد لبثت متجمداً فى مكاني ، حتى اذا رأيت ايلينا ايفانوفنا تصرخ هى أيضاً ، أسرعرت ألفت ، فماذا رأيت ؟

يا لهول ما رأيت ! رأيت ايفان ماتفتش العائر الحظ قد أمسكه التمساحُ بفيه من وسط جسمه ، ورفع الى فوق ، فأخذ المسكين يحرك ساقيه فى الفضاء حركات أفقية . وسرعان ما اختفى . ولكنى استطعت ، بسبب بقائى ساكناً جامداً لا أتحرك ، استطعت أن ألاحظ جميع تفاصيل الحادث باتباه شديد ، واستطلاع محموم لم أشعر بمثله فى يوم من أيام حياتى . لذلك سوف أستطيع أن أرويهِ لكم رواية دقيقة .

قلت لنفسى : « لشد ما كان سيزعجنى أن أكون فى محل ايفان ماتفتش ! » .

ولكن فلمنص الى الوقائع : رأيت التمساح يحرك فكه الرهين ببراعة وحذق ، فيشد اليه فى أول الأمر قدمى المسكين ايفان ماتفتش ، ثم رأيتيه يسمح له بأن يُفلت قليلاً ، لأن صديقى العالم كان يحاول أن ينجو وكان يتشبث بالحوض ، فما ان أفلت صديقى من بين فكي التمساح حتى عاد التمساح يبلعه بسرعة حتى الحزام . ثم تركه يفلت مرة ثانية ، واستمر يبلعه مرةً بعد مرة تدريجياً ، بحيث رأينا ايفان ماتفتش يغيب عن

أعيتنا شيئاً بعد شيء ، الى أن بلعه كله فى مرة أخيرة ، فكنا نستطيع أن نميِّز كيف كان يدخل فى جوف التماسح قليلاً قليلاً .

وكدت أصرخ أنا أيضاً لولا أن التقدر شاء أن يبذل التماسح جهداً آخر - ولعله فعل ذلك لتضايقه من ضخامة لقمة الغداء هذه التى لم يألف مثلها - فاذا هو يفتح فمه الفظيع مرة أخيرة ، واذا نحن نستطيع أن نرى وجه قريبى العزيز المصاب الذى سقطت نظارتاه فى بحيرة الماء وغارتا الى القاع . لكأن هذا الرأس لم يعد الى الظهور الا ليلقى نظرة أخيرة على أشياء هذه الأرض وأن يودّع أفراح الحياة آخر وداع .

ولكن رأس قريبى لم يستطع حتى أن يحقق هذا الهدف ، فان التماسح سرعان ما استرد عزمته ، وبذل كل ما يستطيع من جهد ، فاذا بالرأس يختفى الى الأبد . ان عودة هذا الرأس الانسانى الى الظهور ، حياً فى أغلب الظن ، منظر رهيب شنيع ، ومع ذلك فقد كان فى هذا كله - ترى أهى سرعة الاخفاء أم هو سقوط النظارتين - أقول لقد كان فى هذا كله عنصر يبلغ من قوة الاضحاك أننى لم أستطع الا أن انفجر ضاحكاً . ولكننى اذ لاحظت أن الضحك فى لحظة كهذه اللحظة خال من الاحتشام - ألسنت صديق الأسرة ؟ - أسرعته أهتف قائلاً لايلينا ايفانوفنا فى تعاطف حزين :

- ضاع عزيزنا ايفان ماتفتش !

لن أحاول أن أصف شدة الانفعال الذى اجتاح المرأة الشابة أثناء وقوع هذه الحادثة . وحسبى أن أذكر أنها بعد أن أطلقت تلك الصرخة الأولى ، قد بدت متجمدة مشلولة ، فهى تنظر الى ما يحدث محملة لا أكثر ، وكأنها غير مبالية ، ثم لم تلبث أن انفجرت تبكى فى حجب ونشيج ، فأمسكت يديها .

أما صاحب التمساح فقد جُنَّ جنونه في تلك اللحظة من هول الضربة ، فأخذ يقرع يديه احدهما بالأخرى ، وراح يصيح رافعاً بصره الى السماء :

- آه ... آه ... تمساحي ! عزيزي كارل ! أمي ! أمي ! أمي !

فلما نادى صاحب التمساح هذا النداء ، فُتِح الباب الذي يقع في آخر المكان ، وظهرت الأم واضعةً على رأسها قبعة • انها امرأة متقدمة في السن ، ترتدى ثياباً زاهية الألوان ولكنها مشعثه • وهُزعت الأم نحو ابنها الألماني وهي تطلق صرخات حادة •

وكانت جلبةٌ رهية وضوضاء قطيعة • وكأن ايلينا قد مسّها جن أو أصابت عقلها لوثه ، فهي لا تزيد على أن تصرخ قائلة : « اقتلوه ! اقتلوه ! » ؛ وهي تندفع تارةً نحو الألماني وتارةً نحو أمه ، ضارعةً على غير شعور منها في أغلب الظن ، أن يقتلوا لا أدرى من ، ولا أدرى لماذا ! أما صاحب التمساح وأمه ، فلم يوليانا أى اهتمام ، ولم يلتفتا إلينا أى التفات ، وانما هما يبكيان على طول الحوض كما يبكي عجلان •

- لقد هلك ! سوف ينفجر بين لحظة وأخرى ! بلع موظفاً بكامله !

كذلك كان يهتف صاحب التمساح • فتعول الأم قائلة :

- عزيزنا كارل ! عزيزنا كارل !

فيضيف صاحب التمساح :

- ها نحن أصبحنا أيتاماً بنير حُبز ! ...

وتستمر ايلينا ايقانوفنا صائحة بنير كلال ولا ملال ، وهي تشبث

بطرف رديجوت الألماني :

- اقتلوه ! اقتلوه !

فيقول الألماني وهو يتملص منها :

— وكان يفيظ تمساحي أيضاً • ما كان شأن زوجك بتمساحي حتى يفيظه ؟ لسوف تدفعين لي ثمن كارل اذا هو انفجر ! لقد كان ابني ، كان ابني الوحيد •

أعترف للقارئ أن أناية هذا الألماني العابر وقسوة قلب أمه قد ساءتاني كثيراً • ومع ذلك فإن الصرخات المتصلة التي كانت تطلقها ايلينا ايفانوفنا قائلة : « اقلوه » اقلوه ! ، قد أفلقتني أكثر من ذلك ، وأصبحت تستأثر آخر الأمر بكل انتباهي • لقد دُعرت حقاً !

ذلك أنني قد أسأت تأويل هذه الصيحات • فقد خيل لي أن ايلينا ايفانوفتش قد فقدت صوابها الى حين ، ولكنها تريد أن تثار لعريزها ايفان ماتفتش ، فهي تطالب بحقها في ترضية ، وتنادي بأن يعاقب التمساح جلدأ بالسياط • على حين أنها كانت تقصد غير هذا تماماً •

نظرت الى الباب خلصةً وأنا أشعر بشيء من الحجل والاضطراب ، ثم توسلت الى ايلينا ايفانوفنا أن تهدئ روعها ، وأن لا تستعمل ، خاصةً ، تلك الكلمة الفاضحة : « اقلوه » ، لأن الافصاح عن رغبة رجعية الى هذا الحد ، في مكان كهذا المكان ، وسط « المر » ، بين أناس مثقفين ، على بعد خطوتين من القاعة التي يلقي فيها السيد لافروف * محاضراته العامة في هذه اللحظة نفسها ، ان الافصاح عن مثل هذه الرغبة الرجعية في ظروف كهذه الظروف ليس أمراً غير معقول فحسب ، بل هو أمر غير مقبول أيضاً • ان من الممكن أن يجلب لنا الافصاح عن هذه الرغبة الرجعية سياط النقد اللاذعة يلهب بها السيد ستيايوف * ظهورنا •

وسرعان ما صدقت مخاوفي من سوء الحظ • فها هو ذا الباب الذي

يُخلق الغرفة التي يُعرض فيها التمساح ، ها هو ذا يُشقق ، فيظهر على العتبة شخص له لحية وشاربان ، ويحمل قبعته بيده ؟ وها هو ذا يميل نحونا بالنصف الأعلى من جسمه ، محتفظاً بنصفه الأسفل في الدهليز ، متحاشياً بذلك ضرورة أن يدفع ثمن بطاقة الدخول ؟ وها هو ذا يقول وهو يبذل جهوداً عظيمة في سبيل المحافظة على توازنه ، لابقاء جذعه في الغرفة التي نحن فيها مع ابقاء قدميه في الدهليز :

— يا سيدتي ، ان هذه الرغبة الرجعية التي تجيش في نفسك لا تشرِّف عقلك وذكائك ، ولا يمكن أن تكون الا ثمرة نقص في فوسفور دماغك . لسوف تظلين مزدراة محترقة في مجلة « وقائع التقدم » ، وكذلك في صحافتنا الهجائية النقدية ...

ولكن الرجل لم يستطع أن يكمل كلامه . فان صاحب المحل قد تاب الى رشده بسرعة ، فلاحظ مرتاعاً وجود هذا الشخص في قاعة التمساح بالمجان ، فهجم على هذا التقدمي المجهول حائقاً ، وطرده بضرباتٍ من قبضة يده . وغاب الرجلان وراء الباب ، وأدركت فجأة أن هذه الجلبة كلها لا محل لها ولا داعي اليها ، فان ايلينا ايقانوفنا بريشة كل البراعة من تلك النية التي ظننت فيها ونُسبت اليها ، أعنى أن تكون راقبة في اذلال التمساح بمعاقبته ضرباً بالسياط ؟ وكل ما كانت تطالب به هو أن يفتح بطن التمساح لا نقاذ ايقان مانتشش .

أسرع صاحب المحل يعول قائلاً :

— أنت تريدن اذن موت تمساحي ! ألا انتي لأوثر مائة مرة موت زوجك على موت تمساحي ... ان أبي قد عرض هذا التمساح . وان جدى قد عرضه أيضاً . وأنا أعرضه . وسوف يعرضه ابني . سيرى

جميع الناس هذا التمساح ! أنا معروف في كل أوروبا التي تجهلك
أنت ، وسوف تدفعين لى غرامة •

وقالت الألمانية وقد جُنَّت غضباً :

- نعم ! نعم ! لن ندعك تنصرفين قبل أن تدفعي لنا تعويضاً ، لأن
عزيزنا كارل سوف ينفجر !

وأضفت أقول بهدوء كبير وأنا أحاول أن أقود ايلينا ايفانوفنا الى
مسكنها :

- ثم ان قتل التمساح لا جدوى منه ، لأن عزيزنا ايفان ماتفتش
لا بد أن يكون الآن محلقاً في العالم الآخر •

فما كان أشد دهشتي حين سمعت صوت ايفان ماتفتش يقول
فجأة :

- في رأيي أن الأفضل أن تستعينوا بالشرطة ، لأن تدخل القوة
الحكومية يستطيع وحده اقناع هذا الألماني •

ان هذه الكلمات التي نطق بها ايفان ماتفتش بقوة وصلابة والتي
تدل على أن له بديهة حاضرة خارقة ، قد بلغت من ادھاشنا واذھالنا أننا
لم نشأ في اللحظة الأولى أن نصدق آذاتنا • ومع ذلك أسرعنا نقترّب من
الحوض الذي كان يرقد فيه التمساح ، وأخذنا نصنئ الى كلام السجين
المسكين بانتباه شديد وان كان يخالطه شيء من شك وريب •

كان في صوته نحول ، كأنه آت من مكان بعيد جداً ، أو كأنه صوت
رجل ممازح تربص في الغرفة المجاورة ووضع فمه على وسادة وأخذ
يصيح مقلداً حديث اثنين من الفلاحين يتخاطبان عبر وادٍ من الوديان

ليخدع بذلك جمهوراً موجوداً فى الترفه الأخرى ، وتلك لعبه أتيح لى
أن أشهدها ذات مرة أثناء عيد الميلاد عند أناس من أصدقائى •

تمتعت ايلينا ايفانوفنا تسأله :

- ايفان ماتفتش ، صديقى ، أأنت حى اذن ؟

فأجابها ايفان ماتفتش :

- نعم ، أنا حى ، وعلى أحسن حال من الصحة والعافيه ؟ فبفضل
رعايه الله وحمايته ، بلغنى التمساح دون أن يلحق بى أى خراب •
شئ واحد يقلقنى : كيف سينظر رؤسائى الى هذا الأمر ، وكيف عساهم
يواجهونه ؟ ذلك أتنى حصلت على جواز سفر الى الخارج ، وهأنا ذا
الآن فى جوف تمساح ، دون أن يكون ذلك منى مكرأ أو خديعه ...

قاطعه ايلينا ايفانوفنا قائلة :

- ولكن يا صديقى ليس مهماً أن يكون فى ذلك مكر أو أن
لا يكون فيه مكر ، وانما المهم اخراجك ! ...

فصاح صاحب التمساح يقول :

- اخراجه ؟ لن أسمح لأحد بأن يمس تمساحى • سوف يتكاثرو
الجمهور هنا بعد الآن تكاثراً عظيماً ، حتى ليسحق الناس بعضهم بعضاً من
شده الزحام • سأجعل ثمن تذكرة الدخول خمسين كوبكاً ، ولن يكون
كارل فى حاجه الى طعام •

قالت الأم :

- شكرأ الله وحمدأ !

قال ايفان ماتفتش :

- هما على حق ، فانما ينبغي أن ننظر الى الأمور نظرة اقتصادية
قبل كل شيء .

صرخت أقول :

- يا صديقي ، سأذهب الى رؤسائنا فوراً لتقديم شكوى ، ذلك
أننى أرى أننا لن نستطيع أن نحل هذه القضية وحدنا .

أجاب ايفان ماتفتش :

- هذا رأيى أنا أيضاً ، ولكن من الصعب فى هذه الفترة التى
استحكمت فيها أزمة اقتصادية ، أن يُفتح بطن تمساح دون دفع تعويض .
ولهذا السبب هناك سؤال لا يمكن تفادى طرحه : كم يطلب صاحب
التمساح هذا ثمناً لتمساحه ؟ وهناك سؤال آخر ملحق بالسؤال الأول :
من ذا الذى سيدفع المبلغ ؟ ذلك أنك تعرف أنتى لا أملك ثروة ...

جميعمت أقول خجلاً :

- الا أن نأخذ سلفة على رواتبك ...

ولكن سرعان ما قاطعنى صاحب التمساح قائلاً :

- لن أبيع تمساحى . لن أبيع بثلاثة آلاف روبل ... سوف
يكتر الجمهور الآن . يجب أن تدفعوا لى خمسة آلاف روبل .

كان صاحب التمساح يقول هذا الكلام فرحاً كل الفرح . وكان
الطمع الشديد والبخل الوقع يُقرءان فى وجهه .

صرخت أقول مستاءة :

- كفى ! أنا ذاهب !

فقال ايلينا ايفانوفنا باكية :

- وأنا أيضاً ، وأنا أيضاً !... سوف أذهب الى آندره أوسيتش
بنفسى ، فأؤثر فيه بدموعى !...

فقاطعها ايفان ماتفتش قائلاً بقوة :

- لا ... لا هذا يا عزيزتى !

ذلك أن ايفان ماتفتش كان يفار على امرأته من هذا الرجل غيرة
شديدة منذ زمن طويل . كان ايفان ماتفتش يعرف أن زوجته تحب
كثيراً أن تذهب الى رجل مثقف فتأخذ تبكى أمامه ، لأن الدموع تناسبها
كثيراً .

واصل ايفان ماتفتش كلامه مخاطباً اياى :

- لا ولا أنصحك أنت أيضاً بهذا ! لا يدري أحد ما الذى يمكن
أن ينتج عن مسعى كهذا المسمى . ولكن اذهب اليوم الى تيموتى
سيموتش ، فهو رجل متخلف العادات ، شديد الغباء ، والأهم من ذلك
أنه على جانب عظيم من الاستقامة . أبلغه سلامى وأقصص عليه هذا
الحادث بكل تفاصيله ، وأعطه فى الوقت نفسه سبعة روبلات كان قد
ربحها منى حين لعبنا بالورق آخر مرة معاً . ان هذه البادرة لا يمكن الا
أن تحدث أثراً حسناً فى قلب هذا الشيخ . فقد يسدى الينا عندئذ
بنصيحة حسنة . وبانتظار ذلك ، أعد ايلينا ماتفتشنا الى البيت .

ثم أضاف ايفان ماتفتش مخاطباً امرأته :

- هدئى روعك يا عزيزتى ! ان هذه الصرخات التى تطلقها النساء
تعبئى ، وأنا أحب أن أرتاح قليلاً . يضاف الى ذلك أن الجو هنا لطيف
حلو ، رغم أننى لم أستطع حتى الآن أن أعرف نفسى فى هذا المأوى
الذى وجدتني فيه على حين فجأة .

- تعرف نفسك ؟ أأنت ترى شيئاً فى هذا المكان ؟

كذلك سألته ايلينا ايفانوفنا صاحبة بفرح شديد .

فأجابها الأسير الشقى :

- ظلمات كثيفة تحيط بى ، ولكنى أستطيع أن أتلمس ، أستطيع أن أرى بواسطة يديّ أن صح التعبير . الى اللقاء . كونى هادئة ، ولا تحرمى نفسك من التسلية . الى الغد ! أما أنت يا سيميون سيميوتش فتعال الى هذا المساء . ومن أجل أن لا تنسى ذلك ، لأنك شديد الذهول كثير النسيان ، فاربط اصبعك بخيط .

أعترف لكم بأننى لم يسؤنى أن أستطيع الانصراف ، لأننى كنت أشعر بتعب ، ولأن الأمر أخذ يضجرنى . فسارعت أقود ايلينا ايفانوفنا الى خارج المحل .

صاح صاحب التمساح يقول لنا :

- سيكلفك الدخول فى هذا المساء خمسة وعشرين روبلاً أيضاً .
قالت ايلينا ايفانوفنا وهى تنظر الى وجهها فى جميع مرايا «المرء» ، فتلاحظ بسرور واضح أن هذه الهزة انما زادت بها جمالاً :

- يا الهى ! ما أشد طمع هؤلاء الناس !

فأجبتها وأنا أشعر بشيء من الانفعال وكثير من الاعتزاز بسيدتى :

- هذه وجهة النظر الاقتصادية .

فقالت وهى تجر صوتها اللطيف الحلو جراً :

- وجهة النظر الاقتصادية ؟ اتنى لم أفهم شيئاً مما قاله ايفان

ماتفتش منذ قليل فى موضوع وجهة النظر الاقتصادية الكريهة هذه !

قلت لها :

— سأشرح لك الأمر •

وأخذت أفيض في الكلام على النتائج المفيدة التي تنتج عن تجمع رموس الأموال الأجنبية في بلادنا ، لا سيما وأنتى كنت قد قرأت في ذلك الصباح نفسه مقالات في هذا الموضوع في جريدة « أبناء سان بطرسبرج » وفي جريدة « الشعرة » * •

فأصفت الى كلامى بعض الوقت ، ثم قاطعتنى قائلة :

— ما أغرب هذا كله ! هلاًّ كفتت حالاً ، أيها الشقى ، عن قص هذه السخافات كلها ! قل لى : أأنا محمرة الوجه كثيراً ؟

فاتتهزت هذه الفرصة لأطرى جمالها فقلت :

— لست محمرة الوجه ، بل أنت رائعة فاتنة !

فدمدمت^١ تقول مفتتة :

— يا لك من رجل خالغ العذار !

ثم أضافت تقول بعد صمت وهى تخنى رأسها على كفنها برقة ورشاقة :

— شدّ ما أرئى لحاله ، صديقى المسكين •

ثم قالت بغتة^٢ :

— ولكن رباه ! قل لى : كيف عساه يأكل هناك ••• و ••• و •••

هبه احتاج الى شيء ما ••• فما عساه يفعل ؟

فأجبتها مرتبكاً بعض الارتباك :

— سؤالك يأخذنى على حين غرة •

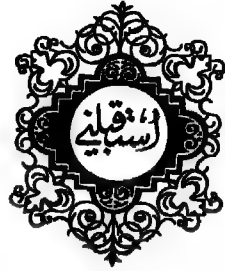
والحق أن هذا الأمر لم يكن قد خطر لى ببال • ألا ان النساء ليتفوقن على الرجال تفوقاً كبيراً فى الروح العملية اذن حين يكون الأمر أمر مسائل الحياة !

وأضافت السيدة تقول :

- مسكين ! ثم ما الذى حمله على أن يندس هناك ! لا شك أنه محروم من جميع التسلّيات فى وسط تلك الظلمات ! وما قولك فى اننى لا أملك صورة فوتوغرافية له ! آه ... هأنا ذا أرملة أو شبه أرملة !
قالت ذلك وابتسمت ابتسامة ساحرة تدل على مدى ما يبدو لها حالتها الجديدة شائقة •

وأردفت :

- همّ ... اننى لأرثى لحاله كثيراً مع ذلك ...
هكذا كانت تعبّر عن ذلك القلق الطبعى جداً الذى تشعّر به امرأة شابة شائقة زال زوجها منذ قليل • مضيت بها الى بيتها ، فسألتنى أن أمكث معها لتناول العشاء • واستطعت أخيراً ، بعد احتساء فنجان قهوة طيبة ، أن أهدئها ، وانصرفت فى الساعة السادسة لأذهب الى تيمونى سيميوفتش مقتنعاً بأن جميع الرجال الذين لهم أسرة ولهم فى الوقت نفسه مركز محترم لا بد أن يكونوا فى منازلهم فى تلك الساعة •
كتب هذا الفصل الأول بالأسلوب الذى يناسب قصتى • ولكننى قررت أن استعمل فيما سبلى لهجة أقل رفعةً ، ولكنها طبيعية أكثر ، وانى لأبّه القارىء الى ذلك على النحو الذى توجه به الاستقامة •



تيموتى سيميوتشس المحترم بشئ من الاهتمام ،
ولكن مع شئ من الاضطراب • قادنى الى
غرفة مكتبه ، فأغلق بابها بالحكام ، • حتى
لا يزعمها الأولاد ، على حد تعبيره • قال

ذلك وقد بدا عليه غير قليل من القلق •

أجلسنى على كرسى قرب مكتبه ، وجلس هو على مقعد ، ولم
حافات معطف المنزل الذى كان يرتديه ، وهو معطف مبطن بالقطن ذو
زئار ، واصطنع هيئة قاسية بل استطيع أن أقول هيئة رسمية ، مع أنه لم
يكن رئيسى ولا رئيس ايفان ماتفتشس ، وانما كان رفيقنا لا أكثر •
ثم قال :

— لاحظ أولاً أننى لست رئيساً ، وانما أنا مرعوس مثلك ومثل
ايفان ماتفتشس ••• ذلك كله لا يعينى ولا أريد أن أتدخل فى شئ •
ذُهلّت • لا شك انه كان اذن على علم بالقصة كلها قبل أن أصل
اليه • ومع ذلك حكيت له الحكاية تفصيلاً • وكنت أتكلم بلهجة فيها
انفعال ، لأننى كنت أقوم بواجب مقدس نحو صديق حقيقى • فأصغى
الىّ بدون دهشة ، ولكن كانت تبدو عليه امارات ارتياب واضحة •
فلما أنهيت كلامى قال لى :

— هل تصدّق اذا قلت لك اننى كنت أثبأ دائماً بأن حادثاً كهذا
الحادث سيقع لايفان ماتفتشس ؟

فقلت اسأله :

- كيف هذا يا تيموتى سيمونتش ؟ يخيّل الىّ مع ذلك أن هذه الحادثة خارقة للعادة جداً ...

قال :

- موافق • ولكن قل لى : ألم تكن كل حياة ايفان مانفتش تتجه الى نتيجة كهذه النتيجة ؟ لقد كان جسوراً جسارة تشبه أن تكون وقاحة • ولم يكن فى فمه كلمة غير كلمة « التقدم » ، وكانت له أفكار أخرى كثيرة ... فانظر الى أين يقودنا ، هذا التقدم !

- ولكن يخيّل الىّ أن هذا الحادث الطارئ ، العرضى تماماً ، لا يمكن اعتباره قاعدة عامة تصدق على جميع التقديمين ...

- الأمر كذلك شئت أم أبيت • صدقنى • ليس هذا كله الا نتيجة الافراط فى الثقافة • ان الذين يعرفون أكثر مما يجب أن يعرفوا يحشرون أنفسهم فى كل مكان، ويمضون حتى الى حيث لا يناديهم أحد ولا يطلبهم أحد •

وأضاف يقول كمن يشعر بأنه أسوأ اليه أو أهين كرامته :

- من الممكن أن تكون أعلم منى بهذا الأمر مع ذلك ، فلست أبلغ مبلغك من الثقافة ، وأنا امرؤ عجوز ، وما دخلت الجيش منذ خمسين سنة الا بصفتى ابن جندى من الجنود !

- ولكنك أسأت فهمى يا تيموتى سيمونتش • بالعكس تماماً ، ان ايفان مانفتش يسألك أن تسدى اليه بنصائحك وأن تحبيه ، وهو يسألك ذلك والدموع فى عينيه ان صح التعبير !

- هم ... والدموع فى عينيه ! ما هذه الدموع الا دموع التعاسيح ، فلا ينبغي للمرأة أن يثق بها وأن يركن اليها كثيراً • غريب !

ما كانت حاجته الى السفر الى الخارج ؟ وبأى مال يسافر ؟ انه لا يملك حتى المال اللازم للسفر !...

قلت بلهجة شاكية :

- ادخر بعض المال بالتوفير يا تيموتى سيمبوتش • وقد تقاضى مكافأته الأخيرة فكنزها ولم يمسخها • ولم يكن فى نيتة أن يغيب الا ثلاثة أشهر ، ليزور سويسرة ، بلاد غليوم تل ...

- أى غليوم تل ؟ هم ...

- كان يريد أن يتمتع بالربيع فى نابولى ، وأن يزور المتاحف ، ويرى العادات والأخلاق ، ويشاهد الحيوانات ...

- هم ... الحيوانات ؟ فى رأى أنه كان لا يريد أن يسافر الا زهواً وعجباً • الحيوانات ؟ أى حيوانات ؟ أليس فى بلادنا حيوانات كافية ؟ ان عندنا متاحف ، ومعارض حيوانات ، وجمالات • والدبة تعيش على بعد خطوتين من بطرسبرج • وهو نفسه يسكن الآن فى جوف تمساح ...

- تيموتى سيمبوتش ! رحماك ! ان هذا الرجل قد ألت به نازلة ! وهو يناشدك صديقاً ، كما يناشد قريباً له أكبر منه سناً ... أيسألك النصح ثم تأخذ تلومه وتقرّعه ؟ هلاً رحمت ايلينا ايفانوفنا على الأقل ؟ ...

- أعن زوجته تتكلم ؟ انها امرأة رائعة !

كذلك قال تيموتى سيمبوتش وقد لان لبناً واضحاً وثشق نفساً من دخان التبغ • وتابع كلامه يقول :

- هى انسانة رقيقة جداً ... ما أجمل رأسها حين تميل به على كفها ! ... وما ألطف تدور جسمها ... انها لذيذة جداً • أمس الأول كان يتكلم عنها آندره أوسيبتش •

- كان يتكلم عنها ؟

- نعم ، ويطريها اطراءً عظيماً • كان يقول : • يا للصدر الناهد !
يا للنظرة النافذة ! يا للشعر الجميل ! هي حلوى من الحلوى ، هذه
السيدة ! ، حتى لقد ضحك ••• ان هذا السيد ما يزال شاباً • فانظر
كيف يعيش هذا السيد حياته •••

- ولكن ليس هذا هو الموضوع يا تيموتى سيموتتش !

- طبعاً ، طبعاً !

- فما العمل يا تيموتى سيموتتش ؟

- ما حيلتى أنا ؟

- انصحناء وجّهنا ، من حيث أن لك خبرة ، من حيث أنك قريب •
كيف يجب علينا أن نتحرك ؟ الى أية جهة يجب علينا أن نلتفت ؟ أنبلغ
الرؤساء ، أم •••

هنا صاح تيموتى سيموتتش بقوة يقول :

- تبلغون الرؤساء ؟ أبداً • اذا كنتم تسألوننى النصيح فأنا أنصحكم
بأن تخفقوا هذه القضية ، أن تكتنموا ، أن لا تعملوا الا على نحو خاص
جداً • ان لهذه الحالة صفة خاصة ، وان لها طابعاً مريباً • ان هذه
الحادثة تقع أول مرة ، ولا يمكن الا أن تسوء الى سمعة الموظف الذى
وقعت له • لذلك يجب قبل كل شئ أن لا تتصرفوا فى الأمر الا بكثير
من الحيلة والحذر والحكمة • ينبغى له أن لا يتحرك ••• ينبغى له أن
ينتظر ••• أن ينتظر •••

- ينتظر ؟ ولكن كيف يا تيموتى سيموتتش ؟ ماذا لو اختنق

فى جوف التمساح ؟

- لماذا يختنق ؟ ألم تقل لى منذ هنيهة انه استقر هنالك استقراراً

مريحاً ؟

عدت أقصى الحكاية من جديد • وفكّر تيموتى سيميوتشس ملياً •
ثم قال وهو يقلب علبة التبغ بين أصابعه :

- هم ••• يخيّل الىّ أنه يحسن صنماً اذا بقى حيث هو ، بدلاً
من أن يسافر الى الخارج • فى وقته متسع للتفكير • طبعاً ••• يجب أن
لا تتركه يختنق هناك ، ويجب أن تتخذ الاجراءات اللازمة للمحافظة
على صحته • يجب عليه مثلاً أن يحاذر التعرض للزكام ••• أما فيما
يتعلق بالألماني فأحسب أن الألماني على حق ، بل وأحسب أنه على حق
أكثر من خصمه • ان خصمه هو الذى دخل الى تمساحه بغير اذن منه ،
وليس هو الذى دخل الى تمساح ايفان ماتفتشس الذى لا يملك تمساحاً
على كل حال اذا صدق ظنى • والألماني يملك التمساح ، فلا يمكن
والحالة هذه فتح بطن التمساح دون دفع تعويض للمالك •

- ولكن الأمر أمر انقاذ انسان يا تيموتى سيميوتشس !
- هذا من شأن الشرطة ، فالى الشرطة انما يجب أن تتجهوا •
- ولكن قد يحتاجون اليه فى المكتب فيسألون عنه ويطلبونه •
- يحتاجون الى ايفان ماتفتشس ؟ هى • هى ! أولاً ، هو يُعدّ
الآن فى اجازة • المفروض أنه يزور الآن أوروبا ، وفى وسعنا أن نجهل
ما الذى يعمله فى الواقع • وسيختلف الأمر حين لا يلتحق بعمله فى
الوقت المعيّن • فندتدّ نسجل غيابه رسمياً ، ونفتتح تحقيقاً •••

- بعد ثلاثة أشهر ! رحماك !•••
- اذا كانت حالته سيئة ، فالذئب فى ذلك ذنبه • من ذا الذى دفعه
الى هناك دفعاً ؟ من ذا الذى حمّله على ذلك حملاً ؟ قد يكون من الواجب
أن نعيّن له حارساً على نفقة الدولة ، وذلك مخالف للأنظمة • ولكن
الأمر الذى يجب أن ننظر فيه قبل كل شيء آخر هو أن التمساح ملك

لصاحبه ، وأن المبدأ الاقتصادي هو موضع البحث تبعاً لذلك . ان المبدأ الاقتصادي يعلو كل شيء . أسس ، كان اجناتى بروكوفتش يتحدث في هذا الموضوع عند لوكاس آندرتش . هل تعرف اجناتى بروكوفتش ؟ انه رأسمالى كبير يتعاطى أعمالاً ضخمة ويحيد التعبير عن آرائه . كان يقول : « نحن فى حاجة الى صناعة . فلا وجود للصناعة عندنا ان صح التعبير . فيجب علينا اذن أن نخلق الصناعة ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف يجب أن نخلق طبقة بورجوازية . ولما كنا لا نملك رموس أموال ، فيجب الاتيان برموس الأموال من الخارج . فعلينا اذن ، قبل كل شيء ، أن نتيح للشركات الأجنبية أن تشتري أراضينا أجزاء أجزاء ، كما يحدث هذا فى كل مكان فى البلاد الأجنبية . ان التملك الجماعى * هو السم القاتل ، هو الآفة الكبرى ، هو خراب روسيا ! ، ، وكان يتكلم بحماسة شديدة . ذلك يناسب هؤلاء الناس الذين هم أغنياء ، ولا يعملون فى وظائف الدولة . . . هو يقول انه لا الصناعة ولا الزراعة يمكن أن تزدهرا ما بقى شيوع التملك هذا . هو يريد أن تشتري الشركات أرضنا كلها أقساماً ، بغية أن تجزئها حصصاً صغيرة جداً تبعها بعد ذلك فتألف منها ملكيات فردية . وكان يستعمل لهجة نحاسية قاطعة جازمة وهو ينطق بكلمة : « تف . . . سيم ، ، واذا لم نعد الى البيع ففي امكاننا الاكتفاء بالتأجير . وأضاف يقول : « متى أصبحت أرضنا كلها فى أيدي شركات أجنبية ، سهل تحديد نصيب الفلاح ، وبذلك يكون على الفلاح أن يعمل ليجنى رزقه ، ويكون من الممكن طرده من هذه الأرض أو من تلك عند الضرورة . فاذا شعر بهذا الخطر ، أصبح أكثر احتراماً وأكثر طاعة ، وأنتج من العمل ثلاثة أضعاف ما ينتج منه الآن بسبب كونه جزءاً من جماعة فيستطيع لذلك أن يستخف بكل شيء . هو يعلم الآن أنه لن يموت جوعاً ، لذلك نراه يتكاسل وينصرف الى السكر .

أما بالأسلوب الجديد فإن المال سيعود إلينا ، وستجيء البورجوازية بـرموس أموالها • ثم ان « التايمز » ، الجريدة الأدبية والسياسية التي تصدر في لندن ، قد أعلنت ، في دراسة نشرتها عن صحفنا ، أنه اذا كانت رموس أموالنا لا تزداد ، فلأننا تعوزنا الثروات الضخمة والبروليتاريا المنتجة • • • ان اجناتى بروكوفتش يحسن الكلام جداً • انه خطيب حقاً • في نيته أن يقدم مذكرة الى السلطات العليا ، مذكرة سينشرها بعد ذلك في جريدة « الأبناء » • نحن بعيدون عن مشكلات ايفان ماتفتش الشعرية •••

قاطعه أقول :

- طيب • فماذا نحن فاعلون من أجل ايفان ماتفتش ؟

لقد تركت الرجل المعجوز يثرثر ، لعلمي بأن هذه آفة من آفاته ، وبأنه لا يسوؤه أن يظهر أنه ليس متخلفاً ، وأنه مطلع على كل شيء • قال :

- ماذا نحن فاعلون من أجل ايفان ماتفتش ؟ ولكن كل ما قلته

يرتبط به ويدور عليه • اتنا نبذل جميع جهودنا لاجتياز رموس الأموال الأجنبية الى بلادنا ، فما كادت تتضاعف ثروة مالك التمساح بسبب ايفان ماتفتش حتى أصبحنا نطمح في أن نفتح بطن هذا التمساح ! فهل هذا معقول ؟ في رأيي ، من حيث أنا ابن صالح من أبناء الوطن ، أن على ايفان ماتفتش أن يقتبط وأن يعتز بأنه استطاع أن يضاعف قيمة تمساح أجنبي ضعفين اثنين بدخوله فيه • ضعفين اثنين ؟ بل ثلاثة أضعاف ! واذا نجح صاحب هذا التمساح ، فسيأتى رجل ثانٍ بتمساح آخر ، ثم يجيء ثالث بتمساحين أو ثلاثة ، فتتجمع حولهم رموس الأموال ، فاذا بنا نرى بداية نشوء طبقة بورجوازية • وليس يملك المرء الا أن يشجع هذه الحركة ، بل ليس يفيا المرء حقها من التشجيع مهما شجعها •

صحت أقول :

- ولكن هذه التضحية التى تطلبها من هذا المسكين ايفان ماتفتش تكاد تكون فوق طاقة البشر يا تيموتى سيموتش .

- أنا لا أطلب شيئاً ، وأرجوك أن تذكر أنى لست رئيساً ، وهذا ما قلته لك من قليل . ويرتب على ذلك أنى لا أطلب شيئاً البتة . وانما أنا أتكلم كلام ابن من أبناء الوطن ، لا كلام جريدة « ابن الوطن » * ، بل كلام ابن أبناء الوطن فحسب . ثم انى أعود فأسألك : ما الذى أمره بأن يحشر نفسه فى جوف ذلك التمساح ؟ هل يجوز لرجل جاد ، لرجل ذى رتبة ، لرجل متزوج زواجاً شرعياً ، أن يقوم بمغامرة كهذه المغامرة ؟ ما هذا الذى فعله ؟

- ولكن الأمر مستقل عن ارادته استقلالاً تاماً !

- من يدرى ؟ ثم بأى حال يمكن دفع التعويض لمالك التمساح ؟

- من مرتبات ايفان ماتفتش ...

- أهى تكفى ؟

قلت بحزن :

- لا تكفى وا أسفاه يا تيموتى سيموتش ! فى أول الأمر كان صاحب التمساح يخشى على حيوانه أن ينفجر ، حتى اذا تأكد من أن كل شيء يجرى على ما يرام ، أخذ يتجبر ويتطرس ، وراح يتلذذ بالمطالبة بمضاعفة الثمن الذى طلبه فى أول الأمر .

- فى وسعه أن يضاعفه ثلاثة أضعاف أو أربعة ! ان الناس سيتدفقون أفواجاً كبيرة ، وأصحاب التماسيح هؤلاء أناس بارعون . ثم اننا فى موسم الكرنفال ، والناس ينشدون التسلية ، فلهذا السبب نفسه يجب على ايفان ماتفتش أن يظل أمره مجهولاً وأن لا يتعجل . فليعرف

- كيف يمكن أن يكون هناك سابقة وهذا أول تمساح حي
يؤتى به الى بطرسبرج يا تيموتى سيميوتش ؟

قال :

- هم ... حقاً ؟

واسترسل فى التفكير من جديد • ثم واصل :

- بمعنى من المعانى يمكن أن تعد ملاحظتك صحيحة ، ويمكن أن
تتخذ أساساً لتابعة القضية • ولكن عليك أن تلاحظ من ناحية أخرى أنه
إذا كان ظهور هذه التماسيح الحية سيورث الموظفين ميلاً الى الاعتكاف
فى جوفها ، فإذا هم يطلبون ، بحجة أن الحياة فيها ممتعة ، أن يوفدوا
اليها بمهمات بغية أن يقضوا هنالك وقتهم راقدين على جنوبهم ، فسيكون
هذا قدوة سيئة • اعترف بهذه الحقيقة • سيمضى جميع الناس بعدئذ الى
أجواف التماسيح يقبضون مالا ولا يقومون بعمل •

- افعل كل ما تستطيع أن تفعله يا تيموتى سيميوتش ! وبالنسبة :
لقد رجاني ايفان ماتفئش بأن أدفع لك سبعة روبلات يدين لك بها من
ربحك فى لعبه معك •

- آ ... نعم ... لقد خسرنا منذ مدة عند نيكيفور نيكيفورثش
... أتذكر هذا • ما كان أشد مرحة فى ذلك المساء ... وما أكر
ما أضحكنا ! والآن ...

وتأثر العجوز تأثراً صادقا •

- عِدْنى بأن تهتم بالأمر يا تيموتى سيميوتش •
- سأهتم • سأتكلم باسمى أنا • سأعرف كيف أنصرف •

سأظاهر بأننى أستعلم وأستفهم • بالمناسبة : أسأل عن الثمن الذى يطلبه صاحب التمساح •

لقد رقبَ تيموتى سيموتش رقة ملحوظة •

قلت له :

- لن يفوتنى أن أسأل صاحب التمساح عن الثمن الذى يطلبه ،
ثم أجيء اليك فوراً لأطلعك على ما سيقوله لى •

- وزوجته ... ها هى اذن أصبحت وجيدة !... أهى تشعر
بضجر ؟

- فى وسعك أن تزورها يا تيموتى سيموتش •

- لمَ لا ؟ وقد فكرت فى هذا فعلاً ، وأرى أن المناسبة حسنة...
ولكن ما هذه الفكرة ، ما هذه الفكرة التى راودتهم فذهبوا يرون
التمساح ؟ على أتى أنوى أن أذهب أنا أيضاً لرؤيته •

- نعم يا تيموتى سيموتش • اذهب الى هناك •

- سأذهب • ولكننى لا أريد أن يساور ايفان ماتشش أى أمل
فى هذا المسعى • اننى لا أقوم به الا من حيث أنا فرد • هيأ ، الى اللقاء
انا ذاهب الى نيكيفور نيكيفورتش • هل تكون هنالك ؟

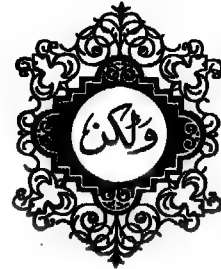
- لا بل سأكون فى زيارة السجين •

- نعم ، السجين ، آه من الحقة والطيش !

ودَّعت العجوز • كانت خواطر كثيرة تزدهم فى رأسى • ان
تيموتى سيموتش رجل طيب ، ولكن هذا لا ينفى أتى حين تركه

أبهجنى أن أتذكر أنه قد تجاوز الحسين من عمره ، وأن أمثال تيموتى
سيموتتش ليسوا كثرأً بيننا •

وطبعى أننى أسرع أذهب الى « المر » ، لأحمل الأنباء الى
المسكين ايفان ماتفتش • يضاف الى ذلك أننى كنت احترق شوقاً الى أن
أعرف كيف استقر له المقام فى جوف التمساح ، وهل الحياة هنالك
محتملة • الحياة فى جوف تمساح ! وكان يخيل فى بعض اللحظات أننى
لعبة فى يد حلم شيطانى ! وا أسفاه ! ان الأمر أمر شيطانى حقاً •••



لم يكن حليماً ، بل كان واقفاً لا سبيل الى تفاديه .
والا فهل كان يمكن أن أشرع في شرد قصته ؟

حين وصلت الى «الممر» كان الوقت متأخراً
يقارب الساعة الثامنة . ومن أجل أن أبلغ
الحجرة التي يُعرض فيها التمساح ، اضطررت أن أمرّ بسلم الخدمة ،
لأن الألمانى قد أغلق المحل قبل موعد الاغلاق .

كان الألمانى ، وقد ارتدى رديجتاً عتيقاً متسخاً ، يسير طولاً
وعرضاً ، ويبدو راضياً مرتاحاً أكثر مما كان يبدو كذلك في الصباح .
ان المرء يحس أنه مطمئن . لا بد أن ناساً كثيرين قد جاءوا . ثم دخلت
الأم ، وكان واضحاً أنها انما دخلت لتراقبني . وأخذت تتهاوس مع ابنها
الذى حملنى فعلاً على أن أدفع له خمسة وعشرين كوبكاً رغم أن المحل
كان قد أغلق . ان هذا الرجل مبالغ فى حب النظام . قال لى :

- ستدفع كلما جئت . ولكنك لن تدفع الا خمسة وعشرين
كوبكاً ، رغم أن كل فرد من أفراد الجمهور العادى سوف يدفع روبلاً
كاملاً ، وذلك لأنك تبدو صديقاً وفاقاً لصاحبك ، وأنا أقدر فيك هذا
الوفاء .

صرخت أقول وأنا أدنو من حوض التمساح ، آملاً أن تصل
كلماتي الى مسامع ايفان ماتفتش وأن ترضى غروره .

- هل أنت حى ؟ أأنت على قيد الحياة يا صديقى العزيز العالم ؟
فأجبنى بصوت مختق كأنه صوت آتٍ من تحت سرير ، رغم
اننى كنت قريباً منه كل القرب :

- أنا حى ، وصحتى جيدة . حى وصحتى جيدة . ولكننا ستكلم
على هذا فيما بعد . قل لى قبل كل شئ : كيف تسير أمورنا ؟

تظاهرت بأننى لم أسمع ، وأسرعت أسأله ، بلهجة فيها روح
التعاطف والاشفاق : كيف حاله فى جوف التمساح ؟ وماذا يوجد
هناك ؟ والحق أن سؤاله عن هذه الأمور لم يكن الا واجباً من واجبات
الصداقة ، بل ولم يكن الا تقيداً بقاعدة من قواعد الأدب والكياسة .
ولكنه قاطعنى نافذ الصبر مستاءً ، ليصرخ قائلاً لى بلهجة الأمر الموهودة
فيه ، المألوفة عنده :

- كيف تسير الأمور ؟ الأمور ؟

وبدا لى صوته النحيل مزعجاً جداً .

فحكيت له ، بأدق التفاصيل ، الحديث الذى جرى بينى وبين
تيموتى سيميوتتش ، محاولاً فى الوقت نفسه أن أسبغ على لهجتى شيئاً
من التعبير عن الاستياء والامتناع .

قال ايفان ماتفتش يختم الكلام بلهجة فيها ذلك الجفاء نفسه الذى
كان يستعمله دائماً فى مخاطبتي :

- العجوز على حق ... اننى أحب الناس العاملين ، ولا أطيق
احتمال الضعفاء . على أننى اعترف لك طائعاً بأن فكرتك عن ايفادى
بمهمة ليست سخيفة الى الحد الذى يترامى للمرء من أول وهلة . ذلك

أنتى أستطيع هنا فعلاً أن أقوم بملاحظات هامة جداً شائقة جداً ، سواء من الناحية العلمية ومن الناحية الأخلاقية ... ولكن هذه القضية تجرى الآن مجرى لم يكن فى الحسبان ، وليست الرواتب وحدها هى ما يجب أن نشغل بالنا به . أصنع الى متنبهاً انتباهاً شديداً . أنت جالس ؟

– بل واقف .

– اجلس فى أى مكان ، ولو على الأرض وأصنع الى باتباه شديده .

زخرت نفسى بغضب قوى ، فتناولت كرسياً ، ووضعت على أرض الحجرة مجدناً قرقةً صاحبة .

استأنف ايفان ماتفشش كلامه مستمراً على اصطناع لهجة رئيس :

– لقد وفد اليوم جمهور كبير جداً . ورأى صاحب التمساح أن من الضرورى اغلاق المحل فى الساعة الثامنة ، أى قبل موعد اغلاقه عادةً ، وذلك ليستطيع أن يحصى الخزنة ، وأن يتخذ الاجراءات اللازمة ليوم الغد . علينا أن نفترض أن علماء الرجال ، وسيدات المجتمع الراقى ، والسفراء ، والمحامين ، وغيرهم ، سيحيثون غداً . وليس هذا كل شئ . ان سكان مختلف المقاطعات والأقاليم من امبراطوريتنا الواسعة الرائعة أخذوا يزحفون نحو العاصمة . وسأصبح محل أنظار الجميع رغم اختبائى . سيكون لى دور كبير من الطراز الأول . سوف أكون ، وقد علمتى التجربة ، مثلاً لعظمة النفس ، وقوة فى الاذعان للقدر . سوف أكون أشبه بمنبر عال تهبط منه على الانسانية أقوال عظيمة . اذا لم تحسب الا المعارف العلمية التى جنتها حتى الآن عن هذا المخلوق العجيب الذى أسكن فى جوفه ، لكأت هذه المعارف وحدها ثمينة الى غير نهاية . ذلك هو السبب فى أنتى غير آسف للحدث الذى وقع لى ، وأنا أتنبأ بأن يكون له أثر عظيم فى حياتى وعملى .

قلت له فى خبث ومكر ، لأنه أحتقنى بكلامه عن نفسه وحده
وباعتزازه هذا الاعتزاز كله :

- أفلن تشعر بضجر ؟

كنت قد تحيرت فعلاً • ساءلت نفسى وأنا أصرف بأسانى : « لماذا
يتصنع الأحقق كل هذا التصنع ؟ ألا ان الأولى به أن يبكى بدلاً من
أن يتباهى ويتفاخر ! » •

أجاب عن سؤالى بقسوة :

- لن أشعر بضجر • انتى ، وقد أصبح فى وقتى متسع ، أنصرف
الآن انصرفاً كاملاً الى الأفكار العظيمة الكبرى ، واهتم بمصير الانسانية
جملةً • من هذا التمساح انما ستخرج الحقيقة وسيخرج الضياء بعد
اليوم • لا شك فى أننى سأكتشف نظرية جديدة شخصية ، وسأكتشف
علاقات اقتصادية جديدة ، وسيكون من حقى أن اعتر بذلك • لم أستطع
قبل الآن أن انصرف الى هذه المسائل وأن أعكف عليها ، وذلك لقلة
أوقات الفراغ التى يدعها لى عملى فى الوظيفة ، ولانشغالى بالتسليات
الاجتماعية التافهة • أما الآن فسوف أحدث ثورة فى كل شىء •
سأكون « فوريه » * جديداً ••• بالمناسبة : هل أعطيت تيموتى
سيمبوتش السبعة روبلات ؟ •

قلت وأنا أحاول أن أدخل فى صوتى كل التعبير عما لمثل هذه
التضحية من خطورة :

- نعم أعطيته اياها من جيبي •

فأجابنى بغيرسة :

- ستحاسب • انتى أتوقع زيادات فى رواتبى • لمن عساهم يزيدون

الرواتب ان لم يزيدوها لى أنا ؟ يخيل الى أنهم يجنون منى الآن فائدة
عظمى • ولكن قل لى : والمرأة ؟

- أتقصد ايلينا ايفانوفنا ؟

فصرخ :

- المرأة !

لا حيلة للإنسان مع هذا الشيطان ! وهأنا ذا أقص عليه ، بمذلة ، صارفاً بأسناني ، كيف تركت زوجته . ولكنه لم يرض حتى أن يصنى الى كلامي كاملاً ، بل قاطعني نافذ الصبر قائلاً :

- ان لي آمالاً خاصةً بشأنها . اذا أصبحت أنا « هنا » شهيراً ، فاني أريد أن تصبح هنالك شهيرة أيضاً . ان العلماء ، والشعراء ، والفلاسفة ، وعلماء المناجم الذين يمرون بمديتنا ، ورجال الدولة ، الذين سيجيئون الى ليتحدثوا معي في الصباح ، سوف يترددون الى صالونها في المساء . يجب أن تبدأ باستقبال هؤلاء الناس منذ الأسبوع القادم . وستفي رواتبي بالنفقات ما دامت رواتبي مستضاعف ، لا سيما وأن كل ما ستحتاج اليه هو شيء من الشاي وعدد من الخدم . لا داعي الى المزيد . . . لطالما انتظرت فرصة أن أجعل الناس يتحدثون عني ، وأن يذيع صيتي وتطير شهرتي . ولكن كيف كان يمكن تحقيق ذلك وأنا في ذلك المركز المتواضع والرتبة التافهة ؟ فما هي الا لقمة واحدة يبلعها التمساح ، فاذا بالأمور تعود الى نصابها . سوف يسجلون كل كلمة من كلماتي . ان أسير تعبير من تعابيري سيحمل الناس على التفكير ، وسيجعلهم يكررونه ويرددونه . وسوف تُطبع أقوالى وتنتشر . سوف أكون معروفاً مشهوراً . سوف يدركون أخيراً كفادات هذا الرجل الذي تركوا للتمساح أن يتعلمه ! بعضهم يقول : « هذا رجل لو كان في بلد اجنبي لعُيِّن وزيراً ، ولاستطاع أن يحكم مملكة بأسرها » ، ويقول آخرون ناديين متحمسين : « كيف لم يُعهد اليه بمملكة يحكمها ؟ » . بصراحة : في أي شيء يمكن أن أُنْعَد أقل قيمة من رجل مثل جازنيه

باجيس * أو غيره ؟ • وسوف تكون زوجتى نداءً لى : أنا أملك الذكاء ،
وهى تملك الجمال والفتنة • سيقول بعضهم : « لانها جميلة انما كانت
زوجته » ، ولكن الآخرين سيصيحون قائلين : « بل هى جميلة لأنها
زوجته » • الخلاصة : يجب على ايلينا ايفانوفنا أن تشتري منذ الغد
« المعجم الأنسيكلويدى » الذى نُشر بإشراف آندره كرايفسكى * ، من
أجل أن تستطيع التحدث فى جميع المواضيع ، ويجب أن تعنى عناية
خاصة بأن تقرأ فى كل يوم المقالة الافتتاحية من جريدة « أبناء سان
بطرسبرج » وأن تقارن بينها وبين افتتاحية جريدة « الشعرة » • أظن أن
صاحب التمساح هذا لن يرفض أن يأخذنى مع تمساحه بين الفينة
والفينة الى الصالون المتألق الذى تتربع على عرشه زوجتى ، فأقول هنالك
أشياء ذكية جداً أكون قد هأتها وأعدتها هنا منذ الصباح • لرجل الدولة
سأذكر آرائى الحكومية ؛ وللشاعر سأشيد قصائد ؛ ومع السيدات سأكون
مرحاً فكهما رقيقاً دون أن أوقف فى نفوس أزواجهن أى قلق • ولكننى
سأكون للجميع مثلاً عظيماً على الخضوع للقدر ، وقدوة كبيرة فى الازعان
لمشيئة الله • سأجعل من زوجتى أديبة مرموقة • سأطريها أعظم الاطراء ،
وسأثنى عليها أكبر الثناء ، فأحمل الجمهور على أن يفهمها حق فهمها •
ذلك أنتى أعتقد أن زوجتى تملك مزايا عليا وكفاءات فذة ؟ فإذا كان من
حق الناس أن يقولوا ان آندره الكسندروفتش يضارع فى بلادنا ألفرد
دوفيني ، فان من حقهم أن يقولوا ان زوجتى تضارع أوجينى تور * •
أعترف للقارىء بأننى ، رغم أن هذا الجنون مألوف فى ايفان
ماتفتشس معبود فيه ، لم أملك أن أمتنع عن الاعتقاد بأنه يعاني من حمى
شديدة ، وأنه يهذى • هو الآن ايفان ماتفتشس نفسه يرى من خلال
نظارة مكبرة تضخمه عشرين مرة فى أقل تقدير •

قلت أسأله :

— صديقي ، هل تأمل أن تعيش على هذه الحال مدة طويلة ؟ قل لي :
أأنت في صحة حسنة ؟ كيف تأكل ؟ كيف تنام ؟ كيف تنفس ؟
لا تؤاخذني على هذا الفضول ، فأنا صديقك ، وحالتك خارقة تثير
الفضول حقاً .

أجاب يقول بفخامة :

— فضول باطل لا طائل تحته ، ولكنني أرضى أن أطفئ أواره
في نفسك . تسألني كيف دبرت أمري ورتبت شأنى في أعماق هذا
التمساح العجيب ؟ فاعلم أولاً أن جوف هذا التمساح خالٍ كل الخلو
فارغ كل الفراغ ، وما كان أشد دهشتي حين لاحظت ذلك ! يخيل إلى
أنتى أقيم في كيس ضخم من المطاط شبيه بتلك الأكياس التي يبيعها
تجار شارع جوروخوفايا ، وكذلك تجار مورسكايا إذا لم يخطئ ظني ،
وتجار شارع فوزنيسنسكى . وما عليك الا أن تفكر في الأمر قليلاً :
هل كان يمكن أن أدخل جوف التمساح لو لم يكن خالياً كل الخلو على
هذا النحو الذي وضعته لك ؟

صحت أقول مدهوشاً دهشة لها ما يسوغها طبعاً :

— أهذا ممكن ؟ أمن الممكن أن يكون جوف التمساح خالياً كل
الخلو ؟

قال ايفان ماتفتش مؤكداً بوقار شديد ورصانة عظيمة :

— كلَّ الخلو . ومن الجائز أن تكون قوانين الطبيعة نفسها هي التي
شاءت ذلك . ان كل ما يتألف منه التمساح لا يبدو بوزاً ضخماً ذا أنياب
قاطعة جداً ، وذيلًا طويلًا . أما الجوف ، المكان الذي يقع بين هذين
الطرفين ، فليس فيه الا فراغ مفروش بشيء يشبه المطاط ولعله من
مطاط .

قاطعه خارجاً عن طورى :

- والرتان ، والبطن ، والأمعاء ، والكبد ، والقلب ؟

- لا وجود لشيء من هذا كله ، ولعل شيئاً من هذا كله لم يوجد في وقت من الأوقات . ليست هذه الأوهام الا ثمرة الحكايات الخيالية التي يرويها مسافرون طائشون . فكما تُنفخ وسادة بهواء ، كذلك يتنفخ بشخصي فراغ هذا التمساح الذي يبلغ من مرونة الانمطاط حداً لا يصدقُه العقل . وعلى هذا النحو يكون في إمكانك أنت ، بصفتك صديق الأسرة ، أن تأتي فتجلس الى جانبي متى شاء لك كرمك ذلك . ان في المكان متسعاً لك هنا . وأنا أفكر في استدعاء ايلينا ايفانوفنا الى متى دعت الحاجة الى هذا . ثم ان هذا الاكتشاف يتفق كل الاتفاق مع تعاليم العلوم الطبيعية ، واليك البرهان على ذلك: لنفرض أنك قد أتيت لك أن تخلق تمساحاً جديداً : ان هناك سؤالاً ما يلبث أن ينتصب أمامك قبل كل شيء ، وهذا السؤال هو : ما هي الوظيفة الرئيسية للتمساح ؟ وما يلبث الجواب عن هذا السؤال أن يفرض نفسه ، وهو أن الوظيفة الرئيسية للتمساح هي أن يتلع بشراً . فكيف يجب أن يكون تشكيل التمساح ليقوم بمهمة الابتلاع هذه على أحسن وجه ؟ الجواب محتوم لا مناص منه ، وهو أن جوف التمساح يجب أن يكون فيه متسع لمن سيتلعمهم التمساح ، أي أن جوف التمساح يجب أن يكون فارغاً ، يجب أن يكون خالياً . ولكن الفيزياء قد علمتنا منذ زمن طويل أن الطبيعة تكره الخلاء . فلا بد إذن أن يكون جوف التمساح خالياً في البداية ، على أن لا يظل خالياً هذا الحلو ، ويجب عليه إذن أن يتلع كل ما قد يجده بنية أن يتلى . ذلك هو التعليل الوحيد الممكن لتلك الظاهرة التي نراها عند التماسح ، أعني ميلها الى الابتلاع . وهناك فروق في البنية والتركيب بين الكائنات الحية . فالإنسان كلما كان فراغ رأسه أكبر ، كان شعوره بالحاجة الى ملئه أقل . غير أن هذا هو الاستثناء الوحيد

من القاعدة العامة الآنف ذكرها • هذا كله يبدو لي الآن واضحاً وضوح
النهار • لقد أدركت هذا كله بقوة فكرى وقوة تجربتى ، اذ غصت الى
أغوار الطبيعة ان صبح التعبير ، اذ غصت الى البوتقة التى تهبأ فيها
أسرارها ، واذا سمعت نبضاتها • لاحظ ان علم الاشتقاق اللغوى نفسه
يتفق وما انتهت اليه ، فان اسم التمساح (الكروكوديل) يعبر عما ينصف
به هذا الحيوان من شراهة • ان كلمة كروكوديل كلمة ايطالية أغلب
الظن أنها من عهد فراعنة مصر القدماء ، وهى مشتقة حتماً من الكلمة
الفرنسية croquer بمعنى « قضم » ، أى أكل ، تغذئ ... ان فى
نتى أن أشرح هذا كله للجمهور عند القائى محاضرتى القادمة فى صالون
ايلينا ايفانوفنا متى نُقلتُ اليه فى قارىبى •

صحت أقول رغم ارادتى ، بشير قليل من الرعب ، لاعتقائى بأن
صاحبى مصاب بحمى وأنه لذلك يهذى ، صحت أقول :

— يا صديقى ، أنت فى حاجة الى أن تتجرع مُسهلاً !

— سخافة ! أهذا لائق فى وضعى الراهن ؟ ومع ذلك كنت على

يقين من أنك ستتكلم عن ضرورة شُرب مُسهل !

— ولكن قل لي يا صديقى : كيف تقيم أودك الآن ؟ هل تعشيت

اليوم مثلاً ؟

— لا ، ولكننى لست جائعاً ، ومن الجائز جداً أن لا أطعم بعد اليوم

أبدأ • وهذا أمر مفهوم جداً هو أيضاً • فما دمت أشغل كل جوف هذا

التمساح ، فسوف أشبعه مدي الحياة ، وسوف يكون فى الامكان أن يبقى

سنين كثيرة دون أن يتناول أى طعام • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى

فانه لا بد له ، أثناء اشباعى اياه ، أن ينقل الى وِيتْ فى جميع أنساغ

الحياة التى فى جسمه • وأنت تعلم أن هذه الطريقة هى التى تطبقها

« المتغدرات » من النساء حين تضع فى الليل شرائع نيثة من اللحم على

الوجه ، بمثابة كمادات ، لتبدو نضرة مرنة فتاة بعد حمام الصباح • انى
أغذى التمساح من جسمى ، ولكنى أتلقي منه فى مقابل ذلك غذائى •
وهكذا يتغذى كل منا بالآخر • ولكن لما كان أمراً صعباً ، حتى على
تمساح ، أن يهضم رجلاً مثلى ، فلا بد أن يشعر بشئ من الثقل فى
معدته - رغم أنه ليس بنذى معدة • لذلك ترانى اتحاشى ، فى سبيل أن
لا أزعجه ، أتحاشى أن أستدير ما وسعنى ذلك • ان فى امكانى أن
أتحرك مستديراً ، ولكنى أمتنع عن ذلك بدافع الروح الانسانية • تلك
هى المضايقة الوحيدة التى أعانى منها فى وضعى الراهن ، وبهذا يكون
تيموتى سيمويتش على صواب ، بالمعنى المجازى ، حين ينقضى بالكسل •
ولكنى سأبرهن على أن فى وسع المرء أن يغير مصير الانسانية وان يكن
راقداً على جنبه ، بل وأنه لا يستطيع تحقيق هذا الهدف والوصول الى
هذه الغاية الا وهو راقداً على هذا الوضع • ان الكسالى هم الذين يُنضجون
جميع الأفكار الكبرى وجميع التطورات الفكرية التى تؤيدها جرائدنا
وتجندنا مجلاتنا • وذلك هو السبب فيما يقال بحق من أن هذه
المنشورات انما هى مختبرات • ومهما يكن من أمر ، فلسوف أنشئ من
هنا ومن هناك مذهباً اجتماعياً كاملاً ، ولن تستطيع أن تصدق مدى
سهولة هذا العمل • حسب المرء ، ليحقق هذا المشروع ، أن ينزوي
فى ركن ناء ، كجوف تمساح مثلاً ، وأن يغمض عينيه • فسرعان
ما تنكشف له جنة الانسانية • منذ قليل ، بعد أن انصرفتما ، أخذت
أبحث عن مذاهب ، فلم ألبث أن وجدت منها ثلاثة • وأنا بسبيل تحضير
مذهب رابع • صحيح أنه لا بد للمرء ، من أجل ذلك ، أن يبدأ بقلب
كل شئ رأساً على عقب ، ولكن أليس هذا سهلاً حين يكون المرء فى
جوف تمساح ؟ وليس هذا كل شئ • فمن غياهب تمساح ، يبدو أن
الانسان يرى العالم رؤية واضحة وضوحاً عظيماً • • • صحيح أن فى

وضعى الراهن بعض المضايقات ، وان تكن يسيرة تافهة • فان جوف هذا التمساح بارد ولزج ، عدا أن رائحته تشبه رائحة القطران • يخيل الى دائماً أنتى أشم رائحة خفى المطاط العتيقن اللذين كنت اتعلهما فى السنة الماضية • ولكن هذا كل شيء • فليس فى امكانى أن أشكو من أى مضايقة أخرى •

قلت له :

– ايفان ماتفتش ، هذه معجزات لا أكاد أستطيع أن أصدقها • هل فى نيتك اذن أن لا تعيش بعد اليوم طول حياتك ؟

فأجابنى قائلاً :

– ماهذه السفاسف التى تهتم بها ياذا الرأس التافه السخيف؟ أأكون بسبيل أن أشرح لك أفكاراً عظيمة وأن أعرض عليك آراء كبرى ، فاذا أنت ... ألا فاعلم اذن أن هذه الأفكار العظيمة التى جاءت تير الليل الذى غصت فيه تشبغنى أكثر مما يشبغنى أى طعام آخر • أضف الى ذلك أن صاحبنا الممتاز ، مالك التمساح ، قد اهتم بهذا الأمر مع أمه الطيبة ، فقررا أن يدخلنا من بوز التمساح ، فى كل صباح ، أنبوباً أستطيع بواسطته أن أرشف قهوتى أو أن أصيب شيئاً من حساء الخضار • وقد أمرا بأعداد الأنبوب • ولكننى أرى أن هذا الأنبوب زائد لا حاجة اليه • انتى أمل أن أعيش ألف سنة على الأقل ، اذا صدق مايقال من أن التماسح تبلغ هذا المبلغ من طول العمر • حاول منذ الغد أن تعرف هذا من أحد كتب التاريخ الطبيعى ، فمن الجائز أن أكون مخطئاً ، ومن الجائز أن أكون قد التبس على الأمر فخلطت بين التمساح وبين حيوان آخر • هناك شيء واحد يقلقنى : لا كنت أرتدى جوحاً واتعل حذائين ، فمن المؤكد أن التمساح لا يستطيع أن يهضمنى • يضاف الى ذلك أنتى حى وأنتى أعارض بكل

ما أملك من قوى ارادتي أن أهضم هذا الهضم ، لأننى لا أريد بحال من الأحوال أن يطرأ على ما يطرأ على الأطعمة عادةً من تحول ، فان فى ذلك ذلاً لا تطبق نفسى احتماله . ولكن المصيبة أن قماش ملابسى من صنع روسى ، وأنا أخشى لذلك أن لا يصمد لأقامته ألف عام فى جوف هذا الحيوان ، فقد يتحلل آخر الأمر ، فأصبح بلا درع يحمينى ، فيهضمنى التمساح مهما أبذل من مقاومة . لن أسمح له بأن يهضمنى أثناء النهار ، ولكن ما حيلتى فى الليل ... حين ينام المرء فتبارحه ارادته ؟ أفلا أتعرض عندئذ لذلك المصير المذل وهو أن أهضم كما تهضم قطعة من البطاطس أو من الحلوى أو من لحم العجل ! اننى أشعر بغضب شديد متى تصورت هذا . فمن أجل تحاشى مثل هذه الاحتمالات على الأقل ، يجب تغيير الرسوم الجمركية ، وحماية استيراد الأصواف الانجليزية التى تستطيع لمئاتها أن تحمى من قوى الطبيعة التخريبية مدةً أطول ، أولئك الذين يلبسونها حين يضطرون الى الدخول فى جوف تمساح . لسوف أنقل هذا رأى الى أحد رجال الدولة عند أول مناسبة ، وسوف أنقله كذلك الى رؤساء تحرير كبريات صحفنا اليومية ، من أجل أن أثير حركةً فى رأى . وآمل أن أخدم أموراً أخرى كثيرة أيضاً . ولست أشك فى أننى سأرى جمهرة كبيرة من المستطلعين يهرعون الىّ فى كل صباح ، راضين أن يدفعوا خمسة وعشرين كوبكاً فى سبيل أن يعرفوا آرائى فى آخر برقيات الليلة البارحة . وأقول باختصار اننى أرى أن المستقبل يعرض لى فى أن أزهى أشكاله وأسطع ألوانه .

قلت لنفسى : « هى الحمى ! » ، وتابت أقول بصوت عالٍ حتى يسمعه سماعاً أوضح :

— ولكن ما عساك صانعاً بالحرية يا صديقى ؟ أنت الآن كمن يقيم فى سجن . أفليست الحرية أكبر الخيرات للانسان ؟

أجابنى قائلاً :

- ما أغباك ! صحيح أن التوحشين يحبون الاستقلال ، ولكن
الحكماء الحقيقيين يحبون النظام قبل كل شيء * ، فما لم يوجد النظام ...
- رحماك يا ايفان ماتفتش !

زأر يقول غاضباً أشد الغضب من مقاطعته :

- أسكت وأصغ • اننى لم أشعر بقوة فى يوم من الأيام كشعورى
بها الآن • أنا فى ملجئ الضيق هذا لا أخاف كثيراً الا من النقد الثقيل
الذى تكيهه الصحف الكبرى والا من الصغير الذى تطلقه جرائد الهجاء
اللاذع • وأنا أخشى أن يتخذ منى الهازلون من الناس ، والأغبياء ،
والحاسدون ، والدميون عامة ، أضحوكة يتسدرون عليها • ولكننى
سأخذ اجراءاتى • اننى أنتظر بفارغ الصبر الحكم الذى سيصدره على
الرأى العام وستصدره على الصحف خاصة منذ القد • فكن على اطلاع
كامل على هذا كله •

- سأتيك غداً بكدسة من الجرائد •

- قد يكون استباقاً للأمور أن تنتظر شيئاً من الصحف فى القد ،
فان الأنباء قلماً تظهر فى الصحف الا بعد ثلاثة أيام • ومع ذلك عليك
منذ هذا اليوم أن تأتى الى كل مساء من مدخل الخدم • لقد قررت أن
أتمخذك سكرتيراً • ستقرأ على الجرائد والمجلات ، ثم أملى عليك آرائى
وأعهد اليك بالمهام التى يجب أن تقوم بها • لا تنس أن تهجئ كل
يوم بجميع برقيات أوروبا • ولكن كفى هذا الآن • لا شك أنك نعتت •
فارجع الى بيتك ولا تفكر فيما قلته لك فى موضوع النقد • اننى لا أخاف
من النقد ، لأن النقد نفسه يقف الآن فى وضع حرج جداً • حسب
المرء أن يبقى عاقلاً وفاضلاً ليكون كمن يقف على قاعدة وطيبة

لا تترزعزع • لئن لم أكن سقراط ، فسوف أكون ديوجين ، اللهم الا أن أكون الاثنين كليهما في آن واحد ، تلك هي رسالتى المقبلة بين الانسانية •

هكذا كان يتكلم ايفان ماتفشش ، مبرهنأ على أن عقله خفيف عند معاً (صحيح أنه كان تحت تأثير الحمى) ، وعلى أنه شبيه بتلك النساء الضعيفات الطبع اللواتى لا يستطعن أن يكتمن سراً • ان جميع تلك الملاحظات التى قالها عن التمساح بدت لى جديرةً بالشك • هل من الممكن حقاً أن يكون جوف التمساح فارغاً خالياً ؟ اننى لأراهن على أن كلامه كله لم يكن الا حذقات مفرور ، وعلى أنه كان يسعى خاصةً الى اذلالى •

أنا أعرف أنه كان مريضاً ، وأن على المرء أن يدارى المرض ، ولكننى أعترف صراحةً بأننى لم أستطع أن أطيق ايفان ماتفشش فى يوم من الأيام • لقد جعلنى خاضعاً لوصايته طول حياتى ومنذ طفولتى • حاولت ألف مرة أن أنهى ذلك الوضع ، غير أن شيئاً ما كان يردنى اليه فى كل مرة ، كما لو كنت أمل أن أقنعه بشيء لا أدرى ما هو ، وأن انتقم لنفسى أخيراً • هى صداقة عجيبة أستطيع أن أقول ان تسعة أعشارها كانت كرهاً لا أكثر • ومع ذلك افترقنا فى هذه المرة على شعور طيب •

قال لى الألمانى بصوت خافت وهو يشيئنى :

— صاحبك من أذكى الرجال •

ذلك أن الألمانى كان قد سمع الحديث الذى جرى بيننا من أوله الى آخره •

قلت له مخافة أن أنسى :

— بالمناسبة : ما هو المبلغ الذى قد تطلبه ثمناً لتمساحك اذا عرض عليك شراؤه ؟

وقد سمع ايفان ماتفتش السؤال ، فانتظر الجواب بكثير من الاهتمام . وتراءى لى بوضوح أنه كان سيستاء أشد الاستياء لو طلب الألماني مبلغاً ضئيلاً . وقد سئل سعالاً خاصاً على كل حال .

لم يشأ الألماني فى أول الأمر أن يسمع شيئاً حتى لقد مضى الى حد الزعل والغضب ، ثم صاح يقول حاتقاً حنقاً شديداً وقد احمر لونه احمراراً قوياً :

- لا أسمح أن يتجرأ أحد فيطلب منى أن أبيع تمساحى . لا أريد أن أفارق تمساحى . لن أقبل بمليون دينار ذهبي ثمناً لهذا التمساح . لقد كان ايرادى منه فى هذا اليوم وحده مائة وثلاثين ديناراً . وسيدر على عشرة آلاف بل ومائة ألف !

كان ايفان ماتفتش يضحك لهذا الكلام سروراً ولذة . وسيطرت أنا على نفسى وملكت شجاعتى فمرضت على هذا الألماني المجنون كل ما فى حساباته من خطأ ، محافظاً على الهدوء والعقل اللازمين لاسان يقوم بواجب الصداقة . قلت للألماني : لو صدق أنه سيجمع مائة ألف دينار ذهبي فى اليوم ، فلن يحتاج الا الى أربعة أيام من أجل أن يكون سكان بطرسبرج جميعاً قد زاروا محله ، ثم ينتهى بعد ذلك كل شيء . وليس يدرى المرء من ذا يعيش ومن ذا يموت . فمن الجائز أن ينفجر التمساح ، ومن الجائز أن يمرض ايفان ماتفتش وأن يتوفى ، النخ ، النخ .

ففكر الألماني ثم أجابنى يقول :

- فى هذه الحالة سأطلب من الصيدلى قطرات دواء فلا يموت

صاحبك .

قلت :

قطرات الدواء شيء حسن • ولكن تذكر أن من الممكن أن تُرفع قضية • فما عساك تقول اذا ارتأت زوجة ايفان ماتفتش أن تطالب بزواجها الشرعى ؟ أنت تريد أن تفتنى ، ولكن هل أنت مستعد لأن تدفع لايلىنا ايفانوفنا نفقة اعالتها ؟

أجابنى بصوت وقور حازم قاطع :

— ليست هذه نيتى !

وأضافت الأم قائلة بغضب :

— لا ، ليس لدينا هذه النية !

— فلنتظر اذن فى الأمر ملياً : أليس الأفضل لكما أن تقبلا منذ الآن مبلغاً معقولاً هو ربح محقق بدلاً من التمويل على فائدة غير مؤكدة • ثم اتنى أحرص على أن ألفت انتباهكما الى أننى لا ألقى هذا السؤال الا من باب حب الاطلاع وحده •

اعتقد الألمانى أن من المفيد أن يشاور أمه ، فمضى بها الى ركن من الشرفة كانت توجد فيه خزانة تضم القرد الذى هو أكبر مجموعة القروء ضخامة وأبعثها صورة •

قال لى ايفان ماتفتش :

— سترى !

شعرت ، من جهتى ، برغبة قوية عنيفة فى أن أهوى على هؤلاء الناس جميعاً ، فأشبعهم ضرباً موجعاً أليماً ، أغنى الألمانى وأمه ، وخاصة ايفان ماتفتش هذا الذى كان طموحه الجامح الذى لا حدود له يزعمجنى أكبر ازعاج • ولكن ماذا كان جواب الألمانى الماكر ؟

انه ، عملاً بمشورة أمه ، قد طلب ، ثمناً لتمساحه ، خمسين ألف روبل سنداتٍ من آخر قرض داخلى ، ومنزلاً مبنياً بالحجر فى شارع

جوروخوفايا ، مع صيدلية مجهزة كل التجهيز فى ذلك المنزل نفسه ،
بالإضافة الى رتبة كولونيل •

صاح ايفان ماتفشتس يقول بلهجة المتصر :

- أرأيت ؟ ألم أقل لك ؟ انه ، باستثناء هذا المطلب الأخير - أعنى
ياستناء تسميته كولونيلاً ، وذلك مطلب جنونى - أقول انه باستثناء ذلك
على حق ، لأنه يجيد تقدير القيمة الحالية لحيوانه • ان وجهة النظر
الاقتصادية تفوق كل شيء !

صرخت أقول لهذا الألمانى حانقاً :

- عجيب ! كيف تجسر أن تطالب برتبة الكولونيل هذه ؟ ما هو
العمل البطولى الذى قمت به حتى تستحق هذه الرتبة ؟ ما هى الخدمات
التى قدمتها ؟ ما هو المجد العسكرية الذى تجللت به ؟ أأنت مجنون ؟

قال الألمانى مستاءً من الاهانة :

- مجنون ؟ بل انا انسان عاقل جداً ، وما أتم الا حلقى أغبياء !
كيف لا يستحق المرء أن يسمّى كولونيلاً وهو يستطيع أن يعرض
تمساحاً فى جوفه موظف حى من كبار موظفى الدولة !... هات لى ، ان
استطعت ، روسياً فى امكانه أن يريكم تمساحاً فى بطنه موظف حى من
كبار موظفى الدولة !... أنا انسان فذ ، ولست أفهم لماذا لا يمكن أن
أسمّى كولونيلاً !

صحت أقول وأنا أرتعش من الغضب :

- الى اللقاء اذن يا ايفان ماتفشتس !

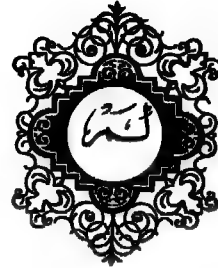
ومضيت مسرعاً حتى لأكاد أركض ركضاً • فلو قد بقيت دقيقة

واحدة أخرى لفقدت سيطرتى على نفسى ، ولأصبحت غير مسئول عن تصرفاتى • ان الطموح العجيب الشاذ لدى هذين المخلوقين الأبلهين أمر لا يُطاق •

واستطاعت طراوة الهواء أن تهدى غضبى بمض التهدة • واخيراً ، بعد أن بصقت خمس عشرة مرة ، يسرةً ويمنة ، استوقفت عربة ، وعدت الى بيتى فخلعت ثيابى ، وارتعت على سربرى •

ان ما كان يغلبنى ويخرجنى عن طورى أكثر من أى شيء آخر هو أننى أصبحت سكرتيراً لايفان ماتفتش • معنى ذلك أننى ، بعد الآن ، سيكون على ، حتى أقوم بما يجب على صديق حقيقى أن يقوم به من واجبات نحو صديقه ، سيكون على أن أجنّ فى كل مساء !

وشبّت فى نفسى رغبة قوية فى أن أضرب أحداً ، لما ان أطفأت شمعتى حتى أخذت أضرب رأسى وأجزاء شتى من جسمى بقبضة يدي ضربات متلاحقة • خفّف عنى هذا الضرب بعض التخفيف ، ونمت آخر الأمر نوماً عميقاً ، لأننى كنت محطماً • وقضيت الليل أحلم بقرود ، ولكننى فى الصباح حلمت بايلينا ايفانوفنا •••



يصعب على أن أفهم أنتى اذا حلمت بقروود فانما يرجع ذلك الى أنتى قد رأيت قرووداً فى القفص، أما حلمى بايلينا ايقانونونا فهذا أمر آخر .

ولأذكر الحقيقة على الفور : لقد كنت أحب هذه السيدة . ولكننى أسارع فأضيف أنتى كنت أحبها كما يجب أبنته ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ! ... والشيء الذى يقودنى الى استخلاص هذه النتيجة هو اننى اشتيت مراراً أن أقبلها على جبينها الناعم أو على خديها الورديين ؟ ولكن يجب أن أعترف أنتى ما كنت لأرفض أن أقبلها على شفتيها ، رغم أنتى لم أفعل ذلك فى يوم من الأيام ... لا على شفتيها فحسب ، بل أيضاً على أسنانها اللطيفة التى كانت تبدو أشبه بصف من لؤلؤات صغيرة جميلة متى ضحكت ... وما أكثر ما كانت تضحك ! ...

كان ايفان ماتفتش ، فى لحظات انشراحه ، يناديها « يا سخفى اللطيف » ، وهو لقب صادق كل الصدق ، صحيح كل الصحة ، يميّزها الى أبعد الحدود . كانت فى أكثر تقدير « امرأة سكرة » . لذلك لم أستطع أن أفهم على أى شيء كان ايفان ما تفتش يموّل ويعتمد من أجل أن يجعلها فى روسيا سيدة مثل أوجينى تور .

مهما يكن من أمر ، فان أحلامى ، اذا صرفنا النظر عن القروود ،

قد أحدثت في نفسي مشاعر لذيذة الى أقصى حد . وفي الصباح أمام
فنجان الشاي الذي كنت أحسبه ، أخذت أستعرض ذكريات الليلة
البارحة ، فإذا أنا أقرر أن أصعد الى ايلينا ايفانوفنا في طريق ذهابي الى
مكتبي . وكان هذا ، على كل حال ، واجباً يقع على عاتقي من حيث أنني
صديق للأسرة .

في غرفة صغيرة كانت تجاور غرفة النوم وكان صاحبها يسميها
الصالون الصغير ، رغم أن الصالون الكبير كان ضيقاً شديد الضيق أيضاً ،
رأيت ايلينا ايفانوفنا جالسة على أريكة صغيرة جميلة ، أمام مائدة صغيرة
للشاي . انها تلبس غلالة رقيقة ، وتشرب قهوتها في فنجان صغير بعد أن
تبلل بالقهوة قطعاً صغيرة من البسكويت . كانت مشرقة الجمال ، ولكن
كان يبدو عليها شيء من انشغال البال . فلما رأته هتفت تقول وهي
تبسم ابتسامة ذاهلة :

- ها ... أهذا أنت أيها المتسكع ! اجلس أيها الطائش الذي
لا عقل له ، واشرب معي قليلاً من القهوة ! هيه ... ماذا فعلت أمس ؟
هل ذهبت الى حفلة الرقص التنكرية ؟
- أذهبت أنت اذن اليها ؟ هل تظنين أنني أستطيع السعي الى
الاحتفالات ؟ ... لقد ذهبت أزور السجين ...

قلت ذلك وتهددت ، واصطنعت هيئة الانسان المكدود المرهق وأنا
أرشف جرعة من القهوة .
قالت :

- ذهبتَ لزور من ؟ السجين ؟ أي سجين ؟ آ ... نعم ...
الفتى المسكين ! أهو يشعر بضجر شديد ؟ ... اسمع ... كنت أريد
أن أسألك ... يخيل اليّ أنني أستطيع أن أطلب الطلاق الآن ، أليس
كذلك ؟

٩ - الطلاق ؟

كذلك صحت أقول وقد بلغت من الاستياء أثنى أو شكت أن أقلب
فنبجان القهوة ، لأتني قلت لنفسى غاضباً : « انه الأسمر » •

ذلك أن هناك رجلاً أسمر ذا شاربين هو موظف فى مصلحة
المباني ، كان يزور الأسرة ويعرف كيف يضحك ايلينا ايفانوفنا • كنت
أنا أكره هذا الرجل وأمقته ، وقدّرت أنه قد اتسع وقته فى الليلة البارحة
اتساعاً كاملاً لأن يراها فى حفلة الرقص التكرية ، ولأن يقول لها
سخافات كثيرة •

قالت المرأة الجميلة متدفقةً فى كلامها متعجلة ، كأنما هى قد كررت
درساً تحفظه :

- سوف يبقى فى التماسح الى الأبد ، ولن يرجع يوماً ، فهل يكون
علىّ أنا أن أنتظره ؟ يخيل الىّ أن من واجب الزوج أن يقيم فى بيته
لا فى بطن التماسح •

قلت بانفعال له ما يسوّغه :

- ولكن هذا حادث مستقل عن ارادته كل الاستقلال ...

فصرخت تقول غاضبة :

- آآآ لا لا لا • لا أريد سماع حكاياتك هذه ، لا أريد سماعها !
انك تعارضنى دائماً أيها الشرير ! لا حيلة للمرأة معك • لا أريد
نصائحك • لقد قال لى غرباء ان فى وسمى أن أحصل على الطلاق لمجرد
أن ايفان ماتشش لن يقبض بعد اليوم رواتب •

صحت أقول بلهجة التأثير :

- ايلينا ايفانوفنا ! أأنت حقاً من أسمعها تقول هذا الكلام ، وتحدث

على هذا النحو ؟ من ذلك الرجل الحيث الذى وضع فى رأسك أفكاراً كهذه الأفكار ؟ انه لمن المستحيل أن تحصل امرأة على الطلاق من زوجها لسبب تافه هذه التفاهة وهو أن زوجها أصبح بلا راتب • وماذنب ذلك المسكين ايفان ماتفتش الذى ما يزال يحترق قلبه حباً بك وشوقاً اليك وهو فى أعماق تمساحه ؟ انه يذوب من هذا الحب وهذا الشوق كما تذوب قطعة سكر • أمس مساءً ، بينما كنت أنت تسلين فى حفلة الرقص التكرية ، كان هو يقول انه سيقدر فى آخر الأمر ، عند الضرورة ، أن يستدعيك اليه لأنك زوجته الشرعية ، لتقيمى بقربه فى قرارة التمساح ، لا سيما وأن فى المكان تمسحاً لشخصين اثنين وحتى لثلاثة أشخاص ...

ولم ألبث أن قصصت عليها كل ذلك الجزء الشائق من الحديث الذى جرى بينى وبين زوجها فى الليلة البارحة •
فقال مذهولة :

- كيف ؟ كيف ؟ أتريد أيضاً أن ألحق بإيفان ماتفتش فى جوف التمساح ؟ يا لها من فكرة ! كيف تريد أن أدخل الى هنالك بقبعتى وتنورتى ذات الأسلاك ؟ رباه ! ألا ان هذا لسخف مستحيل ! بأى وجه أدخل الى هنالك اذا رآنى أحد ؟ هذا مضحك ! وكيف عسانى أغتدى ، وما الذى يمكن أن أصيبه من طعام ؟ وما عسانى أفعل اذا أنا ... يا له من اختراع ! وما هى التسليلات التى يمكن أن أجدها هنالك فأفرج بها عن نفسى ؟ وأنت تقول لى ان الجو هنالك تفوح فيه رائحة المطاط ! وسيكون على أن أبقي راقدة بقربه حين يختصم أو تشتجر ! هه ! يا للهول ! ...

قاطعتها قائلاً بحرارة طبيعية جداً لدى رجل يعرف كيف يقااتل فى سبيل الحقيقة :

— أنا أفهم ، أنا أفهم جميع هذه الحجج الرائعة أيتها العزيزة ايلينا
ايفانوفنا ، ولكنك لا تحسّين حساب ذلك الأمر الهام ، وهو أنه لا يستطيع
أن يعيش بدونك ما دام يطلبك . هذا دليل على ما يحمله لك من حب ،
من حب حارٍ وفي أمين ... انك لم تقدرى قيمة حبه أيتها العزيزة
ايلينا ايفانوفنا !

صرخت تقول وهى تحرك يدها الصغيرة الجميلة جداً ذات الأصابع
الوردية اللامعة :

— لا أريد ، لا أريد ، لا أريد أن أسمع شيئاً ! انك تُبكينى أيها
الحبيث ! اذهب أنت الى جوف ذلك التمساح اذا طاب لك هذا . أنت
صديقه . فاذهب اليه اذن ، وارقد الى جانبه حباً بالصدقة ، وافضى حياتك
هنالك فى مناقشات معه حول موضوعات سخيفة !

قلت بوقار ورسانة أقاطع تلك المرأة المسرفة فى الحفة والطيش :

— انك لتخطئين حين تنظرين الى هذا الاحتمال نظرة استهزاء
وسخرية . لقد دعانى ايفان ماتفتش الى اللحاق به . وليس من شك
فى أن واجبك يلزمك أنت بهذا ، أما أنا فان ذهبت فانما أذهب كرمأ
وجوداً وسماحة . أمس ، حين كان ايفان ماتفتش يشرح لى ما تتصف
به جدران جوف التمساح من مرونة وقدرة على الانعطاف ، أشار صراحةً
الى أن فى جوف التمساح متسعاً لا لكما فحسب ، بل ولى أنا أيضاً ،
بصفتى صديق الأسرة ، وأشار صراحة الى أن فى وسعنا أن نستقر نحن
الثلاثة هنالك ، اذا أنا أردت ؟ ولهذا الغرض ...

هتفت ايلينا ايفانوفنا تقول وهى تنظر الى بغير قليل من الدهشة :

— نحن الثلاثة ؟ كيف ؟ أنقيم نحن الثلاثة اذن هناك ؟ ها ها ها ! ..

ما أغباكما كليكما ! لسوف أظل أقرصك هنالك طول الوقت أيها الحيث !
ها ها ها ! ها ها ها ! ...

وارتمت بظهرها على مسند الكرسي وطفقت تضحك حتى سالت الدموع من عينيها • وبلغ ضحكها وبلغت دموعها وبلغ المشهد كله من الروعة والفتنة واللذة أنني لم أطق صبراً فأخذت أبجل يدها ، فلم تعارض ولم تقاوم ، وإنما راحت تشد أذني علامة المصالحة •

عندئذ عاد الينا المرح والفرح ، فقصصت عليها بالتفصيل كل خطط
ايفان ماقشش ومشاريعه ، فسُرَّت سروراً عظيماً بفكرة سهرات
الاستقبال في صالونها . ولكنها لقت انتباهي قائلة :

- غير أنتى سأكون والحالة هذه فى حاجة الى عدة أثواب جديدة ،
ولا بد أن يرسل الى " إيفان ماتفئش " مبلغاً كبيراً من المال بأقصى سرعة .
ثم أضافت تقول مطرقة :

- ولكن كيف يعملون من أجل أن يأتوني به في قاربه ؟ هذا شيء مضحك جداً • اتنى لا أريد أن ينقلوا زوجي وهو في هذا الحوض • سأشعر من ذلك بخجل أمام ضيوفى ••• لا ، لا أريد ، لا أريد ••• قلت لها :

- بالنسبة ، قبل أن أنسى : هل زارك يموتى سيموتش مساء
أمس ؟

- نعم • وحاول أن يواسيني ويسليني • هل تتصور أننا قضينا السهرة كلها نلعب بالورق ؟ كان اذا خسر يعطيني حلوى ، واذا خسرت أنا يقبّل يدي • يا للغاجر ! وتصور أنه كاد يجيء معي الى حفلة الرقص التكرية ! هذا ما حدث فعلاً !...•••

قلت أجيها :

— هي الحماسة ! ومن الذى لا تستار حماسه معك أيتها الساحرة
الفاتنة !

— هانت ذا عدت الى ملاطفتك وأماديحك ! توقع اذن أن أقرصك
حين نهم أن تنصرف ... اننى أجيد القرص الآن ، ما رأيك ؟ آه ...
هل كلمك ايفان ماتقشش كثيراً عنى ؟

— ل ... ل ... لا ... لا كثيراً ... أعترف لك أن أكثر اهتمامه
منصرف الآن الى مصائر الانسانية عامة ، وأنه يريد أن ...

— طيب ، طيب ، لا تكمل كلامك ، لا بد أن يكون هذا باعثاً على
الضجر والملل . سأزوره فى يوم قريب ... غداً فى أغلب الظن ،
ولكن لا اليوم ... اننى أشعر اليوم بصداق ، وسيكون هناك ناس
كثير ... وسيتهامسون قائلين : هذه زوجته ! ... استودعك الله ...
هل تذهب فى هذا المساء الى هناك ؟ ...

— سأذهب اليه . لقد طلب منى أن أجيء وأن آتية بجرائد .

— حسن جداً . اذهب اليه اذن ، واقرأ له . ولا داعى الى عودتك
اليوم الى ، لأننى أحس بتعب واعياء ... وربما قمت ببعض الزيارات
... استودعك الله أيها الفاجر !

قلت لنفسى : « طيب . لا داعى الى ان أسألها هل يجيء الرجل
الأسمر فى هذا المساء ! »

وفى المكتب ، لم أظهر شيئاً من الهموم التى كانت تقضم نفسى .
ذلك ما يجب أن يكون طبعاً . ولكننى لم ألبث أن لاحظت أن عدة من
جرائدنا التقديمية كانت تتناقلها الأيدي ، وأن الزملاء كانوا يعكفون على
قراءتها باتباه شديد . وكانت أولى هذه الجرائد التى وصلت الى يدي

«الصحيفة» *، وهى جريدة ليس لها اتجاه سياسى شديد الوضوح ، غير أنها ذات ميول انسانية ، وذلك ما كان يجعل الموظفين فى مكتبنا يشعرون نحوها بشئ من الاحترار ، ولكنهم يقرأونها مع ذلك . واليكم ما وجدته فيها ، وهو أمر أدهشنى :

« هناك شائعات غريبة سرت أمس فى عاصمتنا الكبرى المزدانة بمبانيها الفخمة الرائعة . ومفاد هذه الشائعات أن رجلاً اسمه ن ، وهو امرؤ يحب الأطعمة الفاخرة ، قد سئم فى أغلب الظن من مطعم بوريل * ، كما سئم من نادى « سكى » ، فدخل الى «الممر» ، واتجه الى المكان الذى يُعرض فيه تمساح ضخيم ، فطلب أن يُحضّر هذا الحيوان عشاءً له . فبعد أن اتفق مع صاحب التمساح ، أسرع يجلس الى المائدة ، وراح يلتهمه - لا يلتهم صاحب التمساح وهو ألمانى متواضع منظم بل يلتهم التمساح - راح يلتهم التمساح حياً ، فهو يقطع من لحم التمساح بسكينه لقمًا ضخمةً يسيل منها الدهن ، فيحملها الى فمه ويزرددها بشراهة .

« وشيئاً فشيئاً غاب التمساح كله فى تلك الهاوية التى لا قرار لها . وحين فرغ صاحبنا المحب للأطعمة الفاخرة من التهام التمساح أظهر رغبته فى أن يأكل النمس ، وهو الحيوان الذى يرافق التمساح عادةً ، اعتقاداً منه بأن النمس لا يقل عن التمساح طيب مذاق ودسامة لحم .

« اتنا لا نرى أى بأس فى الاقبال على تناول هذا الطعام الجديد الذى عرفه محبو الأطعمة الفاخرة الأجانب منذ زمن طويل ، حتى لقد تنبأنا برواجه فى الماضى . ان اللوردات والسواح الانجليز قد أسروا فى مصر عدداً كبيراً من التماسيح ، وذاقوا ظهورها شرائح مشوية (بفتيك) مبتلةً بالخردل والبصل مع شئ من البطاطس .

« والفرنسيون الذى جاؤوا الى مصر مع فرديناند دى ليسبس يؤثرون

قوائم التماسيح على ظهورها ، ويشوون هذه القوائم فى الرماذ الساخن اغاظه للانجليز الذين يسخرون منهم ويتكمون عليهم • ومن الجائز جداً أن يتعلم الناس عندنا أن يخبوا اكل الظهور والقوائم جميعاً بدرجة واحدة ، وانه ليسرنا أن نرى نشوء هذا الفرع الجديد من فروع الصناعة الغذائية لاغناء وطننا الذى يبلغ هذا المبلغ من القوة والتنوع •

« وفى وسعنا أن نتبأ ، بعد هذا الهضم البطربرجى لأول تمساح ، فى وسعنا أن نتبأ بأنه لن تمر سنة واحدة الا وتستورد بلادنا من هذه التماسيح مئات ومئات • فلماذا لا نحاول أن نؤقلم التمساح فى روسيا ؟ اذا كان نهر نيفا باردا مسرفاً فى البرودة على هذه الحيوانات الهامة التى تنتجها انبلاد الأجنبية ، فان فى العاصمة مياها أخرى كثيرة ، عدا أن الأنهار والبحيرات فى خارج العاصمة لا تعوزنا البتة •

« ألا نستطيع مثلاً أن نعطى تربية التماسيح فى بارجولوفو أو فى بافلوفسك أو فى موسكو ، فى غدران بريسنا وفى ساموتوكا ؟ * ان التماسيح التى قد نربيتها فى هذه المواطن سوف تكون طعاماً لذيذاً وصحياً لأنفواه محبى المأكلى الفاخرة من جهة ، وسوف تكون من جهة أخرى بهجة كبيرة وتسلية عظيمة للسيدات اللواتى يتنزهن فى تلك الأماكن ، وسوف تكون فى الوقت نفسه أمثلةً عملية للتلاميذ فى دروس التاريخ الطبيعى •

« ومن جلودها سنصنع علباً وحقائب ومحافظ للسجائر ومحافظ للأوراق ؟ ان ملايين من الروبلات ، ان ملايين من تلك الأوراق المالية المتسخة التى يحبها التجار حباً عظيماً ، يمكن أن تكون كامنة فى جلد تمساح • وفى نيتنا ، على كل حال ، أن نمود الى معالجة هذه القضية الهامة ، مراراً وتكراراً • »

ان ما تشتمل عليه هذه المقالة من بعد عن الصحة ومخالفة اللواقم

قد سامنى كثيراً ، رغم أننى توقعت أن أقع فيها على شيء من ذلك • واذ لم أعرف من ذا الذى يمكننى أن أعبر له عن مشاعرى ، فقد التفت بصبرى نحو بروخور سافتش الجالس أمامى ، وفى تلك اللحظة انما أدركت أنه كان ينظر الىّ منذ مدة طويلة ولا شك ، ممسكاً بيده نسخة من جريدة « الشعرة » وكأنه يهم أن يناولنى اياها •

ويدون أن يقول كلمة واحدة تناول جريدة « الورقة » التى مدتها اليه ، وأعطانى جريدة « الشعرة » وهو يدلى بظفره على المقالة التى كان يريد أن يلفت إليها انتباهى • ان بروخور سافتش هذا انسان غريب عجيب • هو رجل متقدم فى السن لم يتزوج ، وليس بينه وبين أى واحد منا علاقات ، ولا يكاد يكلم أحداً من موظفى الدائرة • وان له دائماً ، فى أى أمر الأمور ، رأياً خاصاً ، ولكنه لا يطبق أن يفرض بهذا الرأى الى أى انسان • وهو يعيش وحيداً ، حتى لأكاد أقطع بأن أحداً منا لم يدخل بيته فى يوم من الأيام •

اليكم ما قرأته فى جريدة « الشعرة » ، فى الموضع الذى عينه لى
بإشارة من ظفره :

« يعلم الناس جميعاً أننا تقدميون وانسانيون ، وأتينا من هذه الناحية نستطيع أن ندعى بأننا نعدل أوروبا • ولكن مهما تكن جهود شعبنا ومهما تكن جهود جريدتنا ، فلا بد لنا من الاعتراف بأننا ما زلنا بعيدين عن أن نصبح « ناضجين » ، اذا جاز أن نقطع برأى فى هذا الموضوع على أساس حادثة مثيرة للحقن كان « الممر » مسرحها بالأمس ، وكنا قد تبنأنا بها دائماً •

« وصل الى بلادنا رجل أجنبى يملك تمساحاً ، وأخذ يعرض حيوانه فى « الممر » • تسارع فقول على الفور اتنا نبارك هذا الفرع الجديد من

فروع صناعة مفيدة ، وهو فرع ما يزال ينقص جذع وطننا القوى المتنوع .

« ولكن اليكم ما حدث : أمس ، في الساعة الرابعة والنصف ، وصل الى محل ذلك الرجل الأجنبي ، على حين فجأة ، رجلٌ سمين جداً قد أخذ السكر منه كل مأخذ ، فما ان دفع ثمن تذكرة الدخول ، حتى مضى يقتحم فم التمساح دون أن ينبّه أحداً ، فلم يملك التمساح الا أن يبتلعه ، ولو بدافع غريزة البقاء وحدها تحاشياً للاختناق . وما كاد الرجل المجهول يهوى في جوف التمساح حتى نام نوماً عميقاً .

« ولم تنفع لا صرخات صاحب التمساح ولا دموع أسرته المروعة . وعبثاً حاولوا تهديد السكران باستدعاء الشرطة ، فما من شيء أحدث في السكران أى أثر ، وكان السكران لا يزيد على أن يضحك مقهقهاً بوقاحة وهو في قرارة التمساح ، وعلى أن يحتج قائلاً انه سيغالب التمساح جلدًا بالسياط (هكذا) ، بينما كان الحيوان اللبون المسكين الذى اضطر الى بلع لقمة ضخمة كهذه اللقمة يذرف دموعاً غزيرة . وأصرّ الدخيل على أن لا يخرج .

« اننا لا نعرف كيف نُعلل وقائع تبلغ هذا المبلغ من التوحش والهمجية ، وتدل على أننا مانزال بعيدين عن النضج بعداً كبيراً * ، وتحط من قدرنا في نظر الأجانب . ان هذا الميل الى الجنون ، وهو جوهر خلقنا الروسى ، قد تجلّى في هذه الواقعة على أوضح نحو .

« ومن حق المرء أن يتساءل : ماذا يمكن أن تكون نية هذا الرجل المزعج ؟ أترأه كان ينشد مأوى دافئاً مريحاً ؟ ولكن أليست العاصمة ملاءى بالمنازل التى تضم مساكن مريحة بخسة الأجور ، مع ماء وغاز في السلالم ، وحرّاسها سويسريون ؟ ثم اننا نلفت نظر قرائنا الى القسوة

الشديدة التي تشتمل عليها معاملة كهذه المعاملة حيوان منزلي • ان القراء يعلمون أن من الصعب على هذا التماسح أن يهضم كتلة تبلغ هذا المبلغ من الضخامة • فالحيوان المسكين العائر الحظ قابع الآن في مكانه مهدم القوى منتفخ البطن ينتظر الموت وسط آلام مبرحة لا تطاق • ان المحاكم في أوروبا قد بدأت ، منذ زمان طويل ، بمحاكمة أولئك الذين يعاملون الحيوانات المنزلية معاملة خالية من الروح الانسانية • أما في بلادنا ، فرغم شيوع الاضاعة على الطريقة الأوروبية ، ورغم رصف الطرق على الطريقة الأوروبية ، ورغم بناء المنازل على الطريقة الأوروبية ، سينقضي وقت طويل قبل أن تقتص من الأشخاص الذين يرتكبون مثل هذه الأعمال الاجرامية •

• أصبحت المنازل جديدة ، ولكن أوهام العقول ما تزال عتيقة ! *

• بل هل المنازل جديدة حقاً ؟ اننا لا نستطيع أن نقول هذا دائماً عن سلالها ؟ فكم من مرة أشرنا في أعمدة هذه الجريدة الى القذارة المؤسفة الموجودة منذ أشهر على درجات السلم الخشبي من عمارة التاجر لوكيانوف الواقع على شارع بطرسبرجسكايا ، هذا السلم الذي هو هيكل متداع كان يشكل خطراً جدياً على الخادمة آفيميا سكاييداروفا ، التي تضطرها ضرورات عملها الى صعوده دائماً لتقل الماء والخطب الى فوق • وقد حدث ما تنبأنا به بالفعل ، حدث أمس ، في الساعة الثامنة والنصف من المساء ، حين سقطت آفيميا سكاييداروفا وهي تحمل صحيفة الحساء ، فانكسرت ساقها •

• ونحن تتساءل مع ذلك هل سيكون من شأن هذا الحادث أن يدفع لوكيانوف أخيراً الى أن يزم أمره على اصلاح سلم منزله ••• تتساءل هذا التساؤل لعلنا بأن الروسي رجل عنيد •

« وبانتظار ما سيحدث ، فانتا نعلم القارىء أن الخادمة التي كانت
ضحية هذا الاهمال الروسى قد نُقلت الى المستشفى . »

« ولن نملّ كذلك من أن نكرر ما سبق أن قلناه مراراً من أن على
البوابين ، حين يزيمون الثلج عن أرصفة شارع فيبورجسكايا ، أن
يتخذوا بعض الاحتياطات تحاشياً لتلويث أحذية المارة بالطين . لماذا
لا يكوّمون الثلج أكداً صغيراً ، كما يفعل الناس فى أوروبا ؟ ...
الخ ، الخ ، الخ ... »

نظرت الى بروخور سافتش مندهشاً بعض الاندهاش وسألته :

- ما هذا الكلام ؟

- أى كلام ؟

- عجيب ! يشفقون على التمساح بدلاً من أن يرنوا لحال ايفان
ماتفتش !

- سيان أن تكون الشفقة على هذا « الحيوان اللبون » أو على ذاك !
فانما المهم أن يشفقوا ! أليس هذا على الطريقة الأوروبية ؟ ان الناس فى
أوروبا يشفقون على التماسيح أيضاً ! هى .. هى .. هى ! ...

قال بروخور سافتش العجيب هذا الكلام ، ثم استغرق فى أورافه
ولم ينطق بعد ذلك بكلمة .

وضعت جريدة « الشعرة » فى جيبي ، وجمعت مئونة من الجرائد
لصاحبي المسكين ايفان ماتفتش ، ثم خرجت من الدائرة رغم أن موعد
الخروج ما يزال بعيداً ، وذهبت الى « المر » لأعرف ما يجرى فيه ولو
من بعيد ، ولأجمع مختلف الآراء .

واذ كنت أُنَبِّأُ أن يكون الزحام هنالك شديداً حتى ليكاد الناس
يدوس بعضهم بعضاً ، فقد رفعت ياقة معطفي من قيل التخفي ، لأنني
كنت أشعر بشيء من الحجل لا أدري لماذا ، فنحن أناس لما نألف كثرة
الكلام عنا •

ولكنني أشعر أنني ليس من حقني أن أذكر احساساتي الخاصة ،
المتذلة ، الحالية من الشعر ، تجاه حادث يبلغ هذا المبلغ من البروز
والتفرد •

حواش

صفحة

- ٥ * لا بد من الإشارة الى أن كلمة «القبو» هنا يجب أن تفهم على المجاز لا على الحقيقة ، فإن بطل هذه القصة لا يسكن قبوا ، وإنما هو يسكن غرفة نائية في أقصى المدينة ، كما يتضح ذلك من سياق القصة : هذا الى أن كلمة podpolie الروسية لا تعنى طابق القبو في العبارات المتعددة الطوابق في أيامنا هذه ، وإنما تعنى المكان الذي يقع تحت الأرض الخشبية في بيت مبني من خشب ، وفي ذلك المكان انما تختبئ الفئران في العادة متخنة فيه أوكارها أو جحورها ، وفي هذا تفسير لما يعمد اليه بطل القصة من تشبيه نفسه بالفار . ومهما يكن من أمر فإن كلمة القبو هنا بمعناها المجازي انما ترمز الى الخفاء الذي تمتص به النفس مع أفكارها المستسرة وخواطرها المختبئة .
- ٢٨ * «كل ما هو جميل ورائع» : تعبير مستمد من الفيلسوف الالماني الشهير «كانت» الذي كان يستشهد به الفلاسفة المثاليون الروس كثيرا .
- ٣٢ * « رجل الطبيعة والحقيقة » : الإشارة هنا الى جان جاك روسو .
- ٣٥ * « فإذا برهن لكم مثلا على أنكم من سلالة القرود » : في عام ١٨٦٤ نفسه انما ترجم الى اللغة الروسية كتاب تشارلس دارون «أصل الأنواع بالاصطفاء الطبيعي» الذي صدر سنة ١٨٥٩ ؛ وقد تناولت الصحافة الروسية هذا الكتاب بتعليقات حادة .
- ٣٧ * « فاجنهايم » : كان يوجد في بطرسبرج في ذلك الوقت طبيبان من أطباء الاسنان يسميان كلاهما فاجنهايم .
- ٤٥ * « لوحة جديرة بالرسام جي » : يتذكر المؤلف هنا لوحة الرسام الروسي الشهير نيكولا جي ، « القديسة سينا » ، وهي لوحة

صفحة

- تنتهى الى المدرسة الواقعية عرضت سنة ١٨٦٣ ، وسيتحدث عنها المؤلف فى « يوميات كاتب » .
- ٤٥ * « كما يروق لكل انسان » : الاشارة هنا الى مقالة كتبها تشرنيشفسكى بهذا العنوان ونشرتها مجلة « المعاصر » ، العدد ٧ من سنة ١٨٦٣ .
- ٤٦ * « سيجد فى الخير منفعة » : عرض تشرنيشفسكى هذه النظرية التى تنتمى الى المذهب النفعى فى مقالة بعنوان « المذهب الانثربولوجى فى الفلسفة » ، وقد نشرت المقالة سنة ١٨٦٠ .
- ٤٩ * هو هنرى توماس باكل (١٨٢١ - ١٨٦٢) الذى عرض هذه النظرية عن لتقدم فى كتابه الشهير « تاريخ الحضارة فى انجلترا » ، الذى ترجم الى الروسية بين عامى ١٨٦٤ و ١٨٦٦ .
- ٤٩ * الاشارة هنا الى حرب الانفصال .
- ٤٩ * الاشارة هنا الى الحرب التى شنتها بروسيا والنمسا على الدانمارك سنة ١٨٦٤ للاستيلاء على هذه الدوقيات الصغيرة .
- ٥٠ * « ستنكا (ستيبان) رازين » : رئيس العصيان الكبير الذى قام به القوقازيون والفلاحون بين ١٦٦٩ - ١٦٧١ ؛ وهو رجل جهور قاس .
- ٥١ * « قصر كبير من الكريستال » : يشير دوستويفسكى الى رواية تشرنيشفسكى « ما العمل ؟ » (١٨٦٤) . ففي الحلم الذى تراه بطلة الرواية تبدو الاشتراكية عصرا يسوده « ربيع دائم » و « فرح دائم » ، ويبنى فيه « قصر من حديد وكريستال » .
- ٥٧ * هو آى . آنايفسكى ، كاتب عجيب الخيال مهووس الطبع ضئيل الموهبة كان النقاد يسخرون منه ويتهمون عليه .
- ٦٢ * « للحوانات الداجنة » : بالفرنسية فى الاصل .
- ٧٤ * هذه الابيات هى بداية قصيدة من نظم نكراسوف (١٨٤٦) يخاطب بها الشاعر فتاة سقطت ثم بعثها هو بحبه .

صفحة

- ٧٩ * « كونسنا نجوجلو » : شخصية تتحلّى بالفضيلة ، تظهر في الجزء الثاني من كتاب جوجول « النفوس الميتة » .
« بطرس ايفانوفتش » : شخصية تتحلّى بالفضيلة أيضا من شخصيات كتاب جونتشاروف « قصة بسيطة » .
- ٨٠ * « ملك اسبانيا » : ان بطل قصة جوجول « يوميات مجنون » يعتقد أنه ملك اسبانيا .
- ١٣٦ * « سيلفيو » : بطل قصة بوشكين « طلقة الرصاص » (١٨٣٠) .
و « الحفلة التكرية » : مسرحية للشاعر ليرمونتوف (١٨٣٥) .
والحوادث في هذين العملين الادبيين تدور على مبارزة .
- ١٤٣ * « ميدان سيبينايا » : يقع هذا الميدان في حى فقير من العاصمة : وكانت تحيط به فنادق ومنازل سيئة السمعة .
- ١٤٤ * تقع مقبرة فولكوفو في جنوب سان بطرسبرج بمنطقة مليئة بالمستنقعات .
- ١٧٤ * آخر بيت من قصيدة نكراسوف التي أورد المؤلف مطلعها في الصفحة ٨٧
- ١٩٤ * « بطرسبورجسكايا ستورونا » (حى بطرسبرج) : يقع هذا الحى على الضفة اليمنى من نهر نيفا وراء قلعة بطرس وبولس .
وهنا انما انشأ بطرس الأكبر عاصمته التي انتقل مركزها بعد ذلك الى الضفة اليسرى ، وظل هذا الحى أكثر تواضعا وأقل سكانا .
- ٢١٠ * « الخمر الجديدة فى زقاق جديدة » : جاء فى انجيل مرقس من أقوال المسيح (الاصحاح الثانى ، ٢٢) : « وليس أحد يجعل خمرًا جديدة فى زقاق عتيقة ، لئلا تشق الخمر الجديدة الزقاق فالخمر تنصب والزقاق تتلف . بل يجعلون خمرًا جديدة فى زقاق جديدة » .
- ٢١٧ * « بسلدونيموف ، ماميفروف » : فى القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر كان يسمى أبناء الكهنة ، منذ دخولهم

صفحة

الكهنوت ، بأسماء جديدة مشتقة من كلمات يونانية أو لاتينية،
كقولهم أنفيتياتروف . وقد صنع المؤلف على هذا القياس اسمي
بسودونيموف و ماميفروف .

٢٢٠ * من أجل أن يصف دوستويفسكى الاضطراب الشديد لشامل،
فانه يستعمل اسم اللوحة التي رسمها الرسام برولوف « آخر
أيام بومبئي » .

٢٤٣ * « كاستنكينتش » : النطق العامي لاسم كونستانتينتش .

٢٤٣ * « مفتاح الأحلام » : كتاب تهكمي مؤلفه ن.ف. شتريينا ،
كانت تتناقله الأيدي في ذلك الوقت مخطوطا .

٢٤٣ * ايفان بانايف (١٨١٢ - ١٨٦٢) : مؤلف روائي ورجل من رجال
المجتمع كان منذ ١٨٤٧ مديرا لمجلة « المعاصر » .

٢٤٤ * أندره كرايفسكى (١٨١٠ - ١٨٨٩) : ناشر بارع كان يصدر
مجلات شتى ، ولكنه ضئيل الحظ من الثقافة ؛ وقد شرع سنة
١٨٦١ في نشر « المعجم الموسوعي » بمعاونة الحكومة ، فآثار
ذلك احتجاج الأدباء . واما الفراكى فهو تاجر كبير كان عضوا
في هيئة تحرير مجلة « المزارع » سنة ١٨٥٩ .

٢٤٤ * جريدة « جولوفشكا » : اسم تهكمي يطلقه دوستويفسكى على
جريدة ساخرة راديكالية اسمها « الشرارة » .

٣٠٠ * مسز آن رادكليف (١٧٦٤ - ١٨٢٣) ، كاتبة روائية انجليزية
راجت رواياتها المربعة راجا كبيرا في أوروبا كلها . وقد
ترجمت كتبها الى الروسية ، في عهد الكسندر الاول ، أكثر
مما ترجمت مؤلفات أى كاتب آخر .

٣٠٠ * « بلاد العجائب المقدسة » : مطلع قصيدة تدعو الى السلافية
للشاعر الكسى ستيبانوفتش خومياكوف (١٨٠٤ - ١٨٦٠) ،
عنوانها « أحلام » (١٨٤٣) ، وفيها يقول :

لشد ما يحزننى أن أرى الظلمات

تلف القرب البعيد

« بلاد العجائب المقدسة » •

- ٣٠١ ★ « شارع أشجار الزيزفون » : شارع رئيسى فى برلين •
- ٣٠١ ★ ان صور الجدران فى متحف برلين ، للرسم فلهم فون كاولباخ (١٨٠٥ - ١٨٧٨) ، كانت تجذب الاهتمام بجديتها وطرافتها •
- ٣٠٢ ★ فزيفلود فلاديميروفتش كرسنوفسكى (١٨٤٠ - ١٨٩٥) :
ان هذا الشاعر الذى سيتخصص فى الروايات الخفيفة كان قد
بدأ حياته الادبية بقصائد غزلية جنسية جمعت فى ديوان سنة
١٨٦٢ •
- ٣٠٢ ★ يعرف القارئ أن دوستويفسكى قد تخرج مهندسا معماريا من
« المدرسة العسكرية للهندسة » •
- ٣٠٢ ★ نيكولا ميخائيلوفتش كارامازين (١٧٦٦ - ١٨٢٦) : شاعر
وروائى ومؤرخ ، هو الذى أدخل «العاطفية» الى روسيا • ويعد
كتابه «رسائل مسافر» أثرا أدبيا جميلا • ويشير دوستويفسكى
هنا الى فقرة وردت فى رسالة مؤرخة من ايجليزو فى ١٤ آب
(أغسطس) ١٧٨٩ ، وفيها يقول كارامازين : «ابتهجت ابتهاجا
عظيما وكدت أركع مستغفرا نهر الراين أننى تكلمت أمس عن
شلاله بقليل جدا من الاحترام »
- ٣٠٧ ★ هو دينيس ايفانوفتش فونفيزين (١٧٤٤ - ١٧٩٢) ، الخالق
الحقيقى للكوميديا الروسية الحديثة • أحسن آثاره مسرحية
« البريجادير » التى لقيت نجاحا عظيما • وقد قام سنة ١٧٧٨
برحلة الى فرنسا لاستشارة الأطباء بمدينة موبيليه ، فأرسل
الى أصدقائه من ليون وموبيليه وباريس رسائل تشتمل على
تفاصيل شائقة ، ولكنها تدل فى الوقت نفسه على كره شديد
للفرنسيين ، مع أنه قد ظل طول حياته يترجم أو يقلد (كما
يقول بعضهم) هؤلاء الفرنسيين الذين شهر بهم ذلك التشهير •

صفحة

والجملة التي يوردها دوستوفسكى توجد فى الرسالة الرابعة والستين الذى أرسلها من إيكس لاشابيل فى شهر ايلول (سبتمبر) ١٧٧٨ الى الجنرال الكونت بطرس ايفانوفتش بانين، وهذا نصها الدقيق : « الفرنسى محروم من العقل ، ولو وتى عقلا لعد ذلك أكبر شقاء ، لأن العقل سيضطره الى التفكير ، بينما هو يستطيع أن يتسلى » .

٣٠٧ * بيساريون جريجوريفتش بيلنسكى (١٨١١ - ١٨٤٨) : ناقد شهير ، كان يمجّد الغرب ويدعو الى الاقتداء بالغرب ، ولا سيما فى أواخر حياته .

٣٠٨ * بطرس ياكوفلفتش تشاداييف (١٧٩٤ - ١٨٥٦) : كُتب باللغة الفرنسية كتابا بعنوان « رسائل فلسفية » ، وفيه بلغ من التهكم على « الفكرة الروسية » أن نيكولا الأول اعتقد أن من المستحسن أن يعد مصابا بلوثة عقلية . والحق أن دعاة « النزعة الغربية » قد بالغوا مبالغات لعلهم لم يؤمنوا بها فى يوم من الايام ، ولعل خصومهم لم يقلوا عنهم غلوا كذلك .

٣٠٨ * آيدتكونن محطة حدود بروسية على خط برلين - بطرسبرج .

٣٠٩ * ان بيلوبياتكين هو بطل قصة كتبها ابان شبابه الشاعر نيكولا الكسيفتش نكراسوف (١٨٢١ - ١٨٧٨) ، وعنوانها : « الثرثار ، يوميات آى . بيلوبياتكين ، مواطن بطرسبرج » ، وهى نوع من السرد لوقائع كتبها المؤلف شعرا مقفى . وهذا هو المقطع الذى يشير اليه دوستوفسكى :

ما دمت أشعر بحماسة شعرية

تشب فى نفسى

قلعونى أرسم لكم صورتى

مستمدة من حياتى .

كنت فى الماضى شديد العماقة

أحلم مثلكم تماما ،

وأخلق فى الأثير

و « أحب ان أهرب الى سويسرا »
ولكن صانع قدرى
ضربنى بعصاه ضربات كبيرة
فاسقطنى من الأثر
واجلسنى وراء مكتب .

٣١٠ * ان مربية بوشكين هذه قد أطلعت على الفولكلور الروسى ،
فساهمت كثيرا فى تنمية عاطفته القومية الشعبية . فبفضل
هذا الاتصال الاول بأرض الوطن انما استطاع بوشكين الذى
ربى على الطريقة الفرنسية والذى يعترف بأنه يجيد استعمال
اللغة الفرنسية أكثر من اللغة الروسية ، أن يتحرر شيئا
فشيئا من التأثيرات الاجنبية حتى أصبح أكثر الشعراء الروس
تمثيلا للقومية الروسية .

٣١٠ * اشارة الى قصة الشاعر بوشكين « بنت الضابط » (١٨٣٦) ،
التي كان يطلبها المتمرذ القوزاقى الشهير بوجاتشيف .

٣١٠ * اشارة الى كتاب بوشكين « أقاصيص المرحوم ايفان بتروفتش
بيلكين » (١٨٣١) التي نسبها بوشكين الى رجل من صفار
مالكى الاطيان .

٣١٠ * اشارة الى رواية بوشكين « أوجين أوجنين » (١٨٢٤ - ١٨٢٨) ،
وهى رواية كتبها بوشكين شعرا وفيها يصف الشاعر تقاليد
الارستقراطية الروسية وصفا ساخرا .

٣١٠ * سيعدد دوستويفسكى فى الفصل التالى بعض هذه الغرائب التي
تعلق بها أهل موسكو ، ولا سيما طريقة قص الذقن ، وكذلك
ما زعم بعضهم أنه «لباس قومى» . فان هذه الغرائب قد أساء
بها «دعاة السلافية» الى عقيدتهم مهما يكن حسن نياتهم .

٣١٢ * دام « المعرض العام » بلندن من أول أيار (مايو) الى أول تشرين
الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٦٢ .

٣١٤ * « كوكوشنيك » : قماش مطرز مزدان بلآلى يوضع على الرأس
جزءا من اللباس القومى القسديم الذى كانت تلبسه النساء

ملحوظة

٣١٤ * لعل دوستوفسكى يشير هنا الى كونستانتان سيرجيفتش
أكسكوف (١٨١٧ - ١٨٦٠) الذى كان من غلاة «السلافية» ،
وقد أخذ عليه تورجنيف هذا الشذوذ فى كتابه « مذكرات
صياد » .

٣١٥ * كان ميشيل الجرافوفتش سالتيكوف (١٨٢٦ - ١٨٨٩) ،
وهو روائى روسى ساخر ، قد نشر فى سنتى ١٨٥٦ و ١٨٥٧
كتاباه « صور من الأرياف » ، باسم مستعار هو اسم شتدرين
الذى أصبح اسما شهيرا .

٣١٦ * جريجورى الكسندروفتش بوتيومكين، أمير توريد ، أثير كاترين
الثانية الشهير (١٧٣٥ - ١٧٩١) . ولعل العبارة التى يوردها
دوستوفسكى هنا « مت يا دنيس ، فلن نكتب شيئا خيرا من
هذا » قد أفلتت منه أثناء العرض الاول لمسرحية « لبريجادير » .

٣١٧ * يروى دوستوفسكى هنا عن الذاكرة بيتين من قصيدة مشهورة
للشاعر جابرييل رومانوفتش دريافين (١٧٤٣ - ١٨١٦)
بمعنوا « الاستيلاء على فارصوفيا » (١٧٩٤) . وفى تلك
القصيدة يقول الشاعر عن سنوفروف :

يقف على الجبال فتتشق الجبال

ويقف على المياه فتغل المياه .

إذا لمس مدينة تهدمت المدينة .

وبينه يقلب الأبراج فتخترق الأبراج السحاب .

الطبيعة ترتعش وتصلر خوفا منه .

أعواد القصب وحدها يراف بها .

٣١٨ * « كوزما بروتكوف » : نموذج موظف من ابتكار الشاعر الكسى
كونستانتينوفتش تولستوى (١٨١٧ - ١٨٧٥) وقريبه
الكسى وفلاديمير يمتشوينيكوف . لقد نشروا بهذا الاسم
المستعار تقليدات هزلية لشعراء معاصرين . أما «دثتر جدى»
الذى دسوه فى مجلة « المعاصر » التى يصدرها باناييف
ونكراسوف ، فقد نسبوه الى جد كوزما بروتكوف ، الميجر

صفحة

فيدوت كوزمتش بروتكوف . وقد ضم هذا « الدفتر » سبع
عشرة حكاية أو نادرة . والنادرة التي يرويها دوستويفسكى
هى الثالثة فى المجموعة .

٣٢٠ * بيت من قصيدة للشاعر ليرمونتوف (١٨١٤ - ١٨٤١) عنوانها
« تأمل » (١٨٤٠) .

٣٢٠ * من مسرحية للشاعر جريبويدوف عنوانها « كثير من الذكاء
ضرر » ، الفصل الثانى ، المشهد الثانى .

٣٢٣ * الكابتن كوبشكين الذى يتحدث عنه جوجول فى كتابه « النفوس
الميتة » ، الجزء الأول ، الفصل العاشر .

٣٢٥ * بازاروف ، كوكشيننا: شخصيتان من شخصيات كتاب تورجنيف
« الآباء والأبناء » الذى صدر سنة ١٨٦١ وأثار مساجلات
عنيقة .

٣٢٩ * تشاتسكى : الشخصية الرئيسية فى المسرحية الهزلية الشهيرة
التي كتبها الكسندر سرجيفتش جريبويدوف (١٧٩٥ - ١٨٢٩)
وعنوانها « كثير من الذكاء ضرر » (نشرت سنة ١٨٣٣) . وجميع
الأسماء التي سيجيء ذكرها بعد ذلك هى أسماء شخصيات فى
هذه المسرحية . وان شخصية مولتسالىن هى نموذج الموظف
الوصولي . والشعر المذكور : « ملاذا للعاطفة الجريحة المهانة » ،
مستمد من المشهد الختامى لهذه المسرحية (الفصل الخامس ،
المشهد الرابع عشر) .

٣٢٩ * « السامودور » : تعنى هذه الكلمة شخصا مزهواً بنفسه رغم
أنه محدود العقل غبي العناد . وقد راجت هذه الكلمة بفضل
المؤلف المسرحي الكسندر نيكولايفتش أوستروفسكى (١٨٢٣ -
١٨٨٦) الذى تزخر مسرحياته بنماذج « للسامودور » أسرة
أخاذة .

٣٣٠ * ريبتلوف ، سكالوزوبوف ، فاموسوف ، خلستوف ، مولتسالىن :
شخصيات من مسرحية جريبويدوف الأنف ذكرها .

صفحة

- ٣٣١ * كلمة المؤرخ والناقد نيكولا ألكسييفتش بولفوى (١٧٩٦-١٨٤٦)، ونصها الدقيق ما يلى : « أنا أعرف روسيا وأحب روسيا ، وروسيا تعرفنى وتحبنى » ، وقد جلبت هذه الكلمة لقاتلها سخريات معاصريه ، ولا سيما بيلنسكى .
- ٣٤٨ * من نصين فى رؤيا يوحنا (الاصحاح السابع ، ٩ : والاصحاح السادس ، ١٠) ، وقد كان دوستويفسكى يكثر من قراءة هذا السفر .
- ٣٥٧ * «الزوجة والزوج وعشيق الزوجة»، رواية من تأليف بولدوكوك ترجمت الى الروسية سنة ١٨٣٣ .
- ٣٦٦ * انجيل متى (الاصحاح السادس ، ٣٣) .
- ٣٦٧ * « كل واحد للجميع ، والجميع لكل واحد » : هذا هو الشعار الذى زين به اتيين كابيه كتابه الشهير « رحلة الى ايكاريا » (١٨٤٠) . وفى عام ١٨٤٩ أنشأ كابيه فى تكساس وحدة انتاجية اشتراكية على مبادئ فورييه ، ثم انقرضت ادارتها منه بعد منازعات كثيرة ودعوى مدوية .
- والكؤمونة الثانية التى قامت على مبادئ فورييه أنشأها سنة ١٨٥٣ فى تكساس فكتور كونسيدران .
- ٣٦٨ * «أيام حزيان» : اشارة الى ثورة العمال من ٢٣ الى ٢٦ حزيان (يولية) سنة ١٨٤٨ ، وهى الثورة التى سحقها جافينييك .
- ٣٧٠ * بعد اخفاق حملة غاريبالدى على روما ، هزمه الجيش الملكى فى أسبرومونت فى التاسع والعشرين من شهر آب (أغسطس) ١٨٦٢ (ان هذا التاريخ يسمح لنا بتحديد فترة رحلة دوستويفسكى) .
- ٣٧١ * ترأس غاريبالدى الحكومة الثورية فى نابولى منذ السابع من شهر ايلول (سبتمبر) حتى الثانى من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٦٠ .
- ٣٧٦ * الاشارة هنا الى الثورة الفرنسية .

- صفحة**
- ٣٧٧ ★ الأمير جيروم نابوليون بوناپرت (١٨٢٢ - ١٨٩١) ، قريب نابوليون الثالث ، كان عضوا بمجلس الشيوخ .
- ٣٧٩ ★ « جول فافر » (١٨٠٩ - ١٨٨٠) : محام وسياسي ، عضو في الهيئة التشريعية منذ سنة ١٨٥٨
- ٣٨٠ ★ « رجل الطبيعة والحقيقة » : استشهدا غير دقيق بعبارة واردة في كتاب روسو « الاعترافات » ، وفيها يقول جان جاك : « أريد أن أرى أقراني البشر رجلا تظهر فيه كل حقيقة الطبيعة . وهذا الرجل هو أنا » .
- ٣٩٥ ★ يستوحى دوستويفسكي كلامه في هذه الصفحات من ملهاة ألفها اميل أوجييه بعنوان « السيد جيران » .
- ٤٠٣ ★ كان « الممر » بمدينة بطرسبرج يضم متاجر ، ويضم كذلك قاعات للموسيقى والمحاضرات والمعارض .
- ٤١٠ ★ « بطرس لافروف » (١٨٢٣ - ١٩٠٠) : ناقد وضعي ألقى سنة ١٨٦٠ ثلاث محاضرات عن « أهمية الفلسفة الحديثة » .
- ٤١٠ ★ نيكولا ستيبانوف (١٨٠٧ - ١٨٧٧) : هو رسام كاريكاتوري ، ومحرر في جرائد هجائية مثل جريدة « الشرارة » وجريدة « البقطة » .
- ٤١٧ ★ يستهدف دوستويفسكي هنا جريدة « رسول سان بطرسبرج » التي كان يصدرها ف.ف. كورش ؛ وجريدة « الصوت » التي كان يصدرها كرايفسكي ، مستفيدا من التشابه اللفظي بين الكلمتين الروسيتين Golos (ومعناها الصوت) و Volos (ومعناها الشعرة) .
- ٤٢٤ ★ « التملك الجماعي » : أوجب قانون الإصلاح الزراعي الصادر سنة ١٨٦١ أن لا تكون الأرض التي يفلحها الأقنان ملكا لهم ، وإنما تقسمها بينهم الجماعة الفلاحية التي تتصرف فيها تصرف المالك . وهذا النظام البدائي من التملك الجماعي قد تحمس له أنصار السلافية وتحمس له جزء من الاشتراكيين ، وهاجما الاقتصاديون الليبراليون مهاجمة عنيفة .

- صفحة
- ٤٢٦ ★ « ابن الوطن » : جريدة لبرالية ظهرت منذ ١٨٦٤
- ٤٣٦ ★ « جارئيه باجيس » : (١٨٠٨ - ١٨٧٨) : جمهوري ، عضو في الحكومة المؤقتة سنة ١٨٤٨ ، عضو في الهيئة التشريعية منذ عام ١٨٦٤ .
- ٤٣٦ ★ « آندره كرايفسكي » (١٨١٠ - ١٨٨٩) : ناشر بارع كان يصدر عدة مجلات ، ولكنه ليس على حظ كبير من الثقافة ؛ شرع سنة ١٨٦١ في إصدار « معجم موسوعي » بمعاونة الحكومة ، فأثار ذلك احتجاج الادباء .
- ٤٣٦ ★ « آندره الكسندروفتش » : هو آندره كرايفسكي نفسه الذي تحدثنا عنه في الحاشية السابقة ، والذي كان قليل الحظ من الثقافة ، ولا يمكن أن يشبه بالكاتب والشاعر الفرنسي الفرد دو موسيه ، بوجه من الوجوه .
- ٤٣٦ ★ « أوجيني تور » : هو الاسم الأدبي المستعار للكونتيسة سالياس دو تورنير ، التي كان اسمها سوخوفو - كوبيلين (١٨١٥ - ١٨٩٢) ، وهي أديبة روسية ، روائية وناقدة .
- ٤٤٣ ★ « ان المتوحشين يحبون الاستقلال ، ولكن الحكماء الحقيقيين يحبون النظام قبل كل شيء » : استشهاد غير دقيق بجملة وردت في قصة لكاراتامازين عنوانها «مارتا الحاكمة» نشرت سنة ١٨٠٢ ، وهي تصف زوال استقلال فوفوجورود على يد المستبد حنا الثالث ، وأصل الجملة ما يلي : « الشعوب المتوحشة تحب الاستقلال ، أما الشعوب الحكيمة فانها تحب النظام ، ولا نظام بدون سلطة مستبدة » .
- ٤٥٦ ★ « الصحيفة » : اشارة الى «صحيفة سان بطرسبرج» .
- ٤٥٦ ★ « مطعم بوريل » : مطعم من أشهر مطاعم سان بطرسبرج ، وكان صاحبه رجلا سويسريا .
- ٤٥٧ ★ « بارجولوفو ، بافلوفسك » : من أماكن الاصطياف قرب سان بطرسبرج . أما «غدران بريسناء» فهي توجد في ضاحية تقع في الجنوب الغربي من موسكو ؛ وأما «ساموتيوكا» ،

صفحة

فجدول ماء بمدينة موسكو يجرى فى أنبوب ويفطيه بلاط • ان
سخرية ها هنا واضحة •

★ ٤٥٩ « ما نزال بعيدين عن النضج بعدا كبيرا » : جملة للاقتصادي
لامانسكى فى خطاب ألقاه سنة ١٨٥٩ ، وقد راجت هذه الجملة
وجرت بها ألسن الناس كثيرا •

★ ٤٦٠ « أصبحت المنازل جديدة ولكن أوهام العقول ما تزال عتيقة » :
جواب تشاتسكى فى مسرحية جريبويدف الشهيرة « كثير من
الذكاء ضرر » •

فهریس

٥	تقديم
١٩	فی قبوی
٧٤	بمناسبة الثلج الدائب
١٩٩	قصة الیمة
٢٩٧	ذکریات شتاء عن مشاعر صیف
٢٩٩	الفصل الأول - بمثابة مقدمة
٣٠٧	الفصل الثاني - فی القطار
٣١٣	الفصل الثالث - أمور نافلة تماما
٣٣٤	الفصل الرابع - أمور غیر نافلة بالنسبة الى مسافرين
٣٤٣	الفصل الخامس - « بعل »
٣٥٥	الفصل السادس - بحث فی البورجوازی
٣٧٠	الفصل السابع - تنمة ما سبق
٣٨٦	الفصل الثامن - «حبیبی» و «غزالتی»
٤٠١	التمساح
٤٦٥	حواش

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

الفقراء

المثل

قلب ضعيف

المجلد الثاني

نيوتشكانزفانوفنا

الليالي البيضاء

بروخارستين

الجارة

المهرج

السارق الشريف

البطل الصغير

قصة في سبع رسائل

شجرة عيد الميلاد والزواج

زوجة آخر، وزجل تحت السرير

المجلد الثالث

قرية ستيبانتشيكوفوسكانها

حلم العم

المجلد الرابع

مذلولون مهانون

المجلد الخامس

ذكريات من منزل الأموات

المجلد السادس

في قبوي

قصة اليمه

ذكريات شتاء عن مشاعر صيف

التمساح

المجلد السابع

المقامر

الزوج الأبدي

المجلد الثامن

الجريمة والعقاب - ١.

المجلد التاسع

الجريمة والعقاب - ٢.

المجلد العاشر

الأنبله - ١.

المجلد الحادي عشر

الأنبله - ٢.

المجلد الثاني عشر

الشياطين - ١.

المجلد الثالث عشر

الشياطين - ٢.

المجلد الرابع عشر

المرامق - ١.

المجلد الخامس عشر

المرامق - ٢.

قصص

المجلد السادس عشر

الأخوة كارامازوف - ١.

المجلد السابع عشر

الأخوة كارامازوف - ٢.

المجلد الثامن عشر

الأخوة كارامازوف - ٣.

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثروا
لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء"
والمذللين المبائين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقا
أخذ بعضهم يشهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن
النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية التي يمكن أن
توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار
النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائدا
سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد
وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ،
مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."
ألكسندر في سرلوفيف